المنهج التربوي للسيرة النبوية

١

التربية الجهادية

د. منير الغضبان

الجزء الأول

دار الوفاء

المنهج التربوى للسيرة النبوية

التربية الجهادية

الطبعة السادسة

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م



الزرقاء ـ الأردن ـ ص.ب ٨٤٢ ☎ ٩٨٣٦٥٩٠



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت ٠٥٠٢٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت: ٢٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

المنهج التربوى للسيرة النبوية

التربية الجهادية

الجزء الأول

منير محمد الغضبان

مكتبة المنار

دار الوفاء


بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى البحث

لماذا

المنهج التربوى للسيرة النبوية ؟

من المنهج الحركى للسيرة النبوية إلى المنهج التربوى للسيرة النبوية .

لقد كان « الحدث » هو هدف الدراسة فى المنهج الحركى .

أما هنا فـ « الإنسان » هو هدف الدراسة فى المنهج التربوى .

ومهمة هذا البحث فى جميع حلقاته أن يجيب على السؤال المهم :

« كيف ؟ »

كيف تمت تربية الجيل الأول ، حتى غدا خير القرون من جهة ، وغدا المثال المحتذى من جهة ثانية ، فحقق الله تعالى به موعوده ، فى أحسن صورة وأكملها وكأنما صنع كله على عين الله ، يرعاه سيد ولد آدم ، وإمام المربين فى الوجود محمد رسول الله ﷺ .

والجانب الذى يتناوله الكتاب فى أجزائه التى ستصدر تباعاً إن شاء الله هو : (التربية الجهادية) .

ولقد حدثنا الشهيد سيد قطب فى كتابه المعالم عن « جيل قرآنى فريد » ووضع به معلماً من معالم الطريق .

وأضيف إلى عنوان سيد رحمه الله كلمة واحدة فقط ، فأقول : « جيل قرآنى نبوى فريد » .

فلا شك أن الوحى هو الذى كان يربى هذا الجيل ، الوحى بفرعيه القرآن والسنة :

﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾ (1) .

لكن يجب ألا ننسى أن المشرف على تربية هذا الجيل هو خيرة الله من خلقه ،

---

(1) النجم ٣ ، ٤ .

وصفوته من رسله وسيد الثقلين الجن والإنس محمد رسول الله صلوات الله عليه .

وإذا كانت عناصر التربية ثلاثة : المربى والمنهج والعنصر المتلقى للتربية ، فلا شك أن المنهج الأعظم فى هذا الوجود هو كتاب الله تعالى .

ولاشك أن المربى الأعظم فى هذا الوجود هو رسول الله ﷺ .

والعنصر المتلقى للتربية ـ هو الذى تمت صياغته ، وهو الذى يمكن أن يكرر فى كل جيل ، ولكن ضمن حدود .

فما هى هذه الحدود ؟

المنهج لم يتغير ، كتاب الله .

لكنا فقدنا شخص رسول الله ﷺ ، وفقدنا معه قضية « الصحبة » كذلك .

ومن أجل ذلك لن يصل إلى شأن الصحابة أحد .

« دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهبا ما بلغتم أعمالهم » أحمد .

وصار الصحابة « كلهم عدول » وهم القمة العليا للخيرية فى الأمة .

وبقى سؤال يتكرر : هل هذا الكلام إحباط للعاملين للإسلام ؟ فلن نستطيع أن نعيد ذلك الجيل ؛ لأن شخص رسول الله ﷺ قد غاب من بين أظهرنا .

وأقول : (نعم) و (لا) فى وقت واحد .

نعم لن نستطيع أن نعيد ذلك الجيل ؛ لأننا لا نملك مربيًا فى هذا الوجود مثل رسول الله صلوات الله عليه وما ملكت البشرية قبله مثله ، ولن تملك بعده مثله .

وأقول (لا) ، فنحن قادرون على أن ننسج على منواله ، قريباً منه ؛ لأننا نملك منهج التربية نفسه ، نملك السيرة النبوية التى نقلت لنا طريقة تربية هذا الجيل ، وكيف أقام بناءه رسول الله صلوات الله عليه .

لكن هذا المنهج مفردات متنوعة وأحداث متناثرة .

والمهمة هنا هو ربط هذه اللبنات المتنوعة والأحجار المتناثرة ؛ لتظهر عملية البناء من

جديد ، ومن أجل هذا كلفنا بالاتباع ، وجاء (المتابعون) بعد الصحابة فى جيلهم الجديد يبنون على الطراز الأول ، ولم تقف هذه التبعية عند جيل واحد إنما هى ماضية إلى يوم القيامة .

وأود أن أقف قليلاً عند الخيرية فى هذه الأمة :

« خير كم قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يُستشهدون ، ويخونون ولايؤتمنون ، وينذرون ولا يُوفون ، ويظهر فيهم السِّمَن » متفق عليه .

فمعنى الحديث يؤكد أن جيلين بعد جيل الصحابة قد تابعوا البناء ، ونسجوا على المنوال نفسه ، واتبعوا المنهج الأول فى البناء ، وكانوا يمثلون الخيرية الثابتة فى هذه الأمة ، وهم الذين نطلق عليهم السلف ــ بهذه الشهادة النبوية لهم .

ويبقى بعدها « التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين » حيث تحاول الأمة فى كل جيل أن تمثل صورة « التابعية » ، وكلما اقتربت أكثر من المنهج ــ كلما اقتربت من تحقيق الهدف ، وكلما ابتعدت عنه كلما انفصلت عن السلف وانفصلت بالتالى عن الأمة التى كانت ﴿ **خير أمة أخرجت للناس** ﴾ .

وحديثنا هنا عن « التربية الجهادية » :

وقد سرت فيه بعيداً عن المنهج المألوف فى الحديث عن الجهاد .

فليس الكتاب بحثاً نظريًا فى الجهاد وأحكامه الفقهية ، وقد تناول هذا البحث العلماء ووفوه حقه ، أو أشرفوا على ذلك ، ولهم من الله المثوبة .

وليس الكتاب بحثاً ممتعاً فى السيرة يتناول المغازى النبوية .

وأى جديد أضيفه ومئات العلماء والأئمة قبلى كتبوا فى السيرة ، والمغازى ، وتابعوها تحقيقاً وتمحيصاً؟

وليس الكتاب بحثاً فى تفسير آيات الجهاد .

إنما الكتاب (محاولة) .

وأقول محاولة لأنى أود أن أشق الطريق ــ على ضعف باعى وقلة بضاعتى فى

البحث عن الكيفية التى تمت بها هذه التربية الجهادية .

واخترت أن يكون الأساس فى البحث **آيات القرآن الكريم** ، لاتسلسل الأحداث فى السيرة النبوية .

وأعيد القارىء إلى الكلمة الأولى فى المقدمة فالهدف هنا هو « **الإنسان** » وليس الحدث نفسه .

ولماذا فعلت ذلك ؟

والجواب واضح .

فالله تعالى شأنه هو الذى كان ينزل الآيات بعد كل حدث أو معركة ، فيعرض فيها ما يحتاجه الجيل المسلم من الأحداث لتتم التربية على ضوئه .

فالمشيئة الربانية فى تربية هذا الجيل هى التي اقتضت عرض بعض الأحداث ، وإخفاء بعضها ، وإلقاء الضوء على بعضها ، وإغفال بعضها الآخر ، وألا يتم التركيز على القلوب فى الداخل وكيف تكون وهى تصنع الحدث أو تتفاعل معه ، وأين أخطأت وأين أصابت وأين سمت وأين أخفقت وأين التوت .

« ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

و (الحدث) هنا خادم وشاهد ، وليس هدفاً فى حد ذاته .

فقد يعرض القرآن الكريم المعركة كاملة فى آية ، وقد يعرض حدثاً جزئياً ولم تنتبه له السيرة ومؤرخوها فى بضع آيات أو بضع عشرة آية ، وقد يبتدىء من آخر حدث فى المعركة ، أو من غير حدث ، أو من حدث مضى عليه زمن طويل ؛ ليتحقق الهدف التربوى المطلوب .

وما الذى أفعله إذن . مع هذا العرض القرآنى ؟

الذى أفعله أن أغذى الآية بالحدث من السيرة ، وأحشد كل ما يساعد على فهم النص أو فقهه بتعبير أدق ، وأتابع أثر هذه الآيات فى هذا الجيل ، وكيف انتقل بها من مرحلة إلى مرحلة ، ومن طور إلى طور ، وأتابع كذلك رسول الله ﷺ : كيف بنى هذه الأمة بهذا القرآن ؟

ولعلى بذلك أضع يدى على المنهج التربوى للسيرة النبوية فى نموذج :

« التربية الجهادية »

وأقف أخيراً أمام سؤال كبير هو محل حوار كبير فى الحركة الإسلامية :

هل التربية أولاً ثم المواجهة والمعركة ؟

أم التربية من خلال المواجهة والمعركة مع الباطل ؟

وكلما دق ناقوس الخطر فى الحركة الإسلامية ، ووقعت فى محنة ، ونزلت بها نازلة نعيد السؤال من جديد :

لماذا أخفقنا ؟ .. لأننا لم نترب بعد .

وكيف تكون التربية ؟ بوضع مناهج شاملة للتربية . والعودة إلى الأسرة ، والتثقيف فيها .

ويؤسفنى أن أقول : إن مفهوم التربية قد مسخ إلى عملية التثقيف ، وملء الذهن بالمعلومات .

ولاشك أن عملية التثقيف جزء من عملية التربية ، لكن التربية (أوسع) و (أعمق) و (أشمل) .

وللإجابة على هذا السؤال أقول :

إن التربية النبوية لم تكن يوماً واحداً بعيدة عن الواقع أو (الساحة) .

إن التربية عملية مستمرة دائبة ، دائمة ، تتم بالتعامل مع الواقع ، ومواجهته لتغييره ، حتى يكون الواقع الحق : ﴿ **ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون** ﴾ (١) .

فالتربية قبل المواجهة ، وأثناءها وبعدها ، ومسؤولية الحركة الإسلامية أن تفقه الواقع الذى تتحرك فيه ، وتفقه طاقتها وقدرتها الذاتية على المواجهة بالحوار ، أو الحديد ذى البأس الشديد ؛ حين تكون قادرة على ذلك ، أو بهما معًا ، لأنه لاانفصال أبداً فى التربية الجهادية بين الدعوة والجهاد .

إن مواجهة العدو لم تكن هدفًا يومًا من الأيام فى التربية الجهادية :

---

(١) الأنفال / ٨ .

« لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » متفق عليه عن أبى هريرة .

إنما المواجهة وسيلة لهذه القلوب البشرية التى لاتخضع إلا بالقوة ، فيمكنها بذلك أن تلين أو تسمع ، أو وسيلة لتحطيم القوة الطاغية التى تحول بين الناس وبين شريعة الله .

وهذه الخطوط السريعة التى نلمحها فى التربية الجهادية ـ لن أقف أمامها ، فالكتاب بأجزائه يتحدث عنها وعن غيرها .

وقبل أن أودع القارىء أهمس فى أذنه هذه الكلمة :

هذه الحلقة (التربية الجهادية) كُتب لها أن تكون أولى الحلقات ، مع أنها من حيث الترتيب قد تكون ثالثة أو رابعة والذى حدا بى إلى الكتابة فيها هو طبيعة المرحلة التى تحياها الحركة الإسلامية اليوم ، فهى فى قلب الجهاد ، تود أن تكون ذات الشوكة لها لتقيم شريعة الله فى الأرض بعد غياب طويل لها عن معظم الأرض الإسلامية اليوم .

وكان الأصل أن يكون منهج هذه التربية واضحاً قبل البدء بالمواجهة مع الطاغوت ، لأنها حين تتحرك فى غياب المنهج قد تنجح ولكنها كذلك قد تزل ، وقد تنحرف ، وقد تسقط ، وتعيد التجربة من جديد ، وقد تنزع منها الراية لقوم آخرين مؤهلين لحملها :

﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ (١) .

أرجو الله العلى القدير أن أكون قد أديت جزءاً من الأمانة الثقيلة ، وأنا أكتب فى موضوع ضخم ، تزل فيه الأقلام ، وتكبو فيه الأفكار ، وإن انتهيت مما كتبت ، وقد أضفت جديداً فى البناء التربوى للأمة ، وأصبح بين يدى العاملين للإسلام (**منهج التربية الجهادية**) واضحاً بخطوطه العريضة ، ومعالمه الكبيرة ، فحسبى ذلك مما أرجو ادخار أجره عند الله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿ **إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ (٢) .

وآخر دعوانا ﴿ **أن الحمد لله رب العالمين** ﴾ (٣) .

---

(١) محمد / ٣٨ . (٢) هود / ٨٨ . (٣) يونس / ١٠ .

كـف الـيــد

الجهاد ماض إلى يوم القيامة :

ولكن كيف كان الجهاد قبل أن يشرع الأمر بقتال الكفار ؟

كان الجهاد ينصب على كف اليد عن الجهاد :

﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ﴾ (١) .إن هذه المرحلة من الصبر والمصابرة على كيد الكافرين وعدم مواجهتهم ، لم يكن مهمتها أن تقتل الحمية لله ورسوله كما يتبادر للذهن ، بل كان مهمتها أن تضبط هذه الحمية ، وتوجهها الوجهة الصحيحة ، ولذلك كان مما أثنى الله تعالى به على المؤمنين أن قال عنهم فى هذه المرحلة المكية : **﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا و أصلح فأجره على الله إنه لايحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾** (٢) ، والغرض القرآنى لهذه الآيات يؤكد أن المؤمنين لا يقبلون البغى عليهم ، وينتصرون ممن بغى عليهم ، ويباح لهم دفع الظلم عنهم . لكن العزيمة والقوة فى هذه المرحلة هى الصبر والمغفرة .

وقد نفذ المسلمون الأوائل هذه المعانى بدقة ، ولم تحمل هذه المرحلة حوادث اصطدام مع المجتمع الجاهلى إلا حادثتين أريق فيهما دم .

الأولى : مارواه ابن إسحاق بقوله : (وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم . فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من

---

(١) النساء : ٧٧ .

(٢) الشورى : ٣٩- ٤٣ . وسورة الشورى مكية إلا الآيات الأربع ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٧ : انظر تفسير القرطبى المجلد الثامن جـ ١٧ ص ١ .

أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفرمن المشركين ، وهم يصلون فناكروهم ، وعابوا عليهم مايصنعون ، حتى قاتلوهم . فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحى بعير فشجه . فكان أول دم أهريق في الإسلام)[1] .

الثانية : وهي التي رافقت إسلام حمزة رضي الله عنه ، كما روى ابن إسحاق في ذلك : (... فاحتمل حمزة الغضب لما أراد لله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد . معداً لأبي جهل - إذا لقيه - أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس ، فضربه بها ، فشجه شجة منكرة ، ثم قال ، أتشتمه ؟ فأنا على دينه ، أقول مايقول فردَّ ذلك على إن استطعت ، فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل . فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحًا)[2] .

(ولعل الحادثة الثانية لايحمل عبئها المجتمع المسلم ، إذ أن حمزة رضي الله عنه أقدم على هذا الأمر وهو لا يزال على جاهليته ، وأعلن إسلامه حمية ، لا قناعة كما تؤكد روايات السيرة)[3] .

وتذكر السيرة حوادث فردية أخرى دافع فيها المسلمون عن أنفسهم ، أو عن رسول الله ﷺ ، وكان فيها اشتباك بالأيدي ، لكن لم ترق فيها الدماء[4] .

وهذا كله فيما نرى لايتعارض مع مرحلة كف اليد . ونقف مع سيد قطب رحمه الله ، وهو يتحدث عن هذه المرحلة :

(.. بهذا الأدب الواجب نتناول حكمة عدم فرض الجهاد في مكة ، وفرضيته في المدينة .. نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب .. على أنه مجرد احتمال ، وندع ما وراءه لله ، لا نفرض على أمره أسباباً وعللاً لا يعلمها إلا هو .. ولم يحددها هو لنا ، ولم يطلعنا عليها بنص صريح إنها أسباب اجتهادية تخطىء وتصيب ، وتنقص وتزيد ، ولانبغي بها إلامجرد تدبر أحكام الله وفق ما تظهره لنا الأحداث في مجرى الزمان :

---

(١) السير النبوية لابن هشام جـ ١ / ٢٧٥ . ط دار الفكر ١٤٠١ - ١٩٨١ م .

(٢) السيرة لابن هشام : ٣١٣/١ .

(٣) في كتاب السير والمغازي لابن إسحاق (ثم رجع حمزة إلى بيته فأتاه الشيطان فقال : أنت سيد قريش اتبعت هذا الصابئ .. ، انظر ص ١٧٥ تحقيق سهيل زكار . ط دار الفكر .

(٤) وذلك مثل دفاع عمر رضي الله عنه عن نفسه يوم أسلم ودفاع أبي بكر عن رسول الله ﷺ يوم أراد المشركون قتله ، وغير ذلك .

أ ـ ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد فى بيئة معينة لقوم معينين ، وسط ظروف معينة. ومن أهداف التربية والإعداد فى مثل هذه البيئة بالذات تربية نفس الفرد العربى على الصبر على مالايصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به ؛ ليخلص من شخصه ويتجرد من ذاته ، ولاتعود ذاته ولامن يلوذون به محور الحياة فى نظره ، ودافع الحركة فى حياته .. وتربيته كذلك على ضبط أعصابه ، فلا يندفع لأول مؤثر ـ كما هى طبيعته ـ ، ولايهتاج لأول مهيج ؛ ليتم الاعتدال فى طبيعته وحركته .. وتربيته على أن يتبع منهجاً منظماً ، له قيادة يرجع إليها فى كل أمرمن أمور حياته ، ولا يتصرف إلا وفق ماتأمره ـ مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته ـ وقد كان هذا هو حجر الأساس فى إعداد شخصية العربى لإنشاء المجتمع المسلم ، والخاضع لقيادة موجهة ، المترقى والمتحضر غير الهمجى أو القبلى .

ب ـ وربما كان ذلك أيضاً لأن الدعوة السلمية أشد أثراً ، وأنفذ فى بيئة مثل بيئة قريش ، ذات العنجهية والشرف ، والتى قد يدفعها القتال معها ـ فى مثل هذه الفترة ـ إلى زيادة العناد ، وإلى نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة التى أثارت حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس ـ أعواماً طويلة ، تفانت فيها قبائل برمتها ـ وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة فى أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام ، فلا تهدأ بعد ذلك أبداً . ويتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات وذحول تنسى معها فكرته الأساسية ، وهو فى مبدئه ، فلا تذكر أبداً !

جـ ـ وربما كان ذلك أيضاً ، اجتناباً لإنشاء معركة ومقتلة فى داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هى التى تعذب المؤمنين وتفتنهم ، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد ، يعذبونه هم ، ويفتنونه ويؤدبونه : ومعنى الإذن بالقتال ـ فى مثل هذة البيئة أن تقع معركة ومقتلة فى كل بيت .. ثم يقال : هذا هو الإسلام ! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال ! فقد كانت دعاية قريش فى الموسم ، فى أوساط العرب القادمين للحج والتجارة : إن محمداً يفرق بين الوالد وولده ، فوق تفريقه لقومه وعشيرته : فكيف لوكان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد والمولى بقتل الولى فى كل بيت وفى كل محلة ؟

د ـ وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ، ويعذبونهم ، ويؤذونهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلصين ، بل من قادته . ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء ؟ ! .

هـ - وربما كان ذلك أيضاً لأن النخوة العربية فى بيئة قبلية ، من عادتها أن تثور للمظلوم ، الذى يحتمل الأذى . ولا يتراجع ، وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم . وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة - فى هذه البيئة فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبابكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة ، ورأى فى ذلك عاراً على العرب وعرض عليه جواره وحمايته - وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبنى هاشم ، فى شعب أبى طالب . بعدما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة .. بينما فى بيئة أخرى من البيئات ذات الحضارة القديمة التى مردت على الذل . قد يكون السكوت عن الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة ، وتعظيم المؤذى الظالم المعتدى ! .

و - وربما كان ذلك أيضاً لقلة عدد المسلمين حينذاك وانحصارهم فى مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة أو بلغت أخبارها متناثرة : حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها ، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف ، ففى مثل هذه الحالة قد تنتهى المعركة المحدودة ، إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة — حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم ، ويبقى الشرك وتنمحى الجماعة المسلمة ولا يبقى فى الأرض للإسلام نظام ولا يوجد له كيان واقعى . . وهو دين جاء ليكون منهج حياة ، وليكون نظاماً واقعياً عملياً للحياة .

ز - فى الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة لتجاوز هذه الاعتبارات كلها ، والأمر بالقتال ، ودفع الأذى لأن الأمر الأساسى فى هذه الدعوة كان قائماً - وقتها - ومحققا هذا الأمر الأساسى هو وجود الدعوة .. وجودها فى شخص الداعية - ﷺ - وشخصه فى حماية سيوف بنى هاشم فلا تمتد إليه يد إلاوهى مهددة بالقطع ! والنظام القبلى السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع فى حرب مع بنى هاشم ، إذا هى امتدت يدها إلى محمد - ﷺ - فكان شخص الداعية من ثم محمياً حماية كافية .. وكان الداعية يبلغ دعوته — إذن — فى حماية سيوف بنى هاشم ومقتضيات النظام القبلى ، ولا يكتمها ، ولا يخفيها ، ولا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغها وإعلانها ، وفى ندوات قريش فى الكعبة ، ومن فوق جبل الصفا ، وفى اجتماعات عامة .. ولايجرؤ أحد على سد فمه ، ولايجرؤ أحد على خطفه وسجنه أو قتله ! ولايجرؤ أحد أن يفرض عليه كلاماً بعينه يقوله ، يعلن فيه بعض حقيقة دينه ، ويسكت عن بعضها . وحين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيبها لم يكف ، وحين طلبوا منه أن يسكت عن عيب دين آبائهم وأجدادهم

وكونهم فى جهنم لم يسكت ، وحين طلبوا منه أن يدهن فيدهنوا ـ أى أن يجاملهم فيجاملوه ـ بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا هم بعض عبادته ، لم يدهن .. وعلى الجملة كان للدعوة وجودها الكامل فى شخص رسول الله ـ ﷺ ـ محروساً بسيوف بنى هاشم ـ وفى إبلاغه لدعوة ربه كاملة فى كل مكان وفى كل صورة ـ ومن ثم لم تكن هناك الضرورة القاهرة لاستعجال المعركة ـ والتغاضى عن كل هذه الاعتبارات البيئية التى هى فى مجموعها ـ مساندة للدعوة ومساعدة فى مثل هذه البيئة) [١] .

ونتساءل عن هذه المرحلة فى حياتنا المعاصرة ما مدى الوجود العملى لها ؟ أم أنها انتهت إلى غير رجعة ؟ ! هل يأتى على المسلمين يوم يؤمرون فيه بكف اليد بعد الأحكام النهائية للجهاد والتى تنص على قتال المشركين كافة حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ؟ ! هل تلتقى مرحلة كف اليد عن قتال المشركين . والجهاد فرض عين على المسلمين ، وقد انتهكت حرماتهم ، واحتلت أوطانهم ، وسبيت ذراريهم ، وحوربوا فى دينهم ، وفتنوا فيه .

وكيف يتم التوفيق بين هاتين القضيتين : بين منع القتال وفرضية القتال على كل مسلم ؟

لابد أولا من التأكيد على أن الأحكام النهائية للإسلام . لايملك أحد فى الأرض أن يدعى تعديلاً أو تغييراً فيها ويبقى له من إسلامه شىء بعد قول الله عز وجل ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ [٢] ، وقد انقطع الوحى والتحق رسول الله ﷺ ـ خاتم النبيين ـ بالرفيق الأعلى ، ومن أجل هذا حكم فقهاء المسلمين قاطبة على القاديانيين بالكفر ، لأنهم ادعوا نسخ الجهاد على يد رجل مزعوم مدع للنبوة .

لكننا نستدرك الأمر فنقول إن أحكام الجهاد مرتبطة بوضع المسلمين قوة وضعفاً ، وعلى ضوء ذلك فقد تمر عليهم أوضاع الجهاد ومراحله كاملة ، حسب الأوضاع التى يعيشونها ، والقوة التى يملكونها ، يقول الإمام ابن كثير رحمه الله فى تفسير قول الله عز وجل : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم** ﴾

(ثم قال جل وعلا لعباده المؤمنين : ﴿ **فلا تهنوا** ﴾ أى لاتضعفوا عن الأعداء ،

---

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب ٧١٥ . ط دار الشروق .

(٢) المائدة : ٤ .

﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ أى المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار فى حال قوتكم ، ولهذا قال ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ أى فى حال علوكم على عدوكم ، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام فى المعاهدة والمهادنة مصلحة ـ فله أن يفعل ذلك كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك ..)[1] .

والجهاد فى الأصل لايكون إلا مع الإمام . وفى عقيدة أهل السنة والجماعة (والحج والجهاد ماضيان مع أولى الأمر من المسلمين ، برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة لا يبطلها شىء ولا ينقضها)[2] .

(وقوله : مع أولى الأمر برهم وفاجرهم ـ لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر ، فلا بد من سائس يسوس فيهما ، ويقاوم فيهما العدو . وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البر يحصل بالإمام الفاجر)[3] .

ومما اتفق عليه أئمة المذاهب الأربعة فى شروط الإمام : (ثامنًا أن يكون شجاعاً ، وهى قوة القلب عند البأس ، لينفرد بنفسه ، ويدبر الجيوش ، ويقهر الأعداء ؛ ويفتح الحصون ، ويقف أمام أحداث الأيام ، وما يحدث له من فتن ، وما يجد فى عهده من أزمات)[4] .

---

(١) مختصر تفسيرا بن كثير للصابونى : المجلد الثالث /٣٣٨ (محمد / ٣٥) .

(٢ ، ٣) شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية للعلامة ابن أبى العز .

(٤) الفقه على المذاهب الأربعة جـ/٥ / ٤١٧ .

الإذن بالقتـــال

قال ابن إسحاق :

(وكان في بيعة الحرب ـ حين أذن الله لرسوله في القتال شروط سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى : كانت الأولى على بيعة النساء . وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسول الله ﷺ في الحرب ، فلما أذن له ، وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الآخرة على حرب الأحمر والأسود ، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنــة) [1] .

وهكذا يعتبر ابن إسحاق رحمه الله أن بيعة العقبة الثانية هي بيعة الحرب وأنها لم تتم إلا بإذن الله تعالى لرسوله ﷺ في قتال المشركين حيث يقول كذلك :

(وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء . إنما يؤمر بالدعاء إلى الله ــ والصبر على الأذى ــ والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين ؛ حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم عن بلادهم ، فهم بين مفتون في دينه ، وبين معذب في أيديهم ، وبين هارب في البلاد فراراً ، منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفي كل وجه فلما عتت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه ﷺ ، وعذبوا ، ونفوا من عبده ووحـده ، وصدّق نبيه واعتصم بدينه ـ أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ في القتال والامتناع والانتصار ممّن ظلمهم وبغى عليهم ؛ فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب ، وإحلاله الدماء ، والقتال لمن بغى عليهم ـ فيمـا بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلمـاء . قول الله تبارك وتعالى ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرنّ الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور** ﴾ [2] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٢/٦٣ .

(٢) الحج : ٣٩ ــ ٤١ .

أى إنما أحللت لهم القتال ؛ لأنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله ، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، يعنى النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين) (١) .

(قال ابن عباس : هذه أول آية نزلت فى الجهاد ، قال المفسرون : هم أصحاب رسول الله ﷺ ، كان مشركو مكة يؤذونهم أذىً شديداً ، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ بين مضروب ومشجوج ، ويتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أؤمر بقتالهم ؛ حتى هاجروا فأنزلت هذه الآية ، وهى أول آية أذن فيها بالقتال بعد مانهى عنه فى أكثر من سبعين آية) (٢) .

ولعل الخلاف الواضح هو فى وقت نزول هذه الآية ، هل هى قبل بيعة العقبة الثانية ؟ وأن بيعة العقبة الثانية تمت على ضوء هذا الإذن ، أم أنها نزلت بعد هجرة الرسول ﷺ ؟ !

أما الرأى الثالث فيقول : إن الآيات المذكورة قد نزلت عند الهجرة (قال الضحاك : استأذن أصحاب رسول الله ﷺ فى قتال الكفار إذ آذوهم بمكة فأنزل الله : ﴿ **إن الله لايحب كل خوان كفور** ﴾ (٣) فلما هاجر نزلت : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ﴾ وهذا ناسخ لكل مافى القرآن من إعراض وترك وصفح ، وهى أول آية نزلت فى القتال . قال ابن عباس وابن جبير : نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة . وروى النسائى والترمذى عن ابن عباس قال : لما أخرج النبى ﷺ من مكة قال أبوبكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ﴾ فقال أبو بكر : لقد علمت أن سيكون قتال ، فقال : هذا حديث حسن . وقد روى غير واحد عن سفيان عن الأعمش ، عن مسلم النبطين ، عن سعيد بن جبير مرسلا ، وليس فيه عن ابن عباس) (٤) .

والرأى الثالث هو الأرجح والله أعلم ، وحين نستعيد الفترة المذكورة نرى أنه لا تناقض بين الآراء الثلاثة ؛ إذ أن بين بيعة العقبة الثانية ، وبين وصول الرسول ﷺ حوالى ثلاثة أشهر ، وهى الفترة التى صدرفيها أمر رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة ، وكان آخرهم وصولاً إلى المدينة عليه الصلاة والسلام .

قال ابن إسحاق : (فلما أذن الله تعالى له ﷺ فى الحرب ، وتابعه هذا الحى من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٢/٧٥ ، ٧٦ .
(٢) صفوة التفاسير : ٢/٢٩٢ .
(٣) الحج : ٣٨ .
(٤) تفسير القرطبى : ٦/١٢/ ٦٨ .

الأنصار على الإسلام ، والنصرة له ولمن اتبعه وآوى إليهم من المسلمين أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ، ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها » وأقام بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة ، والهجرة إلى المدينة)[1] .

ومن أجل هذا كثيراً ما نرى بعض النصوص يجمع بين هذه الآراء الثلاثة :

(قال ابن العربى : قال علماؤنا : كان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ، ولم تحل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل مدة عشرة أعوام ؛ لإقامة حجة الله تعالى عليهم ، ووفاء بوعده الذى امتن به بفضله فى قوله : ﴿ **وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾[2] فاستمر الناس فى الطغيان . وما استدلوا بواضح البرهان . وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين ، حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم عن بلادهم ، فمنهم من فر إلى أرض الحبشة ، ومنهم من خرج إلى المدينة ، ومنهم من صبر على الأذى ، فلما عتت قريش على الله تعالى ، وردوا أمره وكذبوا نبيه عليه السلام ، وعذبوا من آمن به ووحده وعبده ، وصدق نبيه عليه السلام ، واعتصم بدينه ـ أذن الله لرسوله بالقتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم ، وأنزل : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ﴾ إلى قوله ﴿ **الأمور** ﴾)[3] .

ومن البدهى أن يأتى الإذن بالقتال بعد الأمر بكف اليد ، فهذا مرتبط بطبيعة حركة هذه الدعوة التى تنطلق من الواقع البشرى ، متدرجة فيه إلى الأفق الأعلى من غير تعسف ولا استعجال ولا ركون . ويوضح هذا المعنى العلامة الشنقيطى بقوله : (وهذه الآية هى أول آية نزلت فى الجهاد ، كما قال به جماعات من العلماء ، وليس فيها من أحكام الجهاد إلا مجرد الإذن لهم فيه ، ولكن قد جاءت آيات أخرى دالة على أحكام أخر زائدة على مطلق الإذن ، فهى مبينة على عدم الاقتصار على الإذن كما هو ظاهر هذه الآية . وقد قال جماعة من أهل العلم : إن الله تبارك وتعالى لعظم حكمته فى التشريع إذا أراد أن يشرع أمراً شاقاً على النفوس ـ كان تشريعه له على سبيل التدريج ؛ لأن إلزامه بغتة فى وقت واحد من غير تدريج فيه مشقة عظيمة ـ ومن ذلك الجهاد ، فأذن فيه أولا من غير إيجاب

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٢ /٧٦ .
(٢) الإسراء : ١٥ .
(٣) تفسير القرطبى : ٦ / ١٢ / ٦٩ .

بقوله : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ﴾ الآية ثم لما استأنست به نفوسهم بسبب الإذن فيه أوجب عليهم ، فقال : من قاتلهم دون من لم يقاتلهم بقوله : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا** ﴾ . . الآية وهذا تدريج من الإذن إلى نوع خاص من الإيجاب ، ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه فى الجملة ، أوجبه عليهم إيجاباً عاماً جازماً فى آيات من كتابه لقوله تعالى : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة** ﴾ [(١)] وقوله : ﴿ **تقاتلونهم أو يسلمون** ﴾ [(٢)] إلى غير ذلك من الآيات) [(٣)] .

وهذا المعنى أسماه سيد قطب رحمه الله بالواقعية الحركية .

(والسِّمَةُ الثَّانية فى منهج هذا الدين : هى الواقعية الحركية ، فهو حركة ذات مراحل ، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها ، وحاجاتها الواقعية ، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التى تليها ، فهو لايقابل الواقع بنظريات مجردة ، كما أنه لايقابل مراحل هذا الوقع بوسائل متجمدة ، والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين فى الجهاد ، ولايراعوا هذه السمة فيه ، ولايدركون طبيعة المراحل التى مر بها هذا المنهج ، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً ، ويلبسون منهج هذا الدين لبساً مضللاً ، ويحملون النصوص ما لاتحتمله من المبادئ والقواعد النهائية . ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لوكان نصاً نهائياً ، يمثل القواعد النهائية فى هذا الدين ويقولون : هم مهزومون روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع البائس لذرارى المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان : .. إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع ، إذ يحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلاً بتخليهم عن منهجه ، وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً ، وتعبيد الناس لله وحده ، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد لايقهرهم على اعتناق عقيدته ، ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة ، بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة ، أو قهر ها حتى تدفع الجزية ، وتعلن عن استسلامها ، والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة التى تعتنقها أولا تعتنقها بكامل حريتها ..) [(٤)] .

وهذا الفهم هو الذى فهمه فى الأصل ابن القيم رحمه الله حيث قال عن القتال :

---

(١) أضواء البيان فى إيضاح القرآن لمحمد أمين الشنقيطى : ٥ / ٦٩٩ ، ٧٠٠ .

(٢) التوبة : ٥ .　　(٣) التوبة ٣٦ .　　(٤) فى ظلال القرآن : ٣/١٤٣٢ .

(كان محرماً ثم مأذونا به ـ ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأموراً به لجميع المشركين)

والإشارة إلى هذه النقطة مهمة إذ أن بعض الباحثين المسلمين لم ينتبهوا إلى الفرق بين الإذن والأمر . واعتبروا جواب رسول الله ﷺ للمسلمين يوم قالوا له :

(والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا ...... لم نؤمر بذلك ، ولكن ارفضوا إلى رحالكم) .

اعتبروا هذا الجواب دليلاً على عدم جواز القتال قبل قيام دولة الإسلام . وهذا الفهم بعيد لأن الجواب يتحدث عن الأمر لا عن الإذن .

ونعتقد أن رسول الله ﷺ حين تعاهد مع الأنصار فى بيعة العقبة لم يتعاهد إلا بإذن من الله تعالى . وصيغة العهد تنص على الحماية عند الهجوم ، لاعلى الهجوم ، وعلى الدفاع عن النفس . وذلك لأن الهجرة كانت بإذن له عليه الصلاة والسلام ولأصحابه وها نحن أولاء نبسط هذه الصيغة كما وردت فى كتب السيرة :

(قال : فاجتمعنا فى الشعب ، ننتظر رسول الله ﷺ ، حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال يامعشر الخزرج ـ وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها ـ إن محمداً منا حيث قد علمتم) وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه ، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عزٍ ومنعة فى قومه وبلده . قال : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

قال فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق ، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا [١] فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الحلقة [٢] ، ورثناها كابراً عن كابر .

---

(١) أزرنا : نساءنا .

(٣) الحلقة : السلاح .

قال : فاعترض القول ، والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التَّيِّهان فقال : يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً (١) ، وإنا قاطعوها (يعنى اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول ﷺ ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم (٢) . أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم) (٣) .

(قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى :

يامعشر الخزرج : هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ؛ قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت (٤) أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة . قالوا : ابسط يدك . فبسط يده فبايعوه ..) (٥) .

(وروى الإمام أحمد عن جابر . قال : قلنا يارسول الله : علام نبايعك ؟ قال : « على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وعلى أن تقوموا فى الله لا تأخذكم فى الله لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت إليكم ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة » .

قال جابر : فقمنا نبايعه ، فأخذ بيده أسعد بن زرارة ، وهو أصغر السبعين . فقال : رويداً يأهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف . فإما أن تصبرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فهو أعذر لكم عند الله ، فقالوا : ياأسعد أمط عنا يدك ، فو الله لا نذر هذه

---

(١) حبالاً : عهوداً .

(٢) الدم الدم والهدم الهدم : قال السهيلى : قال ابن قتيبة . كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار دمى دمك وهدمى هدمك . أى ماهدمت من الدماء أهدمه أنا .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام : ٢/٥٠ . (٤) نهكت : نقصت . (٥) المصدر نفسه : ٢/٥٥ .

البيعة ، ولانستقيلها)[1] .

نلاحظ من خلال هذه النصوص النقاط التالية :

أولاً : أن بيعة الحرب كما سماها رواة السيرة ، جاءت بعد بيعة النساء في العقبة الأولى بعام تقريباً ، وبعد ارتفاع عدد المسلمين في الوفد إلى مايقارب عدد المهاجرين المقيمين في مكة خلال هذا العام .

ثانياً : وكما ذكرنا من قبل فلا يمكن لرسول الله ﷺ أن يبايع القوم على حرب الأحمر والأسود من الناس ، وعلى نهكة الأموال ، وقتل الأشراف ، وعلى حمايته كحماية النفوس ، والأبناء والنساء ، إلا بإذن من ربه عز وجل ، بعد أن كان الأمر بكف اليد هو الأصل .

ثالثاً : يظهر واضحاً من خلال النصوص أن رسول الله ﷺ كان يؤكد على الدفاع فقط دون الهجوم ، وهذا الدفاع ـ كما في رواية الإمام أحمد ـ مرتبط بالقدوم إلى المدينة « وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم » . فإذا اعتبرنا الإذن من الناحية النظرية قائماً قبل بيعة العقبة الثانية ، فإن التنفيذ والإذن العملي ، إنما كانا بعد وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة . وبهذين التصورين يمكن فهم الخلاف في موعد الإذن بالقتال : هل هو قبل بيعة العقبة أم بعد الهجرة ؟

رابعاً : ويمكن اعتبار هذه المرحلة منذ بيعة العقبة الثانية حتى القدوم إلى المدينة مرحلة إعداد وتهيئة ، وتعبئة ، بحيث تتجمع الطاقات كلها هناك ، ويكون لرسول الله ﷺ قاعدة انطلاق ، تحميه في حالة الهجوم عليه .

خامساً : كما يمكن القول إنه بعد صدور الإذن الرباني بالجهاد والقتال ، أصبح التخطيط البشري هو الذي يتحكم في الموضوع ، والجهد البشري هو الذي يحدد ساعة الصفر .

سادساً : وعلى ضوء هذه الملاحظات نفهم جواب رسول الله ﷺ إلى الأنصار : « لم نؤمر بذلك ولكن ارفضوا إلى رحالكم » بحيث لايعتبر الإذن النظري أمراً مقرراً على الفور للتنفيذ ؛ إنما هو مرتبط بالإمكانات المتاحة . وليس من الحكمة أن يقف سبعون رجلاً من المسلمين لمواجهة أهل منى بأسيافهم في معركة مباشرة ، فليس هذا هو الأمر الرباني بذلك .

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم وابن حبان .

سابعاً : ونصوص الميثاق والبيعة تؤكد أن ما عرضه الأنصار رضى الله عنهم من الاستعداد للمواجهة ليس داخلا ضمن إطار البيعة ، وإنما هو تضحية كريمة منهم عندما شاهدوا الخطر يحيق بهم ، وبرسول الله ﷺ .

ثامناً : بل لم يرض رسول الله ﷺ لهم أن يواجهوا قريشاً وحدها ، وليس أهل منى جميعاً ، وكان الأمر الموجه إليهم بكتمان الأمر عن الجميع ، ومن أجل ذلك كان الانضباط حتى عن إعلان المواجهة الكلامية كما تقول نصوص السيرة : (فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا فى منازلنا . فقالوا : يامعشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا . وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ، قال : فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ماكان من هذا شىء ، وما علمناه . قال : وقد صدقوا لم يعلموه) (١) .

وعن عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنه : (أنهم أتوا عبد الله بن أبى ابن سلول فقالوا له مثل ماقال كعب من القول ، فقال لهم : إن هذا لأمر جسيم ، ماكان قومى ليتفوتوا علىَّ بمثل هذا وما علمته كان . قال : فانصرفوا عنه ، ونفر الناس من منى فتنطس (٢) القوم الخبر فوجدوه قد كان) (٣) .

تاسعاً : ونقول إن الإذن بالقتال لم ينفذ عملياً على يد الأنصار ، إنما نفذ على يد المهاجرين رضى الله عنهم ، فجميع السرايا التى سبقت بدراً ، والتى كانت عمليات إعلامية أو معنوية ــ وكلها كانت هجومية ــ كان أفرادها وقادتها من المهاجرين فقط . ويأتى دور الأنصار فى هذه المرحلة ، فى تحمل كل ما ينشأ عن هذه العمليات ، والاستعداد لمواجهة أى اعتداء قادم على المدينة ، وقد ا ستمرت هذه المرحلة قرابة سنة ونصف (٤) .

عاشراً : وحتى الغزوات الأربعة التى قادها رسول الله ﷺ قبل بدر ، أكدت الروايات أن اثنتين منها على الأقل كان الوجود فيها للمهاجرين فقط ، وهما غزوة الأبواء

(١ ، ٣) السيرة النبوية لابن هشام : ٢/٥٧ . (٢) دققوا فى البحث عنه .

(٤) ابتدأت هذه السرايا والغزوات بعد خمسة أشهر من وصول الرسول ﷺ إلى المدينة . واستمرت قرابة عام كامل من رمضان سنة /١/ للهجرة إلى رجب سنة /٢/ للهجرة . وكان فيها أربع غزوات قادها رسول الله ﷺ وهى الأبواء وبواط وسفوان وذى العشيرة . وأربع سرايا كان على رأسها حمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن جحش .

فى سبعين رجلاً من المهاجرين ، وغزوة ذى العشيرة فى خمسين ومائة أو مائتين من المهاجرين ، والغزوة الثالثة وهى سفوان . كانت رداً على هجوم قام به كرز بن جابر الفهرى - وهى الغزوة الوحيدة التى كانت رداً على الهجوم - وهذه مع الغزوة الرابعة التى هى غزوة بواط ، لم تنف أو تؤكد وجود الأنصار فيها ، إنما ذكرت مع عدد من أصحابه رضى الله عنهم أجمعين .

بعد هذه الملحوظات نعود ثانية إلى آيات الإذن بالقتال ، فقد أكدت معانى عديدة لابد من الإشارة إليها قبل نهاية هذا الدرس .

١ - الإذن بالقتال إنما جاء مرتبطاً بسبب الظلم الذى وقع على المؤمنين ﴿ **الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله** ﴾ (١) .

وهذا الإذن قائم مادام المؤمنون فى كل صقع يفتنون عن دينهم ، ويخرجون من ديارهم وأرضهم فى سبيل الله (٢) .

٢ - ويقع هذا الإذن أيضا عندما تتعرض البيوت المعدة لعبادة الله تعالى للخطر .

﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا** ﴾ (٣) فالتعرض للعابدين الطائعين ولبيوت العبادة هو إذن من الله تعالى للقتال .

٣ - ونصر الله تعالى مرتبط بقتال الكفار من قبل المؤمنين . فهذا القتال هو نصر المؤمنين ، ولن يتأتى نصر الله دون نصر المؤمنين .

يقول سيد رحمه الله فى حديثه عن حكمة نصر الله تعالى المترتب على قتال المؤمنين :

(١ ، ٣) الحج / ٤٠ .

(٢) يقول القرطبى فى تفسير هذه الآية : (أى لولا ماشرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لاستولى أهل الشرك ، وعطلوا مابنته أرباب الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ؛ ليتفرغ أهل الدين للعبادة ، فالجهاد أمر متقدم فى الأمم ، وبه صلحت الشرائع ، واجتمعت المتعبدات ، فكأنه قال : أذن فى القتال ، فليقاتل المؤمنون . ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله : (ولولا دفع الله الناس) أى لولا القتال والجهاد لتغلب على الحق فى كل أمة ، فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه إذ لولا القتال لما بقى الدين الذى يذب عنه ، وأيضاً هذه المواضع التى اتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم ، وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام ، إنما ذكرت لهذا المعنى ، أى لولا هذا الدفع لهدم فى زمن موسى الكنائس ، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفى زمن محمد عليه الصلاة والسلام المساجد) .

(والجواب أن حكمة الله فى هذا هى العليا ، وأن لله الحجة البالغة ، والذى ندركه نحن البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من (التنابلة) الكسالى ، الذين يجلسون فى استرخاء ، ثم يتنزل عليهم نصره سهلاً هيناً بلا عناء ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ، ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء كلما مسهم الأذى ، ووقع عليهم الاعتداء !

نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة ، وأن يرتلوا القرآن ، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء فى السراء والضراء ، ولكن هذه العبادة وحدها ، لاتؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها ، إنما هى الزاد الذى يتزودونه للمعركة ، والذخيرة التى يدخرونها للموقعة ، والسلاح الذى يطمئنون إليه ، وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ، ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله تعالى .

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا ـ يتم عن طريقهم هم أنفسهم ؛ كى يتم نضجهم هم فى أثناء المعركة ، فالبنية الإنسانية لاتستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهى تواجه الخطر ، وهى تدفع وتدافع ، وهى تستجمع كل قوتها ؛ لتواجه القوة المهاجمة . عندئذ تتحفز كل خلية بكل ماأودع فيها من استعداد لتؤدى دورها ، ولتتساند مع الخلايا الأخرى فى العمليات المشتركة ، ولتؤتى أقصى ماتملكه ، وتبذل آخر ماتنطوى عليه ، وتصل إلى أكمل ماهو مقدور لها ، وماهى مهيأة له من الكمال .

والأمة التى تقوم على دعوة الله فى حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها . واحتشاد كل قواها . وتوفز كل استعدادها ، وتجمع كل طاقاتها كى يتم نموها ، ويكمل نضجها . وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها) .[1]

٤ ـ وكثيراً مايقف الدعاة والمجاهدون وهم فى منتصف الطريق ، يتساؤلون عن نصر الله عز وجل ، وهم قد يخوضون المعارك ـ ويقدمون التضحيات ، ويبذلون الدماء والأرواح والمهج ، فيستبطئون النصر ، ويقفون أمام قول الله عز وجل : ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا ..** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **ولينصرن الله من ينصره** ﴾[3] .

ويجيبنا سيد رحمه الله على هذه التساؤلات بقوله : (والنصر قد يبطىء على الذين ظلموا ، وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ، فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله تعالى .

---

(١) فى ظلال القرآن / ٤ / ٢٤٢٥ ، ٢٤٢٦ .   (٢) الحج / ٣٨ .   (٣) الحج / ٤٠ .

قد يبطىء النصر لأن بنية الأمة المسلمة لم تنضج بعد ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفز كل خلية ، وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات ، فلو نالت النصر حينئذ ، لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً .

وقد يبطىء النصر ، حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر مافى طوقها من قوة ، وآخر ماتملكه من رصيد ، فلا تستبقى عزيزاً ولا غالياً لاتبذله هيناً رخيصاً فى سبيل الله .

وقد يبطىء النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لاتكفل النصر ، إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر مافى طوقها ، ثم تكل الأمر بعدها إلى الله .

وقد يبطىء النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهى تعانى وتتألم وتبذل ، ولا تجد لها سنداً إلا الله ، ولا متوجهاً إلا إليه وحده فى الضراء ، وهذه الصلة هى الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله ، فلا تطغى ولاتنحرف عن الحق والعدل والخير الذى نصرها به الله .

وقد يبطىء النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد فى كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته ، فهى تقاتل لمغنم تحققه ، أوتقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها ، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفى سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرى التى تلابسه ، وقد سئل رسول الله ﷺ الرجل يقاتل حمية ، والرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل ليرى . فأيها فى سبيل الله فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » رواه الشيخان .

كما قد يبطىء النصر لأن فى الشر الذى تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير ، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكا ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب فى الغمار .

وقد يبطىء النصر لأن الباطل الذى تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً ، فلو غلبه المؤمنون حينئذ ــ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ، فتظل له جذور فى نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة ، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه .

وقد يبطىء النصر لأن البيئة لاتصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذى تمثله

الأمة المؤمنة ، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة ، لايستقر لها معها قرار ، فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطىء النصر ، فتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام ، مع دفاع الله عن الذين آمنوا ، وتحقيق النصر لهم فى النهاية .

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه : ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور** ﴾ [1] فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذى لايتخلف هو أن ينصر من ينصره فمن هؤلاء الذين ينصرون الله . فيستحقون نصر الله القوى العزيز الذى لايهزم من تولاه) [2]

٥ ـ وبعد الحديث عن حكمة إبطاء النصر ، يرد الحديث عن التمكين الذى لايتم لهذه الأمة إلا بعد أن تستوفى شروطه .

﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور .﴾

والربط بين البداية فى الإذن ، وبين الهدف الذى يرمى إليه الجهاد فى النهاية ربط ضرورى ، فليس الجهاد لرفع الأذى وصد العدوان فقط ، وإن كان قد أذن به ابتداءً من أجل ذلك ، ولكن غايته ومآله هو التمكين للمؤمنين فى الأرض ، ليقيموا شرع الله تعالى فيها ، وتكون لهم السيادة والخلافة ، بحيث تتحقق العبودية لله تعالى فى الأرض ، فتقام الشعائر وتطبق الشرائع ، ويكون الأمر بالمعروف كما حددته الشريعة ، والنهى عن المنكر الذى أنكرته الشريعة .

وبذلك لا نجد تعارضاً بين النصوص التى تأذن بالقتال وتأمر به لمن قاتل ، وللمشركين كافة ، فلم يتغير الهدف منذ البداية حتى النهاية إنما اختلفت المراحل .

ففى هذه الآيات التى أذن الله تعالى بها فى القتال (دليل على أنه لاوعد من الله بالنصر إلا مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فالذين

---

(١) الحج : ٤٠ ـ ٤١ .	(٢) المصدر نفسه ٤ / ٢٤٢٦ ، ٢٤٢٧ .

يمكن الله لهم فى الأرض ، ويجعل الكلمة فيها والسلطان لهم - ومع ذلك لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ؛ فليس لهم وعد من الله بالنصر لأنهم ليسوا من حزبه ، ولا من أوليائه الذين وعدهم بالنصر ، بل هم حزب الشيطان وأولياؤه ، فلو طلبوا النصر من الله بناءً على أنه وعدهم إياه ، فمثلهم كمثل الأجير الذى يمتنع عن عمل ما أجر عليه ، ثم يطلب الأجرة ، ومن هذا شأنه فلا عقل له) . (١)

ويوضح سيد رحمه الله هذه الفكرة المرتبطة بنصر الله تعالى فيقول : (فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته ، المشروط بتكاليفه وأعبائه ، والأمر بعد ذلك لله يصرفه كيف يشاء ، فيبدل الهزيمة نصراً ، والنصر هزيمة عندما تختل القيم أو تهمل التكاليف .

إنه النصر الذى يؤدى إلى تحقيق المنهج الإلهى فى الحياة ، من انتصار الحق والعدل ، والحرية المتجهة إلى الخير والصلاح ، المنظور فيه إلى هذه الغاية ، التى يتوارى فى ظلها الأشخاص والذوات والمطامع والشهوات .

وهو نصر له سببه ، وله ثمنه ، وله تكاليفه ، وله شروطه ، فلا يعطى لأحد جزافاً أو محاباة ، ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه) . (٢)

والحركة الإسلامية اليوم فى الأرض ، وهى تجاهد الطواغيت فى كل مكان ، وتجد الطريق طويلاً ، والنصر بطيئاً ، عليها أن تعيد حسابها اليوم ، وتراجع موازينها ، وتتعرف على نواميس الله فى النصر والهزيمة ، لا أن تُلقى باللوم على أعداء الله ، وكأنها مبرأة من العيوب والأخطاء . وما أحوجها إلى مراجعة الحساب ، والانكفاء على الذات لتعيد بناءها على ضوء ذلك من جديد .

---

(١) أضواء البيان /٥/٧٠٤ .

(٢) فى ظلال القرآن /٤/٢٤٢٨ .

قصة طالوت

وكانت التهيئة النفسية للأمر بالقتال ، والنفوس تصبو إلى لقاء العدو ، والانتصار عليه ، وتعبئة الطاقات للمعركة ، فجاء الدرس العميق للأمة المسلمة عن قصة الملأ من بنى إسرائيل ، ويصغى المسلمون إلى هذا الدرس الربانى ، يلقى عليهم من الله تعالى ، ويتحسسون به أنفسهم وواقعهم ، وكأنما الدرس القادم سيكون بهم ، فلا بد من الاعتبار :

﴿ ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا . قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ [1] .

فالملأ وأولو الرأى وقادة الأمة هم الذين تحركوا لتغيير واقعها ، وكان بنو إسرائيل قد أصابهم الذل والقهر من أعدائهم ، واستبيحت حرماتهم ، وانتهكت مقدساتهم ، وأهمها التابوت الذى فيه أمجادهم ، بقية مما ترك آل موسى وهارون (ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة ، واستيقظت فى قلوبهم العقيدة ، واشتاقوا القتال فى سبيل الله ، فقالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله) [2] .

والخطوة الأولى فى مواجهة أى عدو هى إرادة القتال ، والتصميم عليه ، وقد انبعثت هذه الإرادة لدى الملأ ، واستطاعوا أن ينشروا هذه الروح العالية فى صفوف أبناء الأمة ، لتصبح إرادة جماعية ، تمثلت فى هذا الطلب من نبيهم عليه الصلاة والسلام ، أن يختار لهم عن طريق الوحى قائدًا يتجمعون حوله .

و الخطوة الثانية الأساسية فى القتال هى القائد الذى يجتمع حوله القلوب ، وتلتف حوله النفوس .

وحيث أن النبى بين ظهرانى بنى إسرائيل ، فلا مندوحة من طلب اختيار القائد عن طريقه ، أما لو كان الوحى غير قائم فيهم ، فالأصل أن يختار هؤلاء الملأ قائداً من بينهم .

---

(١) البقرة / ٢٤٦ .   (٢) فى ظلال القرآن /١/ ٢٦٢ .

ومما يثير الانتباه حقاً هذا التوجيه القرآني الواضح ، فلم يتجه الملأ إلى نبيهم ليكون قائدا لهم ، وهو الذى يأتيه الوحى من الله تعالى ، بل طلبوا منه أن يدعو ربه ، ليختار لهم قائداً لمعركتهم ، وجهادهم مع العدو ، وقد أقر لهم نبيهم هذا الأمر ، وأذن الله تعالى به .

وهو درس مهم فى حسن اختيار القائد المناسب للأمة ، فليس أتقى الأمة فقط هو المؤهل للقيادة ، - ولو كان نبياً - بل لابد من مواصفات تجتمع فى القائد ليضطلع بهذه المهمة ، وهى التى ذكرها نبيهم فيما بعد .

ولو ترك الأمر إلى الملأ لأساؤوا الاختيار ، يدل على ذلك احتجاجهم على قيادة طالوت رضى الله عنه ، ولتدخلت عوامل أخرى فى الاختيار مثل عامل النسب والثروة ، وأفسدت عليهم الأمر .

وحرى بنا ونحن نقدم على اختيار القائد أن نحسن الاختيار ، فلو كان الخلل فى اختيار القائد لاضطراب أمر القتال كله ، ولا غرو فقد تكون الهزيمة أحياناً من سوء القيادة ، كما قد تكون من خذلان القاعدة .

والأمران متلازمان كما نرى فى النص القرآنى .

فإرادة القتال التى بثها زعماء الأمة وأولو الرأى فيها ، فى جماهير الناس قد حققت الشرط الأول ، واتجاه القلوب إلى النبى يختار لهم قائداً فذاً يقودهم للقتال فى سبيل الله حقق الشرط الثانى .

وكان الاختيار الأول لهذين الشرطين .

﴿ قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ (١) .

فلم يكتف نبيهم عليه الصلاة والسلام بطلبهم ، بل أراد أن يتوثق من ادعائهم وحذرهم من خطورة الأمر : أن يكتب عليهم القتال ثم ينكلوا أو يتراجعوا .

فالتخلى عن القتال بعد الأمر به خروج صريح على أمر الله عز وجل ، وبما أن القتال لم يكتب عليهم فهم فى سعة من الأمر .

ويستمع المجتمع الإسلامى الجديد فى المدينة إلى هذه التوجيهات ، فتتوق نفوسهم إلى

---

(١) البقرة : ٢٤٦ .

القتال أكثر ، وكأنما التحذير لهم مباشرة .

﴿ **فهل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا** ﴾ .

والمسوغ للقتال لدى الفريقين واحد .

﴿ **وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا** ﴾ .

وبين أيديهم نص الإذن بالقتال :

﴿ **الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله** ﴾ . (١)

فواقعهم الذى أذن لهم بالقتال فيه ، هو هو نفسه الذى حدا بالملأ لطلب القتال الذى كتب عليهم فيما بعد ، والمجاهدون المسلمون اليوم ، وقد أخرجوا من ديارهم وأبنائهم لا مندوحه لهم عن القتال .

وسقطوا فى الاختبار الأول ، وكانت التصفية الأولى .

﴿ **فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم** ﴾ . (٢)

وهذا يدفعنا إلى أن لا نغتر كثيرا بروح الحماس العامة والاندفاع الطاغى ، وأن نختبر هذا الحماس ، فقد يسقط عند الصدمة الأولى وهو ما أخبرنا القرآن الكريم به ، أن القليل فقط هم الذين أبدوا الاستعداد العملى للقتال في سبيل الله ، وهم المستثنون من الأمة التى تولت عن الجهاد .

وكان الاختبار الثانى للشرط الثانى ، لشرط القيادة :

﴿ **وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال . قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم** ﴾ . (٣)

وسقطوا فى الاختبار الثانى حين لاجّوا فى ملك طالوت ، فهم يريدونه من سبط يهوذا ، ومن أجل هذا هم أحق بالملك منه ، وليس من الملأ أصحاب الجاه والنفوذ والترف والسلطة ، فلم يؤت سعة من المال ، وكان الجواب النبوى لهم : أن ميزته عليكم هى صلاحيته الحقيقية الشخصية للملك ، من سعة علمه ، وبسطة جسمه والله يؤتى ملكه من يشاء .

---

(١) الحج / ٤٠ .
(٢) البقرة ٢٤٦ .
(٣) البقرة ٢٤٧ .

ولا عجب أن يناقشْ الناس العاديون حين نجد فى تلك الأمة من يعترض على اختيار الله تعالى لهم .

وأى نجاح لهم بعد أن ردوا اختيار الله تعالى لهم ؟

لكن القلة المؤمنة المجاهدة بقيت تحمل لواء الطاعة .

وأمكن جمع البقية الباقية من الصادقين الصابرين ، بعد أن جاءتهم الآية المعجزة دليلا حاسما على ملكه . .

﴿ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [1] .

ودائما يرتبط الإيمان بالمعجزة الحسية عند بنى إسرائيل .

وجاءهم التابوت ، وأذعنوا لقيادة طالوت . والتابوت رمز مقدساتهم وباعث انتصاراتهم .

وهكذا تجمعت كل عوامل المواجهة للعدو .

ثمانون ألفا من الجنود المؤمنين - كما يقول ابن عباس رضى الله عنهما والسدى - والتابوت فيه سكينة من الله تعالى وبقية مما ترك آل موسى وهارون ، وقيادة طالوت الذى اختاره الله تعالى لهم .

ومع ذلك فلم يكتف طالوت رضى الله عنه بالاختبار الأول والثانى فأقدم على الاختبار الثالث .. وكانت التصفية الثانية فى هذا الاختبار .

﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلا منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ [2] .

والآية الكريمة تحدثنا عن الاختبار الثالث مع الاختبار الثانى ، وعن التصفية الثالثة بعد التصفية الثانية .

ولأول وهلة يبدو الاختبار سهلاً . فالأمر صدر من طالوت رضى الله عنه ، أن

---

(١) البقرة ٢٤٨ . (٢) البقرة /٢٤٩ .

لا يشرب الجيش من النهر الذى يمر عليه ، وحتى لا يكون المحظور شديداً وقاسياً ، والامتحان عسيراً ، كان الاستثناء : ﴿ **إلا من اغترف غرفة بيده** ﴾ أى عند الضرورة القصوى ، والظمأ الشديد. فشربوا منه إلا قليلاً منهم .

عندما كتب عليهم القتال . تولوا إلا قليلا منهم ، وكان هذا القليل ثمانين ألفاً ، وعندما عصوا الأمر وشربوا منه إلا قليلا منهم ، كان هذا القليل أربعة آلاف وهذا القليل فيه من لم يطعم الماء ، وفيه من اغترف غرفة بيده .

أما الاختبار الثالث ، والتصفّية الثالثة ، فكان عند لقاء جالوت رأوا العدو فى مائة ألف ، فقالوا :﴿ **لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده** ﴾ لكن قليل القليل هذا ، عاد فتصفى منه أقل من عشره .

فإذا الذين برزوا لجالوت ، والذين ظنوا أنهم ملاقو الله ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، من أصل كل الأمة .

وأنزل الله تعالى السكينة عليهم ، ودعوا الله من خالص قلوبهم ﴿ **قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ [1] وبرزت القيادة الفذة الصامدة الصابرة المصطفاة ، وقادت معركة غير متكافئة إطلاقاً مع العدو ، فثلاثمائة يقابلون ما ينوف عن مائة ألف ، والفئة القليلة بهذا العدد كيف تتمكن أن تواجه الفئة الكثيرة الباغية الطاغية !؟

كان هذا فى تخطيط محكم من القيادة ، وكما تذكر الأخبار فى تفسير هذه النصوص أن طالوت رضى الله عنه وجه الأنظار إلى قيادة جيش العدو ، إلى جالوت ، وجعل قتله هدفاً من أعظم الأهداف .

(فخرج جالوت يطلب مبارزاً فكعّ [2] الناس عنه حتى قال طالوت : من يبرز إليه ويقتله ، فأنا أزوجه ابنتى وأحكمه فى مالى ، فجاء داود عليه السلام فقال : أنا أبرز إليه وأقتله ، فازدراه طالوت حين رآه لصغر سنه وقصره فردّه ، وكان داود أزرق قصيراً . ثم نادى ثانية وثالثة ، فخرج داود فقال له طالوت : هل جربت نفسك بشىء ؟ قال : نعم . قال : بماذا ؟ قال : وقع ذئب فى غنمى ، فضربته ، ثم أخذت رأسه فقطعته عن جسده ، قال : الذئب ضعيف ، هل جربت نفسك فى غيره ؟ قال نعم ، دخل الأسد فى غنمى

---

(١) البقرة / ٢٥٠ .

(٢) كعَّ الناس : جبنوا وخافوا .

فضربته ثم أخذت بلحييه فشققتهما ؛ أفترى هذا أشد من الأسد ؟ قال : لا وكان عند طالوت درع لا تستوى إلا على من يقتل جالوت ، فأخبره بها وألقاها عليه فاستوت ، فقال طالوت : فاركب فرسي ، وخذ سلاحى ، ففعل ، فلما مشى قليلا رجع فقال الناس جبُن الفتى ، فقال داود : إنَّ الله إنْ لم يقتله لى ، ويعِنى عليه ، لم ينفعنى هذا الفرس ، ولا هذا السلاح . ولكننى أحب أن أقاتله على عادتى ، قال : وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع ، فنزل وأخذ مخلاته فتقلدها ، وأخذ مقلاعه ، وخرج إلى جالوت وهو شاكٍ فى سلاحه ، على رأسه بيضة فيها ثلاثمائة رطل ، فيما ذكر الماوردى وغيره ، فقال له جالوت : أنت يافتى تخرج إليَّ ؟ قال : نعم ، قال هكذا كما تخرج إلى الكلب ! قال : نعم ، وأنت أهون ، قال : لأطعمن لحمك اليوم للطير والسباع ، ثم تدانيا ، وقصد جالوت أن يأخذ داود بيده استخفافاً به ، فأدخل داود يده إلى الحجارة فروى أنها التأمت ، فصارت حجراً واحداً ، فأخذه ووضعه في المقلاع ، وسمى الله وأداره ورماه ، فأصاب به رأس جالوت فقتله ، وحز رأسه ، وجعله فى مخلاته ، واختلط الناس ، وحمل أصحاب طالوت فكانت الهزيمة)[1] .

وهذه الأخبار نستأنس بها فى فهم قول الله عز وجل :

﴿ فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾[2] .

فالنص القرآني يؤكد هزيمة الكافرين ، وأن داود صلى الله عليه وسلم قتل جالوت ، ولم يكن داود قائداً ولا من الملأ إنما كان راعيا للغنم .

وسرعان ما تستعيد الذاكرة صورة أبى جهل مقابل جالوت ، أبو جهل الذى سماه رسول الله ﷺ : فرعون هذه الأمة ، وصورة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قاتل أبى جهل ، وهو الذى قال له أبو جهل : لقد ارتقيت مرتقى صعباً يارويعى الغنم ، حيث قتله واحتز رأسه ، ومضى به إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

هذه الومضة الأولى بين بدر وأصحاب طالوت .

والومضة الثانية من خلال الملك والحكمة التى أعطاها الله تعالى لداود عليه الصلاة

---

(١) تفسير القرطبى / المجلد الثانى جـ٣ /٢٥٧ .

(٢) البقرة /٢٥١.

والسلام ، والحكمة التى أعطاها الله تعالى لابن مسعود .

فعن حذيفة رضى الله تعالى عنه قال : إن أشبه الناس دَلاً [١] وسمتاً [٢] وهدياً برسول الله ﷺ لا بْنُ أم عبد من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه ، لا ندرى مايصنع بأهله إذا خلا . [٣]

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « استقرؤوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وأبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل » [٤] .

والومضة الثالثة فى عدة أهل بدر وعدة أصحاب طالوت .

فعن البراء بن عازب رضى الله عنهما : إن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا مؤمن ، وهم بضعة عشر وثلاثمائة . وفى رواية ثلاثمائة وثلاثة عشر [٥] .

والومضة الرابعة فى انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة .

والومضة الخامسة في فضل أهل بدر وفضل أصحاب طالوت ، فبهم دفع الله تعالى فساد الأرض آنذاك .

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ .

ونجد الصورتين متقاربتين كذلك :

فآيات الإذن بالقتال قالت :

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ [٦] .

وآيات أصحاب طالوت قالت :

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ [٧] .

(قال ابن عباس رضى الله عنهما ، ولولا دفع الله العدو بجنود المسلمين لغلب

---

(١) سمتاً: طريقة . (٢) دَلاً : قطعة . (٣) رواه البخارى .
(٤) متفق عليه . (٥) رواه البخارى . (٦) الحج / ٤٠ . (٧) البقرة .

المشركون ، فقتلوا المؤمنين وخربوا البلاد والمساجد .

وحكى مكيّ أن أكثر المفسرين على هذا المعنى ، لولا أن الله يدفع بمن يصلى عمّن لا يصلى ، وبمن يتقى عمّن لا يتقى ، لأهلك الناس بذنوبهم ، وكذا ذكر النحاس والثعلبى أيضاً . :

قال الثعلبى : وقال سائر المفسرين : ولولا دفاع الله المؤمنين الأبرار عن الفجار ، والكفار لفسدت الأرض ، أى هلكت ، وذكر حديثاً أن النبى ﷺ قال : « إن الله يدفع العذاب بمن يصلى من أمتى عمّن لا يصلى ، وبمن يزكى عمّن لا يزكى ، وبمن يصوم عمّن لا يصوم ، وبمن يحج عمّن لا يحج ، وبمن يجاهد عمّن لا يجاهد ، ولو اجتمعوا على ترك هذه الأشياء ما أنظرهم الله طرفة عين » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾)[1] .

وانتهت تلاوة قصة طالوت على المؤمنين وقد وضعت بصماتها على نفوسهم فالمؤمنون الصادقون ، يأملون أن يكتب القتال ، وأن يكونوا فى مقدمة الركب كأصحاب طالوت ، والمنافقون وضعاف القلوب يرجفون خوفاً من ذلك .

وندع لآيات القرآن القادمة إيضاح هذا التباين ، لنؤكد فى نهاية المطاف على أن قصة طالوت ، ليست درساً للجيل النبوى فقط - بل هى درس للأجيال المسلمة ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ونخص بالذكر جيلنا اليوم الذى ينتظر بفارغ الصبر تلك القيادة الرائدة ، التى تقوده إلى الجهاد .

---

(١) القرطبى /٢/٣/٢٦٠ .

فرض القتال

في شهر واحد نزلت آيات القتال فى الشهر الحرام ، وآيات فرض القتال كما يقول المفسرون .

أما آيات القتال فى الشهر الحرام ، فقد جاءت إجابة على تساؤل كبير ، وحرج عظيم وقع فيه المجتمع المسلم ، فلأول مرة فى تاريخ الأمة يقع قتال في الشهر الحرام ، ولأول مرة يُقتل فيه مشرك برغم كل البعوث والسرايا التى استمرت عاماً ونصف العام .

وهذه قصة هذا اللقاء :[1]

(.. ولما رجع رسول الله ﷺ من طلب كرز بن جابر ـ وتعرف تلك الخرجة ببدر الأولى ـ أقام بالمدينة بقية جمادى الآخرة ورجب ، وبعث فى رجب عبد الله بن جحش ابن رئاب الأسدى ، ومعه ثمانية رجال من المهاجرين ، وهم أبو حذيفة بن عتبة ، وعكاشة ابن محصن ، وعتبة بن غزوان ، وسهيل بن بيضاء الفهرى ، وسعد بن أبى وقاص ، وعامر ابن ربيعة ، وواقد بن عبد الله الليثى ، وخالد بن بكير الليثى ، وكتب لعبد الله بن جحش كتابا ، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ـ فيمضى لما أمره به ، ولا يستكره أحداً من أصحابه ، وكان أميرهم ـ ففعل عبد الله بن جحش ما أمره به ، فلما فتح الكتاب وقرأه وجد فيه : إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم ، فلما قرأ الكتاب قال : سمعاً وطاعة ، ثم أخبر أصحابه بذلك ، وبأنه لا يستكره أحداً منهم ، وأنه ناهض لوجهه بمن أطاعه ، وأنه إن لم يطعه أحد مضى وحده ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع فقالوا : كلنا نرغب فيما ترغب فيه ، وما منا أحد إلا وهو سامع ومطيع لرسول الله ﷺ . ونهضوا معه ، فسلك على الحجاز وشرد لسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان جمل كانا يتعقبانه ، فتخلفا فى طلبه ، ونفذ عبد الله بن جحش مع سائرهم لوجهه حتى نزل بنخلة ، فمرت بهم عير

---

(١) الآية التى سبقت آيات القتال في الشهر الحرام تؤكد فرضية القتال على المؤمنين وهى قول الله عز وجل .﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه** ... ﴾ البقرة / ٢١٦ وبداية ٢١٧ .

لقريش ، تحمل زبيبا وتجارة فيها عمرو بن الحضرمى ، وعثمان ابن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميان ، والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة .

فتشاور المسلمون ، وقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب : الشهر الحرام ، فإن نحن قاتلناهم هتكنا حرمة الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اتفقوا على لقائهم ، فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى فقتله ، وأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وأفلت نوفل بن عبد الله ، ثم قدموا بالعير والأسيرين . وقال لهم عبد الله بن جحش : اعزلوا مما غنمنا الخمس لرسول الله ﷺ ففعلوا ، فكان أول خمس فى الإسلام ، ثم نزل القرآن : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول** ﴾ (١) فأقر الله ورسوله فعل عبد الله بن جحش ، ورضيه وسنه للأمة إلى يوم القيامة ، وهى أول غنيمة غنمت فى الإسلام ، وأول أمير ، وعمرو بن الحضرمى أول قتيل ، وأنكر رسول الله ﷺ قتل ابن الحضرمى فى الشهر الحرام ، فسقط في أيدى القوم ، فأنزل اللّه عز وجل ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه** ﴾ إلى قوله ... ﴿ **هم فيها خالدون** ﴾ ، وقبل رسول الله ﷺ الفداء فى الأسيرين . وقال : لا نفديهما حتى يقدم سعد وعتبة ، وإن لم يقدما قتلناهما بهما ، فلما قدما فاداهما ، فأما الحكم فأسلم ، وأقام في المدينة حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً) . (٢)

(وقال ابن إسحاق : فلما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة قال : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط فى أيدى القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة : إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان ، وقال اليهود تفاءَلُ (٣) بذلك على رسول الله ﷺ : عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله . عمرو عمرت الحرب ، والحضرمى ، حضرت الحرب . وواقد بن عبد الله وقدت الحرب . فجعل الله ذلك عليهم لا لهم ، فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر**

---

(١) الأنفال / ٤١ . (٢) تفسير القرطبى /٢/٣/ ٤١-٤٢ .

(٣) تفاءَلُ : تتفاءل بهزيمة النبى ﷺ .

عند الله ﴾[١] أى : إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام ، فقدصدوكم عن سبيل الله مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام ، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم ، (والفتنة) أكبر من القتل ، أى : قد كانوا يفتنون المسلم فى دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل ﴿ **ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾[٢] أى : وهم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه ، غير تائبين ولا نازعين .

فلما نزل القرآن بهذا الأمر ، وفرج الله تعالى عن المسلمين ماكانوا فيه من الشفق [٣] قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين ..

فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ماكانوا فيه ـ حين نزل القرآن ـ طمعوا فى الأجر ، فقالوا : يارسول الله ، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله عز وجل فيهم : ﴿ **إن الذين آمنوا ، والذين هاجروا ، وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم** ﴾[٤] فوضعهم الله عز وجل من ذلك على أعظم الرجاء، والحديث فى ذلك عن الزهرى ويزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير) .[٥]

ولنا الملحوظات التالية على ضوء هذه النصوص :

١ ـ لقد كان الذهاب إلى نخلة بين مكة والطائف أكبر تحد لقريش فى عقر دارها ، فليس الأمر تعرضا للقوافل المارة من المدينة أو قريبا منها فقط بل حتى القوافل التى بين الطائف ومكة عرضة للمهاجمة ، وليس إخراج المسلمين من مكة يعنى راحة بال مكة ، بل يعنى قض مضجعها فى عقر دارها .

٢ ـ ولصعوبة الأمر وخطورته ، كان التخيير فى متابعة المسير بعد يومين ضروريا لهذه المجموعة .

فهو تدريب فعلى على المهاجمة والمواجهة ، والمجموعة دون العشرة ، والمكان فى جوار مكة ، فهى لا تقل عن عملية حربية داخل مكة ، ومن أجل هذا ترك الأمر على الاختيار لصعوبة تنفيذ المهمة ، أما أمير المجموعة عبد الله رضى الله عنه فقد نفذ الأمر

---

(١) البقرة / ٢١٧. (٢) البقرة ٢١٧ . (٣) الشفق : الخوف .
(٤) البقرة / ٢١٨ . (٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤١، ٢٤٢. .

بتخيير جنوده ، ثم قال لهم كلمته العظيمة : إنه إن لم يطعه أحد مضى وحده ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع وكانت المجموعة المختارة على المستوى الرفيع ، فلم يتخلف منهم أحد ، وساروا مع أميرهم ، وما كان تخلف سعد وعتبة رضى الله عنهما حين ضل بعيرهما إلا بإذن من أميرهم عبد الله ، ومن أجل هذا رفض رسول الله ﷺ فدية أسيرى مكة إلا بعد عودتهما ، حتى لا تكون قريش قد احتجزتهما .

٣ ـ وحين وجدت المجموعة نفسها فى حرج ، وهم فى آخر يوم فى الشهر الحرام ، وخشوا أن تفوتهم القافلة ، تشاوروا وانتهى رأيهم إلى المواجهة ، ونفذت العملية بنجاح رائع وجئ بالقافلة مع أسيرين وقتل ثالث .

٤ ـ ونتقدم بهذه الدروس الثلاثة إلى المجاهدين فى الأرض اليوم ـ وقبل وصولهم إلى مرحلة الزحف والمهاجمة الشاملة مع العدو ـ ونرجو أن يكون هذا الأنموذج النبوى حيا بينهم ، يقتدون به ويتأسون فى عملياتهم ضد الطغاة ، فى حسن الاختيار ، وحسن التنفيذ ، وحسن الطاعة ، وتحقيق الهدف .

٥ ـ وكما نلحظ قبل غزوة بدر أن الأهداف للسرايا والبعوث كان معظمها أهدافاً اقتصادية وبعضها أهدافاً سياسية أو استخبارية ، وقطع شريان مكة من التجارة هو خنق لها قبل المواجهة العسكرية .

٦ ـ وحين ننتقل إلى التعقيب القرآنى على هذه السرية نجده ـ وإن كان لا يقر القتال فى الأشهر الحرم ـ يوجه النظر إلى أن حرب الإبادة التى يشنها العدو على المسلمين هى أكبر من أية خطيئة أو مخالفة تذكر ، وكما يقول سيد رحمه الله : (هؤلاء قومك طغاة بغاة معتدون ، لا يقيمون للمقدسات وزناً ، ولا يتحرجون أمام المحرمات ويدوسون كل ماتواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة ، يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه ، ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء ، ويخرجونهم من البلد الحرام الذى يأمن فيه كل حى حتى الهوام ! ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام ، ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم المحرمات والمقدسات ، ويرفعون أصواتهم : انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون الشهر الحرام ، فكيف يواجههم الإسلام ؟ يواجههم بحلول مثالية نظرية طائرة ؟ إنه إن يفعل يجرد المسلمين الأخيار من السلاح ، بينما خصومهم الأشرار يستخدمون كل سلاح ، ولا يتورعون عن سلاح ! كلا إن الإسلام لا يصنع هذا ، لأنه يريد مواجهة الواقع لدفعه ورفعه ، يريد أن يزيل البغى والشر ،

وأن يقلم أظافر الباطل والضلال ، ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة ، ويسلم القيادة للجماعة الطيبة ، ومن ثم لا يجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناة ، وهم في مأمن من رد الهجمات ، ومن نيل الرماة) . [١]

٧ ـ ويؤكد القرآن الكريم فى هذه النصوص بشكل أوضح وأبين حقيقة موقف الكفار والمشركين من المؤمنين ، وهو تقرير لا يتغير على مدى الدهور ، ولو اصطبغ بأى لون ، وتخفى تحت أى ستار .

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ . [٢]

هذا هو الهدف النهائى لمعركة الكفار مع المؤمنين وهو ردهم عن دينهم ، وفتنتهم عنه ، وقرر القرآن الكريم القاعدة السابقة مع هذه القاعدة **﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾** .

فحين يكون النظام الكافر يحمل هذه الهوية يفتن المؤمنين عن دينهم ، ويمنعهم عن ممارسة شعائرهم والدعوة إلى مبادئهم ، ويحل محل هذه المبادىء مقررات بشرية وحين يغير مناهج التعليم التى تلتئم مع عقيدة الأمة ليقرر المناهج البشرية والمبادىء المستوردة إنما ينفذ مفهوم الفتنة عن دين الله ، و--ن يفرض شعارات معينة ، ويفرض التبرج المحرم ، ويمنع المسلم من الدعوة إلى دينه ويهدده فى ماله ونفسه وعرضه إن دعا إلى الإسلام فهو يقوم بعملية الفتنة ، فالهدف النهائى من الفتنة إذن هو الردة ، ردة المسلمين عن دينهم إن استطاعوا ذلك .

وحين تصل الأمور إلى هذا الحد ، فلا حرمة لدماء الكفار ومن يواليهم بعد ذلك فالفتنة أكبر من القتل .

٨ ـ وحين ارتفع الحرج فى الصف المسلم عن هذه المجموعة المجاهدة ، واستلم رسول الله ﷺ الأسيرين والعير ، كان كل آمالها أن تكون فى عداد المجاهدين المأجورين ، ووعدهم الله تعالى بذلك مثنيا عليهم وعلى جهادهم .

﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ [٣] وقد وعدهم الله تعالى بالمغفرة والرحمة ، ولاشىء أعظم على قلوب المؤمنين من ذلك ، أن يتنزل القرآن ليغسل هذا الحرج من هذه النفوس .

٩ ـ واليهود القابعون فى جحورهم ، هاهم أولاء يخرجون من أوكارهم ،

---

(١) فى ظلال القرآن /١/٢٢٦، ٢٢٧ . (٢) البقرة ٢١٧ . (٣) البقرة ٢١٨ .

ويتناغمون مع المشركين ، ويفرحون بحضور الحرب ، وأن قريشاً ستثأر لابن الحضرمي ، فقد قالوا : (عمرو : عمرت الحرب والحضرمي حضرت الحرب ، ووافد قد وقدت الحرب ، وهم بذلك يأملون أن تقع الحرب ، وبالتالي سوف يقضي على المسلمين في المدينة ، برغم أنهم حلفاء الرسول ﷺ ، وقد وقعوا العهود والعقود على أن يكونوا مع المسلمين يداً واحدة على من دهم يثرب ، غير أن القرآن يكشف زيفهم ، ويقرر الحقيقة الخالدة كذلك ، بعضهم أولياء بعض ، ولو اضطرتهم الظروف إلى غير ذلك .

١٠ ـ ومضى عبد الله بن جحش رضي الله عنه ، بلقب أمير المؤمنين ، ولم ينل هذا اللقب أحد في حياة رسول الله ﷺ غيره ، وكان أولُ قتيل في الإسلام من المشركين ، وأول فيء للمسلمين وأول أسارى لهم ، من خلال هذه السرية المباركة ، ليفتح صفحة جديدة بعدها مع المشركين .

وكانت آيات فرض القتال .

فلم يمر شهر واحد ، حتى تعبأ المسلمون للقتال ، ونزل قول الله عز وجل :

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ، الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين ، وأنفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ . (١)

فاحتمالات المواجهة أصبحت كبيرة ، ولا بد أن يستعد المسلمون لها ، ولا بد من قتال من يقاتلهم ، **﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾** .

والقتال لابد أن يكون في سبيل الله ، لا من أجل مغنم أو مكسب ، إنما هو خالص لله سبحانه ، وتحديد الهدف أساسي في المعركة .

---

(١) البقرة / ١٩٠ ـ ١٩٥ .

وقد حددت الآيات مفهوم الاعتداء ، حتى لا يرد إلى الذهن شيء من الريبة أو الشك فى تحديد المعتدين الطغاة ، فجاءت الآية واضحة الدلالة بلا غموض : ﴿ **واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل** ﴾ . فالأمر واضح لكل مسلم فى قتل كل مشرك من هؤلاء المعتدين ، حيثما كان وأنى وجد .

فالمشركون فى مكة ومن والاهم معتدون ، لأنهم أخرجوا المسلمين من ديارهم ، وحاولوا فتنتهم عن دينهم ، والفتنة أشد من القتل .

وإذا كانت الآيات السابقة تتحدث بالإشارة عن القتال فى حادثة محددة ، وعن مبرراته ، فهى الآن من الوضوح والبيان والنصاعة بحيث تحرق كل دخل أولبس : الإخراج من البلد جريمة اعتداء ضخمة . والفتنة عن الدين جريمة اعتداء أضخم ، وأمام تينك الجريمتين لاحل إلا القتل ، والقتال فى كل مكان وجد فيه هؤلاء المعتدون . إنه إعلان شامل للحرب ، مع استثناء واحد هو ألا يكون القتال عند المسجد الحرام الذى يأمن فيه كل مقيم وداخل ، ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ [1] لكن إذا وقع القتال منهم عنده ، فلابد من مواجهتهم بالقتل ، وهذا هو جزاء الكافرين الذين يحاربون الله ورسوله .

فإن كفوا عن اعتداءاتهم ، وفتحوا لكم أبواب مكة ، وتراجعوا عن فتنتكم عن دينكم ، ودخلوا فى دين الله ، فإن الله غفور رحيم .

لكن استمرار القتال قائم باستمرار أسبابه .

وأسباب قتال الكفار التى تمضى مع الزمن ولاتبلى :

﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله** ﴾ [2] .

وحيث إن الفتنة قائمة ، ومحاولات صرف الناس عن دينهم موجودة ، فالقتال مفروض وتنتهى ضرورة القتال عندما تنتهى الفتنة ، ويكون الخضوع لسلطان الله وشريعته ، وتكون الدينونة لله رب العالمين وحده .

﴿ **فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾ .[3]

وحرمة المسجد الحرام ، وحرمة الشهر الحرام متوقفة على مراعاة هذه الحرمة من الآخرين أما أن تستغل هذه الحرمات لتنفيذ الاعتداء وسفك الدماء ، فلا .

---

(١) آل عمران / ٩٧ .   (٢) البقرة / ١٩٣ .   (٣) البقرة / ١٩٣ .

﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ . [1]

وللجهاد تكاليفه من المال ، والبذل ركن أساسى من أركان الجهاد ، فكان الحديث عن الإنفاق : ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** ﴾ . [2]

ويحدثنا سيد رحمه الله عن الجهاد بقوله :

(لقد جاءت هذه العقيدة فى صورتها الأخيرة التى جاء بها الإسلام ، لتكون قاعدة للحياة البشرية فى الأرض من بعدها ، ولتكون منهجًا عاما للبشرية جميعها ، ولتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية فى طريق الله ، وفق هذا المنهج المنبثق من التصور الكامل الشامل لغاية الوجود كله ، ولغاية الوجود الإنسانى ، كما أوضحهما القرآن الكريم المنزل من عند الله ، قيادتها إلى هذا الخير الذى لاخير بعده فى مناهج الجاهلية جميعًا ، ودفعها إلى هذا المستوى الذى لا تبلغه إلا في ظل هذا المنهج ، وتمتيعها بهذه النعمة التى لا تعدلها نعمة ، والتى تفقد البشرية كل نجاح وكل فلاح حين تحرم منها ، ولا يعتدى عليها معتدٍ بأكثر من حرمانها من هذا الخير ، والحيلولة بينها وبين ما أراده لها خالقها مِن الرفعة والنظافة والسعادة والكمال .

ومن ثم كان من حق البشرية أن تبلغ إليها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهى الشامل ، وألا تقف عقبة أو سلطة فى وجه التبليغ بأى حال من الأحوال .

ثم كان من حق البشرية كذلك أن يترك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحراراً فى اعتناق هذا الدين ، لا تصدهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة ، فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان ، لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضى فى طريقها ، وكان عليه أن يعطى للعهود ما يكفل لها الحرية والاطمئنان ، وما يضمن للجماعة المسلمة المضى فى طريق التبليغ بلا عدوان ، فإذا اعتنقها من هداهم الله إليها كان من حقهم ألا يفتنوا عنها بأى وسيلة من وسائل الفتنة ، لا بالأذى ولا بالإغراء ، ولا بإقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى ، وتعويقهم عن الاستجابة ، وكان مِن واجب الجماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرضِ لهم بالأذى والفتنة ، ضماناً لحرية العقيدة ، وكفالة لأمن الذين هداهم الله ، وإقراراً لمنهج الله فى الحياة ، وحماية للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام .

(١) البقرة / ١٩٤ . (٢) البقرة / ١٩٥ .

وينشأ عن تلك الحقوق الثلاثة واجب آخر على الجماعة المسلمة . وهو أن تحطم كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس فى حرية ، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة ، وتفتن الناس عنها ، وأن تظل تجاهد حتى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنة لقوة فى الأرض ، ويكون الدين لله ، لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان ، ولكن بمعنى استعلاء دين الله فى الأرض بحيث لايخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول ، ولا يخاف قوة فى الأرض تصده عن دين الله أن يبلغه ، وأن يستجيب له ، وأن يبقى عليه ، وبحيث لا يكون فى الأرض وضع أو نظام يحجب نور الله وهداه عن أهله ، ويضلهم عن سبيل الله بأية وسيلة وبأية أداة .

وفي حدود هذه المبادىء العامة كان الجهاد في الإسلام .

وكان لهذه الأهداف العليا وحدها ، غير ملتبسة بأى هدف آخر ، ولا بأى شارة أخرى إنه الجهاد للعقيدة ، لحمايتها من الحصار ، وحمايتها من الفتنة ، وحماية منهجها وشريعتها فى الحياة وإقرار رايتها فى الأرض ، بحيث يرهبها من يهم بالاعتداء عليها قبل الاعتداء ، وبحيث يلجأ إليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى فى الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه .

وهذا هو الجهاد الوحيد الذى يأمر به الإسلام ، ويقره ويثيب عليه ، ويعتبر الذين يقتلون فيه شهداء ، والذين يحتملون أعباءه أولياء) [1] .

وهناك معان وجوانب أخري ذكرها ابن جرير رحمه الله نلخصها فيما يلى :

١ ـ (القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ اختلف أهل التأويل فى تأويل هذه الآية ، فقال بعضهم : هذه الآية هى أول آية نزلت فى أمر المسلمين بقتال أهل الشرك ، وقالوا أمر فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين ، والكف عمن كف عنهم ثم نسخت ببراءة) [2] .

٢ ـ (وقال آخرون بل ذلك أمر من الله تعالى ذكره للمسلمين بقتال الكفار لم ينسخ ، وإنما الاعتداء الذى نهاهم الله تعالى عنه هو نهيه عن قتل النساء والذرارى . قالوا : والنهى عن قتلهم ثابت حكمه اليوم فلا شىء نسخ من حكم هذه الآية) . [3]

---

(١) فى ظلال القرآن ١ / ١٨٦ ، ١٨٧ . (٢ ، ٣) تفسير الطبرى / ٢ / ١١٠ - ١١٢ مقتطفات .

ثم يرجح رحمه الله الرأى الثانى بقوله :

(فتأويل الآية إذا كان الأمر على ماوصفنا . وقاتلوا أيها المؤمنون فى سبيل الله - وسبيله طريقه الذى أوضحه ودينه الذى شرعه لعباده - .. فى طاعتى وعلى ماشرعت لكم من دينى وادعوا إليه من ولى عنه واستكبر .. ولا تعتدوا . لاتقتلوا وليداً ولا امرأة ولا من أعطاكم الجزية من أهل الكتاب) . (١)

٣ - ﴿ **والفتنة أشد من القتل** ﴾ فتأويل الكلام وابتلاء المؤمن فى دينه حتى يرجع عنه فيصير مشركاً من بعد إسلامه ، أشد عليه وأضر من أن يقتل مقيماً على دينه متمسكاً عليه محقا فيه .

٤ - يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم حتي لا تكون فتنة يعنى حتى لايكون شرك بالله ، وحتى لايعبد دونه أحد ، وتضمحل عبادة الأوثان والآلهة والأنداد ، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان) . (٢)

٥ - (القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** ﴾ اختلف أهل التأويل فى تأويل هذه الآية ومن عنى بقوله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، فقال بعضهم عنى بذلك وأنفقوا فى سبيل الله .. ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة يقول : ولا تتركوا النفقة فى سبيل الله فإن الله يعوضكم عنها أجراً ويرزقكم عاجلا) . (٣)

٦ - وقال آخرون ممن وجهوا تأويل ذلك : (إلى أنه معنية به النفقة ، معنى ذلك : وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ،فتخرجوا فى سبيل الله بغير نفقة ولا قوة) . (٤)

٧ - وقال آخرون بل معناه : (أنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم فيما أصبتم من الآثام إلى التهلكة ، فتيأسوا من رحمة الله ، ولكن ارجوا رحمته واعملوا الخيرات) (٥)

٨ - وقال آخرون : بل معنى ذلك : (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تتركوا الجهاد فى

(١ ، ٢) تفسير الطبرى / ٢ / ١١٠ - ١١٢ مقتطفات .

(٣) المصدر السابق ص ٢ / ١١٦ - ١١٨ .

(٤ ، ٥) مقتطفات من تفسير الطبرى /٢/١١٦ - ١١٨ .

سبيله ، فعن أبي عمران قال : « غزونا المدينة - يعني القسطنطينة - وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، قال : فصففنا صفين ، لم أر صفين قط أعرض ولا أطول منهما ، والروم ملصقون ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل منا على العدو ، فقال الناس : لا إله إلا الله ، يلقى بيده إلى التهلكة ، قال أبو أيوب الأنصارى : إنما تتأولون هذه الآية هكذا أن حمل رجلٌ يقاتل يلتمس الشهادة أو يبلى من نفسه ، إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ، إنا لما نصر الله نبيه ، وأظهر الإسلام ، قلنا بيننا معشر الأنصار خفياً عن رسول الله ﷺ إنا قد كنا تركنا أهلنا وأموالنا أن نقيم فيها ، ونصلحها حتى نصر الله نبيه ، هلم نقيم فى أموالنا ونصلحها ، فأنزل الله الخبر من السماء : ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ الآية ، فالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وندع الجهاد ، قال أبو عمران : فلم يزل أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتي دفن بالقسطنطينة) .[1]

ونخلص بعد هذا العرض السريع إلى أن هذه الآيات التى فرض فيها القتال فى الإسلام لمن قاتل ، والتى تلت آيات الإذن بالقتال ، وآيات القتال فى الشهر الحرام ، كانت تعبئة وتهيئة للنفوس إلى غزوة بدر الكبرى ، والتى لم يكن بينها وبين الغزوة أكثر من شهر ، فسرية عبد الله بن جحش رضى الله عنه كانت فى آخر رجب وأول شعبان ، وغزوة بدر كانت فى السابع عشر من رمضان .

فوضعت هذه الآيات نفوس العصبة المجاهدة من المهاجرين والأنصار فى تعبئة كاملة ، كما أن آيات أصحاب طالوت رفعت المد الشعورى للمواجهة ، وكيف ينصر الله تعالى القلة على الكثرة ، فكانت بدر على ميعاد من القدر ، ننتقل إليها بعد هذه التوطئة .

(١) مقتطفات من تفسير الطبرى /٢/١١٦ - ١١٨ .

سورة الأنفال وغزوة بدر

الجولة الأولى

أولاً : الأنفال وعرض الضعف البشرى :

المسلمون قادمون من بدر ، ونشوة الظفر تملك عليهم ألبابهم ، وهو نصر ليس كالنصر ، فلقد شهدت الملائكة معهم الحرب ، وآخر عهدهم بالوحى يتنزل من الله تعالى حين فرض عليهم القتال ، لمن قاتلهم من المشركين ، وهاهم أولاء قد نفذوا أمر الله تعالى وهم ينتظرون وحى الله تعالى على رسوله بعد بدر يتحدث عنهم وعن لقائهم مع المشركين .

فنزل قول الله عز وجل :

﴿ **يسألونـك عن الأنفال ، قـل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين** ﴾ . (١)

وكانت بداية الآيات الدرس الأول في التربية بعد نصر بدر:

(روى عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ، فلقوا العدو ، فلما هزمهم الله تعالى اتبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ ، واستولت طائفة على العسكر والنهب ، فلما نفى الله العدو ورجع الذين طلبوهم قالوا : لنا النفل ، نحن الذين طلبنا العدو ، وبنا نفاهم الله وهزمهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : ما أنتم أحق به منا ، بل هو لنا ، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ ، لئلا ينال العدو منه غرة ، وقال الذين استلوا (٢) على العسكر والنهب : ماأنتم بأحق منا ، هو لنا ، نحن حويناه ، واستولينا عليه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسـوله إن كنتم مؤمنين** ﴾ فقسمه رسول الله ﷺ عن فواق (٣) بينهم) .

وذكر محمد بن إسحاق ، قال : حدثنى عبد الرحمن بن الحارث وغيره ، عن

---

(١) الأنفال /١ .
(٢) استلوا : أطافوا وأحاطوا .
(٣) عن فواق : عن سرعة .

أصحابنا ، عن أبى أمامة الباهلى قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال ، فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول ، فقسمه رسول الله ﷺ عن بواء [1] . فكان ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين .

وروى فى الصحيح عن سعد بن أبى وقاص قال : اغتنم أصحاب رسول الله ﷺ غنيمة عظيمة ، إذا فيها سيف ، فأخذته ، فأتيت النبى ﷺ فقلت : نفلنى هذا السيف ، فأنا من قد علمته ، قال : « ردَّه من حيث أخذته » ، فانطلقت حتى أردت أن ألقيه فى القبض [2] لامتنى نفسى ، فرجعت إليه فقلت : أعطنيه . قال : فشدَّ لى صوته : « ردَّه من حيث أخذته » ، فانطلقت حتى أردت أن ألقيه في القبض لامتنى نفسى ، فرجعت إليه ، فقلت : أعطنيه ، قال : فشدّ إلىَّ صوته : « ردَّه من حيث أخذته » ، فأنزل الله : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ لفظ مسلم) [3] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ، قال : فتسارع فى ذلك شبان الرجال ، وبقيت الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت الغنائم جاؤوا يطلبون الذى جعل لهم ، فقالت الشيوخ : لا تستأثروا علينا ، فإنا كنا ردءا لكم ، وكنا تحت الرايات ، ولو انكشفتم لفئتم إلينا ، فتنازعوا ، فأنزل الله ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم . وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين** ﴾) . [4]

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال :

لما كان يوم بدرقُتل أخى عمير ، وقتلت سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه ، وكان يسمى : ذا الكثيفة ، فجئت به إلى النبى ﷺ ، فقال اذهب فاطرحه في القبض ، فطرحته ورجعت وبى مالا يعلمه إلا الله من قتل أخى ، وأخذ سلبى ، قال فما جاوزت إلا قريبا حتى نزلت عليه سورة الأنفال ، فقال : اذهب فخذ سيفك .

---

(١) عن بواء : على السواء .

(٢) القبض : بالتحريك أى ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم .

(٣) تفسير القرطبى/ م٤/٧ / ٣٦٠، ٣٦١ .

(٤) فى رواية أن الأرقم بن أبى الأرقم رضى الله عنه سأل رسول الله سيف سعد فأعطاه إياه .

قال أبو جعفر : (وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تعالى أخبر فى هذه الآية عن قوم سألوا رسول الله ﷺ الأنفال أن يعطيهموها ، فأخبرهم الله أنها لله ، وأنه جعلها لرسوله . وإذا كان ذلك معناه جاز أن يكون نزولها كان من أجل اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ ، وجائز أن يكون كان من أجل مسألة من سأله السيف الذى ذكرنا عن سعد أنه سأله إياه (١) وجائز أن يكون من أجل مسألة من سأله : قسم ذلك بين الجيش) .(٢)

(لقد أخذهم الله سبحانه بالتربية الربانية قولاً وعملاً ، نزع أمر الأنفال كله منهم ، ورده إلى رسول الله ﷺ ، حتى أنزل حكمه فى قسمة الغنائم بجملتها ، فلم يعد الأمر حقاً لهم يتنازعون عليه ، إنما أصبح فضلاً من الله عليهم ، يقسمه رسول الله بينهم كما علمه ربه .. وإلى جانب الإجراء العملى التربوى كان التوجيه المستطرد الطويل ، الذى بدأ بهذه الآيات واستطرد فيما تلاها كذلك .

﴿ يسألونك عن الأنفال . قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ .

لقد كان الهتاف لهذه القلوب التى تنازعت على الأنفال ، هو الهتاف بتقوى الله « وسبحان خالق القلوب العليم بأسرار القلوب » إنه لايرد القلب البشرى عن الشعور بأعراض الدنيا والنزاع عليها ، وإن كان هذا النزاع ملتبساً هنا بمعنى الشهادة بحسن البلاء إلا استجاشة الشعور بتقوى الله ،وخوفه وتلمس رضاه فى الدنيا والأخرى . إن قلباً لا يتعلق بالله يخشى غضبه ، ويتلمس رضاه ، لا يملك أن يتخلص من ثقلة الأعراض ، ولا يملك أن يرف شاعراً بالانطلاق .

إن التقوى زمام هذه القلوب التى يمكن أن تقاد منه طائفة ذلولة فى يسر وفى هوادة .. وبهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب إلى إصلاح ذات بينها .

﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ .

وبهذا الزمام يقودها إلى طاعة الله ورسوله . **﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾** وأول الطاعة هنا طاعته فى حكمه الذى قضاه فى الأنفال ، فقد خرجت من أن تكون لأحد من الغزاة على الإطلاق ، وارتدت ملكيتها ابتداءً لله والرسول ، فانتهى حق التصرف فيها

(١) تفسير الطبرى /م٦/٩/١١٦ .

(٢) في ظلال القرآن /٣ /٧ / ١٤٧٣، ١٤٧٤ .

إلى الله والرسول ، فما على الذين آمنوا إلا أن يستسلموا فيها لحكم الله وقسم رسول الله ، طيبة قلوبهم ، راضية نفوسهم ، وإلا أن يصلحوا علائقهم ومشاعرهم ، ويصغوا قلوبهم بعضهم لبعضهم) [1] .

نعم إنها التربية الربانية التي تعيد زمام هذه النفوس ذليلة مستسلمة لله عز وجل ، لا تستعبدها نشوة الظفر ، ولا استعلاء النصر ، فتنسى ضعفها البشرى وقصورها البشرى ، وتفكر بالاستعلاء والاستكبار على الآخرين .

الهوينى الهوينى ، فهؤلاء الذين حققوا هذا النصر - فى ظاهر الأمر- هم هم أنفسهم الذين تنازعوا ، واختلفوا على الغنائم ، وتخلخلت ذات بينهم بعد المعركة .

وهذا العرض الربانى يؤكد حقيقة أكبر من النصر ومن الظفر على المشركين أعداء الله ، يؤكد أن صلاح ذات البين ، والانتصار الحقيقى على مسارب النفوس ومشارب القلوب ، هو الأكبر فى ميزان الله ، وهو الأعظم فى ميزان الله ، ولا جدوى من نصر يعقبه صراع فى الصف ، واختلاف فى القلوب .

* قضية التقوى والإيمان إذن ليست خاصة فى المساجد وعمارها ، وليس مجالها فى التسبيح والتحميد آلاف المرات ، فإذا حضر لقاء العدو انتهى الحديث عنها ، وصار الحديث للنار والبارود ، إن تقوى الله تعالى والإيمان به لهى القيادة العليا لنفوس المؤمنين ، ومنهما ينبع تحركهم وجهادهم ونصرهم ، ومن موازينهما ينبثق الجهاد والقتال .

ومن أجل ذلك شاءت إرادة الله سبحانه أن يفتتح الوحى بعد بدر بعرض الضعف البشرى ، والقصور البشرى الذى برز مع الغنائم .

وإشارة ثانية من حكمة هذا العرض الربانى ، هى أن أهل بدر خير أهل الأرض بعد الأنبياء والمرسلين : ومن قال فيهم رسول الله ﷺ :

« لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » [2] ومع هذا كله فقد هفت نفوسهم إلى الدنيا وإلى الغنائم ، وكادت هذه الهفوة أن تفسد ذات بينهم لولا أن تداركهم الله برحمته ، ونزع الأنفال منهم إلى الله تعالى و إلى رسوله.

ثانياً : مواصفات المؤمنين :

وهؤلاء المؤمنون حقا هم المجاهدون حقا.

---

(١) فى ظلال القرآن الكريم / ٣ / ٧ / ١٤٧٣ ، ١٤٧٤ .

(٢) البخارى ومسلم .

﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾ [1] ونلحظ أن المواصفات فى الآية الأولى تركز على الجانب القلبى :

أ ـ ﴿ **إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ :

قال الراغب : (الوجل استشعار الخوف يعنى مايجعل القلب يشعر به بالفعل ، وعبر غيره عنه بالفزع والخوف ، وذلك أن الخوف توقع أمر مؤلم في المستقبل قد يصحبه شعور الألم والفزع وقد يفارقه لضعفه أو لاعتقاد بعد أجله ، فالوجل والفزع أخص منه . وفى سورة الحجر من حوار إبراهيم ﷺ مع ضيفه المنكرين (١٥ : ٥٢ ﴿ **قال إنا منكم وجلون** ﴾ ٥٣ ﴿ **قالوا لا توجل** ﴾ وفى سورة المؤمنون فى صفة المؤمنين المشفقين من خشية ربهم : (٢٣ : ٦١) ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون** ﴾ فالوجل هنا مقترن بالعمل الصالح ، وهو البذل والعطاء . وفى سورة الحج : (٣٤ : ٣٥) ﴿ **وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ وهى بمعنى آية الأنفال . وليس للوجل ذكر فى غير هذه الآيات ، ويتفق معنى الوجل فيها بأنه الفزع ، وشعور الخوف يلم بالقلب ، وقد يكون هذا الخوف من العاقبة المجهولة ، وقد يكون من الإجلال والمهابة ، وقد روى عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء : الوجل فى القلب كاحتراق السعفة ، يا شهر ابن حوشب أما تجد له قشعريرة ؟ قلت : بلى ، قالت : فادع الله فإن الدعاء يستجاب عند ذلك ، وعن ثابت البنانى : قال فلان : إنى لأعلم متى يستجاب لى ، قالوا ! ومن أين لك ذلك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما الوجل فى القلب إلا كضرمة السعفة ، إذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك) .

والسعفة بالتحريك واحدة السعف وهو جريد النخل ، إذا احترق يسمع له نشيش ، شبهت به أم المؤمنين وأم الدرداء شعور الوجل يلم بالقلب من ذكر الله فيخفق له .

(والمراد بذكر الله ذكر القلب لعظمته وسلطانه وجلاله ، أو لوعيده ووعده ، ومحاسبته لخلقه وإدانتهم ، وغير ذلك من صفات الله وأفعاله سواء صحبه ذكر اللسان أم لا ، وأعظم ذكر اللسان مع القلب ترتيل القرآن بالتدبر ، وقد يقول المؤمن فى صلاة

(١) الأنفال /٢ـ٤ .

التهجد فى الخلوة « الله أكبر » مستحضرا لمعنى كبريائه عز وجل فينتفض ويقشعر جلده ، فمن خص الذكر هنا بالوعيد غفل عن كل هذا ، وظن أن الوجل لا يكون إلا من خوف العذاب ، وكأنه لم يذق طعم الخشية والوجل من مهابة الله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه) . (١)

ب ـ ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ :

أى زادتهم تصديقا واطمئنانا وعمقا فى إيمانهم .

وفى كل يوم تتفتح منافذ هذا القلب إلى آيات الله تعالى فى كتابه ، وآيات الله تعالى فى ملكوته ، وآيات الله تعالى فى خلقه ، فيزداد الإيمان عمقا وصلابة ، ويزداد الإيمان اطمئنانا وثقة ، سواء ماكان فى عالم الحس أوفى عالم الغيب .

فإبراهيم عليه الصلاة والسلام . اطمأن قلبه ، وهو يرى الطير يأتينه سعيا ، والذى مر على قرية وهى خاوية على أهلها ازداد إيمانه يوم رأى طعامه لم يتسنه ، ورأى العظام كيف ينشزها الله تعالى ويكسوها لحما .

والقلب الغافل حين يتفتح على آيات الله البينات ـ فيبهره إعجاز القرآن وعظمته ، فيحس أن إيمانه النافى قد استيقظ ، وأن إيمانه الميت قد انبعث حياً كأنما ينزل عليه الآن الوحى ، وأن إيمانه المهتز قد ازداد صلابة وعمقا أشد من الجبال الرواسى .

فتلاوة آيات الله تعالى من كتابه ومن كونه ، تجعل هذا الإيمان تكبر ساحته ، وتمتد جذوره ضارباً فى الأعماق ، حتى ليواجه به الدنيا ، لا يخاف فى الله لومة لائم .

جـ ـ ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ :

ومن القشعريرة والخشية إلى الاستسلام والطمأنينة يثمر هذان معاً التوكل على الله تعالى وحده ، فى خضم هذه الحياة الصعبة ، وهو يواجه المحن ويواجه الابتلاء ويواجه المقاومة ويخوض الحرب العنيفة مع الطغاة فيقيه شر العثار والتراجع والزعزعة توكله على الله تعالى ، أنه لن يصيبه إلا ماكتبه الله له ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه .

﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً ، مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ (٢) .

---

(١) تفسير المنار / جـ ٩ / ٥٩٠ .

(٢) الزمر / ٢٣ .

ومن الشعور القلبى الكامن في الأعماق ، والضارب فى الجذور ، الذى لا يقوى القلب عليه فيتحرك بكل عنفه خارج هذا القلب ، ليدق أوتار الجسم ، فينتفض الجسم مع انتفاضة القلب ونبضته عند الخشية ، ثم يعود هذا الجلد ثانية - رخياً هنيئا مع اطمئنان هذا القلب ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله .

فهذا هود عليه الصلاة والسلام يقول لقومه ﴿ .. **فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ، مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم**﴾ . (١)

وهذا شعيب عليه الصلاة والسلام يهدده قومه : ﴿ ... **لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أولو كنا كارهين ، قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ (٢) .

والذرية المؤمنة من قوم موسى التى خافت من فرعون وملئه لم يعصمها من هذا الخوف إلا توكلها على الله :

﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ، وإن فرعون لعالٍ فى الأرض وإنه لمن المسرفين . وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين** ﴾ (٣) .

والذين لم ينلهم الفزع من قوم موسى خوفا من القوم الجبارين هما المتوكلان على الله :

﴿ **قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾ .(٤)

وواجه سيد الخلق عليه الصلاة والسلام طغاة قريش وهو على مرمى بصرهم :

- يارسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا .

- يا أبا بكر ماقولك فى اثنين الله ثالثهما ، لاتحزن إن الله معنا (٥)

---

(١) هود ٥٥ . (٢) الأعراف ٨٨ ، ٨٩ . (٣) يونس ٨٣ ، ٨٦ .
(٤) المائدة ٢٣. (٥) البخارى ومسلم عن أنس بن مالك .

وقبل أيام قليلة ولاتزال أجواء بدر تظلل المؤمنين .كان رسول الله ﷺ يقول وأمامه ألف مدججون بالسلاح ومعه ثلاثمائة من المقاتلين : « والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » . (١)

﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ .

د ـ ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ :

بعد الشطر القلبى من الإيمان يبرز الشطر العملى منه ، جناحان لا يقوم الإيمان إلا بهما فإقامة الصلاة هو التعبير القرآني والنبوى ، ولم يأت التعبير . يصلون إلا بصورة نادرة وإقامة الصلاة تعنى شيئاً أبعد من الإقدام على الصلاة بصورة رتيبة ، أو عادة مألوفة ، لايدرك الإنسان فيه ماصلى ، وكيف صلى ، كالإقدام على أية عادة يومية .

إن إقامة حفلة عرس ، أو إقامة بناء على مخطط هندسى بديع ، أو إقامة مشروع صناعى ضخم تعنى توجيه كل الطاقات والإمكانات وإزالة كل العثرات لإنجاحه .

وهذه المشاريع المذكورة تصغر جداً عند إقامة الصلاة . لأن إقامة الصلاة هى الإقبال على اللقاء مع الله تعالى والمثول بين يديه . وكم نرى من الإعداد والتهيئة يتم لاستقبال رئيس مسؤول أو حاكم متنفذ ، بل أدنى من ذلك بكثير يوم يستعد الموظفون لا ستقبال رئيس دائرة عندهم ، يفتش أعمالهم ، ويدقق الحسابات على دوامهم وسلوكهم وخبراتهم ، يتوقف عليها مستقبلهم فى عملهم ، ويتقرر بها مصيرهم فى وظيفتهم .

وهذه أمور تصغر وتحقر أمام إقامة الصلاة بركوعها وخشوعها وسجودها وقيامها ومن أجل ذلك جعل الإسلام بين يدى الصلاة مايتم إقامتها ، فجعل التطهر والوضوء بين يديها ، ثم السعى إلى المسجد من أجلها ثم صلاة السنة بين يديها ، ليقدم المرء عليها بشعور جديد كلما قام إلى الصلاة .

فكان من فضلها مارواه أبو ذر رضى الله عنه بقوله :

« إن النبى ﷺ خرج زمن الشتاء ، والورق يتهافت ، فأخذ بغصنين من شجرة قال : فجعل ذلك الورق يتهافت ، قال : فقال : يا أبا ذر ، قلت : لبيك يارسول الله : قال : إن العبد المسلم ليصلى الصلاة يريد بها وجه الله فتهافتُ عنه ذنوبه كما تهافت هذا الورق عن هذه الشجرة » (٢) .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير /٣/ ٢٨٥ .

(٢) رواه أحمد / ٢٠/ ١٠٢ .

وإنها ميزان النجاة والهلاك :

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ ، أنه ذكر الصلاة يومًا ، فقال « من حافظ عليها ، كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورًا ولا برهاناً ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف ». [1]

وتاركها عمداً يخرج من ربقة الإسلام ، كما روى عبد الله بن شقيق قال : (كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة) . [2]

هـ ـ ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ :

ويدرك أصحاب بدر هذا المعنى بوضوح ، فلم يمر شهر بعد على فرض الزكاة إضافة إلى فرض الصلاة وفرض الجهاد .

وهذه الغنائم التى يختلفون عليها ، إنما تزكو بالإنفاق بعد أن قسمها عليه الصلاة والسلام بينهم ، ولقد خرج المهاجرون عن مالهم فى سبيل الله ، وهاهو ذا المال يتجدد والإنفاق ينميه ويثمره ، ولم تسم زكاة فى الأصل إلا لأن المال يزكو بها وينمو ويتجدد .

فعن أبى كبشة الأنمارى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث أقسم عليهن ، وأحدثكم حديثًا فاحفظوه ، فأما الذى أقسم عليهن فإنه مانقص مال من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر » . [3]

﴿ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ . [4]

فالمؤمن الحق لابد أن يتحلى بهذه المواصفات ، وأهل بدر يتلقون هذه المواصفات وهم قادمون من معركة شارك فيها ملائكة السماء ، فيبحث كل امرئ منهم عن نفسه ، ويتحسس ذاته ، ترى أيكون هو المؤمن الحق المعنى بهذه الآيات ؟ أم أن بينه وبينها شوطًا طويلاً طويلاً فهو يسعى جاهدا بكل ما أوتى من قوة وعزم ؛ لعله يكون من هؤلاء .... !!

والمؤمن الحق هدف يسعى إليه كل مسلم ، وما يجرؤ المسلم أن يدَّعىَ هذا بدون شهادة من الله تعالى له بذلك .

---

(١) رواه أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان والدارمى .
(٢) رواه الترمذى وإسناده صحيح .
(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .
(٤) الأنفال / ٤ .

فها هو ذا الحارث بن مالك الأنصارى رضى الله عنه يلقاه رسول الله ﷺ فيسأله : «كيف أصبحت ياحارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقًا ، قال : انظر ماتقول ، فإن لكل شئ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها » . (١)

فهذا الصحابى العظيم يعيش الإيمان ،مشاعر حية نابضة ، ويصبح عالم الغيب عنده من الجنة والنار والعرش كأنما هو عالم شهادة ، يشهده بيقين قلبه .

وعندما يرتفع المؤمنون بواقعهم وحياتهم إلى هذه الصورة فهم القادرون على الارتفاع على ثقل هذا الواقع ، والمجاهدون هم أولى الناس بهذه الصورة ، فما بين عالم الغيب وعالم الشهادة إلا لحظات من خلال الشهادة .

وهذا ماحدا بعمير بن الحمام رضى الله عنه ، وهو يسمع النداء النبوى الخالد : يوم بدر : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض قال عمير بن الحمام : بخ بخ؟ فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ قال : لا والله يارسول الله ! إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها ، قال فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى إنها لحياة طويلة ، قال فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل » . (٢)

فعمير المؤمن الحق . كان فى عالم الرجاء ، واستحال يقينه إلى عالم الواقع حين قال له عليه الصلاة والسلام إنك من أهلها . ولم يتمالك أن يتم التمرات التى فى يديه وألقى بهن ، ومضى يقاتل حتى قتل ، وفى رواية كان يرتجز

ركضا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد

والصبر فى الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة النفاد

إلا التقى والبر والرشاد (٣)

ولعل الدرجات العلى التى وعد الله تعالى بها المؤمنين هى أرفع ماتكون للمجاهدين

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من آمن بالله ورسوله .

---

(١) رواه الطبرانى . (٢) رواه مسلم . (٣) البداية والنهاية /٣/٢٧٧ عن ابن جرير الطبرى .

وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، جاهد فى سبيل الله ، أو جلس فى أرضه التى ولد فيها ، قالوا : أفلا نبشر الناس . قال : إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » . (١)

وهذه الدرجات العلى التى حدث الله تعالى عنها أهل بدر ـ قد نالها رفاقهم الذين سبقوهم إلى الشهادة .

فعن أنس أن الربيع بنت البراء وهى أم حارثة بن سراقة ، أتت النبى ﷺ ، فقالت : يارسول الله ، ألا تحدثنى عن حارثة ، وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرْبٌ (٢) فإن كان فى الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء ، فقال :« ياأم حارثة ! إنها جنان فى الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » (٣) وحين تزول الحجب ، وتنقشع بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، يظهر الإيمان الحق عند المؤمنين فعن عاصم بن عمر بن قتادة أن عوف بن الحارث . وهو ابن عفراء قال : يارسول الله ، مايضحك الرب من عبده ؟ قال : غمسه يده فى العدو حاسراً ، فنزع درعًا كانت عليه فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم ، حتى قتل رحمه الله (٤) .

وبعد أن نزع الله تعالى أمر الأنفال من أيدى المؤمنين وردها إلى الله ورسوله ، انتقل الأمر إلى الحديث عن خروج المؤمنين يوم بدر .

ثالثا : خروج المسلمين إلى بدر :

﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ (٥) .

روى ابن أبى حاتم فى تفسيره وابن مردويه واللفظ له من طريق عبد الله بن لهيعة عن أبى أيوب الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة :« إنى أخبرت عن عير أبى

---

(١) رواه البخارى . (٢) سهم غرْبٌ : لا يدرى من أين جاء . (٣) رواه البخارى .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام /٢/٢٦٨ . (٥) الأنفال /٥ –٨ .

أبى سفيان أنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله يغنمناها » ؟ فقلنا : نعم ، فخرج وخرجنا ، فلما سرنا يومًا أو يومين قال لنا :« ماترون فى القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم ؟ » فقلنا : لا والله مالنا طاقة بقتال القوم ولكنا أردنا العير ، ثم قال : « ماترون فى قتال القوم ؟ » فقلنا مثل ذلك ، فقام المقداد بن عمرو فقال إذن لا نقول لك يارسول الله كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا مثل ماقال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم فأنزل الله عز وجل : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ .

وروى ابن مردوية أيضاً عن علقمة بن وقاص الليثى عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ، حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » فقال أبوبكر يا رسول الله : بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا ، قال : ثم خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » فقال عمر مثل قول أبو بكر ، ثم خطب الناس ، فقال : « كيف ترون ؟ » فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، إيانا تريد ؟ فو الذى أكرمك ، وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لى بها علم ، ولئن سرت حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن لنسيرن معك ، ولا نكون كالذين قالوا لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعل أن تكون خرجت لأمر ، وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذى أحدث الله إليك ، فامض فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فنزل القرآن على قول سعد ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون** .. ﴾ الآيات .

(ذكره الأموى فى مغازيه وزاد بعد قوله : وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت به من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك)[1] .

لعل هذين النصين هما اللذان يؤكدان مفهوم النص القرآنى :

﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** ﴾ .

ففريق من الجيش يكره لقاء العدو ، وعلى نسب متفاوتة فى هذا الكره ، وهذا الفريق

(١) البداية والنهاية ٣/ ٢٦٢ .

الذى يجادل راغبًا فى عدم المواجهة لم نره من خلال نصوص السيرة ، وهو كأنما يساق إلى الموت سوقاً ، ومع هذا لم يفقد خصوصيته الإيمانية ، فهو فريق من المؤمنين .

ولحكمة ربانية ابتدأت سورة الأنفال من نهاية المعركة لتعود إلى عرضها من جديد منذ الخطوات الأولى فيها . وهذه الحكمة فيما يتراءى لنا من خلال العرض القرآنى ـ والله أعلم ـ هى إشعار المؤمنين أن المعركة منذ خطواتها الأولى حتى آخر خطوة فيها هى تدبير ربانى ، وليست تخطيطاً بشريًا ، وإرادة الله تعالى إذا اتجهت لأمر ، فلابد أن يتم بقدر الله مهما كانت الأسباب فى ظاهر الأمر ضعيفة أو مفقودة .

فالله تعالى هو الذى أخرج رسوله ابتداءً .

﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ .

وهذا الخروج الذى تم بقدر الله ، ونُزع من التخطيط البشرى ، هو مثل قضية الأنفال التى نزعت ابتداءً من الرسول ﷺ والمؤمنين ، ثم عادت لرسول الله ﷺ .

فقد قال رسول الله ﷺ لسعد حين طلب سيفه :

« إن هذا السيف لا لك ولا لى ضعه ».

ثم قال بعد ذلك : كنت سألتنى السيف وليس هو لى ، وأنه قد وهب لى ، فهو لك(١) .

والأنفال ابتداءً ، والخروج ابتداءً ، هو من الله تعالى (٢) ، بقدر ربانى ، يرى فيه فريق من المؤمنين أنهم يساقون إلى الموت سوقًا ، وهم يساقون إلى النصر سوقاً ؛ كما يتحلى لنا بعد من خلال الآيات الكريمة .

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى ذلك ما قاله ابن عباس وابن إسحاق من أن ذلك خبر من الله تعالى عن فريق من المؤمنين ، أنهم كرهوا لقاء العدو ، وكان جدالهم نبى الله ﷺ أن قالوا لم يعلمنا أنا نلقى العدو ؛ فنستعد لقتالهم ، وإنما خرجنا للعير ، ومما يدل على صحة قوله : **﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين .. ﴾** (٣) .

---

(١) من رواية الإمام أحمد وأبى داود والترمذى .

(٢) أورد هذا المعنى الإمام القرطبى فى تفسيره عن الزجاج بقوله : (الكاف فى موضع نصب أى الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) . ٣٦٧/٧ .

(٣) ابن جرير الطبرى فى التفسير /١٢٣/٩/٦ .

وإذا كان المجادل فريقاً من المؤمنين فإنّ الذين لا يرغبون القتال على ما يبدو هم المؤمنون جميعاً كما يبدو من قول الله عز وجل :

﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ [(١)] وما ورد من نصوص السيرة من قبل يؤكد رغبة الجميع فى العير ، كما يؤكد هذا المعنى كذلك ، الروايتان التاليتان :

(روى الإمام أحمد بسنده ، عن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبى سفيان ، فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ، ثم تكلم عمر فأعرض عنه ، فقال سعد بن عبادة : إيانا يريد رسول الله ﷺ ؟ والذى نفسى بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا ، فندب رسول الله ﷺ الناس . قال : فانطلقوا حتى نزلوا بدراً ووردت عليهم روايا [(٢)] قريش ، وفيهم غلام أسود لبنى الحجاج ، فأخذوه وكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبى سفيان وأصحابه ، فيقول : مالى علم بأبى سفيان ، ولكن هذا أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف ، فإذا قال ذلك ضربوه ، فإذا ضربوه قال : نعم أنا أخبركم هذا أبو سفيان ، فإذا تركوه ، فسألوه قال : ما لى بأبى سفيان علم ، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية ، فإذا قال هذا أيضاً ضربوه ، ورسول الله ﷺ قائم يصلى ، فلما رأى ذلك انصرف فقال : « والذى نفسى بيده إنكم لتضربونه إذا صدق وتتركونه إذا كذبكم » قال : وقال رسول الله ﷺ : « هذا مصرع فلان يضع يده على الأرض ، هاهنا وهاهنا ، فما أماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ ورواه مسلم عن أبى بكر عن عفان به نحوه) [(٣)] .

قال ابن إسحاق :

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث على بن أبى طالب والزبير ابن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفرٍ من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه كما حدثنى يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير ـ فأصابوا راوية [(٤)] لقريش فيها أسلم غلام بنى الحجاج ، وعريض أبو يسار غلام بنى العاص بن سعيد ، فأتوا بهما و سألوهما ورسول الله ﷺ قائم يصلى ، فقالا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء . فكره القوم خبرهما ،

---

(١) الأنفال / ٧ ـ ٨ .

(٢) الروايا : الذين يستقون للناس من الآبار .

(٣) البداية والنهاية / ٢/٣/٢٦٣ .

(٤) الراوية : الإبل التى يسقى الماء عليها .

ورجوا أن يكونا لأبى سفيان ، فضربوهما ، فلما أذلقوهما [١] قالا : نحن لأبى سفيان ، فتركوهما ، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه ثم سلم ، وقال : « إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما صدقا ، والله إنهما لقريش، أخبرانى عن قريش . قالا : هم والله وراء هذا الكثيب [٢] الذى ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « كم القوم ؟ » قالا : كثير. قال : « ما عدتهم ؟ » قالا : لاندرى . قال : « كم ينحرون كل يوم ؟ » قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : « القوم فيما بين التسعمائة والألف » ثم قال لهما : « فمن فيهم من أشراف قريش ؟ » قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البخترى بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبوجهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ود ، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس وقال : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها » [٣] .

فالرواية الأولى والثانية تؤكدان أن هوى المسلمين كان العير ، وليس ذات الشوكة ، فهم يضربون الأسيرين حين يقولان أنهما لقريش كراهة لقولهما خوفاً من الصدام ، ويتركو نهما حين يعترفان أنهما لأبى سفيان حرصاً على العير .

ولعل الرواية الثانية قدمت خيرة النماذج فى الصف المسلم ، وهى تكره اللقاء .. ويكفى أن نعرف أن ثلاثة منهم من العشرة المبشرين بالجنة ، وهم على والزبير وسعد .

لكن حتى تكتمل الصورة لابد من عرض الجانب الآخر منها .

فإذا كان الجميع يودون غير ذات الشوكة ، تحاشياً للحرب ، وقد خرجوا على غير استعداد وتعبئة لها ، ويريد الله تعالى بهم أعظم بكثير مما يريدونه بأنفسهم ولأنفسهم ، فالله تعالى يريد أن يحق بهم الحق ويبطل الباطل ، ولوكره المجرمون ، ويريد أن يقطع بهم دابر الكافرين ، ويستأصل شأفتهم ، وهم فى أنفسهم أقل من ذلك ، وأضعف من ذلك ، ومنتهى طموحاتهم أن يكسبوا عير أبى سفيان .

تتمة الصورة أن هؤلاء المؤمنين الراغبين بغير ذات الشوكة كانوا فريقين : الفريق الأول الذى أبرز كرهه للقاء العدو ، وراح يجادل محاولاً إبعاد المعركة وكأنما يساق إلى

(١) أذلقوهما ضرباً : بالغوا فى ضربهما .

(٢) الكثيب : التل الصغير من الرمل .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام /٢/٢٥٥ ، ٢٥٦ .

الموت وهو ينظر .

والفريق الثانى الذى تخلى عن رغبته وهواه ، وأعلن استعداده للموت والتضحية فى سبيل الله بكل قطرة من دمه مهما كانت جسامة التضحيات وثقل التبعات ، وذلك بكامل اختياره ورغبته ، مادام هوى رسول الله ﷺ هو ذات الشوكة .

فقد أخرج البخارى رحمه الله عن ابن مسعود قوله:

(شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلىّ مما عدل به ، أتى النبىﷺ ، وهو يدعو على المشركين ، فقال : لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك ، و بين يديك وخلفك ، فرأيت النبى ﷺ أشرق وجهه وسره) [(1)] .

وقال الإمام أحمد عن أنس قال : استشار النبى ﷺ مخرجه إلى بدر فأشار عليه أبو بكر ، ثم استشارهم فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقال بعض الأنصار إياكم يريد رسول الله : يامعشر الأنصار . فقال بعض الأنصار : يارسول الله : إذن لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون ، ولكن والذى بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك ، وهذا إسناد ثلاثى صحيح على شرط الصحيح) [(2)] .

قال ابن إسحاق : « ... وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ؛ ليمنعوا عيرهم ، فاستشار الناس ، وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول اللّه امض لما أراك الله فنحن معك ، واللّه لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى . اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد [(3)] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له ، ثم قال رسول الله ﷺ : « أشيروا على أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم عدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول اللّه . إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه [(4)] بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال ذلك رسول الله

(١ ، ٢) البداية والنهاية ٢/٣/٢/٢٦٢ .
(٣) برك الغماد : موضع بناحية اليمن .
(٤) دهمه : فجأه .

ﷺ قال له سعد بن معاذ : واللّه لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : « أجل » قال: قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبرٌ فى الحرب ، صُدُقٌ فى اللقاء ، لعل اللّه يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال : « سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين . والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم »(١) .

فالروايات الآنفة الذكر تؤكد أن الفريق الثانى الذى لم يكن يود فى الأصل ذات الشوكة قد تخطى هواه ، وتخطى ما يود ، وكان عند حسن ظن النبى ﷺ به .

ونلاحظ الملاحظات السريعة حول هذا الموقف :

١ ـ أن القرآن يتنزل غضاً على هذا الجيل ، وينبعث حياً فى نفوسهم . وأن موقف بنى إسرائيل من موسى عليه الصلاة والسلام ، وتخاذلهم عنه حين قالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ـ قد ضرب جذوره فى أعماق هذا الجيل المسلم ، وجعل فى حسه خوفاً وفزعاً أن تتكرر هذه المأساة فيهم فيحرمون النصر ، وتتنزل بهم عقوبة الله عز وجل ، كما حلت ببنى إسرائيل .

٢ ـ أن جو القرآن العبق بالآيات المنزلة الحاثة على الجهاد ـ كان له أقوى الأثر فى اندفاعهم واستعدادهم لتلبية نداء النبوة الخالد بالمواجهة مع العدو ، فمن آيات الإذن إلى آيات فرض القتال ، إلى النماذج الإيمانية الرائعة فى قصة طالوت وأمثالها حيث كانت تفعل فعلها فى النفوس تعبئة وإعداداً ورغبة فى الجهاد فى سبيل الله .

٣ ـ لاعجب أن يكون المهاجرون على أعلى مستوى من الجاهزية لمواجهة المشركين ، ولقد قاموا خلال العام الفائت بدورات كبيرة من خلال السرايا التى كان رسول الله ﷺ يبعثها لملاحقة القوافل ، أو استكشاف الأخبار ، بينما لم يُسهِم الأنصار على الأرجح فى السرايا قبل بدر ، ولهذا كان رأى أبى بكر وعمر على وضوحه وحماسه لم يأخذ كثيراً من اهتمام النبى ﷺ على فضلهما لأنه كان يريد معشر الأنصار .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٥٣ .

٤ ـ ومن العجيب حقاً أن تبرز هذه النوعيات الضخمة من الأنصار رضى الله عنهم ، فالمهاجرون قد مر على معظمهم ما يزيد عن عشر سنوات من التربية ، أما الأنصار فحصيلة الأعوام الثلاثة الأخيرة بل معظمهم لم يمر عليه أكثر من عامين فى هذا الدين الجديد ، ومع ذلك فقد برز منهم من ضروب البسالة والتضحية ما فاقوا به إخوانهم المهاجرين .

لقد كانت بدر التجربة الأولى بالنسبة لهم فى الجيل الإسلامى ، لكن تجربتهم القتالية السابقة قد تكون أكثر خبرة من المهاجرين أنفسهم ، وذلك فى المجتمع الجاهلى قبل الإسلام ، وما يوم بعاث ببسر ، ومن أجل هذا ركز سعد رضى الله عنه على هذا المعنى حين قال : إنا لصُبُرٌ فى الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، فسر بنا على بركة الله لعل الله يريك منا ما تقر به عينك .

٥ ـ وقد كانوا فى بدر ثلاثة أضعاف المهاجرين ، ومن أجل ذلك كانت كلمتهم هى الفصل فى قرار المعركة ، وتؤكد كتب السيرة على الإصرار على المشاورة لهم ؛ لأن الخروج للعدو خارج عن نطاق عقد العقبة وبيعة الحرب ، غير أن كلام سعد كان بمثابة بيعة جديدة باسم الأنصار جميعاً ألغت القيود السابقة ، ووسعت نطاق المواجهة إلى كل مكان فى الأرض .. لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد .

٦ ـ ومن هذه البيعة الجديدة التى شارك فيها السعدان كما تقول الروايات . كانت الطمأنينة النبوية إلى ذات الشوكة التى وعد الله بها نبيه إن فاتته العير. ورسم قمة هذه المعركة بقوله : « سيروا وأبشروا ؛ فكأنى أنظر إلى مصارع القوم » .

٧ ـ « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » وماذا كان مصير القادة الخمسة عشر الذين جاءوا على رأس جيش مكة ؟ ثم قال لهما : فمن فيهما من أشراف قريش ؟ قالا :

١ ، ٢ ـ عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة :

(ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة وهم : عوف ومعوّذ ابنا الحارث وأمهما عفراء ، ورجل آخر يقال هو عبد الله بن رواحة فقالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار ، قالوا : ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يامحمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة ،

قم يا على ، فلما قاموا ، ودنوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ قال عبيدة : عبيدة ، وقال حمزة : حمزة ، وقال على : على ، قالوا : نعم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز على الوليد بن عتبة ، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما على فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عتبة وعبيدة ضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، وكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فذففا عليه [1] واحتملا صاحبهما فحا زاه إلى أصحابه» [2] .

٣ - وأبو البخترى بن هشام :

روى ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس :

أن النبى ﷺ قال لأصحابه يومئذ : إنى قد عرفت رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى بن هشام بن الحارث ابن أسد فلا يقتله ...

قال ابن هشام : وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبى البخترى لأنه كان أكف الناس عن رسول الله ﷺ وهو بمكة ، وكان لايؤذيه ، ولا يبلغه عنه شىء يكرهه ، وكان ممَّن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت قريش على بنى هاشم وبنى المطلب ، فلقيه المجذَّر ابن زياد البلوى حليف الأنصار ، فقال المجذَّر لأبى البخترى : إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك ومع أبى البخترى زميل له قد خرج معه من مكة ، وهو جنادة بن مليحة .. قال وزميلى ؟ فقال له المجذَّر : لا والله ما نحن بتاركى زميلك ، ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك ، قال : لا والله إذن لأموتن أنا وهو جميعاً لاتحدّث نساء مكة أنى تركت زميلى حرصاً على الحياة . فقال أبو البخترى حين نازله المجذّر وأبى إلا القتال : لن يسلم ابن حرة زميله ؛ حتى يموت أو يرى سبيله، فاقتتلا فقتله المجذّر بن زياد ، ثم إن المجذّر أتى رسول الله ﷺ فقال : والذى بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فأبى إلا أن يقاتلنى ، فقاتلته فقتلته »[3] .

٤ - وحكيم بن حزام :

(ولما نزل القوم بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضى الله عنه إليهم يقول : ارجعوا ارجعوا ؛ فإنه إن يل هذا الأمر منى غيركم أحب إلى من أن تلوه منى وأن أليه من

---

(١) ذففا عليه : أسرعا فى قتله .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٦٥ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٦٩ - ٢٧١ .

غير كم أحب إليّ من أن أليه منكم ، فقال حكيم بن حزام : قد عرض نصفا [1] فاقبلوه ، والله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من النصف ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع بعد أن أمكننا منهم ، وأقبل نفر من قريش حتى وردوا الحوض : منهم حكيم بن حزام ، فأراد المسلمون طردهم فقال ﷺ : « دعوهم » فوردوا الماء فشربوا ، فما شرب منهم أحد إلا قتل ، إلا ما كان من حكيم بن حزام نجا)[2] ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه فكان إذا اجتهد في يمينه قال [3] : لا ، والذى نجاني يوم بدر .

٥ ـ ونوفل بن خويلد :

قال ابن إسحاق : ونوفل بن خويلد بن أسد وهو ابن العدوية ، وهو الذى قرن أبا بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله حين أسلما في حبل ، فكان يسميان القرينين لذلك ، وكان من شياطين قريش قتله على بن أبى طالب [4] .

٦ ، ٧ ـ والحارث بن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدى بن نوفل :

ومن بنى نوفل بن عبد مناف الحارث بن عامر بن نوفل ، قتله فيما يذكرون خبيب بن إساف أخو بنى الحارث بن الخزرج ، وطعيمة بن عدى بن نوفل قتله على بن أبى طالب ، ويقال حمزة بن عبد المطلب [5] .

٨ ـ والنضر بن الحارث :

قال ابن إسحاق : حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء قتل النضر ابن الحارث « أحد الأسرى » قتله على بن أبى طالب كما أخبرنى بعض أهل العلم من أهل مكة .

قال ابن هشام : فقالت قُتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث في مقتل أخيها :

... أمحمد يا خير ضىء كريمة ... من قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
أو كنت قابل فدية فلينفقن ... بأعز ما يغلو به ما ينفق
والنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق [6]

(١) نصفا : عدلا .
(٢) إمتاع الأسماع /١/٨٢ .
(٣) السيرة لابن هشام ٢٦١/٢ .
(٤) السيرة لابن هشام /٢/٣٥٧ .
(٥) المصدر نفسه /٢/٣٥٧ .
(٦) البداية والنهاية /٢/٣/٣٠٧ .

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه[1] لله أرحام هناك تشقّق
صبراً يقاد إلى المنية متعباً رسف [2] المقيد وهو عان [3] موثق

قال ابن هشام : ويقال والله أعلم أن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال : لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه)[4] .

٩ ـ وزَمعةُ بن الأسود :

قال ابن إسحاق :

وكان الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده : زَمَعَةُ بن الأسود وعقيل بن الأسود والحارث بن زمعة . وكان يحب أن يبكى على بنيه ، قال : فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلام له وقد ذهب بصره انظر هل أُحِل النَّحْبُ ؟ هل بكت قريش على قتلاها لعلى أبكى على أبى حكيمة ؟ ـ يعنى زمعة ـ فإن جوفى قد احترق ، قال : فلما رجع إليه الغلام قال : إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلّته ، قال : فذاك حين يقول الأسود :

أتبكى أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم السهُود
فلا تبكى على بكر [5] ولكن على بدرٍ تقاصرت الجدود
على بدر سراة [6] بنى هصيص ومخزوم ورهط أبى الوليد
وبكّى إن بكيت على عقيل وبكّى حارثاً أسد الأسود
وبكّيهم ولاتسمى جميعاً وما لأبى حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهمُ رجال ولولا يوم بدر لم يسودوا [7]

١٠ ـ وأبو جهل بن هشام :

(ومن بنى مخزوم بن يقظة بن مرة : أبو جهل بن هشام ، واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة ، ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح ، فقطع رجله ، وضرب ابنه عكرمة يد معاذ

---

(١) تنوشه : تتناوله .
(٢) الرسف : مشية المقيَّد .
(٣) عان : أسير .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير /٢ / ٣ / ٣٠٧ .
(٥) بكر : الفتى من الإبل .
(٦) سراة القوم : خيارهم وأشرافهم .
(٧) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٩١ ، ٢٩٢ .

فطرحها ، ثم ضربه معوِّذ بن عفراء حتى أثبته [١] ، ثم تركه وبه رمق ، ثم ذفف [٢] عليه عبدالله بن مسعود ، فاحتز رأسه حين أمر رسول الله ﷺ به أن يلتمس بين القتلى » [٣].

١١ ـ وأمية بن خلف :

قال ابن إسحاق بسنده عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه :

(... قال لى أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه آخذ بأيديهما: ياعبد الإله مَنْ الرجل منكم المعلم بريشة نعامة فى صدره ؟ قال قلت : ذاك حمزة بن عبد المطلب قال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل ، قال عبد الرحمن : فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى ، وكان هو الذى يعذب بلالاً بمكة على ترك الإسلام ، فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت فيضجعه على ظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لاتزال هكذا أو تفارق دين محمد ، فيقول بلال : أحد أحد . فلما رآه قال : رأس الكفر أمية بن خلف ؟ لانجوت إن نجا ، قال . قلت : أى بلال أ بأسيرى ؟ قال : لانجوت إن نجا . قلت : أتسمع يابن السوداء ؟ قال : لانجوت إن نجا . قال : ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف ، لانجوت إن نجا . قال : فأحاطوا بنا ، حتى جعلونا فى مثل المسكة [٤] وأنا أذُبُّ عنه ، قال : فأخلف [٥] رجل السيف فضرب رجل ابنه ، فوقع وصاح أمية صيحة ماسمعت بمثلها قط ، قال . فقلت : انج بنفسك ، ولانجاء بك ، فوالله ماأغنى عنك شيئا ، قال : فهبروهما [٦] بأسيافهم ؛ حتى فرغوا منهما ..) [٧].

١٢ ، ١٣ ـ ونبيه ومنبه ابنا الحجاج :

(ومن بنى سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى . منَبِّهُ بن الحجاج ـ قتله أبو اليسر أخو بنى سلمة ، وابنه العاص بن منبه بن الحجاج قتله على بن أبى طالب فيما قال ابن هشام ، ونُبِيه بن الحجاج ، قتله حمزة بن عبد المطلب وسعد بن أبى وقاص اشتركا فيه فيما قال ابن هشام) [٨] .

١٤ ـ وسهيل بن عمرو :

قال ابن إسحاق (بسنده) :

---

(١) أثبته : كاد أن يقتله .

(٢) ذفَّف عليه : أسرع فى قتله .

(٣) المصدر السابق / ٢ / ٣٥٨ .

(٤) المسكة : السوار من عاج .

(٥) فأخلف رجل السيف : إذا رد يده إليه فسلَّه من غمده .

(٦) هبروهما : قطَّعوا لحمهما .

(٧) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٧٢ ، ٢٧٣.

(٨) المصدر نفسه ٢ / ٣٦١ .

قدم بالأسارى حين قدم بهم ، وسودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ عند آل عفراء فى مناحتهم على عوف ومعوذ ابنى عفراء ، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب ، قال : تقول سودة :

والله إنى لعندهم إذ أُتينا فقيل : هؤلاء الأسارى قد أتى بهم ، قالت : فرجعت إلى بيتى ورسول الله ﷺ فيه ، وإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو فى ناحية الحجرة مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، قالت : فوالله ماملكت نفسى - حين رأيت أبا يزيد كذلك ، أن قلت : أى أبا يزيد ، أعطيتُم بأيديكم ، ألا متم كراماً ، فوالله ماأنبهنى إلا قول رسول الله ﷺ من البيت : « يا سودة أعلى الله ورسوله تحرضين » ؟ قالت : قلت : يارسول الله ، والذى بعثك بالحق ماملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ماقلت .

ثم بعثت قريش فى فداء الأسرى . فقدم مكرز بن حفص فى فداء سهيل بن عمرو.

وكان الذى أسره مالك بن الدخشم أخو بنى سالم بن عوف . فقال :

أسرت سهيلاً فلا ابتغى ... أسيراً به من جميع الأمم
وخندق تعلم أن الفتى ... فتاها سهيل إذا يظلَّم
ضربت بذى الشفر (١) حتى انثنى ... وأكرهت نفسى على ذى العلم (٢) ، (٣)

(قال ابن إسحاق بسنده : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لرسول الله ﷺ : يارسول الله ، دعنى أنزع ثنية سهيل بن عمرو يدلع (٤) لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبدا ، فقال رسول الله ﷺ : « لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا » .

قال ابن إسحاق : وقد بلغنى أن رسول الله ﷺ قال لعمر فى هذا الحديث : « إنه عسى أن يقوم مقاماً لاتذمه ») (٥).

(قال ابن هشام :حدثنى أبو عبيدة وغيره من أهل العلم أن أكثر أهل مكة لما توفى رسول الله ﷺ هموا بالرجوع عن الإسلام ، وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أسيد فتوارى ، فقام سهيل بن عمرو ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ

---

(١) ذى الشفر : السيف .
(٢) ذى العلم : الأعلم مشقوق الشفة العليا .
(٣) البداية والنهاية / ٢ / ٣ / ٣١١ .
(٤) يدلع لسانه : يخرج .
(٥) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٩٣ .

وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه ، فتراجع الناس وكفوا عما هموا به ، وظهر عتاب بن أسيد . فهذا المقام الذى أراد رسول الله ﷺ فى قوله لعمر بن الخطاب : « إنه عسى أن يقوم مقاماً لاتذمه »)[1] .

١٥ ـ وعمرو بن عبد ود :

قال ابن إسحاق : (ثم تيمموا مكاناً ضيقا من الخندق فضربوا خيولهم فاقتحمت منه ، ... وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى اثبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلما [2] ليرى مكانه ، فلما وقف هو وخيله قال : من يبارز ؟ فبرز نه على ابن أبى طالب فقال له : ياعمرو إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى احدى خلَّتين إلا أخذتها منه ، قال له : أجل ، قال له على : فإنى أدعوك إلى الله ورسوله وإلى الإسلام ، قال : لاحاجة لى بذلك ، قال : فإنى أدعوك إلى النزال ، فقال له : لم يابن أخى ؟ فوالله ماأحب أن أقتلك ، قال له على : ولكنى والله أحب أن أقتلك ، فحمى [3] عمرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه فعقرة وضرب وجهه ، ثم أقبل على علىٌ فتنازلا وتجاولا ، فقتله على رضى الله عنه ، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت عن الخندق هاربة)[4] .

وها نحن أولاء رأينا أشراف مكة الخمسة عشر ، والذين قال رسول الله ﷺ فيهم « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها » قد لقوا مصرعهم جميعاً فى بدر إلا ماكان من حكيم بن حزام وسهيل بن عمرو اللذين أسلما فحسن إسلامهما ، وما كان من عمرو بن عبد ود ، الذى لقى مصرعه يوم الخندق على يدى على بن أبى طالب رضى الله عنه .

فأى شوكة وأى نصر يفوق هذا النصر بمصرع هؤلاء القادة الكبار ؟؟؟

﴿ إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ .[5]

---

(١) المصدر نفسه / ٤ / ٢٤٦ .

(٢) مُعْلَماً : هو الذى جعل لنفسه علامة يعرف بها .

(٣) حمى : غضب واشتد غضبه .

(٤) السيرة لابن هشام / ٣ / ٢٤٠ .

(٥) الأنفال / ٧ ـ ١٠ .

رابعاً : النصر الحقيقى من الله . وكل مادونه ستار لقدر الله :

١ ـ الاستغاثة بالله ونزول الملائكة :

﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وماجعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (١) .

(روى أحمد ومسلم ، وأبوداود والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وغيرهم ، عن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما قال : حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبى ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل نبى الله القبلة ثم مدّ يده ، وجعل يهتف بربه : « اللهم انجز لى ماوعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد فى الأرض » فمازال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر رضى الله عنه ، فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يانبى الله كفاك مناشدتك لربك ؛ فإنه سينجز لك ماوعدك ، فأنزل الله تعالى : **﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾** فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر سبعون .

وأما البخارى فروى عن ابن عباس قال : قال النبى ﷺ يوم بدر : « اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك ، فخرج وهو يقول : **﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾** .

وعن سعيد بن منصور من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال :

لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثرهم . وإلى المسلمين فاستقلّهم ، فركع ركعتين ، وقام أبوبكر عن يمينه ، فقال رسول الله ﷺ وهو فى صلاته :

« اللهم لا تودع منى ، اللهم لاتخذلنى ، اللهم لا تترنى (٢) ، اللهم أنشدك ما وعدتنى » .

وعن ابن إسحاق فى سيرته أنه ﷺ قال :

---

(١) الأنفال ٩ ـ ١٠ .
(٢) لاتترنى : لاتجعلنى وتراً أو فرداً بقطع الأهل والأنصار .

« اللهم هذه قريش أتت بخيلها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ») .[1]

(يقول ابن إسحاق : وقد خفق رسول الله ﷺ خفقة ، وهو فى العريش ثم انتبه فقال : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع[2] »)[3] .

وروى ابن جرير الطبرى عن على رضى الله عنه قال :

(نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبى ﷺ ، وفيها أبو بكر رضى الله عنه ، ونزل ميكائيل عليه السلام فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبى ﷺ وأنا فيها) .[4]

٢ ـ الملائكة للبشرى والطمأنينة !

﴿ .. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ .

يقول ابن جرير للطبرى :

(يقول تعالى ذكره : لم يجعل الله إرداف الملائكة بعضها بعضاً وتتابعها بالمصير إليكم أيها المؤمنون مدداً لكم إلا بشرى لكم ، أى بشارة لكم ، تبشركم بنصر الله إياكم على أعدائكم ، ولتطمئن به قلوبكم ، يقول : ولتسكن قلوبكم بمجيئها إليكم وتوقن بنصر الله لكم ، وما النصر إلا من عند الله ، يقول : وما تنصرون على عدوكم أيها المؤمنون إلا أن ينصركم الله عليهم ، لابشدة بأسكم وقواكم ، بل بنصر الله لكم ؛ لأن ذلك بيده وإليه ، ينصر من يشاء من خلقه ، إن الله عزيز حكيم ، يقول : إن الله الذى ينصركم وبيده نصر من يشاء من خلقه ، عزيز لايقهره شىء ولايغلبه غالب ، بل يقهر كل شىء ويغلبه لأنه خلقه ، حكيم ، يقول : حكيم فى تدبيره ونصره من نصر ، وخذلانه من خذل من خلقه لايدخل تدبيره وهن ولاخلل) .[5]

فالملائكة إذن لاتحقق النصر ، وقوة بأس المؤمنين لاتحقق النصر ، بل المؤمنون والملائكة ستار لقدر الله ، وجنود الله تعالى ينصر بهم وبغيرهم ؛ لأن النصر بيده سبحانه .

---

(١) تفسير المنار ٩ / ٦٠٢ ، ٦٠٣ . (٢) النقع : الغبار . (٣) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٦٧ .
(٤) تفسير الطبرى ١٢٨/٩/٦ . (٥) تفسير الطبرى / ٦ / ٩ / ١٢٩ .

وهذا المعنى الذى يشهده المؤمنون اليوم في بدر له مذاق خاص ، وله حلاوة خاصة ، فليس مَعنىً مجرداً فى الذهن ، أو أملاً معقوداً في الأفق ، بل هو واقع حى لاتزال آثاره الضخمة فى حسهم وشعورهم ، ولابد أن يتم التجرد الكامل من عالم الأسباب ، وإعادة الأمر كله لله .

فالأنفال لله ، والخروج بقدر الله ، واختيار ذات الشوكة بتدبير الله ، والملائكة بشرى من الله ، فماذا تبقى للمؤمنين . ؟

٣ ــ النعاس من جنود الله :

﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ﴾ .

(عن على رضى الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلى ويبكى حتى أصبح ، ذكره البيهقى والماوردى ، وفى امتنان الله تعالى عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان : أحدهما أنه قواهم بالاستراحة على القتال من الغد ، الثانى ــ أن أمَّنهم بزوال الرعب من قلوبهم ، كما يقال : الأمن منيم والخوف مسهر ، وقيل : غشاهم فى حال التقاء الصفين) . [١]

٤ ــ الماء من جنود الله وله وظائف أربع :

﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . ﴾ [٢] .

(ظاهر القرآن يدل على أن النعاس كان قبل المطر ، وقال ابن أبى نجيح : كان المطر قبل النعاس وحكى الزجاج ، أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه ، وبقى المؤمنون لاماء لهم ، فوجست [٣] نفوسهم ، وعطشوا وأجنبوا وصلوا كذلك ، فقال بعضهم فى نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم : نزعم أنا أولياء الله وفينا رسوله وحالنا هذه والمشركون على الماء ؟ فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشر من رمضان حتى سالت الأودية ؛ فشربوا وتطهروا وسقوا الظهر [٤] وتلبدت السبخة [٥] التى كانت بينهم وبين

---

(١) تفسير القرطبى / ٤ / ٧ / ٣٧٢ .
(٢) الأنفال : ١١ .
(٣) وجست : وقع فى نفوسهم الفزع .
(٤) الظهر : الإبل التى يحمل عليها ويركب .
(٥) السبخة : أرض ذات ملح ونز والمراد بها هنا الأرض التى تسوخ فيها الأرجل .

المشركين ؛ حتى ثبتت فيه أقدام المسلمين وقت القتال) . [1] وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

(نزل النبى ﷺ يعنى حين صار إلى بدر والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة [2] ، فأصاب المسلمون ضعف شديد ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ ، فوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله ، وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مجنبين ؟

فأمطر الله عليهم مطراً شديداً ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم ، وأمد الله نبيه بألف من الملائكة ، فكان جبريل عليه السلام فى خمسمائة من الملائكة مجنبة ، وميكائيل فى خمسمائة مجنبة) . [3]

٥ ـ الملائكة بحاجة إلى معية الله سبحانه :

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ﴾ .

فالملائكة بدون عون الله تعالى عاجزون عن تحقيق أى نصر ، حتى وهم يثبتون المؤمنين ويقاتلون معهم ، لابد لهم من معية الله سبحانه ، ليلقى الرعب فى قلوب الكافرين .

٦ ـ الله تعالى يدير المعركة :

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق . واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾. [4]

(وأما قوله : **﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾** يقول : قووا عزمهم ، وصححوا نياتهم فى قتال عدوهم من المشركين ، وقد قيل إن تثبيت الملائكة المؤمنين كان حضورهم حربهم معهم ، وقيل كان ذلك معونتهم إياهم بقتال أعدائهم ،

---

(١) تفسير القرطبى / ٤ / ٧ / ٣٧٢ ـ ٣٧٤ .
(٢) دعصة : قطع مستديرة من الرمل .
(٣) تفسير الطبرى / ٦ / ٩ / ١٣٠ .
(٤) الأنفال / ١٢ ـ ١٤ .

وقيل كان ذلك بأن الملك يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ يقول : سمعت هؤلاء القوم يعنى المشركين يقولون : والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك فتقوى أنفسهم ، قالوا : وذلك كان وحى الله إلى ملائكته ..) .[1]

﴿ **سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾ يقول تعالى ذكره : سأرعب قلوب الذين كفروا بى أيها المؤمنون منكم وأملؤها فرقاً حتى ينهزموا عنكم ، فاضربوا فوق الأعناق .

(.. فالواجب أن يقال : إن الله أمر بضرب رؤوس المشركين وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم ..) .[2]

ونعود إلى نصوص السيرة نلحظ هذه المعانى الواردة فى كتاب الله كما كانت على أرض الواقع :

(.. وقال سهيل بن عمرو[3] : ولقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض معلمين ، يقتلون ويأسرون ، وقال أبو أسيد الساعدى ـ بعد أن ذهب بصره ـ لو كنت معكم الآن ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة ..

وقال أبو رهم الغفارى ، عن ابن عم له : بينا أنا وابن عم لى على ماء بدر ـ فلما رأينا قلة من مع محمد وكثرة قريش ـ قلنا : إذا التقت الفئتان عمدنا إلى عسكر محمد وأصحابه ، فانطلقنا نحو المجنبة اليسرى من أصحابه ونحن نقول : هؤلاء ربع قريش ؛ فبينا نحن نمشى فى الميسرة إذ جاءت سحابة فغشيتنا ، فرفعنا أبصارنا إليها ، فسمعنا أصوات الرجال والسلاح ، وسمعنا رجلاً يقول لفرسه : أقدم حيزوم ، وسمعناهم يقولون : رويداً تتام أخراكم ، فنزلوا على ميمنة رسول الله ﷺ ، ثم جاءت أخرى مثل ذلك ، فكانت مع النبى ﷺ ، فنظرنا النبى ﷺ وأصحابه ، فإذا هم الضِّعف على قريش .

فمات ابن عمى ، وأما أنا فتماسكت ، وأخبرت النبى ﷺ ـ وحَسنُ إسلامه ـ

... وعن صهيب : ماأدرى كم يد مقطوعة ، أوضربة جائفة[4] لم يدْم كلمهما[5]

---

(١) تفسير الطبرى ٦ / ٩ / ١٣٢ .
(٢) المصدر نفسه ٦ / ٩ / ١٣٢ .
(٣) وكان يومئذ مشركاً .
(٤) جائفة :الطعنة التى تنفذ الجوف وتبلغ .
(٥) لم يدم كلمها : لم يسل الدم من جرحهما ولم يظهر عليه الدم .

يوم بدر قد رأيتها ، وعن أبى بردة بن نيار قال : جئت يوم بدر بثلاثة رؤوس ، فوضعتهن بين يدى رسول الله ﷺ ، فقلت : يارسول الله ، أما رأسان فقتلتهما ، وأما الثالث فإنى رأيت رجلاً أبيض طويلاً ضربه ، فتدهدى [1] أمامه ، فأخذت رأسه .

فقال ﷺ : « ذاك فلان من الملائكة » . وكان ابن عباس يقول : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر ، وعن ابن عباس : كان الملك يتصور فى صورة من يعرفون من الناس ، يثبتونهم ، فيقول : إنى دنوت منهم فسمعتهم يقولون : لو حملوا علينا ماثبتنا ؛ ليسوا بشىء ، وذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم** ﴾ .

وعن حكيم بن حزام [2] : لقد رأيتنا يوم بدر ، وقد وقع بوادى خلص [3] بجاد [4] من السماء قد سد الأفق : فإذا الوادى يسيل نملاً ، فوقع فى نفسى أن هذا شىء من السماء أيّد به محمد ﷺ ، فما كانت إلا الهزيمة ، وهى الملائكة) . [5]

وفى رواية ابن إسحاق :

(فبينا هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم قال : فقال له أبولهب : هلمَّ إلى فعندك لعمرى الخبر ، قال : فجلس إليه والناس قيام عليه ، فقال : يابن أخى ، أخبرنى كيف كان أمر الناس . قال : والله ما هو إلا أن لقينا القوم ، فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ، ويأسروننا كيف شاؤوا ، وأيم الله مع ذلك مالمت الناس : لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تُليق شيئاً ، ولايقوم لها شىء . قال أبو رافع فرفعت طُنُبَ الحجرة بيدى ثم قلت : تلك والله الملائكة ..) . [6]

وأما رعب الكافرين فنراه من هذا النص :

(وبعثت قريش عمير بن وهب الجمحى ليحزُر المسلمين ، فلما لم ير مدداً ولا كميناً رجع فقال : القوم ثلاثمائة ، إن زادوا زادوا قليلاً معهم سبعون بعيراً وفرسان ؛ ثم قال : يامعشر قريش . البلايا تحمل المنايا . نواضح [7] يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليست لهم منعة ولاملجأ إلا سيوفهم ، ألا ترونهم خرساً لايتكلمون ، يتلمظون [8] تلمظ الأفاعى .

---

(١) فتدهدى : تدحرج .
(٢) وكان يومئذ مشركاً .
(٣) وادى خلص : واد بين مكة والمدينة فيه قرى ونخل .
(٤) البجاد : الكساء .
(٥) إمتاع الأسماع للمقريزى ١ / ٨٧ ــ ٨٩ .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٠ .
(٧) النواضح : الإبل يستقى عليها الماء .
(٨) التملظ : تحريك اللسان فى الفم بعد الأكل .

والله ماأرى أن يقتل منهم رجل حتى يقتل منكم رجل ، فإن أصابوا منكم مثل أعدادهم فما خير فى العيش بعد ذلك) .(١)

والملاحظ أن المشركين هم الذين رأوا أعداد الملائكة تنضم للجيش الإسلامى . فشريفا قريش اللذان لم يقتلا فى بدر هما اللذان نقلا لنا رؤية الملائكة ، وذلك بعد أن أسلما وحسن إسلامهما .

٧ ــ المؤمنون من جند الله :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ .(٢)

وبعد هذه المعية ، وهذا العون ، لا مجال لفرار المؤمنين من الزحف .

فقد أمر الله عز وجل فى هذه الآية ألا يولى المؤمنون أمام الكفار وهذا الأمر مقيد بالشريطة المنصوصة فى مِثلَى المؤمنين فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هى ضعف المؤمنين من المشركين فالغرض ألا يفروا أمامهم ، فمن فر من اثنين فهو فار من الزحف .

ومن فر من ثلاثة فليس بفارٍ من الزحف ، ولايتوجه عليه الوعيد ، والفرار كبيرة موبقة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة ، وقالت فرقة منهم ابن الماجشون فى الواضحة : إنه يراعى الضعف والقوة والعدة ، فيجوز على قولهم : أن يفر مائة فارس من مائة فارس ، إذا علموا أن ما عند المشركين من النجدة والبسالة ضعف ما عندهم . وأما على قول الجمهور فلا يحل فرار مائة إلا بما زاد عن المائتين ؛ فمهما كان فى مقابلة مسلم أكثر من اثنين فيجوز الانهزام ، والصبر أحسن ، وقد وقف جيش مؤتة وهم ثلاثة آلاف فى مقابلة مئتى ألف منهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من المستعربة من لخم وجذام ..) .

(واختلف الناس هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر ؟ أم عام فى الزحوف كلها إلى يوم القيامة ؟ فروى عن أبى سعيد الخدرى : أن ذلك مخصوص بيوم بدر ، وبه قال نافع والحسن وقتادة ويزيد بن أبى الحبيب والضحاك ، وبه قال أبو حنيفة ، وأن ذلك خاص بأهل بدر ، فلم يكن لهم أن ينحازوا ، ولو انحازوا لانحازوا للمشركين ، ولم يكن

---

(١) إمتاع الأسماع / ١ / ٨٣ .   (٢) الأنفال / ١٥ ، ١٦ .

فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا للمسلمين فئة إلا النبى ﷺ ، فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض ، قال الكيا : وهذا فيه نظر : لأنه كان فى المدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبى ﷺ بالخروج معه ، ولم يكونوا يرون أنه قتال ، وإنما ظنوا أنها العير ، فخرج رسول الله ﷺ فيمن خف معه ، ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة ، احتج الأولون بما ذكرنا وبقوله تعالى يومئذ ، فقالوا : هو إشارة إلى يوم بدر ، وأنه نسخ حكم الآية بآية الضعف ، وبقى حكم الفرار من الزحف ليس بكبيرة ، وقد فر الناس يوم أحد فعفا الله عنهم ، وقال الله فيهم يوم حنين ﴿ **ثم وليتم مدبرين** ﴾ (١) ولم يقع على ذلك تعنيف ، وقال الجمهور من العلماء : إنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف الذى يتضمنه قوله تعالى ﴿ **إذا لقيتم** ﴾ وحكم الآية باق إلى يوم القيامة ؛ بشرط الضعف الذى بينه الله تعالى فى آية أخرى . وليس فى الآية نسخ ؛ والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه ، وإلى هذا ذهب مالك والشافعى وأكثر العلماء ، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ..... ــ وفيه ــ والتولى يوم الزحف » وهذا نص فى المسألة ، وأما يوم أحد ، فإنما فر الناس من أكثر من ضِعفهم ، ومع ذلك عنفوا ، وأما يوم حنين فكذلك من فر إنما انكشف من الكثرة على مايأتى بيانه) .

(.. قوله تعالى : ﴿ **إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً إلى فئة** ﴾ التحرف : الزوال عن جهة الاستواء ، والمتحرف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب غير منهزم وكذلك المتحيز إذا نوى التحيز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير المنهزم أيضاً) .

(.. قوله تعالى : ﴿ **فقد باء بغضب من الله** ﴾ أى استحق الغضب ، وأصل باء : رجع ، وقد تقدم ، ومأواه جهنم : أى مقامه ، وهذا لايدل على الخلود كما تقدم فى غير موضع ، وقد قال ﷺ : « من قال أستغفر الله الذى لاإله إلا هو الحى القيوم ، غفر له وإن كان قد فر من الزحف . » (٢) .

٨ ــ الحصى من جند الله :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاءً حسنا ، إن الله سميع عليم ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾. (٣)

---

(١) التوبة / ٢٥ . (٢) تفسير القرطبى / مقتطفات ٤ / ٧ / ٣٨٠ ــ ٣٨٤ . (٣) الأنفال / ١٧ .

(روى أن أصحاب رسول الله ﷺ لما صدروا عن بدر ـ ذكر كل واحد منهم مافعل : قتلت كذا ، فعلت كذا ؛ فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك ، فنزلت الآية إعلاماً بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء ، فقيل : المعنى فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم ، وقيل : ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم)[1].

ولاغرابة أن تخلد النفوس لحظة إلى ذاتها ، وهى ترى هذا النصر المؤزر ، كما روى ابن إسحاق : (ثم ارتحل رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون ، يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين ، فقال لهم سلمة بن سلامة :

(ماالذى تهنئوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن[2] المعقلة فنحرناها ، فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : « أى ابن أخى أولئك الملأ »)[3] .

﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .

(ولما التحم القتال ، كان رسول الله ﷺ رافعاً يديه ، يسأل الله النصر وماوعده ، وأُمِرَ رسول الله ﷺ : فأخذ من الحصى كفاً ، فرماهم بها وقال : « شاهت الوجوه ، اللهم ارعب قلوبهم وزلزل أقدامهم » فانهزم أعداء الله ، لايلوون على شىء ، وألقوا دروعهم ، والمسلمون يقتلون ويأسرون ، ومابقى منهم أحد إلا امتلأ وجهه وعيناه ، مايدرى أين توجه والملائكة يقتلونهم ، وذلك قول الله تعالى : **﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم . ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾** .[4]

٩ ـ استفتاح الكافرين من جند الله :

﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين ﴾[5] .

(روى الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن ثعلبة أن أبا جهل قال ـ حين التقى القوم :

اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لانعرف فأحنه الغداة ، فكان هو المستفتح .

(١) تفسير القرطبى / ٤ / ٧ / ٣٨٤ .
(٢) البدن المعقلة : الإبل المقيدة التى تهدى إلى مكة .
(٣) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٨٦ .
(٤) إمتاع الأسماع للمقريزى / ١ / ٩٠ .
(٥) الأنفال / ١٩ .

ورواه الحاكم من حديث الزهرى أيضاً ، ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، وقال الأموى حدثنا أسباط بن محمد القرشي عن عطية عن مطرف فى قوله ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ قال : قال أبو جهل : اللهم أعن أعز الفئتين ، وأكرم القبلتين ، وأكثر الفريقين .فنزلت : ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾)[1] ، وكأنما هو يدعو على نفسه وفئته فاستجاب الله له .

١٠ ـ وكثرة الكافرين وفئتهم من جند الله :

لأن الله تعالى ناصر حزبه ، ومؤيد جنده ﴿ **وأن الله مع المؤمنين** ﴾ ، ولن يدعهم للكثرة المشركة تتحكم بهم ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .

خامساً : النداءات للمؤمنين :

انتهى الشوط الأول من سورة الأنفال ، وقد انتزع من المؤمنين ذواتهم وجردهم لله سبحانه ، وهو يستعيد معهم الشريط المتصل للمعركة ، وكان الشوط الثانى دعوة لهم للالتزام التام بأوامر الله ورسوله . وفى قلب هذه النداءات تحذير من المخالفة :

١ ـ ﴿ يأيها الذى آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولاتولوا عنه وأنتم تسمعون . ولاتكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾[2] .

فكلام الله تعالى للتنفيذ والتطبيق ، والانحدار كبير وخطير بين الموقفين ، بين أن يكون من صف الذين آمنوا ، وعملوا بأوامر الله تعالى لهم ، وبين أن يكون من صف شر الدواب عندالله ، الذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون ، وهؤلاء هم الصم البكم الذين لايعقلون.

ولافرق فى ميزان الله بين البشر الذى يسمع ، ولايلبى النداء ، ويتولى معرضاً عن ذكر الله سبحانه ، وبين الصم البكم الذين لايعقلون . إن لم يكن الآخرون خيراً من الأولين.

٢ ـ ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا

---

(١) البداية والنهاية / ٢ / ٣ / ٢٨٢ . (٢) الأنفال ٢٠ ـ ٢٣ .

أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ، واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ . (١)

والاستجابة لله وللرسول هى حقيقة الحياة . والتلكؤ عنها خطير قد يحرم المسلم منها ، وتكون العقوبة له على تلكئه ومعصيته .

إنها لحظات . أن تقع الفتنة . فإذا منافذ الخير تغلق ، وإذا القلب الحى قد صمت عن الحياة والاستجابة لها ، وليس هذا خاصاً بالكافرين الذين رأوهم قد جيفوا أمام أعينهم فى بدر ، وكانوا كذلك فى حياتهم ، ولكنه قد يطال هؤلاء المؤمنين .

﴿ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾
وحين تفترون بالنصر ، وتتشاحنون على الأنفال ، وتفسد ذات بينكم ، لابد من صحوة ، صحوة ضخمة تستعيدون بها الماضى كله ، فى ومضة بصر حين كنتم قليلاً مستضعفين فى الأرض ، والناس تريد اختطافكم ، وتتسابق على الإيقاع بكم وإيذائكم . هكذا كنتم فأين أنتم اليوم ؟ آواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات ، لعلكم تشكرون .

٣ ـ ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ، وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ (٢) .

وأنتم اليوم العصبة المؤمنة فى الأرض ، فلاتخونوا الله والرسول ، وتخونوا أماناتكم بعد ماجاءكم من العلم والركون إلى المال والولد والتثاقل إليهم يقود إلى هذه الخيانة ، ويقود إلى التراخى عن الجهاد . وماعند الله من الأجر العظيم ، والرغبة فيه والثقة به هو الذى ينجى من هذه الخيانة .

٤ ـ ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ، ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ (٣) .

وحتى لاتكون فتنة المال ، ولاتكون فتنة الولد ، وحتى لايحال بين المرء وقلبه ، فلابد من تقوى الله ومخافته وخشيته ، وبذلك يكون الفرقان الواضح بين الحق والباطل فى حس المؤمنين . كما كانت بدر فرقاناً بين الكفر والإيمان . وعندما لاتلتبس الأمور ، ويكون

(١) الأنفال ٢٣ ـ ٢٦ (٢) الأنفال / ٢٧ ـ ٢٨ . (٣) الأنفال / ٢٩ .

الفرقان ، فالله تعالى يكفر السيئات ويغفر الذنوب ، والله ذوالفضل العظيم .

إنها جولة فى عالم المؤمنين ، وحث لهم على الارتفاع إلى المستوى الذى أعدهم الله تعالى له ، فهم العصبة المؤمنة الذين غير لهم الأرض ، وذلل لهم الصعاب ، وبعث معهم جنوده من كل فج . وليسوا طلبة غنيمة أو ملاحقى عير ، ومختلفين على الأنفال . إنهم قدر الله فى الأرض وصحب محمد عليه الصلاة والسلام ، وجند الله فى هذا الوجود . فلا بد أن تكون التربية لهم على هذا المستوى الضخم من المسؤولية .

سادساً : صولة مع المشركين :

١ ـ ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ . (١)

لم يمر على هذه الذكرى سنتان بعد ، ولم يجف أثرها بعد ، يوم كان رسول الله ﷺ ثانى اثنين فى الغار وقد اختبأ فيه ، بعد أن حوصر بيته بسيوف مصلتة تمثل كل قبائل مكة ليضيع دمه فى القبائل ، وكان الرأى :

(قال أبو الأسود : نخرجه من بين أظهرنا ، وننفيه من بلادنا ، ولانبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع ، فقد أصلحنا أمرنا ، وألفتنا كما كانت . و قال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب ، ثم يسير به إليكم ، بعد أن يتابعوه حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، أو يروا فيه رأياً غير هذا .

قال أبو البخترى : احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ماأصاب أمثاله من الشعراء ، الذين كانوا قبله زهيراً والنابغة ، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ماأصابهم ، قال الشيخ النجدى : لا والله ماهذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره ؟ من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم ، فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوا على أمركم ، ماهذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره .

---

(١) الأنفال / ٣٠ .

قال أبو جهل : والله إن لى فيه رأياً ماأراكم وقعتم عليه بعد ... !

قالوا : وماهو ياأبا الحكم ، قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتىً شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطى كل فتىً منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه . فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم .

قال الشيخ النجدى : القول ماقال الرجل هذا الرأى الذى لارأى غيره) . (١)

وبنظرة سريعة على الذين مكروا برسول الله ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه نجد الأسماء البارزة التالية :

١ ــ أبو جهل بن هشام ٢ ــ جبير بن مطعم ٣ ــ طعيمة بن عدى ٤ ــ الحارث بن عامر ٥ ، ٦ ــ شيبة وعتبة ابنا ربيعة ٧ ــ أبو سفيان بن حرب ٨ ــ النضر بن الحارث ٩ ــ أبو البخترى بن هشام ١٠ ــ زمعة بن الأسود ١١ ــ حكيم بن حزام ١٢ و ١٣ ــ نبيه ومنبه ابنا الحجاج ١٤ ــ . أمية بن خلف ، والذين كلفوا بقتل رسول الله ﷺ إضافة إلى هؤلاء ١ ــ الحكم بن أبى العاص ٢ ــ عقبة بن أبى معيط ٣ ــ أبو لهب ٤ ــ أبى بن خلف .

فيكون مجموع كبار مجرميها سبعة عشر .

فأين هؤلاء الآن ؟

إنهم فى قليب بدر صرعى ، أو فى غيره ، خلا أربعة منهم هم : جبير بن مطعم وأبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وأبى بن خلف .

فأية نعمة أعظم من هذه النعمة ؟

أبطال المؤامرة ، وأعدى العدو قتلوا جميعاً ، وهاهو ذا رسول الله ﷺ على رأس جيشه ودولته .

فماذا يرد المشركون على هذه الصولة ؟

٢ ــ ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٩٣ ــ ٩٥ .

قال بن إسحاق :

(فقام النضر بن الحارث فقال : يامعشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ماأتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيه وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ، لا والله ماهو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن : لا والله ماهو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم ؛ وقلتم شاعر : لا والله ماهو بشاعر ، قد رأينا الشعر سمعنا أصنافه كله هزَجَه ورَجَزه ؛ وقلتم : مجنون ، لا والله ماهو بمجنون ؛ لقد رأينا الجنون ، ماهو بخنقه ولا وسوسته ولاتخليطه ، يامعشر قريش ، فانظروا فى شأنكم ؛ فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم) . (١)

وحرى بمن يقول هذا القول أن يعلن إيمانه وإسلامه ، فماذا يكون محمد عليه الصلاة والسلام إن لم يكن كاهناً ولا ساحراً ولامجنوناً ولاشاعرا ؟

ولكن الكفر على علم قاد النضر لاتباع هواه .

(وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ ، وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك فارس ، وأحاديث رستم .

فكان إذا جلس رسول الله مجلساً فذكّر فيه بالله ، وحذّر قومه ماأصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ـ خلفه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثاً منه فهلم إلىّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس واسفنديار ، ثم يقول بماذا محمد أحسن حديثاً منى ؟

قال ابن هشام : وهو الذى قال فيما بلغنى : سأنزل مثل ماأنزل الله ، قال ابن إسحاق : وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول فيما بلغنى : نزل فيه ثمانى آيات من القرآن : قول الله عز وجل : ﴿ **إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين** ﴾ وكل ماذكر فيه من الأساطير فى القرآن) . (٢)

فهو إذن بطل هذه الفرية وصاحبها ، ولاغرابة أن يأمر رسول الله ﷺ بقتله من بين الأسرى السبعين مع عقبة بن أبى معيط وطعيمة بن عدى .

(وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله ، قال المقداد يارسول الله أسيرى ، فقال

---

(١) السيرة لابن هشام / ١ / ٣١٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٢٠ .

رسول الله ﷺ : « إنه كان يقول فى كتاب الله مايقول » فأمر النبى ﷺ بقتله ، فقال المقداد : أسيرى ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم أغن المقداد من فضلك » فقال المقداد : هذا الذى أردت) . (١)

٣ - ﴿ **وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ . (٢)

(يقول تعالى ذكره : واذكر يامحمد أيضاً ماحل بمن قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، إذ مكرتُ لهم فأتيتهم بعذاب أليم ، وكان ذلك العذاب قتلهم بالسيف يوم بدر ، وهذه الآية أيضاً ذكر أنها نزلت فى النضر بن الحارث ....

وعن عطاء قال : قال رجل من بنى عبد الدار يقال له النضر بن كلدة : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فقال الله : ﴿ **وقالوا ربنا عجّل لنا قطنا قبل يوم الحساب** ﴾ (٣) وقال ﴿ **لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة** ﴾ (٤) وقال : ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع** ﴾(٥) قال عطاء : لقد نزل فيه بضع عشر آية من كتاب الله) . (٦) ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ، وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وماكانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون . ولكن أكثرهم لايعلمون** ﴾ (٧).

(وقال أنس بن مالك : قائله أبو جهل : رواه البخارى ومسلم) . (٨).

(لما قال أبو جهل : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك .. الآية نزلت ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم** ﴾ كذا فى صحيح مسلم ، وقال ابن عباس : لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبى ﷺ منها والمؤمنون ، ويلحقوا بحيث أمروا ﴿ **وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ وعن ابن عباس : كانوا يقولون فى الطواف : غفرانك ، والاستغفار وإن وقع من الفجار يدفع به ضرب من الشرور والإضرار ، وقيل إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم ، أى وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين ،

---

(١) تفسير الطبرى ٦ / ٩ / ١٥٢ . (٢) الأنفال / الآية ٣٢ . (٣) ص / ١٦ .
(٤) الأنعام / ٩٤ . (٥) المعارج / ١ ، ٢ . (٦) تفسير الطبرى ٦ / ٩ / ١٥٢ .
(٧) الأنفال / ٣٢ - ٣٤ . (٨) تفسير القرطبى ٤ / ٧ / ٣٩٨ .

فلما خرجوا عذبهم الله يوم بدر وغيره) [1] ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام . وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ .

وهزيمة بدر زعزعت كثيراً من ادعاءات قريش أنها حامية حمى البيت عند العرب ، فالعرب يذكرون كيف أرسل الله تعالى على أبرهة طيراً أبابيل مع جيشه ، فجعلهم كعصف مأكول ، وقد حمى الله تعالى بيته بدون حرب ولا قتال ، بينما هم اليوم قد خرجوا بجمع ضخم للقضاء على محمد وحزبه ، فإذا هم يعودون يجرون أذيال الهزيمة ، وقد منحوا المسلمين أكتافهم يقتلون منهم ، ويأسرون منهم كما يشاؤون ، وجعلت الأرضية مهيأة للدعاية من المسلمين أنهم أولياء البيت الحقيقيون ، ومن أجل هذا نصرهم الله تعالى على قلة من العدد والعدة .

وأكثر ما كانت العرب تأخذ على قريش أن تصد عن بيت الله الحرام من جاء معظماً له ، وقد فعلت ذلك قريش مع أفراد عديدين من المسلمين ، اعتقلتهم أولاحقتهم عندما جاؤوا إلى بيت الله الحرام ، ومن أجل هذا استحقوا العذاب والتنكيل والهزيمة وقتل سادتهم وأشرافهم . ودعاية قريش قبل شهر ونيف ، والتى نالت من المسلمين بأنهم انتهكوا حرمة الشهر الحرام وقاتلوا فيه ـ أصبحت باهتة ضعيفة بعد هزيمتهم المنكرة من محمد وصحبه .

٤ ـ ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ . [2]

(قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عراة ، يصفقون ويصفرون ، فكان ذلك عبادة فى ظنهم والمكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق . قاله مجاهد والسدى وابن عمر رضى الله عنهما) [3] وهذه العبادة وهذه الحرب لله ورسوله لاغرو أن يكون جزاء ذلك العذاب الشديد ﴿ **وما لهم ألايعذبهم الله** ﴾ .

٥ ـ ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . ليميز الله الخبيث من الطيب، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون﴾ [4] .

(١) تفسير القرطبى / ٤ / ٧ / ٣٩٩ .
(٢) الأنفال / ٣٥ .
(٣) القرطبى / ٤ / ٧ / ٤٠٠ .
(٤) الأنفال / ٣٦ ، ٣٧ .

وتبلغ الحملة الإعلامية ذروتها ضد المشركين ، وبعد إسقاط مقولتهم فى ولاية البيت ، وفى عبادة الله ، لابد من فضح جهودهم المالية فى حرب المسلمين ، كيف عادت عليهم بالوبال ، ولابد من هذه الحملة كذلك حتى لا تستغل قريش نجاة قافلتها ومالها من محمد ، وأن ما أصابها يوم بدر ذهب بمعظم أموالها ، فليست الخسارة فى الأرواح فقط بل بالأرواح والأموال .

(وتجهزوا فى ثلاثة أيام وقيل فى يومين ، وأعان قويُّهم ضعيفهم ، وقام سهيل بن عمرو ، وزمعة بن الأسود وطعيمة بن عدى وحنظلة بن أبى سفيان وعمرو بن أبى سفيان يحضون الناس على الخروج ، فقال سهيل : يا آل غالب : أتاركون أنتم محمداً والصباة من أهل يثرب يأخذون عيراتكم وأموالكم ؟ من أراد مالاً فهذا مال ، ومن أراد قوة فهذه قوة ، فمدحه أمية بن أبى الصلت بأبيات ، ومشى نوفل بن معاوية إلى أهل القوة من قريش ، فكلَّمهم فى بذل النفقة والحُملان لمن خرج ، فقال عبد الله بن أبى ربيعة : هذه خمسمائة دينار ، فضعها حيث رأيت ، وأخذ من حويطب بن عبد العزى ثلاثمائة دينار ، وقوَّى بها فى السلاح والظهر ، وحمل طعيمة بن عدى على عشرين بعيراً وقواهم وخلفهم فى أهلهم بمعونة) [١] .

(وقال يونس عن إسحاق : خرجت قريش على الصعب والذلول فى تسعمائة وخمسين مقاتلاً معهم مائتا فرس يقودونها ، ومعهم القيان يضربن بالدفوف ، ويغنين بهجاء المسلمين ، وذكر المطعمين لقريش يوماً يوماً ، وذكر الأموى فى مغازيه : أن أول من نحر لهم حين خرجوا من مكة أبو جهل ، نحر لهم عشرا ، ثم نحر لهم أمية بن خلف بعسفان عشرا ، ونحر لهم سهيل بن عمرو بقديد عشراً ، ومالوا إلى قديد إلى مياه نحو البحر فظلوا بها ، وأقاموا بها يوماً فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعاً ، ثم أصبحوا بالجحفة فنحر لهم يومئذ عتبة بن ربيعة عشراً ، ثم أصبحوا بالأبواء فنحرلهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج عشراً ، ونحر لهم العباس بن عبد المطلب عشراً ، ونحر لهم أبو البخترى بن هشام على ماء بدر عشراً ، ثم أكلوا من أزوادهم) [٢] .

هذا عن أموالهم التى وضعوها فى النفير ، فماذا عن العير التى كان قوامها خمسين ألف دينار ذهباً ، وكانت تمثل ثروة مكة ، فقد كان فيها ألف بعير تحمل أموال قريش بأسرها إلا ما كان من حويطب بن عبد العزى .. !

---

(١) إمتاع الأسماع / ١/٦٧ .
(٢) البداية والنهاية /٢/٣/٢٥٩ .

(لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ، ورجع فلّهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان ببعيره ، مشى عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية ورجال من قريش ممّن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ؛ فكلموا أبا سفيان ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأراً ، ففعلوا . قال ابن إسحاق ففيهم كما ذكر لى بعض أهل العلم أنزل الله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾ فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ ـ حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير ـ بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة)[1] .

﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً ، فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون** ﴾ [2] .

وكانت بدر الفرقان بين الخبيث والطيب ، فهؤلاء المطعمون من قريش قد كدّسوا مع أموالهم فى قليب بدر ، وسيركمون فى جهنم كما قال لهم رسول الله ﷺ .

(وروى البخارى بسنده عن أبى طلحة ، أن رسول الله أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا فى طوى [3] من أطواء بدر خبيث فخبث . وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة [4] ثلاث ليال . فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ، ثم مشى وتبعه أصحابه ، وقالوا : ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركى [5] فجعل يناديهم بأسمائهم ، وأسماء آبائهم : « يا فلان بن فلان ، ويافلان بن فلان ، يسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا » ؟ فقال عمر : يا رسول الله ، ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟ فقال النبى ﷺ : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم »)[6] .

﴿ **فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

٦ ـ ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . فإن انتهوا فإن الله بما

---

(١) البداية والنهاية /٢/٤/١١ .　(٢) الأنفال / ٣٧ .　(٣) طوى : بئر لم يجف .
(٤) العرصة : كل بقعة ليس فيها بناء .　(٥) الركى : البئر لم يجف .
(٦) صحيح البخارى ٥/٩٧ (٦٤) كتاب المغازى . (٨) باب قتل أبى جهل .

يعملون بصير وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ (١) .

(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد للذين كفروا من مشركى قومك أن ينتهوا عما هم عليه مقيمون من كفرهم بالله ورسوله وقتالك وقتال المؤمنين ، فينيبوا إلى الإيمان ، يغفر الله لهم ما قد خلا ، ومضى من ذنوبهم .. وإن يعودوا ــ يقول : وإن يعد المشركون لقتالك بعد الوقعة التى أوقعتها بهم فى بدر ، فقد مضت سنتى فى الأولين منهم ببدر ، ومن غيرهم من القرون الخالية ؛ إذ كذبوا رسلى ، ولم يقبلوا نصحهم من إحلال عاجل النقم بهم ، فأحل بهؤلاء إن عادوا لحربك وقتالك مثل الذى أحللت بهم) (٢) .

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة .. ﴾ (٣) .

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله : وإن يعد هؤلاء لحربك فقد رأيتم سنتى فيمن قاتلكم منهم يوم بذر ، وأنا عائد بمثلها فيمن حاربكم منهم ، فقاتلوهم حتى لا يكون شرك ، ولا يعبد إلا الله وحده لا شريك له ، فيرتفع البلاء عن عباد الله فى الأرض ، وهو الفتنة ، ويكون الدين كله لله ، يقول : وحتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره) (٤) .

عاد المؤمنون من بدر ، ولم يستوعبوا بعد أبعاد هذا النصر وآفاقه ، وضخامة المسؤولية المنوطة بهم فى هذه الأرض ، وأن رسالتهم قد تجاوزت ملاحقة العير ، أو رد الاعتداء ، أو قتال المقاتلين فى معركة ، بل هى أضخم من هذا كله . فالقتال قائم حتى لا يفتن مؤمن عن دينه فى الأرض ، وهم طليعة الركب المؤمن فى هذا الوجود . والذين حاربوهم كذلك هم أعداء الله تعالى ورسوله ، والله تعالى ناصر جنده وحزبه عليهم لا محالة .

﴿ وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ (٥) .

---

(١) الأنفال : ٣٨ ــ ٤٠ . (٢) تفسير الطبرى /٦/٩/١٦١ . (٣) الأنفال /٣٩ .
(٤) المصدر نفسه / ٦ / ٩ / ١٦٢ . (٥) الأنفال / ٤٠

الجولة الثانية : من سورة الأنفال

أولاً : الغنائم وربطها بالإيمان :

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خُمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا .. ﴾ (١) .

وكما كانت الأنفال ابتداءً لله وللرسول بعد أن نزعت من المؤمنين ، ها هى ذى تعود ثانية ابتداءً للمقاتلين فى أربعة أخماسها ، بينما يبقى الخمس بيد الإمام ، يوزعه على المصارف المذكورة ، وكما قال الله تعالى فى بداية السورة :

﴿ .. قل الأنفال لله والرسول . فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ .

يقول هنا : **﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين .. ﴾** (٢) وما الغنيمة أو الأنفال إلا مهماز الذكرى بتدبير الله وتقديره ليوم الفرقان الأكبر الذى أعد فيه جل شأنه هذا اللقاء .

ثانياً : يوم الفرقان وتدبير الله تعالى له :

١ ـ اللقاء المقدر :

﴿ ... وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شئ قدير . إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا . ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىَّ عن بينة وإن الله لسميع عليم ﴾ (٣) .

وحتى لا تصبو النفوس إلى هذا المجد وهذا الفرقان أنها صنعته ، جاءت الصور المتابعة لتزيل كل غبش ، فتؤكد الرغبة البشرية عندهم فى الركب الذى فات المؤمنين بتدبير الله سبحانه ، وبوضعهم مباشرة أمام المواجهة .

(١ ، ٢ ، ٣) الأنفال / ٤١ ، ٤٢ .

﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ﴾ .

أنتم بجانب الوادى الأدنى ، وهم بجانب الوادى الأقصى ، والعير أسفل منكم . ولننظر إلى تقدير الله عز وجل لهذا اللقاء من خلال نصوص السيرة :

(وأقبل أبو سفيان بالعير ومعها سبعون رجلاً منهم مخرمة بن نوفل وعمرو بن العاص ، فكانت عيرهم ألف بعير ، تحمل المال ، وقد خافوا خوفاً شديداً حين دنوا من المدينة ، واستبطأوا ضمضم بن عمرو [١] والنفير : فلما كانت الليلة التى يصبحون فيها على ماء بدر ، جعلت العير تقبل بوجوهها إلى ماء بدر ، وكانوا باتوا من وراء بدر آخر ليلتهم ، وهم على أن يصبِّحوا بدراً إن لم يعترض لهم ، فما انقادت لهم العير حتى ضربوها بالعُقُل [٢] ، وهى ترجِّع الحنين ، تزاور إلى ماء بدر - وما بها إلى الماء من حاجة ، وجعل أهل العير يقولون : هذا شئ ماصنعته معنا مذ خرجنا) [٣] .

(قال ابن إسحاق : وكان بسبس بن عمرو ، وعدى بن أبى الزغباء قد مضيا حتى نزلا بدراً ، فأناخا إلى تل قريب من الماء ، ثم أخذا شنا [٤] لهما يستقيان فيه ، ومجدى بن عمرو الجهنى على الماء ، فسمع عدى وبسبس جاريتين من جوارى الحاضر [٥] وهما تتلازمان [٦] على الماء ، والملزومة تقول لصاحبتها : إنما تأتى العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك ، فقال مجدى : صدقت ، ثم خلَّص بينهما - وسمع ذلك عدى وبسبس فجلسا على بعيريهما ، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا .

وأقبل أبو سفيان بن حرب حتى تقدم العير حذراً حتى ورد الماء ، فقال لمجدى بن عمرو : هل أحسست أحداً ؟ فقال : ما رأيت أحداً أُنكره إلا أنى قد رأيت راكبين ، قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شنٍ لهما ، ثم انطلقا فأتى أبو سفيان مناخهما ، فأخذ من أبعار بعيريهما ففتَّه ، فإذا فيه النوى ، فقال : والله هذه علائف يثرب . فرجع إلى أصحابه سريعاً فضرب وجه عيره عن الطريق ، فساحل [٧] بها ، وترك بدراً بيسار ، وانطلق حتى أسرع) [٨] .

---

(١) ضمضم بن عمرو : هو الذى أرسله أبو سفيان لقريش يستنفرها لحرب محمد وأصحابه .
(٢) العُقُل : ماتربط به الإبل .
(٣) إمتاع الأسماع للمقريزى / ١ / ٧١ .
(٤) الشَّنُّ : الزق البالى أى الإناء الذى يستقى فيه الماء ويشرب .
(٥) الحاضر : القوم النازلون على الماء .
(٦) تتلازمان : تمسك كل واحدة منهما بصاحبتها .
(٧) فساحل بها : أخذ بها جهة الساحل .
(٨) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(وأتاهم . أى قريشاً ـ قيس بن امرىء القيس من أبى سفيان يأمرهم بالرجوع . ويخبرهم أن قد نجت عيرهم : فلا تجزروا [1] أنفسكم أهل يثرب ، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك ، إنما خرجتم لتمنعوا العير وأموالكم ، وقد نجاها الله ، فعالج قريشاً فأبت الرجوع .... وعاد قيس إلى أبى سفيان ، وقد بلغ الهرة ـ على تسعة أميال من عقبة عسفان ـ فأخبره بمضى قريش ، فقال : واقوماه ، هذا عمل عمرو بن هشام ، كره أن يرجع ، لأنه ترأس على الناس فبغى ، والبغى منقصة وشؤم ، إن أصاب محمد النفير ذللنا .) [2] فالعير تنفر نحو بدر . وقدر الله تعالى أن يعرف أبوسفيان وجود الجيش الإسلامى من فته بعر جملى المسلمين عدى وبسبس ، ورؤيته نوى يثرب فيها . فينجو بالعير أسفل المسلمين ، وقدر الله تعالى أن يصر أبوجهل على الخروج بعد نجاة العير ، ليكون النفير للمسلمين .

(قال ابن إسحاق :

ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى ، خلف العقنقل [3] وبطن الوادى ، وهو تليل بين بدر وبين العقنقل الذى خلفه قريش والقُلُب ببدر فى العدوة الدنيا من بطن تليل إلى المدينة .) [4] فبين الفريقين ذلك الكثيب من الرمل ـ قد فصل بينهما . ولقد أقدم القوم ، وهم يعلمون أنهم البغاة المعتدون ، ﴿ **ليقضى الله أمراً كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيى عن بينة وإن الله لسميع عليم** ﴾ [5] .

(وقال ابن إسحاق : ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه ، وقطعت عذره ، ويؤمن من آمن على ذلك وأى فرقان أعظم من هذا الفرقان بعد ماكان فى بدر ؟) [6] .

٢ ـ تقليل الكافرين فى نوم النبى ﷺ :

﴿ **إذ يريكهم الله فى منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور** ﴾ [7] . (قال مجاهد : رآهم النبى ﷺ فى منامه قليلاً ، فقص ذلك على أصحابه ، فثبتهم الله بذلك) [8] .

(وقيل إنه نام فى العريش ، وأمر الناس ألا يقاتلوا حتى يأذن لهم ـ فدنا القوم منهم ، فجعل الصديق يوقظه ، ويقول : يارسول الله دنوا منا فاستيقظ ، وقد أراه الله إياهم فى

(١) تجزروا : أى لاتجعلوا أنفسكم ذبائح لأهل يثرب .
(٢) إمتاع الأسماع للمقريزى / ١ / ٧١ .
(٣) العقنقل : الكثيب من الرمل .
(٤) السيرة / ٢ / ٢٥٩ .
(٥) الأنفال / ٤٣ .
(٦) تفسير / القرطبى / ٤ / ٩ / ٢٢ .
(٧) الأنفال : ٤٣ .
(٨) القرطبى / ٤ / ٨ / ٢٢ .

منامه قليلاً .) [1] ذكره الأموى - فى مغازيه - وهو غريب جداً .

(ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيراً لفشل أصحابك ، فجبنوا وخافوا ، ولتنازعوا فى ذلك ، ولكن الله سلمهم من ذلك بما أراك فى منامك من الرؤيا ، إنه عليم . بما تخفيه الصدور) [2] .

٣ ـ تقليل الكافرين فى عين المؤمنين :

﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ﴾

روى ابن جرير عن عبدالله بن مسعود قال :

(لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر ، حتى قلت لرجل إلى جنبى : تراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة قال : فأسرنا واحداً منهم فقلنا : كم هم ؟ قال : كنا ألفاً) .

٤ ـ تقليل المؤمنين فى أعين الكافرين :

﴿ ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور ﴾ .

عن السدى قال :

(قال ناس من المشركين إن العير قد انصرفت فارجعوا فقال أبو جهل : الآن إذا برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم ، وقال : ياقوم لاتقتلوهم بالسلاح ، ولكن خذوهم أخذاً ، فاربطوهم بالحبال ، يقوله من القدرة فى نفسه) . [3]

وقال ابن إسحاق :

(... فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد نثل [4] درعاً ، فهو يهنئها [5] ، فقلت له : ياأبا الحكم إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وكذا ، فقال : انتفخ والله سحره [6] حين رأى محمداً وأصحابه ، فلا والله لانرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ماقال ، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور [7] ، وفيهم ابنه قد تخوفكم عليه ...) [8] .

ونجد الروايات البشرية فى السيرة تتقاصر هنا عن وصف هذه الحالات التى أوردها

---

(١) البداية والنهاية / ٢/ ٣ / ٢٦٨ .

(٢) تفسير الطبرى / ٦ / ١٠ / ١٠ .

(٣) المصدر نفسه / ٦ / ١٠ / ١١ .

(٤) نثل : نزع وألقى .

(٥) يهنئها : يصلحها ويتفقدها .

(٦) انتفخ والله سحره : كناية عن الجبن .

(٧) أكلة جزور : أى يقضى عليهم بمقدار أكلة الجزور .

(٨) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٢٦٣ .

القرآن الكريم ، وكيف كانت ذات دور بارز فى تحديد مصير المعركة ، فالله تعالى من بيده قلوب عباده بعث الملائكة من قبل تثبت الذين آمنوا ، وغشاهم بالنعاس أمنة منه وألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب .

ونجد الحديث هنا عن التحكم فى عيون المؤمنين والمشركين بعد التحكم فى قلوبهم .

فرسول الله ﷺ يراهم فى منامه قليلا ، ولو أراه إياهم كثيراً لحصل الفشل ، ولوقع التنازع ، ولنزلت الهزيمة ، ولكن الله تعالى سلم .

والله تعالى يرى المؤمنين أعداء الله قلة أذلة ، فلا يهابون لقاءهم ، أو مواجهتهم . كذلك يقلل المؤمنين فى أعين الكافرين فيستهينون بهم ، ويندفعون إلى لقائهم ؛ لإنهائهم واستئصالهم .

إنها معركة فى العيون ، ومعركة فى القلوب ، ومعركة تشترك فيها قوى الكون من المطر والحصباء ، وقوة السماء من الملائكة . وكذلك سنرى اشتراك الشيطان ودوره الكبير فى المعركة . ولو وقفنا عند روايات السيرة ، لكانت الصورة قاصرة تماماً عن الحقيقة . فالروايات تذكر أن المؤمنين حزروا عدد الكافرين كما قال عليه الصلاة والسلام : القوم « بين التسعمائة والألف » وأن المشركين حزروا عدد المؤمنين ، كما قال عمير بن وهب : القوم ثلاثمائة يزيدون أو ينقصون . هذه روايات السيرة لكنا بالتأكيد فى مرحلة من المراحل ، وقبل الاشتباك ، كانت الصورة فى مخالفة لهذا الأمر . فقد أرى الله تعالى المؤمنين قلة ، والمشركين قلة ، ليتم اللقاء ، ﴿ **ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد** ﴾ ولقد تواعدوا فعلاً بعد أحد فى بدر بالعام القابل ، ونكص أبو سفيان وتراجع عن الحضور ، بينما نجد الأقدار هنا تسوق المؤمنين والمشركين إلى اللقاء سوقا ، ليقع الفرقان بين الفئتين ، يوم التقى الجمعان ؛ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، بل لو كره المؤمنون ذات الشوكة .

(لقد كانت غزوة بدر التى ابتدأت ، وانتهت بتدبير الله وتوجيهه ، وقيادته ومدده - فرقاناً بين الحق والباطل - كما يقول المفسرون إجمالاً - وفرقاناً بمعنى أشمل وأوسع وأدق وأعمق كثيراً - كانت فرقاناً بين الحق والباطل فعلاً .. ولكنه الحق الأصيل الذى قامت عليه السماوات والأرض ، وقامت عليه فطرة الأحياء والأشياء ، الحق الذى يتمثل فى تفرد الله سبحانه بالألوهية ، والسلطان والتدبير والتقدير وفى عبودية الكون كله سمائه وأرضه ، أشيائه وأحيائه لهذه الألوهية المتفردة ، ولهذا السلطان المتوحد ، ولهذا التدبير وهذا

التقدير بلامعقب ولا شريك .. والباطل الزائف الطارىء كان يعم وجه الأرض إذ ذاك ، ويغشى على ذلك الحق الأصيل ، ويقيم فى الأرض طواغيت تتصرف فى حياة عباد الله بما تشاء ، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء ! - فهذا هو الفرقان الكبير الذى تم يوم بدر ، حيث فرّق بين ذلك الحق الكبير وهذا الباطل الطاغى وزيّل بينهما فلم يعودا يلتبسان :

لقد كانت فرقانا بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق ، على أبعاد وآماد ، كانت فرقانا بين هذا الحق وهذا الباطل فى أعماق الضمير . فرقاناً بين الوحدانية المجردة المطلقة لكل شعبها فى الضمير والشعور ، وفى الخُلُق والسلوك ، وفى العبادة والعبودية وبين الشرك فى كل صوره التى تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات .

وكانت فرقاناً بين هذا الحق ، وهذا الباطل فى الواقع الظاهر كذلك . فرقاناً بين العبودية الواقعية للأشخاص والأهواء ، وللقيم والأوضاع . وللشرائع والقوانين ، وللتقاليد والعادات - وبين الرجوع فى هذا كله لله الواحد الذى لاإله غيره ، ولامتسلط سواه ، ولاحاكم من دونه ، ولامشرع إلا إياه ، فارتفعت الهامات لاتنحنى لغير الله ، وتساوت الرؤوس لاتخضع إلالحاكميته وشرعه ، وتحررت القطعان البشرية التى كانت مستعبدة للطغاة .

وكانت فرقاناً بين عهدين فى تاريخ الحركة الإسلامية : عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار ، وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع .. والإسلام بوصفه تصوراً جديداً للحياة ، ومنهجاً جديداً للوجود الإنسانى ، ونظاماً جديداً للمجتمع ، وشكلاً جديداً للدولة ، بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير الإنسان فى الأرض ، بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته ، ومطاردة الطواغيت التى تغتصب ألوهيته وحاكميته ، . الإسلام بوصفه هذا لم يكن له بد من القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ، لأنه لم يكن يملك أن يقف كامناً منتظراً على طول الأمد ، لم يكن يستطيع أن يظل عقيدة مجردة فى نفوس أصحابه ، يتمثل فى شعائر تعبدية لله ، وفى أخلاق سلوكية فيما بينهم ، ولم يكن له بُدّ أن يندفع إلى تحقيق التصور الجديد ، والمنهج الجديد ، والدولة الجديدة ، والمجتمع الجديد ، فى واقع الحياة ، وأن يزيل من طريقها العوائق المادية التى تكبتها ، وتحول بينها وبين التطبيق الواقعى فى حياة المسلمين أولاً ، ثم فى حياة البشرية كلها أخيراً .. وهى لهذا التطبيق الواقعى جاءت من عند الله .

وكانت فرقاناً بين عهدين فى تاريخ البشرية .. فالبشرية بمجموعها قبل قيام النظام الإسلامى هى غير البشرية بمجموعها بعد قيام هذا النظام .. هذا التصور الجديد الذى انبثق منه هذا النظام ، وهذا النظام الجديد الذى انبثق من هذا التصور ، وهذا المجتمع الوليد الذى يمثل ميلاداً جديداً للإنسان ، وهذه القيم التى تقوم عليها الحياة كلها ، ويقوم عليها النظام الاجتماعى والتشريع القانونى سواء ـ هذا كله لم يعد ملكاً للمسلمين وحدهم منذ غزوة بدر ، وتوكيد المجتمع الجديد إنما صار ـ شيئًا فشيئاً ـ ملكاً للبشرية كلها ، تأثرت به سواء فى دار الإسلام ، أم فى خارجها ، سواء بصداقة الإسلام أم بعداوته : .. والصليبيون الذين زحفوا من الغرب ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه فى ربوعه ـ قد تأثروا بتقاليد هذا المجتمع الإسلامي الذى جاؤوا ليحطموه ، وعادوا إلى بلادهم ليحطموا النظام الإقطاعى الذى كان سائداً عندهم ، بعد ماشاهدوا بقايا النظام الاجتماعى الإسلامى ! والتتار الذين زحفوا من الشرق ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه . بإيحاء من اليهود والصلبيين من أهل دار الإسلام ! ـ قد تأثروا بالعقيدة الإسلامية فى النهاية ، وحملوها لينشروها فى رقعة من الأرض جديدة ، وليقيموا عليها خلافة ظلت من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين فى قلب أوربا . وعلى أية حال فالتاريخ البشرى كله ـ منذ وقعة بدر ـ متأثر بهذا الفرقان فى أرض الإسلام ، أو فى الأرض التى تناهض الإسلام على السواء .

وكانت فرقاناً بين تصورين لعوامل النصر وعوامل الهزيمة ، فجرت وكل عوامل النصر الظاهرية فى صف المشركين ، وكل عوامل الهزيمة الظاهرية فى صف العصبة المؤمنة ، حتى لقال المنافقون والذين فى قلوبهم مرض « غر هؤلاء دينهم » . وقد أراد الله أن تجرى المعركة على هذا النحو ـ وهى المعركة الأولى بين الكثرة المشركة والقلة المؤمنة ـ لتكون فرقاناً بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر وأسباب الهزيمة ، ولتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية وعلى الزاد والعتاد ، فيتبين للناس أن النصر للعقيدة الصالحة القوية ، لا لمجرد السلاح والعتاد ؛ وأن أصحاب العقيدة الحقة عليهم أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية ؛ لأنهم يملكون قوة أخرى ترجح الكفة ، وأن هذا ليس كلاماً يقال ، إنما هو واقع متحقق للعيان .

وأخيراً فلقد كانت بدر فرقاناً بين الحق والباطل بمدلول آخر . ذلك المدلول الذى يوحى به قول الله تعالى فى أوائل هذه السورة :

﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ .

لقد كان الذين خرجوا للمعركة من المسلمين ، إنما خرجوا يريدون عير أبي سفيان ، واغتنام القافلة ، فأراد الله لهم غير ما أرادوا . أراد لهم أن تفلت منهم قافلة أبي سفيان غير ذات الشوكة ـ وأن يلاقوا نفير أبي جهل ـ ذات الشوكة ـ وأن تكون معركة وقتالا وقتلا وأسرى ، ولاتكون قافلة وغنيمة ورحلة مربحة ! وقال لهم الله سبحانه ـ إنه صنع هذا :

﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ .

وكانت هذه إشارة لتحقيق حقيقة كبيرة . . إن الحق لايحق ، وإن الباطل لايبطل - في المجتمع الإنساني - بمجرد البيان (النظرى) للحق والباطل ، ولابمجرد الاعتقاد (النظرى) بأن هذا حق وهذا باطل .. إن الحق لايُحق ولايوجد في واقع الناس ، وإن الباطل لايبطل ولايذهب من دنيا الناس - إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق ، وذلك لايتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا ، ويهزم جند الباطل ويندحروا ... فهذا الدين منهج حركي واقعي ، لامجرد (نظرية) للمعرفة والجدل ! أو لمجرد الاعتقاد السلبي !

ولقد حق الحق وبطل الباطل بالموقعة ، وكان هذا النصر العملي فرقاناً واقعياً بين الحق والباطل ، بهذا الاعتبار الذي أشار إليه قول الله تعالى في معرض بيان إرادته ـ سبحانه ـ من وراء المعركة ، ومن وراء إخراج الرسول ﷺ ـ من بيته بالحق ! ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشوكة) ، ولقاء الفئة ذات الشوكة . ولقد كان هذا كله فرقاناً في منهج هذا الدين ذاته ، تتضح به طبيعة هذا المنهج ، وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم .. وأنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته ، حينما ننظر إلى ماأصاب مفهومات هذا الدين من تميع في نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين ! حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين . وهكذا كان يوم بدر (يوم الفرقان) يوم التقى الجمعان بهذه المدلولات)[1] .

---

(١) في ظلال القرآن / ٣ / ١٠ / ١٥٢٤ .

ثالثاً : مواصفات النصر :

﴿ يأيها الذين آمنو إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ (1) .

١ ـ الثبات ﴿ إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ :

ولولا ثباتهم فى بدر وتثبيت الله تعالى لهم بملائكته **﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾** لما كان نصر بدر . لقد شهدوا قصة طالوت بسمعهم ، **﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله .. ﴾** . (2)

وشهدوا قصة بدر ببصرهم ، وكانوا هم أدواتها ، ورأوا بأم عينهم مصرع قيادات مكة ، وقدموا النموذج الحى : والله لانقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . ، ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ فليس الثبات فقط من أجل النصر ، ولكن حتى لايكون فراراً إلى النار وإلى جهنم ، ومنها فروا.

٢ ـ ذكر الله ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ :

وليس الذكر العادى ولكنه الذكر الكثير ، بالقلب واللسان ، وما أروع ذكر الله عند احتراب الأسنة ، وزحف الصفوف ، الذكر بالقلب حيث يرى موعود الله بالجنة أمامه ، ويرى الفرار إلى النار خلفه ، ويرى معية الله بين عينيه ، وهو يقاتل أعداء الله ، ويرى موعود الله بنصر المؤمنين ، والتمكين لهم ، وهو الأداة والستار لقدر الله . والذكر باللسان ، الذى يطلب العون ، ويطلب النصر ، ويطلب المدد ، ويطلب التثبيت . وهذا رسول الله ﷺ . وقد انقطع عالم الأسباب يناجى ربه .

---

(١) الأنفال / ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) البقرة / ٢٤٩ ـ ٢٥١ .

(روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، وهم ثلاثمائة ونيف ، ونظر إلى المشركين وهم ألف وزيادة ، فاستقبل النبى صلى الله عليه والسلام القبلة ، وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : « اللهم أنجز لى ماوعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد بعد فى الأرض أبداً » فما زال يستغيث بربه ويدعوه حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يارسول الله كفاك مناشدتك لربك . فإن الله سينجز لك ماوعدك) . (١)

(وروى البيهقى عن على بن أبى طالب قال : لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال ثم جئت مسرعاً لأنظر إلى رسول الله ﷺ مافعل قال فجئت فإذا هو ساجد يقول : ياحى ياقيوم ياحى ياقيوم لايزيد عليها فرجعت إلى القتال ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك أيضاً . فذهبت إلى القتال ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك أيضاً حتى فتح الله على يده ، وقد رواه النسائى فى اليوم والليلة .

وروى النسائى عن الأعمش عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : ماسمعت مناشداً ينشد أشد من مناشدة محمد ﷺ يوم بدر جعل يقول : اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد ثم التفت وكأن شق وجهه القمر وقال : كأنى أنظر إلى مصارع القوم عشية) . (٢)

٣ ـ طاعة الله ورسوله ، ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ :

فعون الله تعالى ومعيته مرهونان بطاعته . وطاعة رسوله . ولامعية مع المعصية . ومعصية رسول الله ﷺ يوم أحد ، قادتهم إلى الفشل : ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين** ﴾ . (٣)

وكما يقول عمر رضى الله عنه فى وصيته لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : (إنك ستقدم على أمر شديد ، فالصبر الصبر على ما أصابك ونابك تجمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين : فى طاعته واجتناب معصيته ، وإنما طاعة من أطاعه

---

(١) البداية والنهاية / ٢ / ٣ / ٢٧٤ .
(٢) البداية والنهاية / ٢ / ٣ / ٢٧٥ .
(٣) آل عمران / ١٥٢ .

ببغض الدنيا وحب الآخرة ، ومعصية من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة ..) . [1]

ولعل صورة من صور الطاعة والنصر تبرز كذلك من خلال فتح المدائن : (.. ثم نزل سعد ببقية الجيش ، وذلك حين نظروا إلى الجانب الآخر قد تحصن بمن حصل فيه من الفرسان المسلمين ، وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء (أى نزول دجلة) أن يقولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولاحول ولاقوة إلابالله العلى العظيم . ثم اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس ، لم يتخلف عنه أحد . فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملؤوا مابين الجانبين ، فلايرى وجه الماء من الفرسان والرجالة ، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض حتى ملؤوا مابين الجانبين ... فلم يفقد رجل واحد غير أن رجلاً واحداً يقال له غرقدة البارقى ، زلّ عن فرس له شقراء فأخذ القعقاع بن عمرو بلجامها ، وأخذ بيد الرجل حتى عدله على فرسه ... ولم يعدم للمسلمين شىء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل يقال له مالك بن عامر كانت علاقته رثة فأخذه الموج فدعى صاحبه الله عز وجل ، وقال : اللهم لاتجعلنى من بينهم ، يذهب متاعى ، فرده الموج إلى الجانب الذى يقصدونه ، فأخذه الناس ثم ردوه إلى صاحبه . وكان الفرس إذا أعيا وهو فى الماء يقيض الله له مثل النشز المرتفع فيقف عليه فيستريح ، وحتى أن بعض الخيل ليسير ومايصل الماء إلى حزامها ــ قالوا : وكان الذى يساير سعد بن أبى وقاص فى الماء سلمان الفارسى ، فجعل سعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل . والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن الله دينه ، وليهزمن الله عدوه ، إن لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات ، فقال له سلمان : إن الإسلام جديد ، ذللت لهم والله البحور كما ذُلِّل لهم البر ..) . [2]

٤ ــ عدم التنازع : ﴿ ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ . [3]

الثبات ، وذكر الله تعالى ، وطاعة الله ورسوله إن رافقها التنازع فالفشل وذهاب الريح هو النتيجة . فى بدر أرى الله نبيه المشركين قلة ، فوقى الله المؤمنين الخلاف ﴿ **ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم** ﴾ [4] أما فى أحد ﴿ **حتى إذا فشلتم ، وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم** ﴾ [5] فلم يسلِّم الله تعالى النصر

---

(١) البداية والنهاية / ٤ / ٧ / ٣٦ . (٢) البداية والنهاية / ٤ / ٧ / ٦٦ . (٣) الأنفال / ٤٦ .
(٤) الأنفال : ٤٣ . (٥) آل عمران / ١٥٢ .

بمومنين في احد ، لفشلهم وتنازعهم في الأمر ، ورغبة الدنيا وحب الغنيمة ، ولقد وقى الله تعالى المؤمنين يوم بدر . أن كان الخلاف على الغنائم بعد المعركة . وابتلى المؤمنون يوم أحد أن كانت الرغبة في الغنائم والدنيا في قلب المعركة . ويبقى الحكم العام الذى يشمل بدرا أو أحداً أو غيرها على مدار التاريخ . ﴿ **ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾ .

(وقال قتادة وابن زيد : إنه لم يكن هناك نصر قط إلا بريح تهب ، فتضرب في وجوه الكفار ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » قال الحكم : وتذهب ريحكم يعنى الصبا ؛ إذ بها نصر محمد عليه الصلاة والسلام وأمته . وذهبت ريح أصحاب محمد ﷺ حين نازعوه يوم أحد) [1] والملاحظ أنه ليس من الضرورى حين التنازع أن يكون الفريقان على باطل أو خطأ ، بل يكفى أن يكون أحدهما كذلك لتقع العقوبة؟ فالتنازع على الجبل يوم أحد ، كان بين من يصر على تنفيذ أمر رسول الله ﷺ ومن استهوته الغنائم ، وقرر القرآن الكريم هذا المعنى : ﴿ **منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريدُ الآخرة** ﴾ وليس هناك لوم للذين يريدون الآخرة ، بل ثناء عليهم ، وعندما وقعت المحنة ، نالت حتى غير الفريقين المتنازعين ، وعمت الجيش كله . وإن كان الذين يريدون الدنيا من الرماة أكثر من الذين يريدون الآخرة ، وذلك كما تقول الروايات أن عدد الذين تركوا موقعهم أربعين من سبعين .

٥ ـ الصبر : ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾

فالصبر على آلام المعركة ، والصبر على مصيبتها ، وشدائدها ، قمين أن يتم الله به النصر ولنشهد نموذجاً من صبر الصابرين في بدر : قال ابن إسحاق فيمايرويه ، عن معاذ بن عمرو بن الجموح ، أخى بنى سلمة : (سمعت القوم وأبوجهل في مثل الحرجة [2] ، وهم يقولون : أبو الحكم لايخلص إليه ، قال : فلما سمعتها جعلته من شأنى ، فصمدت [3] نحوه ، فلما أمكننى حملت عليه ، فضربته ضربة أطَنَّت [4] قدمه بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها ـ حين طاحت [5] إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة [6] النوى حين يضرب بها

(١) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٢٤ .

(٢) الحرجة : الشجر الملتف . وفي الحديث عن عمر بن الخطاب أنه سأل أعرابياً عن الحرجة قال : هى شجرة بين الأشجار لايوصل إليها .

(٣) صمدت نحوه : قصدت الى جهته .

(٤) أطنَّت : قطعت .

(٥) طاحت : ذهبت .

(٦) المرضخة : الحجر الذى يكسر به النوى .

قال وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي ، فتعلقت بجلدة من جنبي ، وأجهضني [1] القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي ، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها . قال ابن هشام : ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمان عثمان .) [2]

(قال ابن إسحاق : وقاتل عكاشة بن محصن .. يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده ، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً [3] من حطب ، فقال : « قاتل بهذا ياعكاشة » فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزّه فعاد سيفاً في يده طويل القامة ، شديد المتن ، أبيض الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على المسلمين ، وكان ذلك السيف يسمّى العون ، ثم لم يزل به عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قتل في الردة وهو عنده) . [4]

٦ ـ الإخلاص لله في القتال : ﴿ ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط ﴾ . [5]

فالله تعالى ينصر من يقاتل في سبيله . فعن أبي موسى الأشعري قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : الرجل يقاتل للمغنم . والرجل يقاتل للذكر . والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ») [6]
وباستجماع هذه العناصر الستة يأتي نصر الله تعالى . وهو نداء حار لأهل بدر ، يدركون مغزاه ومعناه ، وقد عاشوا أحداثه ، ورأوه واقعاً يدب على الأرض ، بهم تحقق ، ومع ذلك . فيبقى النداء ماضياً إلى يوم القيامة ، ويبقى المؤمنون من أهل بدر ، يستمعون إلى نداء السماء لهم . من غير أن يعرفوا أنهم هم المنصورون ، أم المعاتبون بعد أن نُزع منهم كل ماتحمل ذواتهم من فخر بتحقيق هذا النصر .

رابعاً : حقيقة الكافرين ودعواهم :

ومثل الجولة الأولى مع الكافرين ، والتي فضحت دعواهم ، وادعاءاتهم هاهي ذي الجولة الثانية معهم تكفي المسلمين مؤونة نقاشهم والرد عليهم .

---

(١) أجهضني : غلبني واشتد علي .
(٢) السيرة لابن هشام ٢ / ٢٧٥.٢٧٦.
(٣) جذلاً من حطب : أصل الشجرة .
(٤) المصدر السابق / ٢ / ٢٧٧ . وقد رواه البيهقي عن الحاكم والواقدي كذلك .
(٥) الأنفال /٤٧ .
(٦) متفق عليه .

١ ـ خروج البطر ورئاء الناس :

﴿ ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بمايعملون محيط ﴾ .

وهذا الأمر من البيان والوضوح بحيث لايحتاج إلى برهان ، وروايات السيرة تحشد له العديد من المواقف .

أ ـ رؤيا عاتكة : قال ابن إسحاق فيما يرويه عن عروة بن الزبير ، ويزيد بن رومان قالا : (وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها ، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب ، فقالت له : ياأخي ، والله لقد رأيت الليلة رؤيا لقد أفظعتني [١] ، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فاكتم مني ما أحدثك به ، قال لها : ومارأيت ؟ قالت : رأيت راكباً أقبل على بعيرٍ له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا ياآل غُدَر لمصارعكمٍ في ثلاث ، فأرى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مَثَل [٢] به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها : ألا انفروا ياآل غدر لمصارعكم في ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس ، فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت [٣] ، فما بقي بيت من بيوت مكة ، ولادار إلا دخلتها منها فِلقة [٤] . قال العباس : والله إن هذه لرؤيا ، وأنت فاكتميها ، ولا تذكريها لأحد .

ثم خرج العباس ، فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وكان له صديقاً ، فذكرها له ، واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ، ففشا الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش في أنديتها . قال العباس : فغدوت لأطوف بالبيت ، وأبوجهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة ، فلما رآني أبو جهل قال : يا أبا الفضل ، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا ، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم ، فقال لي أبو جهل : يابني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النَّبِيَّةُ ؟ قال : قلت : وما ذاك ؟ قال ؟ تلك الرؤيا التي رأت عاتكة ، قال : قلت : ومارأت ؟ قال : يابني عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ! ! ! لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال : انفروا في ثلاث ، فسنتربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ماتقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء

(١) أفظعتني : هالتني واشتدت علي .
(٢) مَثَل به : قام به ماثلاً .
(٣) ارفضت : تفتتت .
(٤) فِلقة : قطعة .

نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب . قال العباس : فوالله ماكان منى إليه كبير إلا أني جحدت ذلك ، وأنكرت أن تكون رأت شيئاً ، قال : ثم تفرقنا ، فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى ، فقالت : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غيرة لشىء مما سمعت . قال : قلت : قد والله فعلت ماكان منى إليه من كبير ، وأيم الله لأتعرضن له ، فإن عاد لأكفينكَّنه ، قال : فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وأنا حديد مغضب ، أرى أنى قد فاتتنى منه أمر أحب أن أدركه منه . قال : فدخلت المسجد ، فرأيته ، فوالله إنى لأمشى نحوه أتعرضه ليعود لبعض ماقال فأقع به ، وكان رجلاً خفيفاً حديد [1] الوجه حديد اللسان حديد النظر ، قال : إذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال : قلت في نفسى : ماله لعنه الله ؟ أكل هذا فرقاً [2] منى أن أشاتمه ؟ قال : وإذا هو سمع مالم أسمع صوت ضمضم بن عمرو الغفارى ، وهو يصرخ ببطن الوادى واقفاً على بعيره ، وقد جدع [3] بعيره ، وشقَّ قميصه وهوَ يقول يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة [4] ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث .

قال : فشغلنى عنه وشغله عنى ماجاء من الأمر ، فتجهز الناس سراعاً وقالوا : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمنّ غير ذلك ، فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً ، وأوعبت قريش ، فلم يتخلف من أشْرافها أحد . إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب قد تخلف وبعث مكانه العاصى بن هشام بن المغيرة وكان قد لاط [5] له بأربعة آلاف درهم كانت له عليه ، أفلس بها ، فاستأجره بها على أن يجزى عنه بعثه فخرج عنه وتخلف أبو لهب) [6] وعير ابن الحضرمى هى التى استولى عليها المسلمون قبل شهر ونصف من بدر . ولنا مع ابن الحضرمى أخى القتيل وقفة تحدثنا عن بغى قريش وبطرها .

ب - (**روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال** : بينا نحن عند مروان بن الحكم إذ دخل حاجبه فقال : حكيم بن حزام يستأذن ، قال : ائذن له ، فلما دخل قال : مرحباً يأبا خالد : ادن ، فمال عن صدر المجلس ، حتى جلس بينه وبين الوسادة ثم استقبله فقال : حدثنا حديث بدر فقال : خرجنا حتى إذا كنا بالجحفة رجعت قبيلة [7] من قبائل قريش

---

(١) حديد : شديد وحديد : مغضب .
(٢) فرقاً : خوفاً .
(٣) جَدَعَ بعيره : قطع أنفه .
(٤) اللطيمة : الإبل تحمل الطيب .
(٥) لاط له : احتسب وامتسك .
(٦) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٤٥ - ٢٤٧ .
(٧) إشارة إلى بنى زهرة وسيأتى الحديث عنهم .

بأسرها ، فلم يشهد أحد من مشركيهم بدرًا ، ثم خرجنا حتى نزلنا العدوة التى قال الله تعالى ، فجئت عتبة بن ربيعة فقلت : يا أبا الوليد هل لك فى أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت ؟ . قال : أفعل ماذا ؟ قلت : إنكم لاتطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمى [1] ، وهو حليفك . فتحمل بدينه ويرجع الناس ، فقال : أنت علىَّ بذلك واذهب الى ابن الحنظلية ـ يعنى أبا جهل ـ فقل له : هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك ؟ فجئته فإذا هو فى جماعة من بين يديه ومن خلفه ، وإذا ابن الحضرمى واقف على رأسه ، وهو يقول : فسخت عقدى من عبد شمس ، وعقدى اليوم إلى بنى مخزوم ، فقلت له : يقول لك عتبة بن ربيعة هل لك أن ترجع اليوم بمن معك ؟ قال : أما وجد رسولاً غيرك ؟ قلت : لا ولم أكن لأكون رسولاً لغيره ، قال حكيم : فخرجت مبادراً إلى عتبة لئلا يفوتنى من الخبر شىء ، وعتبة متكىء على إيماء بن رحضة الغفارى ، وقد أهدى إلى المسلمين عشر جزائر ، فطلع أبو جهل الشر فى وجهه ، فقال لعتبة : انتفخ سحرك ؟ فقال له عتبة : ستعلم . فسل أبوجهل سيفه فضرب به متن فرسه ، فقال إيماء بن رحضة : بئس الفأل هذا ، فعند ذلك قامت الحرب .) [2]

وفى رواية ابن إسحاق : (ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً ، فقال : يامعشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه ، لايزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرَّضوا منه ما تريدون . قال حكيم : فانطلقت حتى جئت أبا جهل ، فوجدته قد نثل [3] درعا له من حرابها فهو يهنئها [4] فقلت له : ياأبا الحكم ، إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وكذا ، للذى قال ، فقال : انتفخ والله سُحره [5] حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا ! . والله لانرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، ومابعتبة ماقال ، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أَكَلَةُ جزور ، وفيهم ابنه قد تخوفكم عليه .

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمى . فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانشد خُفرتك [6] ، ومقتل أخيك ، فقام عامر بن الحضرمى فاكتشف ثم

(١) وهو القتيل الوحيد بين المسلمين والمشركين قبل بدر .
(٢) البداية والنهاية ـ/٢/٣/٢٧٠ .
(٣) نثل درعه : أخرجها .
(٤) يهنئها : يتفقدها ويعدها للقتال .
(٥) انتفخ والله سحره : السُحرْ الرئة وهذا القول كناية عن الجبن .
(٦) الخُفرة : العهد وانشدها : اذكرها .

صرخ : واعمراه ! واعمراه ! فحميت الحرب ، وحقب أمر الناس [١] ، واستوسقوا [٢] على ماهم عليه من الشر ، فأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة ، فلما بلغ عتبة قول أبى جهل انتفخ والله سحره قال : سيعلم مصَفِّرُ استه من انتفخ سحره أنا أم هو) [٣] (وقد قال رسول الله ﷺ وقد رأى عتبة بن ربيعة فى القوم على جمل له أحمر فقال : إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا) [٤].

جـ - (**وأقبلت قريش فلما نزلوا الجحفة** رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن عبد المطلب رؤيا فقال : إنى رأيت فيما يرى النائم ، وإنى لبين النائم واليقظان ، إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له ، ثم قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف ، وفلان ، وفلان ، وعدد رجالاً ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش ، ثم رأيته ضرب فى لبة بعيره ، ثم أرسله فى المعسكر ، فما بقى خباء من أخبيه العسكر إلا أصابه نضح من دمه ، قال : فبلغت أبا جهل ، فقال : وهذا نبى آخر من بنى عبد المطلب ، سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا .) [٥].

د - **قال ابن إسحاق** : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله فارجعوا ، فقال أبو جهل : والله لانرجع حتى نرد بدراً (وكانت بدر موسماً من مواسم العرب . تجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ؛ ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا وجمعنا ، فلايزالون يهابوننا أبداً فامضوا) [٦] (وعاد قيس إلى أبى سفيان ، - فأخبره بمضى قريش ، فقال : واقوماه . هذا عمل عمرو بن هشام ، كره أن يرجع لأنه ترأس على الناس فبغى ، والبغى منقصة وشؤم ، إن أصاب محمد النفير ذللنا) [٧] .

هـ - (**وقال الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى** : - وكان حليفاً لبنى زهرة - وهم بالجحفة : يابنى زهرة ؛ قد نجى الله أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل [٨] ، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله ، فاجعلوا بى جبنها وارجعوا ، فإنه لاحاجة

---

(١) حقب أمر الناس : اشتد ويقال حقب البعير : إذا اجتمع بوله فلم يقدر على إخراجه .

(٢) استوسقوا : اجتمعوا .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام / ٢/ ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٤) المصدر نفسه / ٢ / ٢٦١ .

(٥) المصدر نفسه / ٢ /٢٥٧ .

(٦) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

(٧) إمتاع الأسماع للمقريزى / ١ / ٧١ .

(٨) وكان مخرمة مع قافلة أبى سفيان .

لكم أن تخرجوا فى غير ضيعة ، لامايقول هذا ، يعنى أباجهل ؛ فرجعوا ، فلم يشهدها زهرى واحد ، أطاعوه وكان فيهم مطاعاً) [١] ويقال أن الأخنس بن شريق خلا بأبى جهل لما تراءى الجمعان ، فقال : أترى محمداً أيكذب ؟ فقال أبو جهل : كيف يكذب على الله ، وقد كنا نسميه الأمين ، لأنه ماكذب قط ! ولكن إذا كانت فى عبد مناف السقاية والرفادة والمشورَة ، ثم تكون فيهم النبوة . فأى شىء بقى لنا ؟ فحينئذ انخنس الأخنس ببنى زهرة) [٢] .

و ـ (ولما نزل القوم بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضى الله عنه إليهم يقول : ارجعوا ، فإنه إن يل هذا الأمر منى غيركم أحب إلىَّ من أن تلوه منى ؛ وأن أليه من غيركم أحبُّ إلى من أن أليه منكم ، فقال حكيم بن حزام : قد عرض نَصَفًا [٣] فاقبلوه ، والله لاتنصرون عليه بعد ماعرض من النصَف ، فقال أبو جهل : والله لانرجع بعد أن أمكننا الله منهم) [٤] وهكذا نجد من خلال الروايات التى مرت جميعاً أن قريشاً خرجت بطراً ورئاء الناس ، تحاد الله وتكذب رسوله ، تريد أن تشرب الخمر ، وتعزف القيان ، ويعرف العرب بخروجها ، فلا يزالون يهابونها أبداً . وكان على رأس الطغاة أبوجهل بن هشام ، ومن يوحى إليه من شياطين الجن ، وعلى رأس هؤلاء إبليس نفسه .

٢ ـ الشيطان يدخل المعركة :

﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالاترون ، إنى أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ [٥] .

قال ابن إسحاق : (ولما فرغوا من جهازهم ، وأجمعوا المسير ، ذكروا ماكان بينهم وبين بنى بكر بن عبد مناة من الحرب فقالوا : إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا ، فكاد ذلك يثنيهم ، فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى ، وكان من أشراف بنى كنانة ، فقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه ، فخرجوا سراعاً .) [٦] .

(وقال الضحاك : جاءهم إبليس يوم بدر برايته وجنوده ، وألقى فى قلوبهم أنهم يهزموا وهم يقاتلون على دين آبائهم ، وعن ابن عباس قال : أمد الله نبيه محمدا ﷺ

---

(١) السيرة لابن هشام ١ / ٢٥٨ . (٢) امتاع الأسماع ١ / ٧٢ . (٣) نَصَفاً : عدلاً .
(٤) إمتاع الأسماع / ١ / ٨٢ . (٥) الأنفال / ٤٨ . (٦) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٢٥٠ .

والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل عليه السلام فى خمسمائة من الملائكة مجنبة ، وميكائيل فى خمسمائة من الملائكة مجنبة ، وجاء إبليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من بنى مدلج ، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : لاغالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جارٌ لكم ؛ فلما اصطف القوم ، قال أبوجهل : اللهم أولانا بالحق فانصره ، ورفع رسول الله ﷺ يده فقال : يارب إنك إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا ، فقال جبريل خذ قبضة من التراب ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم ، فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه ، فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس فلما رآه كانت يده فى يد رجل من المشركين [1] انتزع إبليس يده ثم ولى مدبراً وشيعته ، فقال له الرجل : ياسراقة ألم تزعم أنك لنا جار ؛ قال : إنى برىء منكم إنى أرى مالاترون ، ذكره البيهقى وغيره . وفى موطأ مالك عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله ﷺ قال : مارأى الشيطان نفسه يوماً هو فيه أصغر ولاأحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة ، وماذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا مارأى يوم بدر ، قيل : ومارأى يوم بدر يارسول الله ؟ قال : أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة .) [2].

٣ ـ المنافقون من أهل مكة :

﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرَّ هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ [3] .

(روى ابن جرير بسنده ، عن مجاهد قوله : فئة من قريش قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبوقيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمعة بن الأسود ابن المطلب ، وعلى بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبه بن الحجاج ، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب ، فحبسهم ارتيابهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا ، غر هؤلاء دينهم ، حتى قدموا على ما قدموا عليه ، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم[4]) .

(أما بن إسحاق فقد ذكرهم بصيغة أخرى خلال حديثه عن بدر فقال : وكان الفتية الذين قتلوا ببدر ، فنزل فيهم القرآن فيما ذكر لنا : **﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم . قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله**

---

(١) فى رواية ابن إسحاق أنه الحارث بن هشام أخو أبى جهل بن هشام .

(٢) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ١٩ .　　(٣) الأنفال / ٤٩ .　　(٤) تفسير الطبرى / ٦ / ١٠ / ١٦ .

واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ﴾ [1] فتية مسلمين : من بنى أسد بن عبدالعزى ، الحارث بن زمعة بن الأسود ، ومن بنى مخزوم أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، ومن بنى جمح على بن أمية بن خلف ، ومن بنى سهم العاص بن منبه بن الحجاج .

وذلك أنهم كانوا أسلموا ورسول الله ﷺ بمكة ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة حبسهم آباؤهم وعشائرهم بمكة ، وفتنوهم ، فافتتنوا ثم ساروا مع قومهم إلى بدر ، فأصيبوا به جميعاً) . [2]

ويحسن أن نقف وقفة متأنية مع هؤلاء الفتية ، فهم يقدمون نموذجًا سيئاً لكثير من الناس اليوم الذين يحملون فى قلوبهم الإسلام ، لكنهم فى واقع الأمر أداة طيعة بيد الطواغيت ، ينفذون مآربهم ، وبهم تنجح مخططاتهم .

لقد كان هؤلاء الفتية فى بداية الأمر أنموذجًا حياً للشباب المتمرد على الطغيان حين قبلوا الإسلام ، وكل واحد منهم ابن لطاغية من طواغيت مكة ، ولعلهم أقبلوا عليه حدثاً جديداً يأخذ بلب الشباب ، فلما أن كان الموقف العملى الذى يقتضيه هذا الدين ، وهو موقف الهجرة والمفاصلة التامة مع عشائرهم وآبائهم - كانوا أضعف من ذلك ، وبهجرة النبى ﷺ والمؤمنين معه ــ ضعف تأثير الإيمان عليهم ، وخضعوا أمام ضغوط آبائهم وعشائرهم ، وفتنوا عن دينهم . لقد كان هناك مستضعفون غيرهم ، ثبتوا على دينهم رغم الضغوط ورغم المصالح ورغم الإغراءات ، وثبتوا طيلة العهد المدنى حتى فتح الله مكة على المسلمين .

أما هؤلاء الفتية فوجدوا أن الاستجابة لمصلحة عشيرتهم وآبائهم أكبر من الاستجابة لدوافع دينهم ، وكانوا جزءاً من الجيش الذى جاء يحاد الله ورسوله ويحارب نبيه ، وعندما التقى الجيشان كانت عواطفهم مع جيش مكة ، وإن أبدوا نوعًا من التعاطف مع جيش النبى ﷺ وقالوا غرَّ هؤلاء دينهم ، أى أن هؤلاء المؤمنين قد اغتروا بقوتهم ، وتورطوا بهذه الحرب ، وأشفقوا عليهم من سوء العاقبة ، فقالوا : غرَّ هؤلاء دينهم وبالتالى ماتوا جميعاً على الكفر ، ولقوا مصرعهم فى بدر .

ألا فليحذر الذين يكتفون بالإسلام عقيدة مستترة فى النفس ، ثم يدَعُون واقعهم وسلوكهم بيد الطغاة ، يضربون بهم المؤمنين المجاهدين ، ويحشرون فى صف أعداء الله ،

(١) النساء / ٩٧ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٢٨٣ .

ليقتلوا الدعاة الى الله ، أو يوقعوا بهم البلاء والمحنة ، فليحذر هؤلاء أن يكون مصيرهم مثل مصير هؤلاء المنافقين ، والذين فى قلوبهم مرض ، وأن يكون جزاؤهم جهنم وساءت مصيرا . والحجة الوحيدة والتى يملكونها أنهم مستضعفون فى الأرض ، أسلموا قيادهم للطغاة دون أن يبذلوا أى جهد فى الخلاص من براثنهم وضغوطهم ؛ حتى تكتب لهم النجاة .

٤ ــ مصير الطغاة :

﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب . ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ، وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾ [١] .

لعل الحديث عن فرعون هذه الأمة أبى جهل ، يقدم نموذجا كاملاً عن الطغاة ، ويقدم شرحاً وافياً لهذه الآيات الكريمة ، وسنستعرض معظم الروايات التى وردت عن قتله ، وتعذيب الملائكة له ، مع مقارنة بين فرعون هذة الأمة وفرعون مصر .

(.. ثم مر بأبى جهل وهو عقير ــ معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق . وقاتل معوذ حتى قتل ، فمر عبدالله بن مسعود بأبى جهل حين أمر رسول الله ﷺ أن يلتمس بين القتلى ، وقد قال لهم رسول الله ﷺ فيما بلغنى : « انظروا إن خفى عليكم فى القتلى إلى أثر جرح فى ركبته ، فإنى ازدحمت أنا وهو يوماً على مأدبة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان ، وكنت أشف [٢] منه بيسير ، فدفعته فوقع على ركبته فجحش [٣] فى أحدهما جحشاً لم يزل أثره به » ، قال ابن مسعود : فوجدته بآخر رمق فعرفته ، فوضعت رجلى على عنقه ، قال : وقد كان خبث [٤] بى مرة بمكة فآذانى ولكزنى ، ثم قلت له : هل أخزاك الله ياعدو الله ؟ قال وبم أخزانى ؟ قال : أأعمد من رجل قتلتموه [٥] أخبرنى لمن الدائرة اليوم ؟ قال قلت لله ولرسوله [٦] .)

---

(١) الأنفال / ٥٠ ــ ٥٤ .
(٢) كنت أشف منه : كنت أقدر منه .
(٣) جحش : خدش وجرح جرحاً كبيراً .
(٤) خبث بى : قبض على .
(٥) أأعمد من رجل قتلتموه . قال ابن سراج : أعمد يريد أكبر من رجل قتلتموه على سبيل التحقير منه لفعلهم به وعميد القوم سيدهم .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام / ٢/ ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

قال ابن إسحاق : وزعم رجال من بني مخزوم أن ابن مسعود كان يقول : قال لى : لقد ارتقيت مرتقىً صعباً يارويعى الغنم ، قال : ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ فقلتُ : يارسول الله ، هذا رأس عدوالله ، فقال : آلله الذى لاإله غيره ؟ وكانت يمين رسول الله ﷺ، فقلت : نعم ! والله الذى لاإله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يدى رسول الله ﷺ ، فحمد الله) [1].

(وقد ثبت فى الصحيحين عن عبد الرحمن بن عوف قال : إنى لواقف يوم بدر فى الصف ، فنظرت عن يمينى وشمالى فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما ، فتمنيت أن أكون بين أظلع [2] منهما ، فغمزنى أحدهما فقال : ياعم أتعرف أبا جهل ؟ فقلت : نعم ، وماحاجتك إليه ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذى نفسى بيده لئن رأيته لايفارق سوادى سواده ؛ حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك ، فغمزنى الآخر فقال لى أيضاً مثلها ، فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل وهو يجول فى الناس ، فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكم الذى تسألان عنه ، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى النبى ﷺ فأخبراه ، فقال : « أيكما قتله » قال كل منهما أنا قتلته ، قال : « هل مسحتما سيفيكما » ، قالا : لا ، قال : فنظر النبى ﷺ فى السيفين فقال : «كلاكما قتله » ، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمروبن الجموح ، والآخر معاذ بن عفراء .

وفى الصحيحين أيضاً من حديث أبى سليمان التيمى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : من ينظر ماصنع أبو جهل ؟ قال ابن مسعود : أنا يارسول الله ، فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد ، قال : فأخذ بلحيته ، قال : فقلت : أنت أبوجهل ؟ فقال وهل فوق رجل قتلتموه ؟ وعند البخارى عن ابن مسعود أنه أتى أبا جهل فقال : هل أخزاك الله ؟ فقال : هل أعمد من رجل قتلتموه ؟

وقال الإمام أحمد فيما رواه عن أبى عبيدة ، قال : قال عبدالله بن مسعود . : انتهيت إلى أبى جهل يوم بدر ، وقد ضربت رجله ، وهو يذب الناس عنه بسيف له ، فقلت : الحمد لله الذى أخزاك الله ياعدو الله ، قال : هل هو إلا رجل قتله قومه ؟ فجعلت أتناوله بسيف لى غير طائل ، فأصبت يده فندر سيفه [3] فأخذته فضربته حتى قتلته ، ثم خرجت فأتيت النبى ﷺ كأنما أقل من الأرض [4] ، فأخبرته ، فقال : «آلله الذى لاإله إلا هو ؟ »

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) أظلع منهما : أضعف منهما .
(٣) ندر : سقط .
(٤) كأنما أُقل من الأرض : أى أحمل من شدة الفرح .

فرددها ثلاثاً . قلت : آلله الذى لاإله إلا هو ، قال . فخرج يمشى معى حتى قام عليه فقال : « الحمد لله الذى أخزاك الله ياعدو الله ، هذا كان فرعون هذه الأمة » . ورواه أبو داود ، والنسائى من حديث أبى إسحاق السبيعى به .

وقال الواقدى : وقف رسول الله ﷺ على مصرع ابنى عفراء فقال : « رحم الله ابنى عفراء ، فهما شركاء فى قتل فرعون هذه الأمة ، ورأس أئمة الكفر « ، فقيل : يارسول الله : ومن قتله معهما ؟ قال : « الملائكة وابن مسعود قد شرك فى قتله » رواه البيهقى ، وروى البيهقى عن أبى إسحاق قوله : لما جاء رسول الله ﷺ البشير يوم بدر بقتل أبى جهل استحلفه ثلاثة أيمان بالله الذى لاإله إلا هو لقد رأيته قتيلا ؟ فحلف له ، فخر رسول الله ﷺ ساجداً ، ثم روى البيهقى بسنده عن عبدالله بن أبى أوفى أن رسول الله ﷺ صلى ركعتين حين بشّر بالفتح ، وحين جىء برأس أبى جهل . وروى ابن ماجة بسنده عن عبدالله بن أبى أوفى قال : إن رسول الله ﷺ صلى يوم بُشّر برأس أبى جهل ركعتين .
وقال ابن أبى الدنيا ، حدثنا أبى حدثنا هشام ، أخبرنا مجالد عن الشعبى أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : أنى مررت ببدر ، فرأيت رجلاً يخرج من الأرض ، فيضربه رجل بمقمعة من معه ، حتى يغيب فى الأرض ، ثم يخرج ، فيفعل به مثل ذلك مراراً ، فقال رسول الله ﷺ « ذاك أبو جهل بن هشام يعذب إلى يوم القيامة » وقال الأموى فى مغازيه ، عن عامر قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى رأيت رجلاً جالساً فى بدر ورجل يضرب رأسه بعمود من حديد ، حتى يغيب فى الأرض ! فقال رسول الله : « ذلك أبو جهل ، وكل به ملك ، يفعل به كلما خرج ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ») (١) .

(وعن الحسن أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : يارسول الله ، إنى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشراك (٢) ؟ قال : « ذلك ضرب الملائكة » ، وقيل هذا الضرب يكون عند الموت ، وقد يكون يوم القيامة حين يصيرون بهم الى النار) (٣) .

(وعن ابن عباس قال : إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف ، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم) (٤) .

ووقفة مع هذه الروايات توضح لنا النقاط التالية .

---

(١) هذه الروايات جميعاً أوردها ابن كثير رحمه الله فى البداية والنهاية / ٢ / ٣ / ٢٨٨ ـ ٢٩٠ .
(٢) الشراك : سير النعل . (٣) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٢٨ . (٤) تفسير الطبرى / ٦ / ١٠ / ١٦ .

١ ـ أن ضرب الملائكة أدبار المشركين قد برز بشكل حسى فى ما ورد من الروايات ، وقد مثل هذا الضرب صوراً متعددة ، توضح العذاب الذى يلقاه المشركون إلى يوم القيامة . كما قال لهم عليه الصلاة والسلام : « ياأهل القليب ، ياعتبة بن ربيعة وياشيبة بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أباجهل بن هشام ، . فعدد من كان منهم بالقليب ـ « هل وجدتم ماوعد ربكم حقاً ؟ » فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا . فقال المسلمون يارسول الله ، أتنادى قوماً قد جيفوا ؟ فقال : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لايستطيعون أن يجيبونى » .

(وقال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال : « يا أهل القليب ، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، هل وجدتم ماوعد ربكم حقاً ؟ فإنى قد وجدت ماوعدنى ربى حقا ») (١) .

ولو كانت الروايات حول هذا الموضوع ليست على المستوى المطلوب من الصحة ، فهو قصور فى الروايات أمام ماأكده القرآن الكريم على وجه القطع : ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ .

٢ ـ والملاحظ أن الروايات الواردة تنصب على أبى جهل رأس الكفر ، وفرعون الأمة . وهو الذى تجسد فيه الكفر والشرك بالله تعالى .

٣ ـ والحديث عن فرعون وآله فى الآيتين ـ متناسب مع الحديث عن فرعون الأمة أبى جهل وآله ، الذين أهلكهم الله بذنوبهم ، والله قوى شديد العقاب . فما يقل أبو جهل عتواً وتكبرا وتحدياً وعناداً عن فرعون ، لكن كل واحد منهما طراز ، وإن التقيا فى حربهما وحقدهما على الإسلام .

٤ ـ فالذى يبرز لأول وهلة أن فرعون أشد كفراً وعتواً من فرعون الأمة أبى جهل : فقد قال فرعون : ﴿ **ماعلمت لكم من إله غيرى .** ﴾ (٢) ولم يقلها أبوجهل وقال فرعون : ﴿ **ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً .** ﴾ (٣) ولم يقلها أبوجهل .

---

(١) البداية والنهاية / ٢ / ٣ / ٢٩٢ ، ٢٩٣ . (٢) القصص / ٣٨ . (٣) غافر / ٣٦ ، ٣٧ .

٥ - والأغرب فى فرعون الأمة إيمانه بالله كما يدعى ، فها هو يستفتح يوم بدر : اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لايعرف فأحنه الغداة . وهو الذى قال لإيماء بن رحضة الغفارى بعد أن أهداه بعض جزائر (الإبل) ، وعرض عليه أن يمده بالمال والسلاح والرجال ، فقال له أبو جهل : (أن وصلتك رحم ، وقد قضيت الذى عليك ، فلعمرى إن كنا إنما نقاتل الناس مابنا ضعف عنهم ، وإن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد فماالأحد بالله من طاقة) . (١)

فأبو جهل فرعون هذه الأمة ليس جاحداً بالله ، وليس ملحداً ، وليس مدعياً الألوهية . بل هو يستغيث بالله رب السموات والأرض حين يطلب العون ، وهو يعرف بأن الله تعالى رب السموات والأرض من القدرة بحيث لاطاقة للبشر بحربه . ومع ذلك كله ، لم يجعله هذا الأمر يقرب خطوة واحدة من الإيمان ، أو يحسب فى عداد المؤمنين ، كما يريد اليوم المائعون أن يفعلوا فى معسكر الإيمان ضد معسكر الإلحاد ، ويستحيون من ذكر الإسلام حتى لا يتهموا بالتعصب ، ويضعون تحت لواء الإيمان كل كفرة الأرض من أهل الكتاب والمجوس والبوذيين ضد الإلحاد الذى تقوده الشيوعية اليوم وبهذا المقياس وتحت هذا اللواء يدخل أبوجهل على رأس المؤمنين بالله . وهو بالمفهوم الإسلامى فرعون هذه الأمة ورأس أئمة الكفر .

٦ - ولعل هذه السمة هى سمة طواغيت هذه الأمة وفراعينها ، فهم لايجاهرون بالإلحاد ، ولايجاهرون بالجحود والكفر ، لكنهم يُصلُون المؤمنين والمجاهدين نار العذاب والإيذاء والاستئصال ويحاولون دفن الوجود الإسلامى فى الأرض ، ويحاربون تحكيم شريعة الله فى الوجود ، لكنهم يطلقون معسول الكلام عن الإسلام ، ومثاليته ، وعن إيمانهم به وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به .

٧ - إنما يبدوعناد فرعون هذه الأمة ! إذا قورن بفرعون موسى من خلال المصير النهائى لكليهما ، فعندما رأى فرعون موسى أنه لابد قد أصابه الغرق ، وفى اللحظة الأخيرة من حياته ، تراجع عن جحوده وإلحاده ، وقال : ﴿ **آمنت أنه لاإله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل . وأنا من المسلمين** ﴾ (٣) بينما رأينا أبوجهل وهو فى الرمق الأخير يصر على كفره وعناده . ويقول : أأعمد من رجل قتلتموه ؟ لقد ارتقيت مرتقىً صعباً ياروىعى الغنم .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٢٦١ . (٢) يونس / ٩٠ .

٨ ـ وتقع الأقدار العجيبة مع فرعون هذه الأمة أن يكون من الذين أسهموا بقتله غلامان من الأنصار فى مقتبل الشباب حديثة أسنانهما ، وعبدالله بن مسعود رضى الله عنه الذى كان يسميه رويعى الغنم ، ولم يقتله صناديد المسلمين حمزة أو على أو أبطال الأنصار سعد بن معاذ أو أبو دجانة أو سعد بن عبادة ـ إنما كتب الله تعالى أجله على يد الغلامين من الأنصار وعلى يد رويعى الغنم عبدالله بن مسعود رضى الله عنه الذى كان قصير القامة نحيل البدن .

﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون ﴾ .(١)

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ (٢) .

٩ ـ وليست قصة جالوت منهم ببعيدة ، فبعد أن كانت صورة مثالية تختزن فى أذهان أهل بدر ، وكيف يقع نصر الله إذا هم اليوم ستار القدر ، وهم أعجوبة البشر . بهم يتحقق قدر الله فقد قتل الغلام داود جالوت ، فرعون بنى إسرائيل الجديد ، وقتل معاذ ومعوذ ابنا عفراء فرعون الأمة وكانا غلامين من الأنصار ، وآتى الله تعالى داود الحكمة والملك ، وأتى الله عبدالله بن مسعود الحكمة . فإذا هو أفقه الصحابة أو من أفقههم ، فعن حذيفة قال : « إن أشبه الناس دلاً وسمتا وهدياً برسول الله ﷺ لابن أم عبد من حين يخرج من بيته إلى أن يعود إليه ، لاندرى مايصنع فى أهله إذا خلا (٣) . وعن عبد الله بن عمرو قال : استقرؤوا القرآن من أربعة : من عبدالله بن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل » . (٤)

﴿ وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلَّمه مما يشاء ﴾ . (٥)

١٠ ـ ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم ﴾ . (٦)

---

(١) القصص / ٥ ، ٦ .
(٢) الأعراف / ١٣٧ .
(٣) رواه البخارى .
(٤) متفق عليه .
(٥) البقرة / ٢٥١ .
(٦) الأنفال / ٥٣ .

قال السدى : (نعمة الله عليهم محمد ﷺ ، فكفروا به ، فنقل إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب)[1] وقد فقدوا بهذه النعمة خيرى الدنيا والآخرة حين لم يحافظوا عليها ، لقد حل عليهم العذاب حين غادرهم رسولهم الى المدينة ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم** ﴾ وهاهم يلقون مصارعهم بالسيف ، ويلقون فى قليب بدر ، نقمة من الله تعالى عليهم . والأمة التى تحارب الدعاة إلى الله ، وتشردهم تحت كل نجم ، وتلاحقهم فى كل أرض ـ سيحل بها غضب الله ونقمته كما حلت بقريش ، وأمتنا اليوم التى تنكبت صراط الله المستقيم ، واستبدلت بشرائع البشر وأهواءهم شريعة الله عز وجل نزل بها من النكال مانزل بقريش ، فمن هزيمة إلى هزيمة ، ومن صراع إلى صراع ، مزّق أوصالها ، وجعلها نهبة للمعتدين .

خامساً : مبادىء الحرب والسلم :

﴿ **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لايتقون . فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ .

١ ـ أحكام المعاهدين :

صار للمسلمين دولة ، وافتتحوا دولتهم بالعهد مع اليهود الذين كانوا مقيمين فى المدينة . والله تعالى وصف هؤلاء اليهود بنقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق . ومع ذلك فقد أقدم عليه الصلاة والسلام على التعاهد معهم ، حرصاً على فتح صفحة جديدة من التعامل معهم ، إذ أن الإسلام وضع فى حسبانه من البداية التعايش مع اليهود والنصارى من أهل الكتاب رغم اختلاف العقيدة ، ومن أجل هذا كان فى أحكامه النهائية ﴿ **اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌ لكم وطعامكم حلٌ لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ..** ﴾ .[2]

وأى شىء من التعايش يبقى أهم من الطعام والنكاح ؟

وكانت وثيقة المدينة التى كتبها النبى ﷺ منذ البداية بمثابة الدستور الذى يحكم الأمة

---

(١) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٢٩ . (٣) المائدة / ٥ .

المسلمة ، ويحكم غير المسلمين من اليهود والمشركين المواطنين فى المدينة. ويرى المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى بنى قريظة ، وبنى النضير الذين ينقضون عهدهم كلما رأو الفرصة سانحة لنقضه ، وكلما وجدوا لحظة ضعف أو بادرة محنة .

ويدعو الله تعالى نبيه إلى عقوبة هؤلاء الناكثين عقوبة تقطع دابر من وراءهم من قومهم ، ﴿ **فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون** ﴾ . (١)

وفى أجواء بدر وبعد العودة منها والمسلمون يتحدثون بنعمة الله تعالى عليهم بنصره فى بدر . كان اليهود . يشيعون البلبلة فى الصف مع للمنافقين حيث كانوا يقولون : عندما وصل بشير رسول الله ﷺ بالنصر :

(وقدم زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ﷺ القصواء يبشر أهل المدينة ، فلما جاء المصلى صاح على راحلته : قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وابنا الحجاج وقتل أمية بن خلف وأبوجهل وأبو البخترى وزمعة بن الأسود ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب فى أسرى كثير . فجعل بعض الناس لايصدقون زيداً ويقولون : ماجاء زيد بن حارثة إلا فلاً (٢) حتى غاظ ذلك المسلمين وخافوا . وقدم زيد حين سوينا على رقية بنت رسول الله ﷺ بالبقيع ، وقال رجل من المنافقين لأسامة : قتل صاحبكم ومن معه ؟ وقال آخر لأبى لبابة : قد تفرق أصحابكم تفرقاً لايجتمعون فيه أبدا ، وقد قتل عليه أصحابه قتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لايدرى مايقول من الرعب ، وجاء فلاً فقال أبو لبابة : يكذب الله قولك ، وقالت اليهود : ما جاء زيدٌ إلا فلاً ، قال أسامة : فجئت حتى خلوت بأبى فقلت : أحق ماتقول ؟ فقال : أى والله حق ماأقول ، فقويت نفسى ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت : أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ، لنقدمنك إلى رسول الله إذا قدم فليضربن عنقك ، فقال : إنما هو شئ سمعته من الناس يقولونه) . (٣)

هكذا كان جو المدينة قبيل وصول الجيش الإسلامى المظفر إلى المدينة ، وكان اليهود الذين تعاقدوا وتعاهدوا مع رسول الله ﷺ يظهرون خبث نواياهم فى هذه المناسبات ، ويتجاهلون عقودهم ومواثيقهم ، فقال الله تعالى عنهم :

﴿ **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لايتقون . فإما تثقفنهم فى الحرب فشرّد بهم من**

---

(١) الأنفال / ٥٧ . (٢) فلاً : هرباً . (٣) البداية والنهاية لابن كثير عن الواقدى .

خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين﴾ [١] .

ويحدثنا المقريزى عن الحلقة الأولى من الخيانة . بما يتناسب وجو هذه الآيات :

(وكان سببها ـ أى غزوة بنى قينقاع ـ أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة مهاجراً وادعته يهود كلُّها ، وكتب بينه وبينهم كتاباً ، وألحق كل قوم بحلفائهم ، وجعل بينه وبينهم أماناً ، وشرط عليهم شروطاً منها : ألا يظاهروا عليه عدواً ، فلما قدم من بدر بَغَت يهود ، وقطعت ماكان بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد ، فجمعهم بسوق بنى قينقاع وقال : يامعشر يهود ، أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش ، فوالله إنكم لتعلمون أنى رسول الله ، فقالوا : يامحمد ، لايغرنك من لقيت ، إنك قهرت قوماً أغماراً [٢] وإنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلتنا لتعلمنَّ أنك لم تقاتل مثلنا) [٣] .

والثابت أن الله تعالى أنزل باليهود بعد هذا الموقف :

﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ، وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ، قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ [٤] .

وبعضهم اعتبر ، فكف عن حربه ولزم عهده ، ولو بشكل مؤقت ، وهم بنو النضير وبنو قريظة ، وبعضهم الآخر . أصر على موقفه من العداء والعناد والتحدى ، وهم بنو قينقاع (فبينا هم على ماهم عليه ـ من إظهار العداوة ونبذ العهد ـ جاءت امرأة رجل من الأنصار إلى سوق بنى قينقاع ، فحلَّ درعها من ورائها بشوكة ولاتشعر .

(وفى رواية ابن إسحاق : فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده عند ظهرها) [٥] .

(فلما قامت بدت عورتها ، فضحكوا منها ، فاتبعه رجل من المسلمين فقتله ، فاجتمع عليه بنو قينقاع وقتلوه ، ونبذوا العهد إلى النبى ﷺ ، وحاربوا ، وتحصنوا فى حصنهم ،

---

(١) الأنفال : / ٥٥ ـ ٥٨ . (٢) أغماراً : جهلاء لاغناء عندهم ولا رأى ولاتجربة بالحرب .

(٣) إمتاع الأسماع / ٤ / ١ / ١٠٤ .

(٤) الفئتان هما المسلمون وقريش . والإشارة إلى موقعة بدر . واختلاف العدد بين الفئتين ، (آل عمران / ١٢ ، ١٣) .

(٥) السيرة لابن هشام / ٢ / ٤٢٦ .

فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين** ﴾ ، فقال ﷺ : « أنا أخاف بنى قينقاع » فسار إليهم رسول الله ﷺ يوم السبت النصف من شوال بعد بدر ببضع وعشرين يوماً ، وهم سبعمائة مقاتل ، منهم ثلاثمائة متدرعون بدروع الحديد ، ولم يكن لهم حصون ولا معاقل ، إنما كانوا تجاراً وصاغة ، وهم حلفاء لعبد الله بن أبى بن سلول ، وكانوا أشجع يهود ، فكانوا أول من غدر من اليهود . فحاصروهم خمسة عشرة ليلة حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فأمر بهم فربطوا . واستعمل على رباطهم وكتافهم المنذر بن قدامة السلمى ؛ ثم خلى عنهم بشفاعة عبدالله بن أبى بن سلول ، وأمرهم أن يجلوا عن المدينة ، فأجلاهم محمد بن مسلمة الأنصارى ؛ وقيل عبادة بن الصامت ، وقبض أموالهم . وأخذ رسول الله ﷺ من سلاحهم ثلاث قسى[1] وهى الكتوم والروحاء والبيضاء ، وأخذ درعين . الصغدية وفضة وثلاثة أسياف وثلاثة أرماح ، ووجدوا فى منازلهم سلاحاً كثيراً وآلة الصياغة ، وخمَّس ما أصاب منهم ، وقسم ما بقى على أصحابه ، وخرجوا بعد ثلاث فلحقوا بأذرعات[2] بنسائهم وذراريهم)[3] .

أما نبذ العهد فمعناه كما قال الأزهرى :

(إذا عاهدت قوماً ، فعلمت منهم النقض بالعهد فلا توقع بهم سابقاً إلى النقض ، حتى تلقى إليهم أنك قد نقضت العهد والموادعة ، فيكونوا فى علم النقض مستويين ، ثم أوقع بهم . والمعنى : وإما تخافن من قوم بينك وبينهم عهد خيانة فانبذ إليهم العهد أى قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم ليعلموا ذلك فيكونوا معك فى العلم سواء ولاتقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك)[4] .

وأما تشريد من خلفهم بهم . فهو :

(فشرد بهم من خلفهم ، يقول : فافعل بهم فعلاً يكون مشرداً من خلفهم من نظرائهم ممن بينك وبينه عقد وعهد .. حتى لايجترئوا على مثل الذى اجترأ عليه هؤلاء الذين وصف الله صفتهم)[5] .

وقد تحقق الهدف من ذلك ، فلم يجترىء بنو النضير وبنوقريظة على مدّ إخوانهم من

---

(١) قسى : جمع قوس .
(٢) أذرعات : مدينة بأطراف الشام قبل الحجاز وهى التى تسمى اليوم إذرع .
(٣) إمتاع الأسماع / ١ / ١٠٤ ، ١٠٥ .　　(٤) نفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٣٢ .
(٥) تفسير الطبرى / ٦ / ١٠ / ١٩ .

اليهود بالسلاح أو الرجال ، كما أنهم خافوا من نقض العهد ، وتمسكوا به إلا أن نقضوه بعد أحد والخندق ، وبعد أن تغيرت أجواء النصر ورياح بدر .

٢ ــ مواجهة الكافرين :

﴿ ولاتحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لايعجزون ، وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ . [١]

انتهت بدر وتم فيها النصر بقدر من الله ، والمؤمنون فرحون بهذا النصر . وتوجهت الأنظار إلى المسلمين ، وهم القوة الكبرى فى جزيرة العرب . وهزيمة قريش المنكرة ، وقتل سادتها وأشرافها ، ثم إجلاء بنى قينقاع من جزيرة العرب ــ كان هذا كله إيذاناً بأن تتوجه الأنظار إلى المدينة ؛ لتواجهها أو تحالفها أو تحاربها ، أو تتكتل ضدها ، ولايجوز أن يسكر النصر المنتصرين ، بل لابد من إعداد العدة لمثل هذه المواجهة .

لقد بلغت أخبار نصر بدر الحبشة فماذا كان الموقف ؟ :

(أرسل النجاشى ذات يوم إلى جعفر بن أبى طالب وأصحابه فدخلوا عليه ، وهو فى بيت عليه خلقان ثياب جالس على التراب . قال جعفر فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال ، فلما أن رأى مافى وجوهنا قال : إنى أبشركم بما يسركم ، إنه جاءنى من نحو أرضكم عين [٢] لى ، فأخبرنى أن الله قد نصر نبيه ، وأهلك عدوه وأسر فلان وقتل فلان وفلان التقوا بوادٍ يقال له بدر كثير الأراك ، كأنى أنظر إليه ، كنت أرعى لسيدى رجل من بنى ضمرة إبله ، فقال له جعفر : مابالك جالساً على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاط ؟ قال : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى إن حقاً على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعاً ، عندما يحدث لهم من نعمة . فلما أحدث الله لى نصر نبيه ﷺ أحدثت له هذا التواضع) .

ولاشك أن العيون لكسرى وقيصر كذلك قد نقلت خبر هذا الانتصار ، وأصبحت القوة الإسلامية تشكل قلقاً كبيراً لأصحاب النفوذ فى المنطقة ، وبالتالى فلا بد أن يكون

(١) الأنفال / ٥٩ ــ ٦١ . (٢) عين لى : أى رجل يترصد لى الأخبار .

الإعداد على هذا المستوى من المواجهة .

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ .

وفى صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول : « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى » وعن سلمة بن الأكوع قال : خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون [١] بالسوق فقال : « ارموا يابنى إسماعيل ، فإن أباكم كان رامياً ، وأنا مع بنى فلان لأحد الفريقين ، فأمسكوا بأيديهم . فقال : مالكم ؟ قالوا : وكيف نرمى وأنت مع بنى فلان ؟ قال : ارموا وأنا معكم كلكم » [٢] ونلحظ التعبير النبوى بشموله حين اعتبر القوة الرمى دون تحديد ، وبذلك يدخل ضمن هذا الإطار - كل الرمى فى الحرب قديمه وحديثه دون استثناء .

﴿ ومن رباط الخيل ﴾ والخيل كما يقول عليه الصلاة والسلام : « .... معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجر والغنيمة » [٣] ولقد دعا الإسلام إلى احتباس الخيل فى سبيل الله فقال : « من احتبس فرساً فى سبيل الله إيماناً بالله ، وتصديقاً بوعده ؛ فإن شبعه وريّه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة » [٤] ودعا الإسلام إلى أن تملأ التعبئة للحرب والتهيئة لها وقت السلم جده ولهوه . فعن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب فى صنعته الخير ، والرامى به ومنبّله ، فارموا واركبوا . وأن ترموا أحب إلىَّ من أن تركبوا ، كل شىء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، فإنهن من الحق » [٥] . وزاد الدرامى وأبو داود : « ومن ترك الرمى بعد ماعلمه رغبة عنه فإنه نعمة تركها ، أو قال : كفرها » .

وليس المجاهد فى سبيل الله إذن هو المقاتل وحده ، بل صانع الأسلحة ، ومصممها ومهيئها للقتال ، فكل ذلك فى سبيل الله . وكان لهذه الأحاديث فعل السحر عند المسلمين ، فتوجه المجتمع الإسلامى كله بعد بدر إلى التعبئة والتسلح ، ولم يكن لدى المسلمين فى بدر غير فرسين للمقداد والزبير رضى الله عنهما ، وسبعون بعيراً ، والسيوف فى القرب ، فإذا بأحد وبعد مرور سنة على بدر ... تتضاعف الأفراس ، فرس

---

(١) يتناضلون : يترامون على سبيل المسابقة .
(٢) رواه البخارى .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه البخارى .
(٥) رواه الترمذى وابن ماجة وأبوداود والدارمى .

لرسول الله ﷺ ، وفرس لأبى بردة بن نيار رضى الله عنهما ، وإذا فى الجيش مائة دارع ، وإذا الرماة سبعون يصدون هجوم الفرسان من مكة ، أما الرماح والسيوف والأقواس فحدث ولاحرج .

وماهى حدود التعبئة والإعداد ؟

﴿ **ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم** ﴾ فلايكفى أن يكون السلاح للدفاع ، ولايكفى أن يكون للهجوم على العدو المباشر ، بل لابد أن يكون سلاحاً رادعاً ، يبث الرعب والإرهاب فى قلب العدو ، إنه المدى المفتوح فى الأفق يرتبط مع الاستطاعة ، وينتهى مع الردع بشتى أنواعه .

والذى يملك الردع النووى فى عالمنا المعاصر هما الدولتان العظميان ، والمفهوم الإسلامى عن التعبئة والإعداد ، الذى ينطلق من الاستطاعة ، يستمر حتى يكون لدى الإسلام دولته التى تتفوق فى ردعها على هاتين الدولتين العظميين .

بهذا الفهم وبأبعد مدىً منه فهم المفسرون هذا المعنى . ﴿ **وآخرين من دونهم** ﴾ يعنى فارس الروم ، قاله السدى . وقيل الجن ، وهو اختيار الطبرى . وقيل : المراد بذلك كل من لا تعرف عدواته .

(وقال السهيلى : قيل هم قريظة ، وقيل : هم من الجن ، وقيل غير ذلك . ولاينبغى أن يقال فيهم شيء لأن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ **وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم** ﴾ فكيف يدعى أحد علماً بهم ؟ إلا أن يصح حديث جاء فى ذلك عن رسول الله ﷺ وهو قوله فى هذه الآية هم الجن .) (١) ولاشك أن مثل هذا الإعداد يحتاج إلى مال طائل ونفقات باهظة ، فلاغرو فى ذلك . ﴿ **وماتنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون** ﴾ ومازال عثمان رضى الله تعالى عنه ينفق فى سبيل الله حتى قال فيه رسول الله ﷺ : (ماضر عثمان ماعمل بعد اليوم) (٢).

(إنه لابد للإسلام من قوة ينطلق بها فى الأرض ، لتحرير الإنسان . وأول من تصنعة هذه القوة فى حقل الدعوة ــ أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم فى اختيارها ، فلايصدوا عنها ، ولايفتنو كذلك بعد اعتناقها ... والأمر الثانى : أن ترهب أعداء هذا الدين ، فلايفكروا فى الاعتداء على « دار الإسلام » التى تحميها تلك القوة ...

---

(١) تفسير القرطبى ٤ / ٨ / ٣٨ .

(٢) رواه أحمد والترمذى بإسناد حسن .

والأمر الثالث : أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء ألا يفكروا فى الوقوف فى وجه المد الإسلامى ، وهو ينطلق لتحرير « الإنسان » كله فى « الأرض » كلها . والأمر الرابع : أن تحطم هذه القوة كل قوة فى الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية ، فتحكم الناس بشرائعها هى وسلطانها ، ولاتعترف بأن الألوهية لله وحده ، ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه ..

إن الإسلام ليس نظاماً لاهوتيا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة فى القلب ، وتنظيماً للشعائر ، ثم تنتهى مهمته : إن الإسلام منهج عملى واقعى للحياة ، يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات ، وتقف وراءها قوى مادية . فلا مفر للإسلام – لإقرار منهجه الربانى – من تحطيم تلك القوى المادية ، وتدمير السلطات التى تنفذ تلك المناهج الأخرى ، وتقاوم المنهج الربانى ...

وينبغى للمسلم أن لا يتمتم ولايجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة ... ينبغى أن لا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الربانى .. ينبغى أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق فى الأرض ... إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده ، وتحطيم ألوهية العبيد ...! إنه لاينطلق بمنهج من صنع البشر ، ولالتقرير سلطان زعيم ، أو دولة ، أو طبقة ، أو جنس .

إنه لاينطلق لاسترقاق العبيد ؛ ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان ، ولالاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية ، ولا لفرض مذهب بشرى من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية ، وماإليها من المذاهب البشرية . إنما ينطلق بمنهج من صنع الله الحكيم الخبير البصير ، ولتقرير ألوهية الله وحده وسلطانه لتحرير الإنسان فى الأرض من العبودية للعبيد ...

هذه هى الحقيقة الكبيرة التى يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع – وهم يتمتمون ويجمجمون للاعتذار عن المد الإسلامى ! والجهاد الإسلامى) [1].

إنها السنة الثانية للهجرة . وإنها أول موقعة يوقعها المسلمون فى الشرك . ولكن المعانى الضخمة التى رافقت هذه المعركة ، وأنزلها الله تعالى على نبيه بعد بدر ، انتقلت بالمسلمين نقلة ضخمة من مصاف التفكير المحلى إلى مصاف التفكير العالمى :

(وكانت بدر من حيث أثرها الخطير ظاهرة كونية ، فقد احتفل بها الإنس والجن

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٠ / ١٥٤٣ ، ١٥٤٤ .

والملائكة ، ففى عالم الأرض وعالم البشر ... نذكر أن سورة الروم عندما نزلت كانت تمثل آمال عشرات المسلمين فى مكة وطموحاتهم بأن ينتصر الروم ـ أهل الكتاب فى الأرض ـ على الفرس الوثنيين فيها ، حيث كان الفرس والروم يقتسمون الأرض آنئذ ، وكان هؤلاء العشرات من المسلمين والمئات من المشركين غفلاً من التاريخ وأحداثه ، يتفرجون على صناعة الكبار فى الأرض ، ونذكر كيف تم الرهان بين أبى بكر رضى الله عنه وأحد المشركين على نصر الروم بعد بضع سنوات ، ﴿ **آلم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لايخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لايعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾(١) .

لقد كان أقصى مايحلم به المسلمون آنذاك بعد بضع سنين أن ينتصر الروم على الفرس ، وبذلك تقوى شوكة المسلمين إن انتصر أهل الكتاب الأقرب إلى المسلمين ، على الفرس الأقرب إلى المشركين .

وتحقق موعود الله جل شأنه ، فانتصر الروم بعد تسع سنين من هزيمتهم أمام الفرس ، وفرح المؤمنون بنصر الله ، وكان وعد الله الذى لايخلفه ، ولكن أكثر الناس لايعلمون ، هذا هو المدى الأقرب للآيات ، أما المدى الأعمق فكان أكبر وأضخم فى تاريخ البشرية ، لقد فرح المؤمنون بنصر الله يوم بدر ، ويوم نصرهم جاءت أخبار انتصار الروم على الفرس . لقد جاء خبر انتصار الروم هامشياً وثانوياً أمام انتصار بدر ، وكان فرح المؤمنين بنصر الله فى بدر هو المدلول الأعمق للآية الكريمة ، ولم يكن يدور بخلد عشرات المؤمنين فى الأرض والآيات تتنزل فى مكة أنهم هم المعنيون بالنصر ، وأنهم هم صناع الأحداث . وأن الروم والفرس غدوا على هامش التاريخ بعد أن أنزل الله تعالى ملائكته لنصر المؤمنين فى بدر ، وكان وعد الله الذى لايخلفه هو نصر محمد وحزبه لانصر الروم فقط ، ولكن أكثر الناس لايعلمون ، حتى المؤمنين لايحيطون بعلم الله عز وجل ، وماذا يعد لهم من نصر ، وماذا يعد بهم من حسم .. فالمسلمون حتى قبل بدر بأيام قلائل لم يكونوا يعلمون أنهم المعنيون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وعد الله لايخلف الله وعده ورسول الله ﷺ سيد الخلق لم يكن يعلم أنه المقصود بنصرّ الله ، ينصر من يشاء ومن أجل

(١) الروم: ١ : ٧ .

هذا كان يلح على ربه بالنصر يوم بدر حتى ليسقط رداؤه عن كتفيه ، ويخشى أن تكون هذه المعركة نهاية العصبة المؤمنة فى الأرض ، « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض » لقد كان الرهان فى عالم الأرض على افتتاح التاريخ بهذا النصر من أى الفريقين ، فلقد كان أبوجهل يقول : « والله لانرجع حتى نرد بدراً فننحر الجُزُر ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، ويعلم العرب بخروجنا هذا فلايزالون يهابوننا أبداً » .

لقد كانت مطامح أبى جهل أن يكون مقود العرب بيده بعد بدر ، ولاتزال تهابه أبداً ، وكان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إن تشأ لا تعبد فى الأرض » وإذا نصر الله يتنزل ، فتنقلب الموازين ، ويتأرجح التاريخ ، ويصبح مقوده بيد المسلمين ، ومن ذلك الوقت لم يعودوا على هامش الأحداث يأملون ويدعون ... كما كانوا أيام انتصار الفرس على الروم ، بل صاروا صناع أحداثه فى بدر وبعدها ، وجاء هذا النصر من الحسم ومن الضخامة بحيث اجتث الباطل من جذوره ، فقد سقط قادة الكفر صرعى فى هذه المعركة ، وهم الذين كانوا يحملون عبء الحرب ضد الدعوة خمسة عشر عاماً أو تزيد ، إنه جيل قادة كامل سقط على الساحة صريعاً بين يدى هذه العصبة المؤمنة ، أما الجيل الجديد من القادة ، والذى نجا يوم بدر فمعظمه كتب الله تعالى له الهداية فيما بعد .

وكذلك كانت فى عالم الجن .

فقد ذكر قاسم بن ثابت فى ـ كتاب الدلائل ـ أن قريشاً حين توجهت إلى بدر مر هاتف من الجن على مكة فى اليوم الذى أوقع بهم المسلمون وهو ينشد بأنفذ صوت ولايرى شخصه:

أذار الحنيفيون بدراً وقيعة	سينقض منها ركن كسرى وقيصرا
أبادت رجالا من لؤى وأبرزت	خرائد يضربن الترائب حسرا
فياويح من أمسى عدو محمدٍ	لقد جار عن قصد الهدى وتحيرا) [١]

ولقد أدرك المؤمنون من الجن أبعاد هذه المعركة ، وأنها ستطيح بعرش كسرى وقيصر ، وبمقدار ماكان العرس فى عالم الجن من المؤمنين كان المأتم والويل والثبور عند كفار الجن وشياطينهم ...

لقد إندحر الشيطان وحزبه من الإنس والجن يوم بدر ، وكانت الهزيمة الساحقة

(١) إمتاع الأسماع / ٧٢ .

للشياطين فى الأرض والكفار من الجن أشد هولاً وأقسى مرارة منها على كفار قريش بشهادة رسول الله ﷺ ـ كما علمه من ربه ـ ولقد كانت أقسى هزيمة لإبليس على مدار تاريخه منذ خلقه إلى يوم يبعثون حيث فر وألقى نفسه فى البحر .

وكانت عرساً فى عالم الملائكة والملأ الأعلى ، فلأول مرة يؤذن للملائكة ولأميرهم جبريل عليه الصلاة والسلام أن يشترك مع ألف من سادة الملائكة فى المعركة ، وأصدر الله تعالى أوامره بدخول المعركة السافرة لهم ، والقتال مع المؤمنين . . وبقى الملائكة الذين شهدوا بدراً فى الفضل من سادة الملائكة ، فكما أن المؤمنين فى الأرض على مدار التاريخ يعتبرون من شهد بدراً من المؤمنين أعلى طبقة فيهم ، ويعتبرونهم خير هذه الأمة ، فكذلك الأمر فيمن شهدها من الملائكة .

فعن رفاعة بن رافع الزرقى قال : « جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : ماتعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين ـ أو كلمة نحوها . قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة » . [1] وهكذا مضت بدر مثلاً فى تاريخ الأرض والسماء ، وفرقاناً فى عالم الإنس والجن والملائكة) [2] .

٣ ـ الجنـــوح إلى السلـم :

﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم** ﴾ [3] .

يقول : إن مالـوا ـ يعنى الذين نبذ إليهم عهدهـم ـ إلى المسالمة ، أى الصلـح فمل إليها ... وقد اختلف فى هذه الآية : هل هى منسوخة أم لا ، فقال قتادة وعكرمة : نسخها ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ [4] ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة** ﴾ [5] وقالا : نسخت براءة كل موادعة حتى يقولوا لاإله إلا الله . ابن عباس : الناسخ لها : ﴿ **فلاتهنوا وتدعوا إلى السلم** ﴾ [6] وقيل ليست منسوخة ، بل أراد قبول الجزية من أهل الجزية .

وقد صالح أصحاب رسول الله ﷺ فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن بعده من الأئمة كثيراً من بلاد العجم على ماأخذوه منهم ، وتركوهم على ماهم فيه ، وهم قادرون على استئصالهم ، وكذلك صالح رسول الله ﷺ كثيراً من أهل البلاد على مالٍ يؤدونه ؛ من ذلك خيبر ردَّ أهلها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا ويؤدوا النصف قال ابن

---

(١) انفرد بإخراجه البخارى . (٢) المنهج الحركى للسيرة النبوية للمؤلف / ١ / ٢٤٢ ـ ٢٤٧ .
(٣) الأنفال : / ٦١ . (٤) التوبة / ٥ . (٥) التوبة / ٣٦ . (٦) محمد / ٣٥ .

إسحاق : قال مجاهد . عنى بهذه الآية قريظة ؛ لأن الجزية تقبل منهم . فأما المشركون فلايقبل منهم شيء . وقال السدى وابن زيد : معنى الآية إن دعوك إلى الصلح فأجبهم ولانسخ فيها .

قال ابن العربى : وبهذا يختلف الجواب عنه ؛ وقد قال الله عز وجل : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون . والله معكم** ﴾ فإذا كان المسلمون على عزة ومنعة وقوة وجماعة عديدة ، وشدة شديدة ، فلا صلح . كما قال :

فلا صلح حتى تطعن الخيل بالقنا　　　وتضرب بالبيض الرقاق الجماجم

وإن كان للمسلمين مصلحة فى الصلح لنفع يجتلبونه ، أو ضرر يدفعونه ، فلا بأس أن يبتدىء المسلمون به إذا احتاجوا إليه . وقد صالح رسول الله ﷺ : أهل خيبر على شروط نقضوها ، فنقض صلحهم . وقد صالح الضمرى وأكيدر دومة وأهل نجران . وقد هادن قريشاً لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده . ومازال الخلفاء والصحابة على هذا السبيل التى شرعناها سالكة ، وبالوجوه التى شرحناها عاملة .

(قال القشيرى : إذا كانت القوة للمسلمين فينبغى أن لاتبلغ الهدنة سنة ، وإن كانت القوة للكفار جاز مهادنتهم عشر سنين ، ولاتجوز الزيادة ، وقد هادن رسول الله ﷺ أهل مكة عشر سنين ، قال ابن المنذر : اختلف العلماء فى المدة التى كانت بين رسول الله ﷺ وبين أهل مكة عام الحديبية ، فقال عروة : كانت أربع سنين . وقال ابن جريج : كانت ثلاث سنين وقال ابن إسحاق : كانت عشر سنين وقال الشافعى رحمه الله : لاتجوز مهادنة المشركين أكثر من عشر سنين على مافعل النبى ﷺ عام الحديبية ، فإن هودن المشركون أكثر من ذلك فهى منتقضة ـ لأن الأصل فرض قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية . وقال ابن حبيب عن مالك رضى الله عنه : تجوز مهادنة المشركين السنة والسنتين والثلاث ، وإلى غير مدة ، وقال المهلب : إنما قاضاهم النبى ﷺ هذه القضية التى ظاهرها الوهن على المسلمين لسبب حبس ناقة رسول الله ﷺ عن مكة ، حين توجه إليها فبركت وقال :« حبسها حابس الفيل عن مكة » على ماخرّجه البخارى عن المسور بن مخرمة ، ودل على جواز صلح المشركين ومهادنتهم دون مال يؤخذ منهم إذا رأى ذلك الإمام وجهاً . ويجوز عند الحاجة للمسلمين عقد الصلح بمال يبذلونه للعدو ، لموادعة النبى ﷺ عيينة بن حصن الفزارى ، والحارث بن عوف المرى يوم الأحزاب على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة وينصرفا بمن معهما من غطفان ويخذلا قريشاً ، ويرجعا بقومهما عنهم ،

وكانت هذه المقالة مراوضة ولم تكن عقدا) [1] .

وخلاصة الرأى فى الأرجح أن الجنوح للسلم من العدو ، مرتبط بوضع المسلمين قوة وضعفاً ، ومرتبط بما يحقق للمسلمين من مصالح أو يدفع عنهم مغارم ، وحكم النسخ ضعيف فى هذه القضية .

والجدير بالذكر الذى يحسن الوقوف عنده هو المقارنة بين آيتى السلم . الآية الأولى وقد نزلت بعد بدر ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم** ﴾ الآية الثانية : وقد نزلت بعد أحد ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون** ﴾[2] .

وواضح أن هاتين الآيتين لاتتناسبان مع الصورة المطروحة . أن يكون الجنوح للسلم حالة ضعف ففى السلم حال القوة ، فالدعوة إلى قبول السلم كانت بعد النصر المؤزر فى بدر ، ورفض الدعوة إلى السلم والوهن كانت بعد المحنة القاسية فى أحد ، والمعنى الأعمق الذى نراه فى هذه المقارنة ـ هو أن السلم فى حالة الضعف قد يكون استسلاماً أوذلاً يرفضه الإسلام ، ولذلك قال : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون** ﴾ أى السلم الحقيقى ـ هو السلم المرتبط بالقوة . الذى يجعل العدو يطلب المسالمة والموادعة ، ومن أجل هذا وجدنا النص الأول يؤكد على أن طلب السلم قد جاء من العدو المنهزم المرعوب من قوة المسلمين ، بينما نجد النص الثانى يشحذ من عزيمة المسلمين ألا يدعوا إلى السلم عند اشتداد المحن ، وألا ينسوا عزتهم وكبرياءهم ، وأنهم الأعلون بإيمانهم فى هذا الوجود ، والوهن والاستسلام لايتلاءم وعزة المؤمنين .

٤ ـ الخوف من الخداع :

﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾ [3] .

وسرعان مايتبادر إلى الذهن أن يكون المعاهدون أو الجانحون إلى السلم يريدون الخديعة والمكر بالمؤمنين ، وأمام هذا الاحتمال فقد يسود الرأى ألا يكون تعاهد ولا سلام مع العدو ، لكن الإسلام الذى جاء يرعى أحوال البشرية جمعاء ـ لم يجعل الحرب هى الأصل ، والقتال هو الهدف ، إنما كان القتال وسيلة لتحقيق سلم تسود فيه شريعة الله ،

(١) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٣٩ ـ ٤١ .   (٢) محمد / ٣٥ .   (٣) الأنفال / ٦٢ .

وتحكمه شرائعه . صحيح أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة ، إلا أن القوة المرهوبة الجانب تجعل الآخرين يجنحون إلى السلم والمعاهدة والموادعة . فلا بد من الاستجابة لذلك ، والله تعالى كاف عبده وجنده ، فهو الذى يعلم المؤمنين خبث طوايا العدو . ويهيىء لهم كشف خداعهم . والقوة الضخمة من المؤمنين كافية لتردع أولئك الغادرين والخاتلين . إنه السلم المسلح ، وليس السلم الهزيل الذليل .

﴿ **هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾ وما لقى المؤمنون من نصر يوم بدر يفوق كل تصوراتهم وتوقعاتهم ــ لم يكن مصدره قوتهم الذاتية ، وحتى التأييد بالمؤمنين كان قدراً من الله أن شرح قلوبهم للإسلام ، وهم العصبة المؤمنة من الأنصار ، فإذا هم يتبارون إلى الجنة ، ويتسابقون إلى الجهاد ويعلنون له ، (لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ، إنا لصبرٌ فى الحرب صُدُقٌ عند اللقاء . فسر بنا على بركة الله ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك) .

وها نحن أولاء نلحظ فى سورة الأنفال بعد أن انتزع الله تعالى من المؤمنين اعتزازهم بذواتهم ، وأعلمهم أن النصر من عند الله ، هاهى ذى المرة الأولى التى يرد بها الثناء على العصبة المؤمنة التى خاضت حربها مع النبى ﷺ فى معرض المنّ على رسول الله . وهى خطوة مهمة فى تربية نفوس هذه العصبة المؤمنة ، بحيث برأها من ذاتها وأنانيتها ، ثم عاد فقدمهم رصيداً مذخوراً يمن الله تعالى بهم على رسوله ، بعد أن انتفى عامل الاغترار والاعتزاز بالذات . وكم هو ثناء ضخم أن يقول الله تعالى فى الخطوات الجديدة من تربية هذه النفوس ﴿ **هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾ وبعد أن علموا أنهم لم يحققوا هذا النصر بوجه من الوجوه .

هؤلاء المؤمنون الذين أيّد الله تعالى بهم رسوله ــ هم هم الذين ساءت أخلاقهم فى الأنفال ، وهم هم الذين كانوا يريدون غير ذات الشوكة ، وهم هم الذين كان فيهم فريق كاره للقاء العدو كأنما يساقون إلى الموتِ . هؤلاء هم أنفسهم الذين يمن الله تعالى بهم على رسوله بتأييده بهم ، إنها التربية الربانية الخالصة . فأى شىء يخيف بعدها ويرهب من أولئك الضعاف المهازيل الذين يريدون الخداع ؟

سادساً : الصف المؤمن :

١ ــ ألفة القلوب :

﴿ **وألف بين قلوبهم لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله**

ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم ﴾ .

(قال النعمان بن بشير : نزلت فى الأنصار (وألف بين قلوبهم) أى جمع بين قلوب الأوس والخزرج ، وكان تآلف القلوب مع العصبية الشديدة فى العرب من آيات النبى ﷺ ومعجزاته ؛ لأن أحدهم كان يلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها ، وكانوا أشد خلق الله حمية ، فألف الله فى الإيمان بينهم ، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين ، وقيل أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار . والمعنى متقارب)(١) .

(ولقد وقعت المعجزة التى لايقدر عليها إلا الله ؛ والتى لاتصنعها إلا هذه العقيدة ؛ فاستحالت هذه القلوب النافرة ، وهذه الطباع الشموس ، إلى هذه الكتلة المتراصة المتآخية الذلول بعضها لبعض ، المحب بعضها لبعض ، المتآلف بعضها مع بعض ، بهذا المستوى الذى لم يعرفه التاريخ ، والذى تتمثل فيه حياة الجنة وسمتها البارزة ـ أو يمهد لحياة الجنة وسمتها البارزة ﴿ **ونزعنا مافى قلوبهم من غل إخواناً على سرر متقابلين** ﴾ .

أن هذه العقيدة عجيبة فعلاً . إنها حين تخالط القلوب تستحيل إلى مزاج من الحب والألفة ومودات القلوب ، التى تلين جاسيها ، وترقق حواشيها ، وتندى جفافها ، وتربط بينها برباط وثيق عميق رفيق . فإذا نظرة العين ، ولمسة اليد ، ونطق الجارحة ، وخفقة القلب ، ترانيم من التعارف والتعاطف ، والولاء والتناصر ، والسماحة والهوادة ، لايعرف سرها إلا من ألف بين هذه القلوب ، ولاتعرف مذاقها إلا هذه القلوب !

وهذه العقيدة تهتف للبشرية بنداء الحب فى الله ، وتوقع على أوتارها ألحان الخلوص له ، والالتقاء عليه ، فإذا استجابت وقعت تلك المعجزة التى لايعرف سرها إلا الله ، ولايقدر عليها إلا الله .

يقول رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى .. قالوا : يارسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، والله إن وجوهم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » أخرجه أبو داود .

ويقول ﷺ : « إن المسلم إذا لقى أخاه فأخذ بيده تحاتت ذنوبهما كما تتحات الورق

---

(١) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٤٢ .

من الشجرة اليابسة فى يوم ريح عاصف . وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت كمثل زبد البحر » رواه الطبرانى .

وتتوارد أقوال الرسول ﷺ تترى فى هذا الباب ، وتشهد أعماله بأصالة هذا العنصر فى رسالته عليه الصلاة والسلام ، كما تشهد الأمة التى بناها على الحب أنها لم تكن مجرد كلمات مجنحة ، ولامجرد أعمال مثالية فردية ، إنما كانت واقعاً شامخاً قام على هذا الأساس الثابت ، بإذن الله ، الذى لايقدر على تأليف القلوب هكذا سواه)[1] .

ونقف أمام هذه الآية لنستعرض الواقع المعاصر لأمتنا المنكودة التى طرحت شعار الوحدة وهى جزء من الدولة العثمانية ، وذلك حين كان الهدف أن تجمع تركيا ومستعمراتها تحت راية واحدة ، هى الراية التركية فكانت شعارها : حريات ، عدالات ، مساواة ، لتكون البديل عن الإسلام ، ولم ينته الثلث الأول من هذا القرن إلا وأطيح بهذه الراية ، وهذا التجمع ، ليحل محلها الطرح القومى للأمم التى كانت تحت لوائها .

وجاء الطرح القومى ليكون شعار الأمة العربية فى القرن العشرين ، لتتوحد القلوب وتأتلف تحت رايته . كان هذا فى بداية هذا القرن ، ومع شعار الثورة العربية التى انطلقت على يد الشريف حسين ، ولم ينل عون الكافرين إلا بالتخلى الأول عن غرب هذه الأمة العربية فلا علاقة له بمصر وما وراءها من دول ، ولم تتوحد الأمة العربية ، ولم تتآلف القلوب ، ثم كانت الخطوة الثالثة للحاكمين حين خضعوا لمخططات اليهود والنصارى فى الإقليمية المصطنعة ، والحدود المقررة فى المؤتمرات الدولية لتحقيق هذه المخططات ، وأصبح الانقسام الدولى شرعياً ، وتوج بالجامعة العربية التى جمعت سبع دول ، وكانت هى دول المنطقة آنذاك لتجعل شرطاً أساسياً فيها هو الإقليمية الأصيلة ، وكل دولة لاترضى بالقرار العربى المشترك فهى فى حل منه ، وازدادت التفرقة والانقسام وتنافر القلوب فى هذه الأمة العربية .

وانتهى جيلان فى هذه الأمة ليحمل وزر زيادة التنافر ، والحروب أحياناً بين هذه الدول . وقام جيل ثالث مع بداية منتصف القرن العشرين ينحى باللائمة والخيانة على الجيلين السابقين اللذين كانا مطية للاستعمار كما يزعم ، ليكون هو البديل الشعبى الصحيح عن الحكام المرتبطين بعجلة الاستعمار وقدَّم هذا الجيل له أنبياء للقومية وفلاسفة لها ، وطرح شعار الوحدة والحرية والاشتراكية ، على تفاوت فى التقديم والتأخير ، وبقى

(١) فى ظلال القرآن / ٣/ ٨ / ١٥٤٨ ، ١٥٤٩ .

يكافح حتى وصل إلى سدة الحكم ، وأعلن رفضه للإسلام ديناً وشريعة حرصاً على وحدة الأمة .

وماذا كانت الحصيلة بعد ثلث قرن من التمكين والتجربة ؟

ازدادت دول الجامعة العربية من سبع دول إلى اثنتين وعشرين دولة لكل دولة علم وجيش وحدود ، وزاد التجزئة والانقسام والصراع ، وأوجد كيانات أخرى ضمن هذا التجمع الهش . وانقسم الحزب الواحد القومى إلى أحزاب متصارعة ، وعانت أمتنا تشرذماً عجيباً ، فكك أوصالها وحطم وجودها ، ومكن لأعدائها من اليهود أن يقيموا دولتهم بعد عجز أربعة عشر قرناً من الزمان .

ونتساءل ماهى حصيلة هذا القرن ؟ والقوم جادون فى وحدة القلوب والصفوف للأمة الواحدة ولكن على غير مشيئة الله ، وعلى غير شريعة الله ، وعلى غير مبادىء هذا الدين ، يحاربون الله تعالى علانية ، ويخطئون شريعته ، ويشككون فى صلاحيتها لحكم الأمة وإنقاذها وتوحيدها . ويخترعون دساتير وقوانين تحكمهم من صنع البشر . وبذلوا أموال الأرض وأرواح الناس وثروات الأمة لتوحيد القلوب ، والفرقة تزداد ، والخلاف يتفاقم ، والصراع يشتد أواره .

لماذا ؟ ويأتى الجواب : ليبين أن توحيد القلوب لايتم بفعل البشر بل يتم بفعل خالقها : ﴿ **وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ماألفت بين قلوبهم . ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** ﴾ (١) .

وهو رد من طرف آخر على المقولة التى تدعى وجود القائد الصالح الذى تأتلف عليه القلوب ، أو الحاكم المصلح ، أو الزعيم المخلص ، وحتى تنتهى هذه المقولة من أذهان البشر . وماكان لسيد الزعماء والقادة والمصلحين فى الأرض ، لايملكها بعد ماكان لسيد ولد آدم عليه السلام أن يفعل ذلك ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم** ﴾ فقد حسمت الآية الكريمة هذا الموضوع . فهو أمر إذن قائم فوق إرادة البشر ، وخارج إرادة البشر ، لايملكه إلا الله تعالى ، ولا يعطيه إلا لمن يقدم له العبودية ، ويزعن لشرعه وشرعته ، وينطلق منها على أنها الحق الذى قامت عليه السموات والأرض .

﴿ **ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** ﴾ .

---

(١) الأنفال / ٦٣ .

٢ ـ ﴿ حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ :

﴿ يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ، يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا . فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾ (١) .

وتأتى هذه الآيات رداً على الطرح القومى كله الذى يريد أن يحشد أبناء الجنس الواحد ، وأبناء الأمة العربية تحت راية واحدة ، ليواجه بهم العدو المشترك . مؤمنهم وكافرهم على السواء . هذا مايقوله الطرح القومى .

والذى يقوله الطرح الإسلامى : **﴿ حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾** .

والله تعالى معك ، فلو كانت قوى الأرض كلها ضدك ، فلن يضيرك ذلك لأن الله تعالى معك .

﴿ وحسبك من اتبعك من المؤمنين ﴾ .

فالذين آمنوا بك وصدقوك أن ماجئت به هو الحق ، وأيدوك ونصروك ، هؤلاء يكفونك ، ولست بحاجة إلى رجل واحد من غير المؤمنين بك ، فالله تعالى ينصرك بهم ، وهم كافون لك جنداً وذخرا ، تقاوم بهم كل أعدائك والمحاربين لك ، والمطلوب منك أن تشحذ عزائمهم ، وتحرضهم على القتال ، وتوظف طاقاتهم لتكون كلها معك .

ولايضيرنك العدد ، يتضح ذلك فى قوله تعالى :

﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ، بأنهم قوم لايفقهون ﴾ . (٢)

(فأما تعليل هذا التفاوت فهو تعليل مفاجىء عجيب ، ولكنه صادق عميق « بأنهم قوم لايفقهون » فى صلة الفقه بالغلب فى ظاهر الأمر ، ولكنها صلة حقيقية ، وصلة قوية ، إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف طريقها ، وتفقه منهجها ، وتدرك حقيقة وجودها وحقيقة غايتها ، إنها تفقه حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، فتفقه أن الألوهية لابد أن

---

(١) الأنفال / ٦٤ ـ ٦٦ .　　(١) الأنفال / ٦٥ .

تنفرد وتستعلى ، وأن العبودية يجب أن تكون لله بلا شريك ، وتفقه أنها هى ـ الأمة المسلمة ـ المهتدية بهدى الله ، المنطلقة فى الأرض بإذن الله لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وأنها هى المستخلفة عن الله فى الأرض ، الممكنة فيها لا لتستعلى هى وتستمتع ، ولكن لتعلى كلمة الله ، وتجاهد فى سبيل الله ، ولتعمر الأرض بالحق ، وتحكم بين الناس بالقسط ، وتقيم فى الأرض مملكة الله التى تقوم على العدل بين الناس ... وكل ذلك فقه يسكب فى قلوب العصبة المسلمة النور والثقة والقوة واليقين ، ويدفع بها إلى الجهاد فى سبيل الله فى قوة وفى طمأنينة للعاقبة تضاعف القوة . بينما أعداؤها قوم لايفقهون ، قلوبهم مغلقة ، وبصائرهم مطموسة ، وقوتهم كليلة عاجزة مهما تكن متفوقة ظاهرة ، إنها قوة منقطعة معزولة عن الأصل الكبير ، وهذه النسبة واحد لعشرة ... هى الأصل فى ميزان القوى بين المؤمنين الذين يفقهون والكافرين الذين لايفقهون .. وحتى فى أضعف حالات المسلمين الصابرين فإن هذه النسبة هى واحدة لاثنين .

﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ـ فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله . والله مع الصابرين ﴾ . (١)

(وروى أبو داود عن ابن عباس قال :

نزلت **﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾** فشق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألايفر واحد من عشرة ، ثم إنه جاء التخفيف فقال :

﴿ الآن خفف الله عنكم ﴾ إلى قوله **﴿ مائة صابرة يغلبوا مائتين ﴾** فلما خفف الله تعالى عنهم من العدد نقص من الصبر بقدر ماخفف عنهم .

وقال ابن العربى :

قال قوم : إن هذا كان يوم بدر ونسخ ، وهذا خطأ من قائله . ولم ينقل قط أن المشركين صافوا المسلمين عليها ، ولكن البارى عز وجل فرض ذلك عليهم أولاً ، وعلل ذلك بأنكم تفقهون ماتقاتلون عليه وهو الثواب ، وهم لايعلمون مايقاتلون عليه .

قلت : وحديث ابن عباس يدل على أن ذلك فرض ، ثم لما شقّ عليهم حط الفرض إلى ثبوت الواحد إلى اثنين فخفف عنهم وكتب عليهم ألا يفر مائة من مائتين فهو على هذا القول تخفيف لانسخ وهذا حسن) (٢) .

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٠ / ١٥٥٠ ـ الأنفال / ٦٦ .   (٣) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٤٤ .

وبين يدينا حديث رسول الله ﷺ تتمة للإيضاح : « خير الصحابة أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف . ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة »[1].

وقد فهم المسلمون أن الجيش إذا زاد عن اثنى عشر ألفاً فلن يغلب من قبل عدده ، وإنما يغلب من أشياء أخرى سواءً فى عدته ، أو تركيب أفراده أو ضعف ووهن فيه .

كما روى عن المسلمين فى فتح مصر :

(أن عمرو بن العاص حصرهم (أى العدو من أهل مصر) بالقصر الذى يقال له بابليون حيناً ، وقاتلهم قتالاً شديداً يصبحهم ويمسيهم ، فلما أبطأ الفتح عليه كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه ذلك ، فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل ، وكتب إليه عمر بن الخطاب : إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف ، الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد وقال آخرون بل خارجة بن حذافة الرابع لايعدون مسلمة ــ وقال عمر بن الخطاب : اعلم أن معك اثنى عشر ألفاً ، ولايغلب اثنا عشر ألفاً من قلة)[2] .

وهكذا نرى أن الأمر يختلف حسب قوة المسلمين وضعفهم ، وأنواع أشخاصهم . إذ أن عمرو بن العاص رضى الله عنه إنما غزا مصر بأربعة آلاف ، وأمده عمر رضى الله عنه بأربعة آلاف وبأربعة رجال كل واحد منهم بألف ، فأصبح المجموع الحقيقى اثنى عشر ألفاً باجتهاد عمر رضى الله عنه ، بينما كان المجموع العددى الرقمى ثمانية آلاف وأربعة . فنوعية المسلمين ذات أثر بارز فى تحديد قوتهم . ولقد خاض المسلمون معارك بعد رسول الله ﷺ ، وطبقت نسبة الواحد إلى عشرة فيها ، بل خاضوها كذلك فى العهود الإسلامية اللاحقة .

(روى المؤرخون أن الجموع التى جمعها هرقل للمعركة الفاصلة فيها بينه وبين العرب من الروم والشام والجزيرة وأرمينية كانت زهاء مائتى ألف ، وكان يأتيها المدد خشية الهزيمة . وكان عدد جيش الصحابة رضى الله عنهم أربعة وعشرين ألفاً ، ورووا أن قتلى الروم بلغت سبعين ألفاً . فمن شك أو مارى فى العدد فى هذه المعركة ــ أى اليرموك ــ وغيرها من المعارك الفاصلة المعينة فهل يمكنه أن يمارى فى القدر المشترك فى جملة المعارك التى فتح بها الصحابة رضى الله عنهم تلك الممالك الواسعة على قلة عددهم وكونهم

(١) رواه أبو داود والترمذى والدارمى . وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

(٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ٦١ .

كانوا فى مجموعها أو أكثرها أقل من عشر أعدائهم ؟ أنى وهو عين التواتر المعنوى الذى يفيد علم اليقين ؟) [1] .

ولابد أن نلحظ الفرق بين جواز الفرار إذا كان عدد العدو ضعفى عدد المسلمين ، أو عشرة أضعافهم ، على حسب قوتهم المعنوية ، وبين أفضلية الثبات فى المعركة حتى يأتى نصر الله ، وما حديث مؤتة عنا ببسر ، حين صمد ثلاثة آلاف من المؤمنين لمائتى ألف من العرب والروم ، جعل الله تعالى لهم الفتح على يدى سيف الله خالد بن الوليد .

سابعاً : أحكام الأسرى :

١ ـ الإثخان فى القتل أولى :

﴿ ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ [2] .

وتتضافر الروايات الصحيحة فى هذ الصدد ؛ لتعطى الإضاءة الكاملة على هاتين الآيتين :

فقد روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حديث طويل :

«... واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعلياً وعمر ، فقال أبو بكر : يارسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ماأخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا . فقال رسول الله ﷺ : ماترى يابن الخطاب ؟ قال : قلت : والله ماأرى مارأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكننى من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ؛ حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم ، فهوى رسول الله ﷺ ماقال أبو بكر ، ولم يهو ماقلت ، وأخذ منهم الفداء . فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبى ﷺ وأبى بكر وهما يبكيان ، فقلت يارسول الله أخبرنى ، ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ: « للذى عرض علىَّ أصحابك من أخذهم الفداء . قد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة » لشجرة

---

(١) تفسير المنار لرشيد رضا / ١٠ / ٧٩ .

(٢) الأنفال / ٦٧ ، ٦٨ .

قريبة . وأنزل الله تعالى : ﴿ **ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾ (١) .

وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر قال : لما كان يوم بدر ، قال رسول الله ﷺ : « ماتقولون فى هؤلاء الأسرى ؟ » قال فقال أبو بكر : يارسول الله ، قومك وأهلك ، استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم ، قال وقال عمر : يارسول الله ، أخرجوك وكذبوك قربهم فاضرب أعناقهم . قال : وقال عبد الله بن رواحة : يارسول الله ، انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم به ثم اضرمه عليهم نارا . قال : فدخل رسول الله ﷺ ، ولم يرد عليهم شيئاً ، فقال ناس يأخذ برأى أبى بكر ، وقال ناس يأخذ برأى عمر ، وقال ناس : يأخذ برأى عبد الله بن رواحة ، فخرج عليهم فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال : ﴿ **فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم** ﴾ (٢) ومثلك ياأبا بكر كمثل عيسى قال : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ (٣) . وإن مثلك ياعمر كمثل نوح إذ قال ﴿ **رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا** ﴾ (٤) ، وإن مثلك ياعمر كمثل موسى قال : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلايؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ (٥) . أنتم عالة ، فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق » قال عبد الله : يارسول الله إلا سهيل بن بيضاء ، فإنى سمعته يذكر الإسلام ، قال : فسكت . قال : فمارأيتنى فى يوم أخوف أن تقع علىّ حجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال : إلا سهيل بن بيضاء ، فأنزل الله ﴿ **ما كان لنبى ...** ﴾ » (٦) إلى آخر الآيتين .

ونقف وقفة عند فقه النبوة العظيم فى قضية الأسرى :

أ ــ ها هو ذا عليه الصلاة والسلام يستشير صحبه فى الأمر، وبين يديه سبعون أسيراً ، وهو الغنى عن المشورة بالوحى ، والغنى عن المشورة بسداد رأيه وعظمة تفكيره . ولكنها التربية النبوية للقيادات بعده أن لاتستغنى عن الاستشارة إذا نزل بها أمر ذوبال .

---

(١) ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وصححه . (٢) إبراهيم / ٣٦ .
(٣) المائدة / ١١٨ . (٤) نوح / ٢٦ .
(٥) يونس / ٨٨ . (٦) ورواه الترمذى والحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

ب ــ ونجد أدب الأصحاب قد ترك الرأى لأولى النهى والرأى ، فقد كفاهما أبوبكر وعمر رضى الله عنهما الرأى ، ولم يبادر الصحب إلى التكرار واللغو طالما أنه لم يخرج عن هذين الرأيين ، بينما تقدم عبد الله بن رواحة رضى الله عنه برأى ثالث . هو : أن يجمعهم فى وادٍ كثير الحطب ، ويضرم بهم النار . فلقد كان سعد بن معاذ رضى الله عنه من أنصار القتل كما تذكر الرواية المشهورة :

(فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله ﷺ فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله ﷺ متوشحاً السيف فى نفر من الأنصار ، يحرسون رسول الله ، يخافون عليه كرة العدو ، ورأى رسول الله ﷺ ــ فيما ذكر لى ــ فى وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس ــ فقال له رسول الله ﷺ « والله لكأنك ياسعد تكره مايصنع القوم » قال : أجل والله يارسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان بالقتل أحب إلى من استبقاء الرجال .) (١) ومع ذلك لم نسمعه يبدى رأياً أو يشارك ، طالما أن عمر رضى الله تعالى عنه كفاه المؤونة .

جـ ــ وتفاوت الرأيين كبير بين العفو وبين القتل أو الإحراق بالنار ، ومع ذلك لم يتهم فريق الآخر كما نرى فيى دنيانا المعاصرة وفى رجالنا اليوم ، ومثل هذا التفاوت قد يقود إلى المفاصلة بين الفريقين . فريق يتهم الأول بالمداهنة فى شريعة الله ، وتفضيل القرابة على الدين ، والتساهل مع العدو ، وفريق يتهم الثانى بالاندفاع الأعمى والتعصب وفقدان الحكمة والموعظة الحسنة فى الدعوة إلى الله ، ويتعصب ناس لهذا الرأى ، وآخرون للرأى الثانى ، وينقسم الصف ويقع الشقاق . ومع أننا لاننكر أن وجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم يحول دون استفحال هذا الموقف أو ذاك ، لكننا نجد فرصة للنيل من أحـد الرأيين ، طالما أن رسول الله ﷺ لم يبد تبنياً لأى من هذين الرأيين ، ودخل بيته . فكل ماقاله الناس : أن رسول الله ﷺ قد يأخذ برأى أبى بكر أو عمر أو ابن رواحة رضى الله عنهم .

د ــ وسيد الساسة والقادة محمد عليه الصلاة والسلام خرج على الناس ، وكان بإمكانه أن يعلن رأيه مباشرة بترجيح أحد الآراء الثلاثة ، إلا أنه أراد أن يربى هذه الأمة على اختلاف الرأى ، واحترام هذا الاختلاف ، وفقه الرأى الآخر ــ كما يقال ــ ومن أجل ذلك قدم للمسلمين نموذج أبى بكر رضى الله عنه فى اللين ، ونموذج عمر رضى

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢/ ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

الله عنه فى الشدة ، وأن كلا الرأيين منبثق من الإسلام ، ويتسع الإسلام لهما دون حرج ، فالشدة فى الله ، واللين لدعوة الله كلاهما مواقف فى هذا الدين ، لاتعارض بينهما ، وحتى تتضح الصورة لدى الصحب استحضر لهم نماذج الأنبياء من أولى العزم ، حيث مثل اثنان منهم الشدة فى دين الله وهما موسى ونوح ، ومثل اثنان آخران اللين فى دعوة الله هما إبراهيم وعيسى ، وبذلك انسكب فى نفوس الصحب الطمأنينة إلى صواب الموقفين ، وكل واحد منهما مناسب لحالة معينة .

هـ ـ ومع هذه المقدمة المسهبة التى أوضحت وزن الصاحبين عند الله تعالى ورسوله ، جاء اختيار رسول الله ﷺ لرأى أبى بكر فى أسلوب من الروعة والحكمة بحيث يبدو وكأنما أخذ برأى عمر .

« لاينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق » .

إن هذه الصياغة النبوية فى التعبير . لتوحى بعظمة إمام المربين ، وهو يعلم أمته . أصول الشورى ، واحترام الرأى ، وطريقة التعبير عنه ، وفن التعامل مع الآراء المختلفة والنفوس المختلفة . بحيث يجعل منها كلاً واحداً ؛ لتحقيق الهدف المطلوب .

و ـ ويستوقفنا كذلك ذلك التجرد العظيم عند عمر رضى الله عنه ، بحيث لاتأخذه فى الله لومة لائم ، فهو لم يكتف بالمشورة أن يقتل قادة الشرك وصناديدهم من الأسرى ، وفى هذا مايكفيه للتجرد لله ، وهو يدعو إلى قتل قومه ، بل نجد قمة التجرد يوم قال : (ولكن أرى أن تمكننى من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين) . فهو لايكتفى رضى الله عنه بالقتل على عمومه ، بل لابد أن يقوم الأخ بقتل أخيه ، وكل واحد يقتل أقرب الناس إليه . ولم يكن هذا مجرد حماسة أو رغبة جارفة منه فقط ، بل كان واقعاً حياً نفذه فى بدر (قال ابن هشام : وحدثنى أبو عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لسعيد بن العاص ومر به : إنى أراك كأن فى نفسك شيئاً ، أراك تظن أنى قتلت أباك ، إنى لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله ، ولكنى قتلت خالى العاص ابن هشام بن المغيرة ، فأما أبوك فإنى مررت به ، وهو يبحث بحث الثور بروْقه ، فحدت عنه ، وقصد له ابن عمه على فقتله .) [1] .

فعمر إذن قصد خاله ، وحاد عن الغريب عنه بينما قصد على رضى الله عنه لابن

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٢٧٧ .

عمه فقتله وبذلك نشأ جيل ، يرى من قرابة العقيدة ماهو أكبر وأضخم بكثير من قرابة النسب ، ومانعلم جيلاً بلغ من التجرد مابلغه جيل بدر .

ز – ويستوقفنا كذلك الحس الإسلامى لدى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما يوم يرفع صوته تعقيباً على قول رسول الله ﷺ : « فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق » ، إلا سهيل بن بيضاء فإنى قدد سمعته يذكر الإسلام . قال : فسكت .

لقد رأى عبد الله نفسه - وقد تجاوز الأدب مع قائده محمد عليه الصلاة والسلام ، حين استثنى سهيل بن بيضاء لذكره الإسلام . وخلال اللحظات القليلة جداً من صمت النبى ﷺ أحس عبد الله أن الحجارة من السماء ستنزل عليه لتأليه على رسول الله ﷺ (فما رأيتنى فى يوم أخوف أن تقع على حجارة من السماء من ذلك اليوم ، حتى قال : إلا سهيل بن بيضاء . فانداح خوفه بإقرار رسول الله ﷺ له بذلك وجميل جداً أن يكون هذا الحس الإسلامى ، بين الجندى وقائده بحيث لايتجاوز الجندى حده ويدخل رأيه بكل صغيرة وكبيرة) .

٢ – ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ (١) :

(اختلف الناس فى كتاب الله السابق على أقوال ؛ أصحها ماسبق من إحلال الغنائم ، فإنها كانت محرمة على من قبلنا ، فلما كان يوم بدر ، أسرع الناس إلى الغنائم فأنزل الله عز وجل : **﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾** أى بتحليل الغنائم ، وروى أبوداود الطيالسى فى مسنده عن أبى هريرة قال : لما كان يوم بدر تعجل الناس إلى الغنائم فأصابوها ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الغنيمة لاتحل لأحدٍ سود الرؤوس غيركم فكان النبى ﷺ وأصحابه إذا غنموا الغنيمة جمعوها ، ونزلت نار من السماء فأكلتها (٢) » ، فأنزل الله تعالى **﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾** إلى آخر الآيتين ، وأخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح وقال مجاهد والحسن ، وعنهما أيضاً وسعيد بن جبير : الكتاب السابق هو مغفرة الله لأهل بدر ماتقدم أو تأخر من ذنوبهم ، وقالت فرقة : الكتاب السابق هو عفو الله عنهم فى هذا الذنب معنياً والعموم أصح لقول رسول الله ﷺ لعمر فى أهل بدر : « ومايدريك لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » أخرجه مسلم . وقيل الكتاب السابق ألا يعذبهم ومحمد عليه السلام فيهم ، وقيل : الكتاب السابق هو ألا يعذب أحداً بذنب أتاه جاهلاً حتى يتقدم إليه ، وقالت فرقة : الكتاب السابق هو مما

(١) الأنفال / ٦٨ .
(٢) المعروف أن هذا كان فى الأمم السالفة ولعل اللفظ عن النبى ﷺ وأصحابه من قبل .

قضى الله فى محو الصغائر باجتناب الكبائر . وذهب الطبرى إلى أن هذه المعانى كلها داخلة تحت هذا اللفظ وأنه يعمها ..)[1] .

الرواية السابقة توضح هذا المعنى .

(فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان فقلت : يارسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ: « أبكى للذى عرض علىَّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عُرِضَ علىَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ») ويالها من وقفة مؤثرة هزت أعماق النبى ﷺ وصاحبه ، فراحا يبكيان على أخذ الفداء ، وكاد العذاب أن يقع لولا كتاب من الله سبق .

إنه حنو النبى ﷺ على أمته ، وأن يشارك أبو بكر رضى الله عنه فى البكاء ، فلاغرابة فى ذلك فهو صاحب رأى الفداء ، وأن يشارك عمر رضى الله عنه فى ذلك بكاءً أو تباكياً فلاغرابة . فالمسلمون واحد ، وأى عين لاتدمع ، وقد رأت رسول الله ﷺ يبكى خوفاً من العذاب على صحبه ؟ .

وكان القرآن من الوضوح بحيث لايحتمل إلا معنى الإثخان فى القتل فى أول موقعة أوقعها الله فى الشرك ، وفى الثانية والثالثة حتى يتمكن من عدوه ، فلايعود هؤلاء الأسرى ليحملوا السلاح ضده مرة ثانية .

وعاد الوصف للمؤمنين من جديد : ﴿ **تريدون عرض الدنيا** ﴾ .

والتمكين للإسلام ، وذات الشوكة ، واستئصال الشأفة هى الأولى من المال فى هذه الموقعة. لقد كان رأى سعد بن معاذ رضى الله عنه ، ورأى عمر ، ورأى ابن رواحة هو الذى يمثل حكم القرآن الكريم فى هذه الموقعة .

وينزل القرآن الكريم بهذا الحكم ، وماتند كلمة واحدة من صحابى واحد تنال من أبى بكر رضى الله عنه ، أو تفخر عليه ، أو تغمز من قناته . ومعها حكم الله .

إنه الجيل الفريد فى تاريخ البشرية . الذى لم ولن يتكرر حتى يرث الله الأرض ومن عليها . « خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .[2]

---

(١) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٥١ .   (٢) متفق عليه .

(وروى الترمذى والنسائى وابن ماجة .. عن على رضى الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبى ﷺ، فقال : خيّر أصحابك فى الأسارى إن شاؤوا الفداء ، وإن شاؤوا القتل ، على أن يقتل عاماً قابلاً منهم مثلهم ، قالوا : الفداء أو يقتل منا ، وهذا حديث غريب جداً . ومنهم من رواه مرسلاً عن عبيدة والله أعلم .) (١)

وأسند الطبرى وغيره أن رسول الله ﷺ قال للناس : « إن شئتم أخذتم فداء الأسارى ويقتل منكم فى الحرب سبعون على عددهم وإن شئتم قتلوا وسلمتم » . فقالوا : نأخذ الفداء ، ويستشهد منا سبعون . وذكر عبد بن حميد بسنده أن جبريل عليه السلام نزل على النبى ﷺ بتخيير الناس هكذا .) (٢) وقد مضى فى (آل عمران) القول فى هذا . وقال عبيدة السلمانى طلبوا الخيرتين كلتيهما ؛ فقتل منهم يوم أحد سبعون . وينشأ هنا إشكال ... هو أن يقال : إذا كان التخيير فكيف وقع التوبيخ بقوله : ﴿ لمسكم ﴾ . فالجواب ـ أن التوبيخ وقع أولاً لحرصهم على أخذ الفداء ، ثم وقع التخيير بعد ذلك . ومما يدل على ذلك أن المقداد قال حين أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة بن أبى معيط : أسيرى يارسول الله . وقال مصعب بن عمير للذى أسر أخاه : شدّ عليه يدك فإن له أماً موسرة ... إلى غير ذلك من قصصهم وحرصهم على أخذ الفداء ، فلما تحصل الأسارى ، وسبقوا إلى المدينة . وأنفذ رسول الله ﷺ القتل فى النضر وعقبة وغيرهما ، وجعل يرتئى فى سائرهم نزل التخيير من الله عز وجل ، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه حينئذ ، فمر عمر على أول رأيه بالقتل ، ورأى أبو بكر المصلحة فى قوة المسلمين بمال الفداء ، ومال رسول الله ﷺ إلى رأى أبو بكر ، وكلا الرأيين اجتهاد بعد تخيير ، فلم ينزل بعد على هذا شيء من تعنيت والله أعلم) (٣) .

٣ ـ الحلال الطيب :

﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم ﴾ (٤) .

ويأتى بعد هذا التعنيف لتقديمهم عرض الحياة الدنيا ذلك العفو العظيم من الرب الرحيم ، فقد سبق عفوه غضبه جل وعلا ، وليهنأ المؤمنون بأكلهم ماغنموا من المعركة ، وما أخذوا من الفداء حلالا طيبا ، ويستغفروا الله تعالى على هذا الضعف البشرى . بعد أن أبيح لهم ماأخذوه ، والله غفور رحيم .

---

(١) البداية والنهاية / ٢ / ٣ / ٢٩٩ .
(٢) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٣٢ .
(٣) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٤٨ ، ٤٩ .
(٤) الأنفال / ٦٩ .

٤ ـ حوار مع الأسرى :

﴿ يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم والله غفور رحيم ﴾ . (١)

ولنا مع العباس رضى الله عنه الشرح المستفيض لهذه الآية . ورغم أن العباس كان من المطعمين فى قريش ، فقد وجه رسول الله ﷺ منذ بداية الأمر إلى أسره فقال : (إنى قد عرفت رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لاحاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحداً من بنى هاشم فلايقتله ، ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب عمَّ رسول الله ﷺ فلايقتله فإنه إنما أخرج مستكرهاً) . (٢)

(وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيراً ، فقال العباس : هذا والله ماأسرنى لقد أسرنى رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق ، وما أراه فى القوم ، فقال الأنصارى : أنا أسرته يارسول الله ، فقال : اسكت فقد أيدك الله بملك كريم). (٣)

(فقد شاركت الملائكة فى أسره . وشغل رسول الله ﷺ به فلم يجد النوم إلى عينيه سبيلا فقد روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال : لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والأسارى محبوسون فى الوثاق بات النبى ﷺ ساهراً أول الليل ، فقال له أصحابه : مالك لاتنام يا رسول الله ؟ فقال : سمعت أنين عمى العباس فى وثاقه ، فأطلقوه فسكت فنام ﷺ)(٤) .

وشارك بالرأى وهو فى الأسر .

(فقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من القتلى ، قيل له : عليك بالعير ليس دونها شىء ، فناداه العباس وهو فى الوثاق : إنه لايصلح لك . قال : لم ؟ قال : لأن الله وعدك إحدى الطائفتين ، رقد أنجز لك ما وعدك) . (٥)

وعندما أحس بالخطر عليه بعث من يطمئن عليه ويحميه . فقد روى ابن مردوية والحاكم فى المستدرك عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما أسر الأسارى يوم بدر أسر

---

(١) الأنفال ٧٠ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٦٩ .
(٣) الرحيق المختوم للمباركفورى / ٢٤٣ .
(٤) البداية والنهاية / ٢ / ٣ / ٣٠٠ .
(٥) المصدر نفسه / ٢ / ٣ / ٢٩٦ .

العباس فيمن أسر ، أسره رجل من الأنصار قال ، وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : « إنى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس ، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه » ، قال عمر : أفآتيهم ؟ قال : نعم . فأتى عمر الأنصار فقال لهم : ارسلوا العباس ، فقالوا : لا والله لانرسله ، فقال لهم عمر : فإن كان لرسول الله رضى ؟ قالوا : فإن كان له رضى فخذه ، فأخذه عمر فلما صار فى يده ، قال له عمر : ياعباس أسلم فوالله لئن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب ، وماذاك إلا لما رأيت رسول الله يعجبه إسلامك ..) (١)
ولاغرو فى هذا الأمر ، فلقد كان رسول الله ﷺ فى جواره منذ وفاة أبى طالب حتى الهجرة ، وحضر معه بيعة العقبة ليطمئن عليه إن غادر مكة .

ثم ماذا عن إسلامه وفدائه .

وعن ابن إسحاق (بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ فى فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا . وقال العباس : يارسول الله ، إنى كنت مسلماً . فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم بإسلامك . فإن يكن كما تقول ، فالله يجزيك بذلك ، فأما ظاهر أمرك فكان علينا ، فافد نفسك وابنى أخويك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبى طالب وحليفك عتبة بن عمرو أخا بنى الحارث بن فهر » . وقال : ماذاك عندى يا رسول الله ؟ قال : « فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ؟ فقلتَ لها : إن أصبتُ فى سفرى هذا فهذا المال لبنى الفضل وعبد الله وقثم » فقال . يارسول الله ، إن هذا لشىء ماعلمه غيرى وغير أم الفضل ، فأحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى عشرين أوقية من مالٍ كانت معى . فقال رسول الله ﷺ: « لا . ذاك شىء أعطاناه الله منك » ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه وأنزل الله فيه : ﴿ **يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ..** ﴾ الآية . قال ابن إسحاق : وكان أكثر الأسارى فداء العباس بن عبد المطلب ؛ لأنه كان رجلاً موسراً ، فافتدى نفسه بمائة أوقية من الذهب ، وفى البخارى : وقال موسى بن عقبة قال ابن شهاب : حدثنى أنس بن مالك أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ائذن لنا، فلنترك لابن أختنا عباس فداءه . فقال : « لا والله لا تذرون درهماً » .

وذكر النقاش وغيره أن فداء كل واحد من الأسرى كان أربعين أوقية ، إلا العباس فإن النبى ﷺ قال : « أضعفوا الفداء على العباس » وكلفه أن يفدى ابنى أخويه عقيل بن أبى

(١) قال الحاكم فى صحيحه : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

طالب ونوفل بن الحارث . فأدى عنهما ثمانين أوقية ، وعن نفسه ثمانين أوقية .)[1] لقد فرق رسول الله ﷺ بين حسن معاملة العباس بصفته الردء للدعوة والحامى لها فى أحلك مراحلها ، أو بصفته المسلم المكلف بإخفاء إسلامه ، والذى يحمل دوراً خطيراً بوجوده فى مكة ، وبين إعفائه من الفداء وهو القادر عليه . وبمقدار ماأحسن معاملته ﷺ ، شدد بأخذ المال منه ، فهو يرفض أن يعفى ولو من درهم واحد ، بل يضاعف عليه الفداء . ويكلفه بفداء ثلاثة آخرين هم أبناء أخويه وحليفه .

لكننا نجد تدخلاً آخر بالإعفاء مع فقيرة من فقيرات مكة ، بعثت تفدى زوجها بالقلادة التى تملكها ، وكانت هذه الفقيرة زينب بنت محمد ﷺ (ففى مصنف أبى داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب فى فداء أبى العاص بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة ، أدخلتها بها على أبى العاص ، قالت . فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، وقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها ؟ » فقالوا نعم ، وكان النبى ﷺ أخذ عليه أو وعده أن يخلى سبيل زينب إليه ، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار ، فقال : « كونا ببطن يأجج[2] حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها » قال ابن إسحاق : وذلك بعد بدر بشهر ، قال عبدالله بن أبى بكر : حدثت عن زينب بنت رسول الله ﷺ أنها قالت :

لما قدم أبو العاص مكة قال لى : تجهزى . فالحقى بأبيك ، قالت فخرجت أتجهز فلقيتنى هند بنت عتبة فقالت : يابنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟ فقلت لها : ما أردت ذلك ، فقالت : أى بنت عم . لاتفعلى إنى امرأة موسرة ، وعندى سلع من حاجتك ، فإن أردت سلعة بعتكها ، أو قرضاً من نفقة أقرضتك ، فإنه لايدخل بين النساء مابين الرجال . قالت : فوالله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ، نخفتها فكتمتها ، وقلت : ماأريد ذلك . فلما فرغت زينب من جهازها ارتحلت ، وخرج بها حموها يقود بها نهاراً كنانة بن الربيع . وتسامع بذلك أهل مكة ، وخرج فى طلبها هبار بن الأسود ، ونافع بن عبد القيس الضهرى ، وكان أول من سبق إليها هبار ، فروعها بالرمح وهى فى هودجها ، وبرك كنانة ونثر نبله ثم أخذ قوسه وقال : والله لايدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهماً . وأقبل أبو سفيان فى أشراف قريش ، فقال : ياهذا ، أمسك عنا بنبلك حتى نكلمك

(١) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٥٢ / ٥٣ .

(٢) بطن يأجج : موضع بمكة .

فوقف عليه أبو سفيان ، وقال : إنك لم تصنع شيئاً ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس ، وقد عرفت مصيبتنا التى أصابتنا ببدر ، فتظن العرب وتتحدث أن هذا وهن منا وضعف خروجك إليه بابنته على رؤوس الناس من بين أظهرنا . ارجع بالمرأة فأقم أياماً ثم سُلَّها(١) سلاً رقيقاً فى الليل ، فألحقها بأبيها ، فلعمرى مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، ومالنا فى ذلك الآن من ثؤرة (٢) فيما أصاب منا ، ففعل ، فلما مرَّ به يومان أو ثلاثة سلّها ، فانطلقت حتى قدمت على رسول الله ﷺ . فذكروا أنها قد كانت ألقت للروعة التى أصابتها حين روَّعها هبار بن أم درهم ـ مافى بطنها) (٣) .

رسول الله ﷺ يفتح الله تعالى عليه فى بدر . والملائكة تشهد المعركة بجانبه ، وابنتاه إحداهما رهينة فى مكة بيد العدو والثانية رهينة المرض الشديد فى المدينة وهى رقية رضى الله عنها . وبشائر النصر فى بدر وصلت إلى المدينة ، والمسلمون يهيلون التراب على قبرها ، فلم يقعده المرض الشديد للثانية ، ولا الإقامة فى أرض العدو للأولى عن أداء مهمته فى حرب العدو ومواجهته ، ولم يثنه عن رسالته خوفه على ابنته فى مكة أن يخوض حرباً طاحنة ضد قريش ، وهو درس للدعاة والمجاهدين أن لايثنيهم خوف عن أداء رسالتهم أو جزع على أولادهم عن متابعة جهادهم ، فكل شىء يهون فى سبيل الله وكل شىء فى جنب الله قليل . والأصوات التى ترتفع أحياناً وتدعو لوقف الجهاد مع الطاغوت ؛ لأن بناتنا رهائن بين يديه ، ونساءنا وأعراضنا ـ هى أصوات صادقة ، لكنها مخطئة بدون شك . فالحرب لابد لها من خسائر فى الأموال والأرواح والأولاد ، لقد كان المسلمون يخوضون المعارك ، واحتمال الهزيمة قائم . وفى الهزيمة حسب قانون الحرب فى تلك العهود يكون نساء المسلمين سبايا بيد العدو ، ولم يقعد ذلك الأمر المسلمين عن الجهاد ، أو يبرر لهم التخاذل والنكوص على الأدبار ، والاستسلام للعدو الكافر . لكننا ننظر للموضوع من ناحية ثانية ونعجب . نعجب لقيم الجاهلية فى تلك الأيام وقيمها اليوم . !!!

بنت محمد ﷺ الذى ذبح سبعين من قادة مكة وأسر سبعين من أشرافها بين يدى طواغيت مكة ، وحسب فهمنا اليوم . لابد أن ينتقم منها ، وتقطع إرباً إرباً . وتؤخذ إلى كل بيت فيه قتيل ، يأخذون ثأرهم منها ، بل ليس بنت محمد فقط . لكن كل من يمت إلى محمد من بنى هاشم رجالاً ونسوة . زينب بنت محمد يخرج بها حموها الكافر على عيون الأشهاد ، والأحقاد والدماء والثارات فى كل بيت ، فيتعرض لها سفيه من سفهاء

---

(١) سلّها : انطلق بها فى استخفاء . (٢) ثؤرة : ثأر منها . (٣) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٥٤ .

مكة . لعله وتر بأخيه أو ابنه أو قريبه ، ويروِّعها في هودجها ، فينثر الحمو الكافر كنانته ، ويستعد لجزرة جديدة في مكة . يقتل بعدها حفاظاً على بنت محمد وهو على غير دينها ، وأخوه كان في الجيش الذى مضى لحرب محمد ﷺ .

ولانستغرب هذه الصورة ، فقد يحوى مجتمعنا مثل هذه الشهامة والمروءة عند بعض الجاهليين فيه .

لكن الأغرب والأعجب هو صنيع أبى سفيان زعيم مكة ، وزوجه هند بنت عتبة . أما هند . فهى التى كانت تضاهى العرب بمصيبتها فى بدر ، فى سوق عكاظ وترد على الخنساء فلقد قتل أبوها وأخوها وعمها وابنها البكر فى بدر ، وهى التى بلغ الحقد عندها مبلغاً لم نسمعه عن امرأة فى التاريخ حين لاكت كبد الحمزة بعد مقتله ، وهو الذى قتل لها أركانها الأربعة ، واتخذت من أذنيه وأنفه أقراطاً لها ، وأعطت أقراطها وذهبها وجواهرها لمن ثأر لها منه ، هند هذه . تأتى إلى زينب بنت محمد التى تريد أن تذهب إلى أبيها محمد ﷺ . تأتى إليها فتخاطبها : يابنت عم . لاتفعلى . (أى لاتخافى وتكتمى على سفرك) إنى إمرأة موسرة وعندى سلع من حاجتك ، فإن أردت سلعة بعتكها ، أو قرضاً من نفقة أقرضتك ، فإنه لايدخل بين النساء مابين الرجال .) ؟ ! إنها قيم من قيم الجاهلية . لايدخل بين النساء مابين الرجال ، ولاتنسى واجبها نحو ابنة عمها نحو ابنة أعـدى أعدائهـا . فتعرض عليها المعونة . وبشهادة زينب رضى الله عنها . وفو الله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ، أى امرأة هذه ؟ وأى قيم هذه ؟ حين نقارن هذه الصور بجاهلياتنا اليوم . بل دعونا نقول أكثر . بمسلماتنا اليوم . هل تستطيع مسلمة داعية اليوم أن تصنع صنيع هند ؟ فلقد قُتِل نسيب إحدى الداعيات فى عملية من العمليات ضد الطغاة ، فكادت أن تفقد وعيها عن متابعة العمل الجهادى . لهول الصدمة ، وهند الموتورة الثائرة بأركانها الأربعة تعرض لبنت محمد ﷺ . المال والمعونة ..!

وتوجت موقفها هذا بأن نظرت إلى هبار بن الأسود ومن معه اللذين تعرضا لبنت محمد عندما أرادت الخروج وروَّعاها بالرمح ، نظرت إليهم نظرة احتقار ، واكتفت أن تقول لهما : أفى السلم أعيار جفاء وغلظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك [1] .

ولم يكن صنع أبى سفيان قائد مكة بأقل عجباً من تصرف زوجه ، فعلى مسؤليته مع

---

(١) الس[illegible] هشام / ٢ / ٣٠٢ / (الأعيار : الحمير) ، (والعوارك : الحيض) .

أشراف مكة يعالج الوضع ، ويرضى خواطر بنت محمد . ويحذر حماها سفاهة السفهاء والموتورين ، ويبين له ألا يأخذ خروج بنت محمد طابع التحدى لمكة الموتورة المقهورة ويحثه على الخروج بها ليلاً ، فلن يكون الثأر من بنت محمد .

نتحدث عن هذه الجاهلية وقيمها : فى الوقت الذى نرى فيه جاهلية اليوم تفعل بالآمنين العزل مايشيب له الولدان ، فقد حبس زوج وزوجة أربع سنين رهينة عن صهرهما ، ولاقيا أنواع التعذيب والتنكيل ؛ لأن صهرهما يقاوم الطغاة . وهاهن أولاء عشرات النسوة يقمن فى الزنزانات السنين الطوال ، ويمكثن عشر سنين أو عشرين سنة . حين ينظر إليهن من بين المعتقلين ولاكرامة لامرأة أو شيخ أو طفل ..! إن وحوش الغابة عندها قيم أكثر من قيم طغاة اليوم . و ﴿ **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون** ﴾ ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل** ﴾ (١) وقد نزلت هذه الآيات فيمن يملكون ماذكرنا من هذه القيم ... فمن هؤلاء اليوم الذين فقدوا كل قيم السماء والأرض والدواب والوحوش . وهم يتعاملون مع الدعاة إلى الله ؟؟. من هؤلاء ؟؟؟ .

ومن أجل مشكلة الأسرى تم دخول شيطان قريش فى الإسلام .

(روى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال :

جلس عمير بن وهب الجمحى مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش فى الحجر بيسير وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه ، ويلقون منه عناءً وهو فى مكة . وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر ، فذكر أصحاب القليب ومصابهم فقال صفوان : والله إنْ (٢) فى العيش بعدهم خير . قال له عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دين عليَّ ليس له عندى قضاء ، وعيالٌ أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبلهم علَّة ، ابنى أسير بين أيديهم ، قال : فاغتنمها صفوان . وقال : عليَّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم مابقوا . لايسعنى شىء ويعجز عنهم ، فقال له عمير : اكتم عنى شأنى وشأنك قال : أفعل ، ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له (٣) وسُمَّ ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ماأكرمهم الله به وماأراهم به من عدوهم إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين

---

(١) الأعراف / ١٧٩ .
(٢) والله مافى العيش بعدهم خير ، وإن هنا بمعنى ما النافية .
(٣) شحذ له : سنَّ له وحدَّ .

أناخ على باب المسجد متوشحا السيف فقال : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب والله ماجاء إلا لشر ، وهو الذى حرش [1] بيننا وحزرنا [2] للقوم يوم بدر ، ثم دخل عمر رضى الله عنه على رسول الله ﷺ فقال له : يارسول الله هذا عدو الله عمير بن وهب ، قد جاء متوشحاً سيفه ، قال : « فأدخله على » قال : فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبَّبه [3] بها ، وقال لرجال ممن كان معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده . واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال : « أرسله ياعمر ، ادن ياعمير » فدنا ثم قال : انعموا صباحاً ـ وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم ـ فقال رسول الله ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك ياعمير ، بالسلام تحية أهل الجنة ، فقال . أما والله يامحمد إن كنت بها لحديث عهد ، قال : فما جاء بك ياعمير ، قال : جئت لهذا الأسير الذى بين أيديكم فأحسنوا فيه ، قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ . قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟ . قال : اصدقنى ما الذى جئت له ؟ . قال : ماجئت إلا لذلك . قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمَّل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك . قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يارسول الله نكذبك بماكنت تأتينا من خبر السماء ، وماينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم مأأتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق ، فقال رسول الله ﷺ : « فقهوا أخاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره » ففعلوا .

ثم قال : يارسول الله ، إنى كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، وأنا أحب أن تأذن لى ، فأقدم مكة ، فأدعوهم إلى الله تعالى . وإلى رسوله ﷺ وإلى الإسلام ، لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم ، كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم ، قال : فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة . وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول : أبشروا بواقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان صفوان يسأل عنه الركبان ، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ، فحلف أن

---

(١) حرش بيننا : أفسد بيننا .   (٢) حزرنا : قدَّر عددنا .

(٣) لبَّبه بها : جمع ثيابه عند نحره فى الخصومة ثم جرَّه .

لايكلمه أبدا ، ولاينفعه بنفع أبدا . قال ابن إسحاق : فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذى من خالفه أذىً شديداً ، فأسلم على يديه ناس كثير .) . قال ابن إسحاق : وعمير بن وهب ، أو الحارث بن هشام ، قد ذكر لى أحدهما الذى رأى إبليس حين نكص على عقبيه يوم بدر ، فقال : أين أى سراق ، ومثل [1] عدو الله فذهب) [2] .

بقى أن نعيد إلى الذاكرة أن عمير بن وهب رضى الله عنه هو الذى كان يعد فى المسلمين بألف رجل ، وهو واحد من الأربعة الذين بعثهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه مدداً لعمرو فى مصر ، وحسبهم على عمرو بأربعة آلاف .

وأما قصة الفداء بتعليم الكتابة أو بغير فداء فهى كما رواها المقريزى (وفكَّ رسول الله ﷺ عن السائب بن عبيد . وعبيد بن عمرو بن علقمة بغير فدية . وقد أسرهما سلمة بن أسلم بن حريش الأشهلى ؛ لأنهما لامال لهما ، ولم يقدم لهما أحد . وكان فى الأسرى من يكتب . ولم يكن فى الأنصار من يحسن الكتابة ، وكان منهم من لا مال له ، فيقبل منه أن يعلم عشرة من الغلمان الكتابة ، ويخلى سبيله . فيومئذ تعلم زيد بن ثابت الكتابة فى جماعة من غلمان الأنصار . خرَّج الإمام أحمد من حديث عكرمة عن ابن عباس قال : كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء . فجعل رسول الله ﷺ فدائهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة ، قال : فجاء غلام يبكى إلى أبيه . قال : ماشأنك ؟ قال : ضربنى معلمى ، قال : الخبيث يطلب بذحل [3] بدر . والله لاتأتيه أبدا . وقال عامر الشعبى : كان فداء الأسرى من أهل بدر أربعين أوقية . فمن لم يكن عنده علَّم عشرة من أولاد المسلمين . فكان زيد بن ثابت ممَّن علِّم) [4] .

وهكذا كان وضع الأسرى مدرسة تربوية فى المدينة . نشروا العلم فى ربوع الأنصار وتعرفوا على المجتمع الإسلامى عن كثب . حيث كان أمر رسول الله ﷺ بالإحسان إليهم واضحاً إذ قال : استوصوا بالأسارى خيراً .. وكثير منهم أسلم بعد مارأى من حسن هذه المعاملة ، وذلك كما يروى لنا ابن إسحاق عن أبى عزيز بن عمير (فكنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر . فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصونى بالخير وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا ، ماتقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها ، فأستحى فأردها فيردها علىّ مايمسها .) [5] ولاغرو أن يخاطبهم الله تعالى :

---

(١) مثل عدو الله : أى لطىء بالأرض واختفى .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٣٠٩ .
(٣) الذحل : الثأر أو العداوة والحقد .
(٤) إمتاع الأسماع للمقريزى / ١ / ١٠١ .
(٥) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٨٨ .

٤ ـ ﴿ يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾ :

﴿ إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ (١) **﴿ إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً ﴾** أى إسلاماً (**يؤتكم خيراً مما أخذ منكم**) أى من الفدية قيل فى الدنيا وقيل فى الآخرة وفى صحيح مسلم : أنه لما قدم على النبى ﷺ مال من البحرين قال له العباس : إنى فاديت نفسى . وفاديت عقيلاً فقال رسول الله ﷺ « خذ » فبسط ثوبه وأخذ مااستطاع أن يحمله .) (٢)

وقال البخارى : عن أنس أن النبى ﷺ أتى بمالٍ من البحرين . فقال : انثروه فى المسجد فكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ ، إذ جاءه العباس فقال : يارسول الله أعطنى إنى فاديت نفسى ، وفاديت عقيلاً ، فقال : خذ فحثا فى ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال : مر بعضهم يرفعه إلىّ قال : لا . قال : فارفعه أنت على ، قال : لا فنثر منه ثم احتمله على كاهله ، ثم انطلق فمازال يتبعه بصره حتى خفى علينا عجباً من حرصه فماقام رسول الله ﷺ وثم منها درهم .) (٣) (وفى غير الصحيح . فقال له العباس : هذا خير مما أخذ منى وأنا بعد أرجو أن يغفر الله لى ، قال العباس : وأعطانى زمزم ، وما أحب أن لى بها جميع أموال مكة . وأسند الطبرى إلى العباس أنه قال : فىَّ نزلت حين أعلمت رسول الله بإسلامى ، وسألته أن يحاسبنى بالعشرين أوقية التى أخذت منى قبل المفاداة فأبى وقال : ذلك فىء ، فأبدلنى الله من ذلك عشرين عبداً كلهم تاجر بمالى .) (٤) وهو يرجو الثانية من المغفرة رضى الله عنه

٥ ـ ﴿ وإن يريدوا خيانتك ﴾ :

﴿ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم إن الله عزيز حكيم ﴾ (٥)
(قال ابن العربى : لما أسر من أسر من المشركين تكلم قوم منهم بالإسلام ، ولم يمضوا فيه عزيمة ولااعترفوا فيه اعترافاً جازماً ، ويشبه أنهم أرادوا أن يقربوا من المسلمين ولايبعدوا من المشركين ... وقد بين الله لرسوله ﷺ الحقيقة فقال : **﴿ وإن يريدوا خيانتك ﴾** أى إن كان القول منهم خيانة ومكراً ، فقد خانوا الله من قبل بكفرهم ، ومكرهم بك ، وقتالهم لك وإن كان هذا القول منهم خيراً ويعلمه الله فيقبل منهم ذلك ، ويعوضهم خيراً مما خرج عنهم ، ويغفر لهم ماتقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم) (٦) .

---

(١) الأنفال / ٧٠ .
(٢) تفسير القرطبى ٤ / ٨ / ٥٣ .
(٣) البداية والنهاية / ٣ / ٤ / ٣٠٠ .
(٤) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٥٣ .
(٥) الأنفال / ٧١ .
(٦) المصدر نفسه / ٤ / ٨ / ٥٥ .

ولاغرابة أن يظهر المشركون بميلهم للإسلام أو يتظاهرون بذلك وهم يرون هذه المعاملة الحسنة والروح الإسلامية ، والمجتمع المتلاحم المتحاب ، وأن يكون هذا الأسر دورة لهم فى المجتمع المسلم ، أما النموذج الذى نقدمه عن الخيانة فهو نموذج أبى عزة الجمحى الشاعر .

قال ابن إسحاق : وأبو عزة عمرو بن عبدالله بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جمح وكان محتاجاً ذا بنات ، فكلّم رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله ، لقد عرفت مالى من مال وإنى لذوحاجة وذوعيال ، فامنن على ، فمنَّ عليه رسول الله ﷺ، وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحداً ، فقال أبوعزة فى ذلك يمدح رسول الله ﷺ ويذكر فضله فى قومه :

من مبلغ عنى الرسول محمداً … بأنك حق والمليك حميد
وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى … عليك من الله العظيم شهيد
وأنت امرؤ بوئت فينا مباءة … لها درجات سهلة وصعود [١]
فإنك من حاربته لمحارب … شقى ومن سالمته لسعيد
ولكن إذا ذكرت بدراً وأهله … تأوب مابى حسرة وقعود [٢] .) [٣]

ثم ماذا فعل يوم أحد . ؟

قال ابن إسحاق : (... فقال له صفوان بن أمية : ياأباعزة ، إنك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك ، فاخرج معنا . فقال : إن محمداً قد مَنَّ علىّ فلا أريد أن أظاهر عليه . قال : فأعنا بنفسك ـ فلك الله علىّ إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى يصبهن ما أصابهن من عسر ويسر . فخرج أبو عزة يسير فى تهامة ، ويدعو بنى كنانة ويقول :

إيها بنى عبد مناة الرُّزَّام … أنتم حماة وأبوكم حام
لاتعدونى نصركم بعد العام … لاتسلمونى لا يحل سلام .) [٤]

وهكذا خان الله ورسوله . وانضم إلى معسكر المشركين . ونكث بعهوده ووعوده . فأمكن الله تعالى منه يوم أحد .

(فقال : يارسول الله أقلنى . فقال رسول الله ﷺ : لا والله لاتمسح عارضك بمكة

(١) بوئت مباءة : نزلت منزلة .
(٢) تأوب : رجع إلى وعاودنى .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٣٠٥ ، ٣٠٦ .
(٤) المصدر السابق / ٣ / ٤ .

بعدها وتقول : خدعت محمداً مرتين . « اضرب عنقه يازبير » فضرب عنقه .

قال ابن هشام : وبلغنى عن سعيد بن المسيب أنه قال : قال له رسول الله ﷺ : « إن المؤمن لايلدغ من جحر مرتين » . « اضرب عنقه ياعاصم بن ثابت » فضرب عنقه)[1]

وهكذا نجد أبا عزة يمثل نموذج الذى خان ، فأمكن الله تعالى منه ، بينما وجدنا العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه يمثل النموذج الأول ، الذى صدق بإسلامه وفاز بالحسنيين .

ثامناً : الولاء

١ ـ ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ :

﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ .[2]

و (القاعدة النظرية التى يقوم عليها الإسلام على مدار التاريخ البشرى ، هى قاعدة : شهادة أن لا إله إلا الله ، أى إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية .. إفراده بها اعتقاداً فى الضمير ، وعبادة فى الشعائر ، وشريعة فى واقع الحياة . فشهادة أن لا إله إلا الله ، لاتوجد فعلاً ، ولاتعتبر موجودة شرعاً إلا فى هذه الصورة المتكاملة التى تعطيها وجوداً جدياً حقيقياً يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم .... ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية .. أن تعود حياة البشر بجملتها إلى الله ، لايقضون هم فى أى شىء من شؤونها ، ولافى أى جانب من جوانبها من عند أنفسهم ، بل لابد لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه .... وحكم الله هذا يجب أن يعرفوه من مصدر واحد يبلغهم إياه ، وهو رسول الله ... وهذا يتمثل فى شطر الشهادة الثانى من ركن الإسلام الأول : شهادة أن محمداً رسول الله .

هذه هى القاعدة النظرية التى يتمثل بها الإسلام ويقوم عليها ، وهى تنشىء منهجاً كاملاً للحياة حين تطبق فى شؤون الحياة كلها ، يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية فى داخل دار الإسلام وخارجها ، فى علاقاته بالمجتمع المسلم وفى علاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى .

ولكن الإسلام ـ كما قلنا ـ لم يكن يملك أن يتمثل فى نظرية مجردة ؛ ليعتنقها من

---

(١) المصدر نفسه / ٣ /٥ .　　(٢) الأنفال : ٧٢ .

يعتنقها اعتقاداً ويزاولها عبادة ، ثم يبقى معتنقوها على هذا النحو أفراداً ضمن الكيان العضوى للتجمع الحركى الجاهلى القائم فعلاً ، فإن وجودهم على هذا النحو ـ مهما كثر عددهم ـ لايمكن أن يؤدى إلى وجود فعلى للإسلام ، لأن الأفراد المسلمين نظرياً الداخلين فى التركيب العضوى للمجتمع الجاهلى سيظلون مضطرين حتماً للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية .سيتحركون طوعاً أو كرهاً ، بوعى أو بغير وعى لقضاء الحاجات الأساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده ، وسيدافعون عن كيانه . وسيدفعون العوامل التى تهدد وجوده وكيانه ، لأن الكائن العضوى يقوم بهذه الوظائف بكل أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا ، أى أن الأفراد المسلمين نظرياً سيظلون يقومون فعلاً بتقوية المجتمع الجاهلى الذى يعملون نظرياً لإزالته ، وسيظلون خلايا حية فى كيانه تمده بعناصر البقاء والامتداد ، وسيعطونه كفاياتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا ويقوى ، وذلك بدلاً من أن تكون حركتهم فى اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلى لإقامة المجتمع الإسلامى .

ومن ثم لم يكن بد أن تتمثل القاعدة النظرية للإسلام (أى العقيدة) فى تجمع عضوى حركى منذ اللحظة الأولى . لم يكن بد أن ينشأ تجمع عضوى حركى آخر غير التجمع الجاهلى ، منفصل ومستقل عن التجمع العضوى الحركى الجاهلى الذى يستهدف الإسلام إلغاءه ، وأن يكون محور هذا التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة في رسول الله ﷺ ومن بعده فى كل قيادة إسلامية ، تستهدف رد الناس إلى ألوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته ، وأن يخلع كلَ من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولاءه من التجمع العضوى الحركى الجاهلى ـ أى التجمع الذى جاء منه ـ ومن قيادة ذلك المجتمع ـ فى أية صورة كانت ، سواء كانت فى صورة قيادة دينية من الكهنة والسدنة والسحرة والعرافين ومن إليهم ، أو فى صورة قيادة سياسية واجتماعية واقتصادية كالتى كانت لقريش ، وأن يحصر ولاءه فى التجمع العضوى الحركى الإسلامى الجديد وفى قيادته المسلمة .

لم يكن بد أن يتحقق هذا منذ اللحظة الأولى لدخول المسلم فى الإسلام ، ولنطقه بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لأن وجود المجتمع المسلم لايتحقق إلا بهذا ، لايتحقق بمجرد قيام القاعدة النظرية فى قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم ، لا يتمثلون فى تجمع عضوى متناسق متعاون . له وجود ذاتى مستقل ، يعمل أعضاؤه عملا عضوياً ـ

كأعضاء الكائن الحى - على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه ، وعلى الدفاع عن كيانه ضد العوامل التى تهاجم وجوده وكيانه ، ويعملون فى هذا تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلى تنظم تحركهم وتنسقه وتوجهه لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الإسلامى ، ولمكافحة ومقاومة وإزالة الوجود الآخر الجاهلى .

وهكذا وجد الإسلام .. هكذا وجد متمثلاً فى قاعدة نظرية مجملة - ولكنها شاملة - يقوم عليها فى نفس اللحظة تجمع عضوى حركى مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلى ، ومواجه لهذا المجتمع .. ولم يوجد قط فى صورة نظرية مجردة عن هذا الوجود الفعلى . وهكذا يمكن أن يوجد الإسلام مرة أخرى .. ولا سبيل لإعادة نشأته في ظل المجتمع الجاهلى فى أى زمان وفى أى مكان ، بغير الفقه الضرورى لطبيعة نشأته العضوية الحركية .

وحين ندرك طبيعة هذه النشأة ، وأسرارها الفطرية ، وندرك معها طبيعة هذا الدين وطبيعة منهجه الحركى .. ندرك معه مدلولات هذه النصوص والأحكام التى تواجهها فى ختام هذه السورة ، فى تنظيم المجتمع المسلم ، وتنظيم علاقته مع المؤمنين المهاجرين المجاهدين - بطبقاتهم - والذين آووا ونصروا ، وعلاقته مع الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وعلاقاته مع الذين كفروا .

إنها كلها تقوم على أساس ذلك الفقه بطبيعة النشأة العضوية الحركية للمجتمع الإسلامى .

ونستطيع الآن أن نواجه هذه النصوص والأحكام الواردة فيها) . [١]

﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ .

(لقد انخلع كل من قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فى مكة من الولاء لأسرته والولاء لعشيرته ، والولاء لقبيلته ، والولاء لقيادته الجاهلية الممثلة فى قريش ، وأعطى ولاءه وزمامه لمحمد رسول الله ﷺ وللتجمع الصغير الناشىء الذى قام بقيادته ، فى حين وقف المجتمع الجاهلى ، يدفع عن وجوده الذاتى خطر هذا التجمع الجديد . الخارج عليه حتى قبل اللقاء فى المعركة الحربية - ويحاول سحق هذا التجمع الوليد فى نشأته .

---

(١) فى ظلال القرآن /٣/١٥٥٦ .

عندئذ آخى رسول الله ﷺ بين أعضاء هذا التجمع الوليد أى أنه حوَّل هؤلاء الأفراد الآتين من المجتمع الجاهلى أفراداً إلى مجتمع متكافل ، تقوم رابطة العقيدة فيه مقام رابطة الدم والنسب ، ويقوم الولاء لقيادته الجديدة مقام الولاء للقيادة الجاهلية ، ويقوم الولاء فيه للمجتمع الجديد مقام كل ولاء سابق .

ثم لما فتح الله للمسلمين دار الهجرة فى المدينة ، بعد أن وجد فيها مسلمون بايعوا القيادة الإسلامية على الولاء المطلق والسمع والطاعة فى المنشط والمكره ، وحماية رسول الله ﷺ مما يحمون منه أموالهم وأولادهم ونساءهم ، وقامت الدولة المسلمة في المدينة بقيادة رسول الله ﷺ عاد رسول الله فآخى بين المهاجرين والأنصار ، تلك المؤاخاة التى تقوم مقام رابطة الدم والنسب كذلك بكل مقتضياتها ، بما في ذلك الإرث والديات والتعويضات التى تقوم بها رابطة الدم فى الأسرة والعشيرة .. وكان حكم الله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض** ﴾ .

(أولياء فى النصرة ، وأولياء فى الإرث وأولياء فى الديات والتعويضات وسائر مايترتب على رابطة الدم والنسب من التزامات وعلاقات) .[1]

٢ ـ ﴿ الذين آمنوا ولم يهاجروا ﴾ :

(ثم وجد أفرادا آخرون ، دخلوا فى هذا الدين (عقيدة) ولكنهم لم يلتحقوا بالمجتمع المسلم فعلاً .. لم يهاجروا إلى دار الاسلام التى تحكمها شريعة الله ، وتدبر أمرها القيادة المسلمة ، ولم ينضموا إلى المجتمع المسلم الذى أصبح يملك داراً يقيم فيها شريعة الله ، ويحقق فيها وجوده الكامل ، بعدما تحقق له وجوده فى مكة نسبياً ، بالولاء للقيادة الجديدة والتجمع فى تجمع عضوى حركى ، مستقل ومنفصل عن المجتمع الجاهلى ، ومواجه له بهذا الوجود المستقل المتميز .

وجد هؤلاء الأفراد سواءً فى مكة ، أو فى الأعراب حول المدينة ، يعتنقون العقيدة ولكنهم لا ينضمون للمجتمع الذى يقوم على هذه العقيدة ، ولا يدينون فعلاً دينونة كاملة للقيادة القائمة عليه .

وهؤلاء لم يعتبروا أعضاء في المجتمع المسلم ، ولم يجعل الله لهم ولاية ـ بكل أنواع

(١) فى ظلال القرآن /١٥٥٨/٣ .

الولاية - مع هذا المجتمع ، لأنهم بالفعل ليسوا من المجتمع الإسلامى ، وفى هؤلاء نزل هذا الحكم ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر . إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ (1)) (2) .

(وهذا الحكم منطقى ومفهوم مع طبيعة هذا الدين - التى أسلفنا - ومع منهجه الحركى الواقعى ، فهؤلاء الأفراد ليسوا أعضاءً فى المجتمع المسلم ، ومن ثم لا تكون بينهم وبينه ولاية .. ولكن هناك رابطة العقيدة ، وهذه لا ترتب - وحدها - على المجتمع المسلم تبعات تجاه هؤلاء الأفراد ، اللهم إلا أن يعتدى عليهم فى دينهم ، فيفتنوا مثلاً عن عقيدتهم ، فإذا استنصروا المسلمين - فى دار الإسلام - فى مثل هذا ، كان على المسلمين أن ينصروهم في هذه وحدها ، على شرط أن لايخل هذا بعهد من عهود المسلمين مع معسكر آخر . ولو كان هذا المعسكر هو المعتدى على أولئك الأفراد فى دينهم وعقيدتهم ! ذلك أن الأصل هو مصلحة المجتمع المسلم وخطته الحركية وما يترتب عليها من تعاملات وعقود ، فهذه لها الرعاية أولا ، حتى تجاه الاعتداء على عقيدة أولئك الذين آمنوا ، ولكنهم لم ينضموا للوجود الفعلى لهذا الدين المتمثل فى التجمع الإسلامى . وهذا يعطينا مدى الأهمية التى يعلقها هذا الدين على التنظيم الحركى الذى يمثل وجوده الحقيقى .

والتعقيب على هذا الحكم ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ .

فكل عملكم تحت بصره سبحانه ، يرى مداخله ومخارجه ، ومقدماته ونتائجه ، وبواعثه وآثاره .

٣ - ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾ :

وكما أن المجتمع المسلم مجتمع عضوى حركى متناسق متكافل متعاون يتجمع فى ولاء واحد فكذلك المجتمع الجاهلى .

﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض** ﴾ .

إن الأمور بطبيعتها كذلك - كما أسلفنا ، إن المجتمع الجاهلى لايتحرك كأفراد ، إنما يتحرك ككائن عضوى ، تندفع أعضاؤه بطبيعة وجوده وتكوينه ؛ للدفاع الذاتى عن وجوده وكيانه ، فهم بعضهم أولياء بعض طبعاً وحكما .. ومن ثم لا يملك الإسلام أن يواجههم إلا فى صورة مجتمع آخر له ذات الخصائص ، ولكن بدرجة أعمق وأمتن

(1) الأنفال / ٧٢ .

(2) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٥٥٨ .

وأقوى ، فأما إذا لم يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضه لبعض فستقع الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلى ـ لأنهم لايملكون مواجهة المجتمع الجاهلى المتكافل أفراداً ـ وتقع الفتنة فى الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام بعد وجوده ، ويقع الفساد فى الأرض بطغيان الجاهلية على الإسلام ، وطغيان ألوهية العباد على ألوهية الله ، ووقوع الناس عبيدا للعباد مرة أخرى ، وهو أفسد الفساد .

﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ﴾ [1]) . [2]

ولايكون بعد هذا النذير نذير ، ولا بعد هذا التحذير تحذير ... والمسلمون الذين لايقيمون وجودهم على أساس التجمع العضوى الحركى ذى الولاء الواحد والقيادة الواحدة ، يتحملون أمام الله ـ فوق مايتحملون فى حياتهم ذاتها ـ تبعة تلك الفتنة في الأرض وتبعة هذا الفساد الكبير .

٥ ـ ﴿ أولئك المؤمنون حقا ﴾ :

(ثم يعود السياق القرآنى ليقرر أن الإيمان الحق إنما يتمثل فى هذه الصورة **﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم ﴾** [3]

وما أروع أن نربط بين بداية السورة وختامها والجولة الضخمة فى ثنايا السورة .

ـ البداية تقول :

﴿ إنما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ .

ويسبق هذه البداية تهديد بخطورة زوال الإيمان أمام أزمة الغنائم .

ـ **﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم إن كنتم مؤمنين ﴾** .

فكيف يلتقى الإيمان وفساد ذات البين الذى حل بالطليعة المؤمنة يوم بدر ؟

ويعقب هذه البداية تهديدا آخر بخطورة زوال الإيمان بعد الوصف الرعيب للكارهين

---

(١) الأنفال /٧٣ . (٢) فى ظلال القرآن /٣ / ١٥٥٩ . (٣) الأنفال /٧٤ .

للمعركة : ﴿ .. **وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** .. ﴾ .

ويتلقى أهل بدر هذا العرض كما نتلقاه نحن ، بعد أن اختلفوا على الغنائم ، وبعد أن جادلوا في الحق كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، بعد هذه الأخطاء الضخمة الجسيمة لايبقى لهم غير الأمل بعفو الله ومغفرته ، والأمل بأن يدخلوا فى حظيرة المؤمنين ، وحظيرة : الإيمان ، وبعد أن أوضح لهم العرض الربانى خطورة ما أقدموا عليه من ذنب راجين ربهم أن يتجاوز عن سيئاتهم ويدخلهم فى عداد المؤمنين . خاصة وقد أوضح العرض الربانى لهم أن هناك من هم المؤمنون ادعاءً ، وهناك من هم المؤمنون حقا ، ولابد من تكامل المواصفات ، حتى يكونوا المؤمنين حقا .

ويتابع السياق القرآنى هذا العرض ، وهذا المنهج ، فتنصب الآيات كلها على عجزهم وضعفهم ونقصهم ، ويكون التركيز فى المقابل على النعمة الربانية في النصر والتمكين الذى لا يملكون مؤهلاته ، ويستمر هذا العرض حتى الآيتين الأخيرتين ، بعد استعراض كل جوانب الضعف البشرى والعجز والخلل البشرى .

تأتى هاتان الآيتان لتزفا لهم أعظم بشرى بعد مناقشة وحساب ، تأتيهم هذه البشرى ولا يزالون ملتصقى الأقدام بالأرض ، ولايزالون يعانون من هول الذنب وجسامة الخطيئة .

تأتى هذه البشرى لتقول لهم :

أنتم ، أنتم بالذات المؤمنون حقا ، وليس المعني غيركم ، رغم شدة الخطأ ، وشدة الضعف ، وضخامة الذنب .

أنتم بفرعيكم : المهاجرين ، والأنصار .

﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله** .. ﴾ .

﴿ **والذين آووا ونصروا** .. ﴾ .

ولم تأت هذه البشرى إلا بعد استفراغ الحساب :

﴿ **أولئك هم المؤمنون حقا** ﴾ .

أما (أولئك هم المؤمنون حقا) الأولى ـ فى بداية السورة ـ فهيهات أن يرى المسلم

البدرى أنه هو المقصود ، بعد الخلل فى الخروج للمعركة فى البداية ، وبعد الخلل في الموقف من الغنائم فى النهاية .

لكن هنا .. فهذه هى الأرض كلها ، فمن فيها ﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله** .﴾ غير المهاجرين ؟

وهذه هى الأرض كلها فمن فيها ﴿ .. **الذين آووا ونصروا** .. ﴾ غير الأنصار ؟ وما أروعها من خاتمة .. وما أروعها من بشارة للذين جثوا بين يدى ربهم يحاسبهم على ماجرى فى بدر وقبلها وبعدها ، ليقول لهم قوموا بعد ذلك كله ، ورغم كل الحساب فأنتم أنتم المومنون حقا .

فقد وقعت المغفرة ، ووقع الرزق الكريم فى علم الله ، منذ الأزل .

﴿ **لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ .

« وما يدريك : لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » [١] وما أروع أن يجثو العبد للحساب على كل صغيرة وكبيرة ، ويأخذ النتيجة مع نهاية الحساب : قم مغفوراً لك .

ولعلهم قبل بدر قد لا يدخلون مع الذين جاهدوا فى سبيل الله ، أما الآن فهم المنصوص عليهم بذلك ... هاجروا وجاهدوا .

٦ - ﴿ والذين آمنوا من بعد ﴾ [٢] .

فإذا كانت الآية السابقة لأهل بدر .. فهذه الآية لأجيال المسلمين التى تتعاقب على ظهر الأرض حتى يرث الله الأرض ومن عليها - ولعلنا من آلاف الملايين التى تتعاقب وتعاقبت على ظهر الأرض ندخل فى هذه الحظيرة القدسية مع أهل بدر إن شاء الله .

﴿ **والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله والله بكل شيء عليم** ﴾ . [٣]

فقد انتهت الطفرة التى استمرت سنتين أو تزيد ، وعاد التوارث على أساس الرحم لا على أساس العقيدة فقط . أصبحت القرابة والعقيدة صنوين فى التوارث . فلا توارث بين مسلم وكافر ، لكن المسلمين يبقى التوارث بينهم على أساس القرابة والرحم .

---

(١) البخارى ومسلم .

(٢ ، ٣) الأنفال / ٧٥ .

وكأنما تقول هذه الآية : السمو الخالد فترات قصيرة ، لكن الخط الفطرى الطبيعى هو الأصل .

(ولقد كان لفترة البناء الأولى للوجود الإسلامى أحكامها الخاصة ، وتكاليفها الخاصة .. قام الولاء فى العقيدة مقام الولاء في الدم ، فى كل صوره وأشكاله ، وفى كل التزاماته ومقتضياته ، بما فى ذلك الإرث والتكافل فى الديات والمغارم .. فلما أن استقر الوجود الإسلامى بيوم الفرقان فى بدر عدلت أحكام تلك الفترة الاستثنائية اللازمة لعملية البناء الأولى ، المواجهة لتكاليفه الاستثنائية ، وكان من هذه التعديلات عودة التوارث والتكافل فى الديات وغيرها إلى القرابة ـ ولكنه في إطار المجتمع المسلم فى دار الإسلام .

﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ .

فلابأس بعد استقرار الوجود الفعلى للإسلام ـ من أولوية ذوى القربى فى داخل الإطار العام .. إن هذا يلبى جانباً فطرياً فى النفس الإنسانية ، ولا ضرر من تلبية المشاعر الفطرية في النفس الإنسانية ، مادام أن ليس هناك مايعارض هذه المشاعر من تكاليف الوجود الإسلامى ، إن الاسلام لايحطم المشاعر الفطرية ، ولكنه يضبطها . يضبطها لتستقيم مع الحاجات العليا للوجود الإسلامى ، فمتى انقضت هذه الحاجات عاد يلبيها فى إطاره العام ـ ومن ثم تكون لبعض الفترات الاستثنائية في الحركة تكاليفها الخاصة ، التى ليست واردة فى الأحكام النهائية للإسلام ، التى تحكم المجتمع الإسلامى المستقر الآمن فى حياته العادية .. وكذلك ينبغى أن نفقه تكاليف مرحلة البناء الأولى ، وطبيعة الإسلام العامة وأحكامه الأخرى .

﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ .

وهو التعقيب المناسب على هذه الأحكام والتنظيمات والمشاعر ، وتداخلها وتنظيمها وتنسيقها ، فهى من العلم المحيط بكل شيء ،علم الله تعالى . [(١)]

(يقول تعالى ذكره : والمتناسبون فى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى الميراث إذا كانوا ممن قسم الله له نصيباً وحظاً من الحليف والولى و (فى كتاب الله) يقول : فى حكم الله الذى كتبه في اللوح المحفوظ ، والسابق من القضاء (وأن الله بكل شئ عليم) يقول : إن الله عالم بما يصلح عباده فى توريثه بعضهم من بعض فى القرابة والنسب دون

(١) فى ظلال القرآن / م٣ / جـ١٠ ص ١٥٦٠ ، ١٥٦١ .

الحلف بالعقد وبغير ذلك من الأمور كلها ، لا يخفى عليه شيء منها).[1]

وبعد :

فماذا عن بدر :

وأكاد أجيب أنها خصوصية من خصوصياته عليه الصلاة والسلام فبدر : هبة له ، وميزة له ، وإكرام له صلوات الله وسلامه عليه فضمير المخاطب حي دائما فى ثنايا السورة .

يسألونك ، قل ، كما أخرجك ربك من بيتك ، يجادلونك ، إذ يوحى ربك ، وما رميت إذ رميت ، وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، قل للذين كفروا ، إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ، ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ، الذين عاهدت منهم ، فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم ، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، فاجنح لها وتوكل على الله ، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ماألفت بين قلوبهم ، يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ، يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ، وإن يريدوا خيانتك .

أى لا يقل عن ست وثلاثين خطاباً له فى خمس وسبعين آية .

لقد صبر عليه الصلاة والسلام ثلاثة عشر عاماً لم تلن له قناة ، ولم تهن له عزيمة ، وتلقى من الابتلاء ما لم يبلغه أحد . فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، وكانت قمة ابتلائه يوم اضطر للعودة لهم بعد الطائف ، وبعد أذى الطائف ، ثم لم يمهلوه ، ولم يتركوه فى مكة دون أذى حتى اضطر للجوء إلى القبائل يستنصرها لدين الله ، بعد أن كفرت قريش وحادت الله ورسوله ، وحالت بينه وبين القبائل كذلك ، وتمادت أكثر فأكثر يوم الهجرة فتآمرت به عليه الصلاة والسلام لتقتله أو تثبته أو تخرجه ، ومكر الله بها وأنجاه من بين أيديهم . وهاهو ذا الآن يود أن يسترد بعض مافقده والمسلمون من خلال القافلة ، وإذا بها الطامة ، وإذا بها قريش جاءت بخيلها وخيلائها تحاد الله وتكذب رسوله . وتريد ـ كما قال أبو جهل : (فنقيم عليها ثلاثا ..) .

---

(١) تفسير الطبرى / ٦ / ١٠ .

(والله لا نرجع حتى نرد بدرا . فنشرب الخمر ، ونطعم الطعام ، وتعزف علينا القيان ، وننحر الجزر . ويعلم العرب بمسيرنا هذا . فلا يزالون يهابوننا أبدا..)

إنها لحظة حاسمة من اللحظات الحاسمة فى تاريخ البشرية ، أن يلتقى سيد ولد آدم ، مع الحفاة الجياع العزل من السلاح ، بقريش وقد أحضرت سادتها وكبراءها الذين أضلوها السبيل ، ومع قريش إبليس يشد الأزر ، ويشحذ العزيمة ، ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولوشاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون** ﴾[1].

﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيرا** . ﴾ .[2]

وهؤلاء أكابر المجرمين قد حضروا على مرمى السمع والبصر .

فهل يكون هذا اللقاء حاسما بين الفريقين ؟

واتجه سيد الخلق إلى ربه يناجيه ،ويعرب عما يعتلج فى صدره من هم وأمل :

(اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم نصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم الغداة ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض) ولقد سبق تحدى أبى جهل لمحمد ﷺ والمسلمين معه (اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لايعرف فأحِنه[3] الغداة) .

وما رواه السدى كذلك :

وكان المشركون حين خرجوا إلى النبى ﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا :(اللهم انصر أعز الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين) .

(.. يوم التقى الجمعان) ﴿ **إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى . والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا ..** ﴾ .

وشاء قدر الله الغالب أن يكون اللقاء المباشر بين الفريقين ، على غير إرادة من المؤمنين ﴿ **وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** ﴾ .

وشاء قدر الله الغالب أن ترمى مكة بأفلاذ أكبادها في المعركة ، وهؤلاء أكابر المجرمين على رأس الحملة .

---

(١) الأنعام / ١١٢ . (٢) الفرقان / ٣١ . (٣) أحِنهم ، وأحنه . أى آته أجله وموته واهزمه .

وفى هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ البشرية ـ يتجه إمام الأنبياء إلى ربه يتضرع إليه راجيا أن يحكم بينه وبين عدوه .

وكانت دعوات نوح ، وموسى ، ولوط ، وشعيب ، وهود ، وصالح . فهل هذه هى الفرصة السانحة للقضاء على أكابر المجرمين ؟

لو راجعنا تاريخ السيرة كله ، لما وجدنا أعظم تضرعاً من هذا الموقف ، ولا إلحاحا من هذا المشهد .

(وما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه ..) .

محنة الطائف على أشد مافيها من قساوة . جاءه جبريل أمير الملائكة يستأذنه فى إبادة القوم (إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .. فقال :

« بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لايشرك به شيئا ») .(١)

ولم تطب نفسه عليه الصلاة والسلام فى إبادة القوم .

ومحنة أحد على أشد مافيها من هول ـ كان أعظم ماعبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسى :

« كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله ؟ » . (٢)

وما كان قوله عليه الصلاة والسلام كلما اشتد الكرب عليه والأذى من قومه إلا أن يقول « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

إلا ما تذكره كتب السيرة عن دعائه على قتلة شهداء بئر معونة ، حيث قنت شهراً يدعو عليهم ، إلى أن نزل قوله تعالى : ﴿ **ليس لك من الأمر شئ ، أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم ، فإنهم ظالمون** ﴾ (٣) فترك القنوت) . (٤)

بينما نرى اتجاه الرسول ﷺ يوم بدر من الدعاء على قريش بالهزيمة وطلب النصر الموعود ، فى أضخم لقاء وأكبر لقاء بين المشركين والمسلمين (ومازال يهتف بربه ـ أى

(١) حدائق الأنوار لابن الربيع الشيبانى ٣٤٣ . تحقيق عبد الله الأنصارى .
(٢) حدائق الأنوار ٥٤٣، ٥٤٤ .   (٣) آل عمران / ١٢٨ .
(٤) المصدر نفسه / ٥٠٤ ، ٥٠٦ .

يدعوه ـ حتى سقط رداؤه ، فأخذ أبو بكر بيده ، وقال : حسبك يارسول الله فقد ألححت على ربك ـ أى بالغت فى سؤاله ـ فخرج صلى الله عليه وسلم وعليه الدرع ، وهو يقول ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر** ﴾ [1] ثم أخذ ﷺ يعدل صفوفهم ، وأمرهم أن لا يحملوا حتى يأمرهم ، ثم رجع إلى العريش ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، فخفق خفقة ، وهو بالعريش ، ثم انتبه فقال : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع » ثم خرج إلى صف أصحابه ، فلما تزاحف الناس أخذ حفنة من الحصباء ، ورمى بها فى وجه المشركين ، وقال لأصحابه : شدوا باسم الله » وكانت الهزيمة فيهم بإذن الله ، ونصر الله عبده ، وأعز جنده .

وأنزل الله فى قسمة غنائم بدر سورة الأنفال ، وفيها أيضا ليعلموا أنه الناصر لهم ﴿ **فلم تقتلوهم . ولكن الله قتلهم** ﴾ ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ .

فهذه بدر إذن .

دعاء وتضرع ، حتى ليسقط الرداء .

وتأتى الاستجابة الفورية ... جند الله تعالى من الملائكة على رأسهم جبريل عليه السلام ، وميكائيل فى ألف من الملائكة مردفين ، وحفنة من الحصباء ، يرمى بها وجوه المشركين .

بينما المؤمنون من طرف آخر قد غشاهم النعاس أمنة منه ؛ ليقع قدر الله استجابة لدعاء نبيه .

وكدعوات موسى ، وشعيب ولوط وإبراهيم ويونس ـ كانت دعوة إمام الأنبياء فى بدر وكعصا موسى التى انفلق منها البحر ، والتى التقفت حبال وعصى السحرة ـ كانت كف الحصباء التى ألقيت فى وجوه القوم :

﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ .

وكما يقول أبو سفيان بن الحارث ، جوابا لسؤال أبى لهب عن أخبار معركة بدر : (والله ماهو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا ، يقتلوننا كيف شاؤوا ، ويأسروننا كيف

---

(١) القمر / ٤٥ ، ٤٦

تساؤوا ، وايم الله مع ذلك مالمت الناس ؛ لقينا رجالا بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ماتليق شيئا ، (١) ولا يقوم لها شئ) . (٢)

إنها بدر خصوصية من خصوصيات الرسول ﷺ ، ولكن شاءت إرادة الله تعالى أن تتم المعجزة ، ظاهراً بجهد بشرى ، وقتال ، ودماء ، وهم فى الحقيقة ستار لقدر الله فقد استشهد من المسلمين اثنا عشر رجلاً.

وكيف يسقط مقابل ذلك سبعون من المشركين فى القتل وسبعون فى الأسر؟

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ . (٣)

وشاء قدر الله أن يسقط أكابر المجرمين ضرعى بين يدى نبى الله .

(كان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعى ، فقالوا ماوراءك ؟ قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأمية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأبو البخترى بن هشام ، فلما جعل يعدد أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو قاعد فى الحجر : والله إن يعقل هذا ، فاسألوه عنى فقالوا : ومافعل صفوان بن أمية ؟ قال : هاهو ذاك جالساً فى الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا) .

لقد اعتبر صفوان أن الخبل والجنون قد نزل بالحيسمان ، وهو يعدد أشراف مكة الذين صرعوا فى بدر ، وكانت اللطمة له يوم تأكد من سلامة عقله ، وأنه أمام الحيسمان ، وأن أباه وأخاه من بين الصرعى فى بدر .

وهكذا عرضت سورة الأنفال غزوة بدر بصفتها معجزة من معجزات النبى ﷺ ، وكان الخطاب فيها من رب السموات والأرض لمحمد بن عبد الله ورسوله ، فى مناجاة حية استغرقت خمسا وسبعين آية ، وست وثلاثين خطاباً حيا لمحمد رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وما كنا لندرك هذه الصورة ، لولا العرض القرآنى للغزوة .

---

(١) تليق شيئا : تبقى شيئا . (٢) السيرة لابن هشام / م ٢ / ٢٩٠ . (٣) الأنفال / ١٢ ، ١٣ .

وكان يمكن أن تضيع هذه الصورة فى ثنايا الأحداث المتشعبة فى بدر ، كما تناولتها كتب السيرة . ومن هنا نجد لزاما علينا أن نجعل الانطلاق إلى السيرة أولاً وقبل كل شئ من العرض الربانى لها ، فهو القصد الأول الذى يعنينا ، وهو الذى خلده رب السموات والأرض فى كتابه الخالد ، وهو الذى يريد منا ربنا عز وجل أن نأتسى به .

وكما يقول صاحب الظلال رحمه الله :

(إنها المعركة كلها تدار بأمر الله ومشيئته ، وتدبيره وقدره وتسير بجند الله وتوجيهم وهى شاخصة بحركاتها وخطراتها من خلال العبارة القرآنية المصورة المتحركة المحيية للمشهد الذى كان ، كأنه يكون الآن !) [1]

(لقد أراد الله ـ وله الفضل والمنة ـ أن تكون ملحمة لاغنيمة ، وأن تكون موقعة بين الحق والباطل ليحق الحق ويثبته ، ويبطل الباطل ويزهقه ، وأراد أن يقطع دابر الكافرين ، فيقتل منهم من يقتل ، ويؤسر منهم من يؤسر ، وتذل كبرياؤهم ، وتخضد شوكتهم ، وتعلوا راية الإسلام وتعلوا معها كلمة الله ، ويمكن الله للعصبة المؤمنة التى تعيش بمنهج الله ، وتنطلق به لتقرر ألوهية الله فى الأرض ، وتحطمهم طاغوت الطواغيت ، وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لاعن جزاف ـ تعالى الله عن الجزاف ـ وبالجهد والجهاد ، وبتكاليف الجهاد ، ومعاناتها فى عالم الواقع وفى ميدان القتال) . [2]

وإن كنا نرى أن هذا الجانب من الجهد البشرى لم يكن مكافئاً لمواجهة العدو ، وكان بإمكان النبى ﷺ أن يجند لمواجهة الطاغوت أكثر بكثير من أهل بدر ، ولكن الإرادة الربانية التى استجابت لتضرع النبى ﷺ ، ودعائه ـ أعطت هذه المعجزة وهذه الهبة بأقل جهد بشرى ممكن ، وأقل تكاليف ممكنة . وكما قال سعد بن معاذ رضى الله عنه :

(يانبى الله ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله ونصرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن ورائنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله مانحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ماتخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويجاهدون معك) . [3]

والله تعالى جل شأنه لايريد أن ينتهى المسلمون جميعاً حتى تقوم دولتهم . فيعطيهم

---

(١) فى ظلال القرآن / ٣ / ١٤٨٣ .

(٢) المصدر نفسه / م٣ / ١٤٨١ .

(٣) السيرة لابن هشام جـ ٢ / ٢٦٠ .

عطاءه ويمنحهم منحته حين يصدقون جهدهم وتوكلهم عليه بأقل التكاليف ، وأقل الجهد . فالثلاثمائة والثلاثة عشر الذين خرجوا ـ هم عدة القافلة ، وليسوا عدة المعركة ، هم عدة العير ، وليسوا عدة النفير ، ومع ذلك ، وقد حضر من حضر ، وجاءت قريش بهذا الحشد الضخم ، وعلى رأسها أكابر مجرميها . وأحب عبد الله ورسوله أن يكون الحسم كله ضد هؤلاء العتاة ، فنزلت الملائكة من السماء استجابة لأمر الله ، وسدت ثغرات النقص البشرى كله ، وشاءت إرادة الله تعالى أن تكون بدر هى الفرقان بين الحق والباطل ؛ تلبية لنبيهم محمد ﷺ .

ونقف أمام نقطة أخيرة فى بدر . وهى موطن الأسوة والقدوة . حتى لايتراءى للمسلمين أن هذه المعجزة فى بدر لن تتكرر كرامة للمؤمنين على مدار التاريخ . هذه النقطة هى أن المستغيث والمتضرع والداعى لربه سبحانه محمد ﷺ ، ومع ذلك لم يأت النص القرآنى فى هذا المجال . بصيغة الخطاب للمفرد ، إنما جاء : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم . فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين .** ﴾ . هكذا استغاثة ... فاستجابة . لقد كانت حية أمام أعين المؤمنين فى اللحظة الحاسمة ، وجاءت عظمة الدرس القرآنى لتقول للمؤمنين . كاستغاثة محمد ﷺ واستجابة ربه سبحانه له . يمكن أن تتكرر الصورة وعلى مدار التاريخ .

﴿ **إذ تستغيثون ربكم . فاستجاب لكم** ﴾ .

ويمكن أن تتكرر الصورة كما رأيتموها شاخصة أمام أعينكم ، وليست خاصة بنبيكم وحده ، إنما هى لكم أيها المؤمنون على مدار التاريخ ، تستغيثون فيستجاب لكم . وإذا كان القلب البشرى لمحمد ﷺ يمثل أعظم عبودية فى الوجود ، فكانت إجابة الدعاء على أرفع مستوى عرفه التاريخ البشرى أن يقاتل ألف من الملائكة معه ـ فكل قلب بشرى صادق مخلص ، وكل قائد متجرد متذلل ماضٍ فى طريق العبودية لله ينال على هذا الأفق نفسه ، هذه الكرامة ، بمقدار مايقترب من عظمة العبودية النبوية . وإذن ، فالقائد الفذ . الذى يقود الحركة الإسلامية . التى تريد أن تغير هذا التاريخ ـ لابد أن يكون من جهة على المستوى الأرفع كفاءة وقدرة ، على أعتاب النبى ﷺ ، وأن يكون من جهة ثانية على المستوى الأرفع طاعة وعبودية ، وتذللاً لله سبحانه فى حسن الالتجاء إلى الله سبحانه ، على أعتاب النبى ﷺ ولابد أن يكون الجنود المسلمون كذلك فى كل جيل على صورة القدوة من جيل النبوة . وكلما اقتربوا أكثر كانت النتائج المتقاربة أكثر .

وإنها لمنة ربانية أن قال الله تعالى للمؤمنين على مدار التاريخ : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم**

فاستجاب لكم ﴾ ولم يقل (إذ تستغيث ربك فاستجاب لك) حتى لايتبادر إلى الذهن أنها تجربة لن تتكرر على مدار التاريخ نعم لن تتكرر بهذا المستوى ، ولكن قد تتكرر من هذا النوع ، وقد رأيناها كثيراً فى جيل النبوة وجيل الصحابة والتابعين فيما بعد .

وإنها لمنة ربانية . أن قال الله تعالى لنبيه : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ كما قال جل شأنه : ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم** ﴾ وكانت للمؤمنين فى السياق القرآنى قبل أن تكون لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

وأما عظمة هذه المعجزة فيبقى سيد رحمه الله هو الأقدر على وصفها إذ يقول : (نعم أراد الله للعصبة المسلمة أن تصبح أمة ، وأن تصبح دولة ، وأن يصبح لها قوة وسلطان ، وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها ، فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها ، وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة ، وليس بالمال والخيل والزاد ... إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التى لاتقف لها قوة العباد ، وأن يكون هذا كله عن تجربة واقعية ، لاعن مجرد تصور واعتقاد قلبى ، ذلك لتتزود العصبة المسلمة من هذه التجربة الواقعية لمستقبلها كله ، ولتوقن كل عصبة مسلمة أنها تملك فى كل زمان وفى كل مكان أن تغلب خصومها وأعداءها مهما تكن هى من القلة ويكن عدوها من الكثرة ومهما تكن هى من ضعف العدة المادية ، ويكن عدوها من الاستعداد والعتاد .. وماكانت هذه الحقيقة لتستقر فى القلوب كما استقرت بالمعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوة الطغيان .

وينظر الناظر اليوم ، وبعد اليوم ، ليرى الآماد المتطاولة بين ماأرادته العصبة المسلمة لنفسها يومذاك وماأراده الله لها ، بين ماحسبته خيراً لها ، وما قدره الله لها من الخير .. ينظر فيرى الآماد المتطاولة ، ويعلم كم يخطىء الناس حين يحسبون أنهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيراً مما يختاره الله لهم ، وحين يتضررون مما يريده الله لهم ، مما قد يعرضهم لبعض الخطر ، أو يصيبهم بشىء من الأذى ـ بينما يكن وراءه الخير الذى لايخطر لهم ببال ولا بخيال .

فأين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها مما أراده الله لها ؟ لقد كانت تمضى ـ لو كانت لهم غير ذات الشوكة ـ قصة غنيمة ، قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها ! فأما بدر فقد مضت فى التاريخ كله قصة عقيدة ، قصة نصر حاسم ، وفرقان بين الحق والباطل ، قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح المزودين بكل زاد ، والحق فى قلة من العدد ، وضعف فى الزاد والراحلة ، قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله ، وحين تتخلص من

ضعفها الذاتى ، بل قصة انتصار حفنة من القلوب من بينها الكارهون للقتال ! ولكنها ببقيتها الثابتة المستعلية على الواقع المادى وبيقينها فى حقيقة القوى وصحة موازينها ، قد انتصرت على نفسها ، وانتصرت على من فيها ، وخاضت المعركة والكفة راجحة رجحاناً ظاهراً فى جانب الباطل فقلبت بيقينها ميزانها الظاهر فإذا الحق راجح غالب).[1]

﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ [2].

---

(١) فى ظلال القرآن / م ٣ / ١٤٨١ ، ١٤٨٢ .

(٢) الأعراف / ١١٨ ، ١١٩ .

غزوة بنى قينقاع

انتهت بدر . وكانت عزاً للمسلمين وذلاً للمشركين ، وبدأت ردود الفعل العتيقة تظهر على الساحة العربية .

يقول الإمام ابن يوسف الصالحى الشامى :

(وقد كان الكفار بعد الهجرة مع النبى ﷺ على ثلاثة أقسام : قسم وادعهم على ألا يحاربوه ولايوالوا عليه عدوه ، وهم طوائف اليهود الثلاثة : قريظة والنضير وبنى قينقاع ، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة : وهم قريش ، وقسم تاركوه وانتظروا مايؤول إليه أمره كطوائف من العرب ، فمنهم من كان يحب ظهوره فى الباطن كخزاعة ، وبالعكس كبنى بكر ، ومنهم من كان معه ظاهراً ومع عدوه باطناً وهم المنافقون) .[1]

بين أيدينا ثلاثة نصوص قرآنية ذات صلة وثيقة بغزوة بنى قينقاع :

النص الأول :

قوله تعالى : ﴿ .. **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين**﴾ [2]

يقول ابن جرير :

(يقول تعالى ذكره : وإما تخافن يامحمد من عدو لك بينك وبينه عهد وعقد أن ينكث عهده وينقض عقده ، ويغدر بك ، وذلك هو الخيانة والغدر ﴿ **فانبذ إليهم على سواء** ﴾ يقول : فناجزهم بالحرب ، وأعلمهم قبل حربك إياهم ـ أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم ، بما كان عن ظهور آثار الغدر والخيانة منهم حتى تصير أنت وهم على سواء فى العلم بأنك لهم محارب ، فيأخذوا للحرب آلتها ، وتبرأ من الغدر ﴿ **إن الله لايحب الخائنين** ﴾ : الغادرين بمن كان منه أمان وعهد بينه وبينه ، أن يغدر به ، فيحاربه قبل إعلامه إياه : أنه له حرب ، وأنه قد فاسخه العقد .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى / ٤ / ١٣ .

(٢) الأنفال / ٥٨ .

فإن قال قائل : وكيف يجوز نقض العهد بخوف الخيانة ، والخوف ظن لايقين ؟ قيل : إن الأمر بخلاف ما إليه ذهبت ، وإنما معناه : إذا ظهرت آثار الخيانة من عدوك ، وخفت وقوعهم بك ، فالق إليهم مقاليد السلم ، وآذنهم بالحرب ، وذلك كالذى كان من بنى قريظة ...) [1].

وهكذا نلحظ أن الإمام الطبرى لم يذكر بنى قينقاع مثالاً على ذلك وإنما ذكر بنى قريظة .

يقول القرطبى : (قوله تعالى : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين .** ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة** ﴾ أى غشاً ونقضاً للعهد . ﴿ **فانبذ إليهم على سواء** ﴾ وهذه الآية نزلت فى بنى قريظة وبنى النضير ، وحكاه الطبرى عن مجاهد . وقال ابن عطية : والذى يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بنى قريظة : انقضى عند قوله : ﴿ **فشرد بهم من خلفهم** ﴾ ثم ابتدأ تبارك وتعالى فى هذه الآية يأمره فيما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة ، فتترتب فيهم هذه الآية (وبنو قريظة لم يكونوا فى حد من تخاف خيانته) وإنما كانت خيانتهم ظاهرة مشهورة .

الثانية : قال ابن العربى : فإن قيل كيف يجوز نقض العهد مع خوف الخيانة ، والخوف ظن لايقين معه ؟ فكيف يسقط يقين العهد مع ظن الخيانة ؟ فالجواب من وجهين :

أحدهما ــ أن الخوف قد يأتى بمعنى اليقين ، كما قد يأتى الرجاء بمعنى العلم ، قال الله تعالى : ﴿ **مالكم لاترجون لله وقارا** ﴾ .

ثانيهما : إذا ظهرت آثار الخيانة وثبتت دلائلها ، وجب نبذ العهد لئلا يوقع التمادى عليه فى الهلكة ، وجاز إسقاط اليقين هنا ضرورة ، وأما إذا علم اليقين فيستغنى عن نبذ العهد إليهم ، وقد سار النبى ﷺ إلى مكة عام الفتح : لما اشتهر منهم نقض العهد من غير أنه ينبذ إليهم عهدهم ، والنبذ : الرمى والرفض ، وقال الأزهرى : معناه إذا عاهدت قوما فعلمت منهم النقض بالعهد فلا توقع بهم سابقاً إلى النقض حتى تلقى إليهم أنك قد نقضت العهد والموادعة ، فيكونوا فى علم النقض مستويين ، ثم أوقع بهم . قال النحاس : هذا من معجز ماجاء فى القرآن مما يوجد فى الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه ، والمعنى :

---

(١) تفسير الطبرى / ١٠ / ١٩ ، ٢٠ .

وإما تخافن من قوم بينك وبينهم عهد خيانة فانبذ إليهم العهد ، أى قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم ، وأنا مقاتلكم ؛ ليعلموا ذلك ، فيكونوا معك في العلم سواء ، ولاتقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك ؛ فيكون ذلك خيانة وغدراً . ثم بين هذا بقوله : ﴿ **إن الله لايحب الخائنين** ﴾[1] .

وهكذا نرى أن القرطبى ، وإن وافق ابن جرير فى تفسير الآية . لكنه لم يوافقه فى مدلولها على بنى قريظة والنضير ، كما روى عن ابن عطية ، وذلك لأن نقض قريظة للعهد كان واضحاً بيناً لا لبس فيه ، وقد أعلنوه ومالؤوا كفار قريش ، وقالوا : من محمد ؟ لا عهد بيننا وبينه .

لكنا لانرى صحة قول القرطبى عن ابن جرير : فى أنه نقل هذا الرأى عن مجاهد .

فلم يقل الطبرى فيما رواه عن مجاهد ، وهذه الآية نزلت فى بنى قريظة وبنى النضير .

فإذا عدنا إلى الطبرى نراه يقول :

(ذكر من قال ذلك : حدثنى محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم : قال : حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد . ﴿ **فانبذ إليهم على سواء** ﴾ قال قريظة) .[2]

والطبرى يمثل للحالة التى هى نبذ للعهد ببنى قريظة وبنى النضير ، ولم يقل أنها نزلت فيهم . واستأنس برأى مجاهد فى أن المقصود قريظة .

وبقى الأمر عائماً فى التفسير ين . إذ اتفقا على المعنى ، واختلفا على الحالة التى تمثل هذا المعنى .

وفى العودة إلى الدر المنثور للسيوطى نجده يحرر الأمر أكثر ، فينقل عن مجاهد أن وصف بنى قريظة إنما كان فى الآية التى سبقت هذه الآية حيث يقول :

(وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ عم مجاهد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ **الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم** ﴾ قال : قريظة يوم الخندق مالؤوا على محمد ﷺ أعداءه) .[3]

---

(١) تفسير القرطبى / ٤ / ٨ / ٣١ . (٢) تفسير الطبرى / ١٠ / ٢١ . (٣) الدر المنثور / م ٤ / جـ ٤ / ٨١ .

ولا شك أن الالتباس قد وقع فى هذه المعانى بين من يرى أن مدلول هذه الآيات متصل مع بعضها أو منفصل .

فالذين يرون اتصاله . يرون أن المعنى والحالة واحدة فى قوله عز وجل : ﴿ **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون ، الذين عاهدتم منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لايتقون . فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لايحب الخائنين** ﴾ . (١)

والإمام الطبرى على هذا الرأى فى أن الآيات تعالج موضوعاً واحداً وحالة واحدة ، بينما يفصل القرطبى بين حالتين :

الحالة الأولى : تمثلها الآيات حتى قوله تعالى : ﴿ **فشرّد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون** ﴾ .

الحالة الثانية : ويمثلها قول الله عز وجل : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة ...** ﴾ .

ودليل ذلك ماسبق أن نقلناه عن القرطبى فيما ساقه عن ابن عطية :

(والذى يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بنى قريظة قد انقضى عند قوله : ﴿ **فشرد بهم من خلفهم ...** ﴾ ثم ابتدأ تبارك وتعالى فى هذه الآية يأمره فيما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منهم خيانة ، فتترتب فيهم هذه الآية . وبنو قريظة لم يكونوا فى حد من تخاف خيانته ، وإنما كانت خيانتهم ظاهرة مشهورة) .

غير أن السيوطى ينقل نصًا صريحاً فى تفسيره ، فى أن هذه الآية الثانية ﴿ **وإما تخافن ....** ﴾ إنما نزلت فى بنى قريظة ، إذ يقول :

وأخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب رضى الله عنه قال : « دخل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ فقال : قد وضعت السلاح ومازلنا فى طلب القوم ؟ فاخرج فإن الله قد أذن لك فى قريظة ، وأنزل فيهم ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة ...** ﴾ الآية) (٢) .

ورواية أبى الشيخ عن ابن شهاب تفتقر إلى السند للحكم عليها . وهذا كل ما أوردته كتب التفسير فى هذا الموضوع . أما كتب السيرة ، فقد أوردت نزول هذه الآية فى بنى قينقاع .

---

(١) الأنفال / ٥٥ ـ ٥٨ .

(٢) الدر المنثور / ٤ / ٨٣ .

ومدار الحادثة فى كتب السيرة على المغازى للواقدى . إذ أن كل من أوردها إنما نقلها بنصها من الواقدى دون أن يعزوها إليه ، كما وردت فى إمتاع الأسماع للمقريزى ، وفى سبيل الهدى والرشاد للصالحى الشامى .

ومع أن الواقدى غير ثقة فى الحديث . لكنه مجمع على إمامته فى التاريخ والسير . وقد أورد هذه الحادثة كما يلى :

(فحدثنى محمد عن الزهرى عن عروة [1] قال : إن رسول الله ﷺ لما رجع من بدر حسدوا فأظهروا الغش ، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين** ﴾ قال . فلما فرغ جبريل ، قال له رسول الله ﷺ : « فأنا أخافهم » فسار رسول الله ﷺ بهذه الآية حتى نزلوا على حكمه ، ولرسول الله ﷺ أموالهم ولهم الذرية والنساء) . [2]

وحين نعود إلى تفاصيل الغزوة التى اتفق ابن إسحاق والواقدى عليها نجد أن الأقرب إلى نص الآية كما أورد ذلك الطبرى هو أن تكون قد نزلت في بنى قينقاع .

أما ماذكره ابن إسحاق فهو :

(وقد كان فيما بين ذلك من غزو الرسول ﷺ أمر بنى قينقاع . وكان من حديث بنى قينقاع أن رسول الله ﷺ . جمعهم بسوق بنى قينقاع ، ثم قال : « يامعشر يهود ، احذروا من الله مثل مانزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتبكم وعهد الله إليكم » . قالوا : يامحمد إنك ترى أنا قومك : لايغرنك أنك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) . [3]

بينما نجد تفصيلاً دقيقاً ، وأحداثًا متتابعة عند الواقدى تجلو الصورة أكثر فأكثر .

(وغزوة قينقاع يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً حاصرهم النبى ﷺ إلى هلال ذى القعدة .

حدثنى عبد الله بن جعفر عن الحارث بن الفضيل عن ابن كعب القرظى [1] قال :

---

(١) محمد بن عبد الله بن مسلم . ابن أخى الزهرى صدوق له أوهام . الزهرى : الفقيه الحافظ . عروة : ثقة فقيه مشهور .

(٢) المغازى للواقدى / ١ / ١٨٠ . (٣) السيرة النبوية لابن هشام .

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وادعته يهود كلها ، وكتب بينه وبينها كتاباً ، وألحق رسول الله ﷺ كل قوم بحلفائهم ، وجعل بينه وبينهم أماناً ، وشرط عليهم شروطاً ، فكان فيما شرط ـ ألا يظاهروا عليه عدواً . فلما أصاب رسول الله ﷺ أصحاب بدر ، وقدم المدينة . بغت يهود ، وقطعت ماكان بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد . فأرسل رسول الله ﷺ إليهم فجمعهم ثم قال :

« يامعشر يهود أسلموا فوالله إنكم لاتعلمون أنى رسول الله قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش » .

فقالوا : يامحمد لا يغرنَّك من لقيت ، إنك قهرت قومًا أغماراً (٢) ، وإنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا . فبينا هم على ماهم عليه من إظهار العداوة ونبذ العهد جاءت إمرأة نزيعة (٣) من العرب تحت رجل من الأنصار إلى سوق بني قينقاع ، فجلست عند صائغ فى حلى لها ، فجاء رجل من يهود بنى قينقاع من ورائها ولاتشعر فَخلَّ (٤) درعها إلى ظهرها بشوكة ، فلما قامت المرأة بدت عورتها ، فضحكوا منها . فقام إليه رجل من المسلمين فاتَّبعهُ فقتله ، فاجتمعت بنو قينقاع وتحايشوا (٥) فقتلوا الرجل ، ونبذوا العهد إلى النبى ﷺ وحاربوا وتحصنوا فى حصنهم ، فسار إليهم رسول الله ﷺ . فكانوا أول من سار إليه رسول الله ﷺ ، وأجلى يهود قينقاع ، وكانوا أول يهود حاربت) (٦) .

واختيار بنى قينقاع خاصة لتذكيرهم بالله والإسلام مرتبط ارتباطاً وثيقاً بإسلام زعيمهم عبد الله بن سلام رضى الله عنه . كما أورده ابن إسحاق :

قال : (وكان من حديث عبدالله بن سلام كما حدثنى بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم وكان حبراً عالماً قال :

لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف (٧) له ، فكنت مسراً لذلك ، صامتاً عليه ، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما نزل بقباء فى

---

(١) عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة (ليس به بأس) ، الحارث بن فضيل (ثقة) محمد بن كعب القرظى (ثقة عالم) .

(٢) الأغمار ج غمر وهو الجاهل .

(٣) النزيعة : المرأة التى تزوج فى غير قومها فتنقل .

(٤) وخلَّ : جمع بين طرفى الشيء .

(٥) تحايشوا : جاؤوه من حواليه .

(٦) المغازى للواقدى / ١ / ١٧٦ ـ ١٧٨ .

(٧) نتوكف : نترقب ونتوقع .

عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبَّرتُ : فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيَّبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً مازدت . قال : فقلت لها : أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بُعث به . قال . فقالت : يابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة (١) قال . قلت لها : نعم . قالت : فذاك إذاً . قال : ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتى فأسلموا .

قال : وكتمت إسلامى عن يهود ، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله إن يهود قوم بهت (٢) . وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك ، وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى ، حتى يخبروك كيف أنا فيهم ، قبل أن يعلموا بإسلامى ، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى . قال : فأدخلنى رسول الله ﷺ فى بعض بيوته ، ودخلوا عليه ، فكلموه وساءلوه ، ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم ؟

قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا .

قال : فلما فرغوا من قولهم خرجت إليهم ، فقلت لهم :

يامعشر يهود اتقوا الله ، واقبلوا ماجاءكم به . فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله ﷺ وأؤمن به ، وأصدقه ، وأعرفه ، فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا بى . قال : فقلت لرسول الله ﷺ : ألم أخبرك يارسول الله أنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور !

قال : فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث . فحسن إسلامها) (٣) .

فقد كان يهود بنو قينقاع مؤهلين أكثر من غيرهم للدخول فى هذا الدين بعد أن دخل فيه سيدهم عبد الله بن سلام ، غير أنهم نبذوا العهد وهددوا وتوعدوا ، فحق نبذ العهد إليهم على سواء .

---

(١) نفْس الساعة : الفتن المؤذنة بقيام الساعة .
(٢) البهت : الباطل .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢٠ / ١١٨ .

النص الثانى :

يقول تعالى ﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة . يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** ﴾ . (١)

وإذا كانت الآيتان السابقتان محل خلاف فى كونهما فى بنى قريظة أو بنى قينقاع . فإن هاتين الآيتين ليستا محل خلاف عند المفسرين .

يقول ابن جرير رحمه الله :

(حدثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق قال حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال : (لما أصاب رسول الله قريشاً يوم بدر ، فقدم المدينة ، جمع يهود فى سوق بنى قينقاع فقال : يامعشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً ، فقالوا يامحمد لاتغرنك نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغمارا لايعرفون القتال ... إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تأت مثلنا ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهم . ﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد** إلى قوله .... **لأولى الأبصار** ﴾) . (٢)

(وقال : حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال : مانزلت هذه الآيات إلا فيهم ﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد** إلى ... **لأولى الأبصار** ﴾) . (٣)

أما ابن كثير . فيوجز ما ورد من أقوالٍ فى تفسيرها تبين الآيتين . فيقول :

وقال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير : يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم فى العدد رأى أعينهم ، أى جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم ، وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة . وهى أن المشركين بعثوا عمير بن سعد يومئذ قبل القتال يحرز لهم المسلمين ، فأخبرهم بأنهم ثلثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً وهكذا كان الأمر . كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً ، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص

---

(١) آل عمران / ١٢ ، ١٣ .
(٢) تفسير الطبرى / م ٣ / جـ ٣ / ١٢٨ .
(٣) المصدر نفسه / ١٢٩ .

الملائكة وسادتهم .

والقول الثاني : أن المعنى في قوله تعالى ﴿ **يرونهم مثليهم رأى العين** ﴾ أى يرى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم ، أى ضعفيهم في العدد ومع هذا نصرهم الله عليهم ، وهذا لاإشكال فيه على مارواه العوفى عن ابن عباس أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلاً ، وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية ، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس ، وخلاف المعروف عند الجمهور أن المشركين كانوا مابين تسعمائة إلى ألف كما رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ . لما سأل ذلك العبد الأسود لبنى الحجاج عن عدة قريش ــ قال : كثير . قال : « كم ينحرون كل يوم » ؟ قال : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، قال النبى ﷺ « القوم مابين تسعمائة إلى ألف » . وروى أبو إسحاق السبيعى ، عن جارية ، عن على رضى الله عنه قال : كانوا ألفاً ، وكذا قال ابن مسعود . والمشهور أنهم كانوا بين التسعمائة إلى الألف ، وعلى كل تقديرٍ فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين ، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم ؛ لكن وجه ابن جرير هذا وجعله صحيحًا كما تقول : عندى ألف ، وأنا محتاج إلى مثليها ، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف ، كذا قال ؛ وعلى هذا فلا إشكال .

لكن بقى سؤال آخر وهو وارد على القولين ، وهو أن يقال : ماوجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر ﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا** ﴾ . فالجواب أن هذا كان في حالة . والآخر كان في حالة أخرى ، كما قال السدى عن الطيب عن ابن مسعود في قوله تعالى ﴿ **قد كان لكم آية فى فئتين التقتا** ﴾ الآية ؛ قال : هذا يوم بدر . قال عبد الله بن مسعود : وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ، ثم نظرنا إليهم فمارأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً ، وذلك قوله تعالى﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقللكم فى أعينهم** ﴾، وقال أبو إسحاق عن أبى عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبى : تراهم سبعين : قال : أراهم مائة . قال : فأسرنا رجلاً منهم ، فقلنا : كم كنتم ؟ قال : ألفاً . فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم ، أى أكثر منهم بالضعف ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم عز وجل ، ورأى المشركون المسلمين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ؛ ثم لما حصل التصاف ، والتقى الفريقان قلَّل الله هؤلاء في أعين هؤلاء ، وهؤلاء في أعين هؤلاء ؛ ليقدم كل منهما على الآخر ﴿ **ليقضى الله أمراً كان مفعولا** ﴾ أى ليفرق بين الحق

والباطل ، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان ، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين ، كما قال تعالى ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة** ﴾ [1] وقال هاهنا ﴿ **والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار** ﴾ [2] أى أن فى ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدى به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجارى بنصر عباده المؤمنين فى هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .) [3].

ونقف على تفصيل دقيق فى المغازى للواقدى بالسند السابق ، يقودنا هذا التفصيل إلى النص القرآنى الثالث .

يقول الواقدى : فحدثنى محمد بن عبد الله عن الزهرى عن عروة ، قال :

(لما نزلت هذه الآية ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ [4] فسار إليهم رسول الله ﷺ بهذه الآية .

قالوا : فحصرهم فى حصنهم خمس عشرة ليلة أشد الحصار ؛ حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب ، قالوا : أفننزل وننطلق ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا ، إلا على حكمى ! » فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فأمر بهم فربطوا ، قال : فكانوا يكتَّفون كتافاً ، قالوا : واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السالمى . قال : فمرَّ بهم ابن أبى وقال : حلُّوهم ! فقال المنذر : أتحلُّون قوماً ربطهم رسول الله ﷺ ؟ لا والله لايحلُّهم رجل إلا ضربت عنقه ، فوثب ابن أبى إلى النبى ﷺ ، فأدخل يده فى جنب درع النبى ﷺ من خلفه فقال : يامحمد ، أحسن فى موالىَّ ! فأقبل عليه النبى ﷺ غضبان . متغير الوجه ، فقال « ويلك ، أرسلنى » فقال : لا أرسلك حتى تحسن فى موالىَّ . أربع مائة دراع وثلثمائة حاسر منعونى يوم الحدائق ويوم بعاث من الأحمر والأسود ، تريد أن تحصدهم فى غداة واحدة ؟ يامحمد ، إنى امرؤ أخشى الدوائر ! قال رسول الله ﷺ : « خلوهم ، لعنهم الله ، ولعنه معهم ! » فلما تكلم ابن أبى فيهم تركهم رسول الله ﷺ من القتل ، وأمر بهم أن يجلوا من المدينة ، فجاء ابن أبى بحلفائه معه ، وقد أخذوا بالخروج يريد أن يكلم رسول الله ﷺ أن يقرهم فى ديارهم ، فيجد على باب النبى ﷺ عويم بن ساعدة فذهب ليدخل فردَّه عويم وقال : لاتدخل حتى يؤذن رسول الله ﷺ لك . فدفعه ابن أبى ، فغلظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أبى بالجدار فسال الدم ، فتصايح حلفاؤه من يهود ، فقالوا :

---

(١) آل عمران / ١٢٣ . (٢) آل عمران / ١٣ .

(٣) البداية والنهاية / ٢/ ١٦ . (٤) الأنفال / ٥٣ .

أبا الحباب ، لانقيم أبداً بدار أصاب وجهك فيها هـذا ، لا نقدر أن نغيره ، فجعل ابن أبى يصيح عليهم ، وهو يمسح الدم عن وجهه ، يقول : ويحكم ، قروا ، فجعلوا يتصايحون : لانقيم أبداً بدار أصاب وجهك فيها هذا ، لانستطيع له غيراً ! ولقد كانوا أشجع يهود ، وقد كان ابن أبى أمرهم أن يتحصنوا ، وزعم أنَّه سيدخل معهم ، فخذلهم ولم يدخل معهم ، ولزموا حصنهم فما رموا بسهم ولا قاتلوا حتى نزلوا على صلح رسـول الله ﷺ وحكمـه ، وأمـوالهـم لرســول الله ﷺ ، فلما نزلوا وفتحـوا حصـونهم . كان محمد بن مسلمة هو الذى أجلاهم ، وقبض أموالهم . وأخذ رسول الله ﷺ من سلاحهـم ثلاث قسى ، قـوس تدعى الكتـوم كسرت بأحــد ، وقــوس تدعى الروحاء ، وقوس تدعى البيضاء ؛ وأخذ درعين من سلاحهم ، درعاً يقال له الصفدية ، وأخرى فضة . وثلاثة أسياف سيف قلعى [1] ، وسيف يقال له بتار ، وسيف آخر ، وثلاثة أرماح ، ووجدوا فى حصونهم سلاحاً كثيراً وآله للصياغة ، وكانوا صاغة .

قال محمد بن مسلمة : فوهب لى رسول الله ﷺ درعاً من دروعهم ، وأعطى سعد بن معاذ درعاً له مذكورة ، يقال له السحل ، ولم يكن لهم أرضون ولا قراب — يعنى مزارع — وخمَّس رسول الله ﷺ ماأصاب منهم ، وقسم مابقى على أصحابه ، وأمر رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت أن يُجليهم ، فجعلت قينقاع تقول :

ياأبا الوليد من بين الأوس والخزرج — ونحن مواليك — فعلتَ هذا بنا ؟

قال لهم عبادة : لما حاربتم جئت لرسول الله ﷺ ، فقلت : يارسول الله ، إنى أبرأ إليك منهم ومن حلفهم ، وكان ابن أبى وعبادة بن الصامت منهم بمنزلة واحدة فى الحلـف ، فقال عبد الله بن أبى : تبرأت من حلف مواليك ؟ ماهذه بيدهم عندك ! فذكره مواطن قد أبلوا فيها ، فقال عبادة : أبا الحباب ، تغيرت القلوب ، ومحا الإسلام العهود ؛ أما والله إنك لمعصم [2] بأمر سترى غِبَّه [3] غداً ! فقالت قينقاع : يامحمد إن لنا ديناً فى الناس ، قال النبى ﷺ : « تعجلوا وضعوا » وأخذهم عبادة بالرحيل والإجلاء ، وطلبوا التنفس [4] فقال لهم : ولاساعة من نهار ؛ لكم ثلاث لا أزيدكم عليها ! هذا أمر رسول الله ﷺ ولو كنت أنا مانفَّستكم .

فلما مضت ثلاث خرج فى آثارهم حتى سلكوا إلى الشام ، وهو يقول : الشَّرف

(١) قلَعى : نسبة إلى قلعة موضع فى البادية .
(٢) إنك لمعصم بأمر : متمسك بأمر .
(٣) غِبُّه : عاقبته .
(٤) التنفس : الإمهال .

الأبعد [١] ، الأقصى فأقصى ، ! وبلغ خلف ذُباب [٢] ثم رجع ولحقوا بأذرعات) [٣] . [٤]) .

النص الثالث :

يقول تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة . فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ماأسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ . [٥]

(روى ابن جرير عن الزهرى قوله :

لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من يهود : آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر ، فقال مالك بن الصيف : غرّكم أن أصبتم رهطاً من قريش لاعلم لهم بالقتال ، أما لو أسررنا العزيمة أن نستجمع عليكم ـ لم يكن لكم يد أن تقاتلونا ، فقال عبادة : يارسول الله ، إن أوليائى من اليهود كانت شديدة أنفسهم كثيرا سلاحهم ، شديدة شوكتهم ، وإنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم ، ولامولى لى إلا الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبى : لكنى لا أبرأ من ولاء يهود ، إنى رجل لابد لى منهم ، فقال رسول الله ﷺ : ياأبا حباب أرأيت الذى نفست به من ولاء يهود على عبادة ، فهو لك دونه . قال : إذن أقبل .

---

(١) الشرف الابعد : مسافة ميل أو ميلين . أو الجبل الأبعد والأقصى خارج المدينة .

(٢) خلف ذُباب : خلف جبل ذباب وهو جبل بالمدينة .

(٣) أزرعات : بلد فى أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان ويسمى اليوم درعا.

(٤) المغازى للواقدى / ١ / ١٧٦ ـ ١٨٠ .

(٥) المائدة / ٥١ ـ ٥٦ .

فأنزل الله تعالى ذكره : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء...** ﴾)[1] .

ثم يرجح ابن جرير رحمه الله الرأى بعد روايات عدة بقوله :

(والصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً أو حلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله ، وأخبر أنه من اتخذهم نصيراً ، أو حليفاً أو ولياً من دون الله ورسوله والمؤمنين ـ فإنه منهم فى التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين . وأن الله ورسوله منه بريئان . وقد يجوز أن تكون الآية نزلت فى شأن عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبى بن سلول وحلفائهما من اليهود ، ويجوز أن تكون نزلت فى أبى لبابة بسبب فعله فى بنى قريظة ، ويجوز أن تكون نزلت فى شأن الرجلين اللذين ذكر السدى أن أحدهما هم باللحاق بدهلك اليهودى والآخر بنصرانى الشام ، ولم يصح بواحد من هذه الأقوال الثلاثة خبر يثبت بمثله حجة ، فيسلم لصحته بالقول بأنه كما قيل فإذا كان كذلك ، فالصواب أن يحكم لظاهر التنزيل بالعموم .... غير أنه لاشك أن الآية نزلت فى منافق كان يوالى يهود أو نصارى خوفاً على نفسه من دوائر الدهر ، لأن الآية التى بعد تدل على ذلك وذلك قوله ﴿ **فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة** ﴾)[2] .

وإن كان الإمام ابن جرير رحمه الله لايرجح نزول هذه الآيات بهذه المناسبة لكن ابن إسحاق فى السيرة يؤكد هذا المعنى فيقول :

(وحدثنى أبى إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبى بن سلول ، وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان أحد بنى عوف له من حلفهم مثل الذى لهم من عبد الله بن أبى فخلعهم إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله عز وجل ، وإلى رسوله ﷺ من حلفهم ، وقال : يارسول الله ، أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم ، قال . ففيه وفى عبد الله بن أبى نزلت هذه القصة من المائدة ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض** ،

---

(١) تفسير الطبرى / ٦ / ١٧٨ .

(٢) تفسير الطبرى / م ٤ / ج ٦ / ١٧٧ ـ ١٧٩ .

ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لايهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض (أى لعبد الله بن أبى . وقوله : إنى أخشى الدوائر) **يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة . فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ماأسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهولاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ . ثم القصة إلى قوله تعالى : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهو راكعون** ﴾ وذكر لتولى عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا ، وتبرئه من بنى قينقاع وحلفهم وولايتهم : ﴿ **ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾)[1] .

وروى الإمام أحمد عن أسامة بن زيد قال :

دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبى فى مرضه نعوده ، فقال له النبى ﷺ : « قد كنت أنهاك عن حب يهود ، فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات »[2] .

أما القرطبى وابن جرير . فقد أوردوا أن هذه الآيات . ﴿ **يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ...** ﴾ أنها نزلت فى المرتدين ، وقتال أبى بكر لهم ، أو فى الأنصار ، أو فى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أو فى أهل اليمن .

يقول الإمام القرطبى :

(**الأولى** : قوله تعالى ﴿ **فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه** ﴾ فى موضع النعت قال الحسن وقتادة وغيرهما : نزلت فى أبى بكر الصديق وأصحابه ، وقال السدى : نزلت فى الأنصار ، وقيل : هى إشارة إلى قوم لم يكونوا موجودين فى ذلك الوقت ، وأن أبا بكر قاتل أهل الردة بقوم لم يكونوا وقت نزول الآية ، وهم أحياء من كندة وبجيلة ومن أشجع ، وقيل : إنها نزلت فى الأشعريين ؛ ففى الخبر أنها لما نزلت قدم بعد ذلك بيسير سفائن الأشعريين ، وقبائل اليمن عن طريق البحر ، فكان لهم بلاء فى الإسلام فى زمن رسول الله ﷺ ، وكانت عامة فتوح العراق فى زمن عمر رضى الله عنه على يدى قبائل اليمن ، هذا أصح ماقيل فى نزولها ، والله أعلم .

وروى الحاكم أبو عبدالله فى « المستدرك » بإسناده أن النبى ﷺ أشار إلى أبى موسى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٤٩ ــ ٥٠ .

(٢) الإمام أحمد / ٥ / ٢٠١ .

الأشعرى لما نزلت هذه الآية : فقال : « هم قوم هذا »)[1] .

ونتابع مع الإمام القرطبى فى شرح بعض فقرات الآيات :

(**الثانية** قوله تعالى ﴿ **ومن يتولهم منكم** ﴾ أى يعضدهم على المسلمين ﴿ **فإنه منهم** ﴾ بين تعالى أن حكمه كحكمهم ، وهو يمنع إثبات الميراث للمسلم من المرتد ، وكان الذى تولاهم ابن أبى . ثم هذا الحكم باق إلى يوم القيامة فى قطع الموالاة ، قد قال تعالى : ﴿ **ولاتركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار** ﴾[2] وقال تعالى فى آل عمران ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ **لا تتخذوا بطانة من دونكم** ﴾ وقد مضى القول فيه ، وقيل : إن معنى ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى فى النصرة . ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ شرط وجوابه ، أى لأنه قد خالف الله تعالى ورسوله كما خالفوا ، ووجبت معاداته كما وجبت معاداتهم ، ووجبت له النار كما وجبت لهم ، فصار منهم أى من أصحابهم)[4] .

وبصدد قوله عز وجل ﴿ **أذلة على المؤمنين** ﴾ لآخر الآية يقول رحمه الله .

(**الثالثة** ــ قوله تعالى : ﴿ **أذلة على المؤمنين** ﴾ . « أذلة » نعت لقوم ، وكذلك « أعزة » أى يرأفون بالمؤمنين ويرحمونهم ويلينون لهم ، من قولهم : دابة ذلول أى تنقاد سهلة ، وليس من الذل فى شىء . ، ويغلظون على الكفار ويعادونهم ، قال ابن عباس : هم للمؤمنين كالوالد للولد ، والسيد للعبد ، وهم فى الغلظة على الكفار كالسبع على فريسته ، قال تعالى : ﴿ **أشداء على الكفار رحماء بينهم ...** ﴾ .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ **يجاهدون فى سبيل الله** ﴾ فى موضع الصفة أيضاً ﴿ **ولايخافون لومة لائم** ﴾ بخلاف المنافقين يخافون الدوائر ، فدل بهذا على تثبيت إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم لأنهم جاهدوا فى الله عز وجل فى حياة رسول الله ﷺ ، وقاتلوا المرتدين بعده ، ومعلوم أنه من كان فيه هذه الصفات فهو ولى لله تعالى . وقيل : الآية عامة فى كل من يجاهد الكفار إلى قيام الساعة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله** ﴾ قال جابر بن عبد الله : قال عبد الله بن سلام للنبى ﷺ : إن قومنا من بنى قريظة والنضير قد هجرونا وأقسموا ألا يجالسونا ،

---

(١) تفسير القرطبى / م٣ / ج٦ / ٢٢٠ .
(٢) هود / ١١٣ .
(٣) آل عمران / ٢٨ .
(٤) تفسير القرطبى / م٣ / ج ٦ / ٢٢٠ ، ٢٢١ .

ولانستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل ، فنزلت هذه الآية ، فقال : رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء . ﴿ والذين ﴾ عام فى جميع المؤمنين .... قال النحاس . وهذا قول بيّن لأن « الذين » لجماعة)[1].

ويحدثنا الشهيد سيد قطب رحمه الله فى ظلال القرآن عن هذا الموضوع بقوله :

﴿ يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم . إن الله لايهدى القوم الظالمين ﴾ .

(﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ إنها حقيقة لاعلاقة لها بالزمن ، لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء ، إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة فى أى أرض ولا فى أى تاريخ ، وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصداق هذه القولة الصادقة ، لقد ولى بعضهم بعضاً فى حرب محمد ﷺ ـ والجماعة المسلمة فى المدينة ... وولى بعضهم بعضاً فى كل فجاج الأرض على مدار التاريخ .. ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة ، ولم يقع فى هذه الأرض إلا ماقرره القرآن الكريم فى صيغة الوصف الدائم ، لا الحادث المفرد ، واختيار الجملة الإسمية على هذا النحو .. ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ ليست مجرد تعبير ! إنما هى اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل .

ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها ... فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض ، فإنه لايتولاهم إلا من هو منهم . والفرد الذى يتولاهم من الصف المسلم يخلع نفسه من الصف المسلم ، ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف « الإسلام » وينضم إلى الصف الآخر . لأن هذه هى النتيجة الطبيعية الواقعية .

﴿ ومن يتوله منكم فإنه منهم ﴾ :

وكان ظالماً لنفسه ولدين الله وللجماعة المسلمة ، وبسبب من ظلمه هذا يدخله الله فى زمرة اليهود والنصارى الذين أعطاهم ولاءه ، ولايهديه إلى الحق ، ولايرده إلى الصف المسلم .

﴿ إن الله لايهدى القوم الظالمين ﴾ .

لقد كان هذا تحذيراً عنيفاً للجماعة المسلمة فى المدينة ، ولكنه تحذير ليس مبالغاً فيه ،

---

(١) تفسير القرطبى / م٣ / جـ٦ / ـ ٢٢٠ ، ٢٢١ .

فهو عنيف ، نعم .... ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة ، فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى ، وبعضهم أولياء بعض ثم يبقى لـه إسلامه وإيمانه ، وتبقى له عضويته فى الصف المسلم الذى يتولى الله ورسوله والذين آمنوا ... فهذا مفرق الطريق .) (١) .

لقد استعرضنا الجانب العلمى فى هذه الغزوة من خلال الآيات المذكورة ، ونقف ملياً عند الفقه التربوى فيها ، نلحظ من خلال ذلك المنهج الذى اختطه القرآن لذلك ، كما نلحظ ملامح أخرى منه ، فى الموقف النبوى العظيم فيها .

ـ لقد ارتفعت الوتيرة الإيمانية إلى المستوى الأعلى فى غزوة بدر ، وحيث أن النصر الإلهى . الذى وقع فيها حدا ببعض المسلمين فى لحظة من لحظات النشوة فى هذا النصر أن يقول : إن لقينا إلا عجائز صلعاً ، ولم يدعها عليه الصلاة والسلام تمر إلا وقال له : « يابن أخى أولئك الملأ . » ليعيد عليه الصلاة والسلام إلى هذا الصحابى الجليل أبعاد المعركة ، وأنها كانت مع عتاة طغاة قريش وجبابرتها ، وليست مع العجائز المهازيل ، كذلك نجد هذا التوجيه النبوى العظيم حين يسارع بعض الفتية الأنصار ليحدث النبى عليه الصلاة والسلام عن أسر عمه العباس الفخم الضخم العظيم ، وهو الصغير الحجم بالنسبة له . فقال له : « أعانك عليه ملك كريم » .

لكن هذه اللقطات البسيطة لم تكن كافية فى الحس الإسلامى لتعيد هذا النصر إلى رب العالمين ، فقد ارتفع الاعتزاز بالنصر إلى ذروته فى هذا الصف وحيث أن الإسلام لايهمه إلا تربية هذه النفوس فجاءت سورة الأنفال كلها إلى خير أجيال الأرض ، وإلى خيرة هذه الأمة ليقول لهم إن بدرا هبة ربانية ، ومنحة إلهية لهذا الجيل الذى صدق الله فصدقه ، وأنزل له الملائكة فقاتلت معه . وأنزل معه الماء . وأنزل معه الريح ، وأنزل معه الحصى .

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم ﴾ (٢)

---

(١) فى ظلال القرآن / ٢٣ / ٦ / ٩١١ .

(٢) الأنفال / ١٧ .

٢ ـــ وجاءت غزوة بنى قينقاع على أعقاب بدر ، والحقد اليهودى يغلى فى مراجلهم ، والتحدى السافر يقطر منهم .

« لقد لُقيتم قوماً لاعلم لهم بالحرب ، ولئن لقيتمونا لتعلمن أنا نحن الناس » .

وفقه عليه الصلاة والسلام من التوجيه الربانى له أن قينقاع قد تقدم على خيانة سافرة وخاف من هذه الخيانة ، فنبذ إليهم على سواء ، كما وجهه ربه عز وجل .

وكسرت شكوت يهود بعد أن استسلمت لله ورسوله ، وكان لابد من هذا الدرس حتى يتعظ به قبائل يهود الأخرى ـ النضير وقريظة ـ وليستثمر النصر الإسلامى فى بدر ، ويوظف لصالح الصف الإسلامى ، وتتحطم العنجهية اليهودية على صخرة البطولة الإسلامية.

٣ ـــ وعلى نسق بدر . جاءت الآيتان اللتان وردتا فى قينقاع لتؤكد على البناء النفسى الداخلى . فتبث الرعب أولاً فى صف اليهود والمشركين جميعاً فى الأرض العربية وتقول لهم :

﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كانت لكم آية فى فئتين التقتا . فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة . يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** ﴾ [(١)] لقد كانت الآيتان بمثابة رسالة شديدة اللهجة موجهة إلى يهود . ومواليهم . ، فى أن يلزموا حدودهم ، وينكفئوا على أعقابهم ، ويخنسوا فى جحورهم ، لكن هذه الرسالة لم تجد معهم شيئاً . ، وغرهم فى دينهم ماكانوا يفترون ، فكان ذلك الحصار والاستسلام .

وكانت الآيتان للصف المسلم كذلك تؤكد على المعانى السابقة التى نزلت بها الأنفال ، وتُثبت فى أذهانهم أن الله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار .

٤ ـ ولم يكن مجال بعد انتهاء بدر أن يعود الرسول عليه الصلاة والسلام على أحد من صحبه باللائمة ، من الذين تخلفوا عن بدر ، لأنه دعاهم اختياراً إلى ملاقاة القافلة ، ولم يعزم عليهم على معركة . فلم يكن هناك مجال للتميز داخل الصف الإسلامى ، ومع انتهاء بدر حيث رأينا عبد الله بن أبى قد غادر معسكر الشرك وانضم إلى معسكر الإيمان ، انضم بكل ثقله المعنوى ومركزه الضخم ليحتل موقعه من جديد فى صف قومه الخزرج ،

---

(١) آل عمران / ١٢ ، ١٣ .

وليبرز على رأسهـم من جديد بعد أن انضم إلى المعسكر الإسـلامى ، وأصبح فى مصافّ سعد بن عبادة ، وعبادة بن الصامت وأمثالهم من قيادات الخزرج ، وهكذا أصبح نصر بدر يفتخر به كل المسـلمين ، سواءً من حضرها أم من لـم يحضرها ، فـليس هناك من مسىء أو ملوم أو متهم بالتخاذل والتخلف .

٥ ـ وجاءت غزوة بنـى قينقاع ، لتهز المجتمع الإسلامى من داخله مـن خلال موقف ابن سلول . الذى وضع يده فى جيب درع رسـول الله ﷺ ليقول له : (هؤلاء حلفائى من دون يهـود أربعمائـة دارع ، وخمسـمائة حاسـر ، تحصدهـم فى غداة واحدة . إنـى امرؤ أخشـى الدوائـر ..)

ولم يدع جيب رسول الله ﷺ حتى وهبهم له .

ومضى عبـد الله بن أبى ينتـفش بعدها ، فهـو عريق فى المجد ، يفرض رأيـه المعنوى ، ويحمى حلفاؤه من قينقاع . ولتطمئن النضير كذلك ، فهم حلفاء والخزرج ، وسوف تبرز هذه القوة السلوليـة على الساحة ، فابن أبى الزعيم ليس وحده فى الـساحة ، وليس زعيماً للخزرج فحـسب ، بل هو سيد الساحة بما عنده من حلفاء أنقذهـم من الموت ، وجلوا ، وماعنده من حلفاء لايزالون متربصين فى حصونهم فى بنى النضير .

وتعلق به الكثيـر ــ وتأثروا بزعامته من ضعاف الإيمان ، أو من الذيـن انضموا معه إلى المعسكـر الإسلامـى بعـد نصـر بدر المؤزر ؛ وهـكذا كـثر الأتـباع ؛ واستجـمع الأزلام والأنصـار .

أما عبادة بن الصامت فـلم يبرز له هذا الوزن ، فقد كان له من الحلف مـع بنى قينقاع مثل ماكان لابن أبى ولم يفعل شيئاً لحلفائـه بل تبرأ منهم ، وتولى الله ورسوله ، وغدا إنساناً عادياً ليس حوله الأزلام والأنصار ، وليس بالذى يـفرض رأياً فى الساحة الإسلامية مثل ابن أبـى ، لكـن لـه فى قـلوب إخـوانـه من الخـزرج والأوس مـن الحـب والإكـبار والـتـقديـر مالايوصف فهو بـقلبه مثل قلوبهم ، وبمشاعـره مثل مشاعرهم ، وبحبه وكرهـه مثل حبهم وكرههم ، وهذا يرفعه فى موازينهم فى الـوقت الذى يهبط ابن أبى ويسقطه ، وقد أحرج رسول الله ﷺ ؛ حتى رأوا الغضب فى وجهه .

لو انتـهـت هذه القضـية بهذا الموقـف . لتعادلت الـكفتان : كفـة المؤمنين والمنـافقين ، ولكان يمـكن أن ترجح كـفة ابن أبى التـى يوزن فيهـا الأعداد والأرقام ، والذيـن لايزالون يفكرون فى الإسلام من خلال الزعامة والنيادة ، وتحشيد الأتباع ، ولم الأزلام .

٦ ـ لكن هيهات أن يستويا فى ميزان الله ، وهيهات أن يصمت الصوت المؤمن المدوّى ويتراجع حرجاً أمام صوت النفاق . فجاءت الآيات القرآنية لتكون كالصواعق المحرقة على رأس ابن أبى ، وهى تفضحه وتعريه ، وتقول له : ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الكافرين** ﴾ .

وشفت الآيات صدور قوم مؤمنين ، وأحرقت قلوب قوم منافقين ، فقد انهدّ هذا الركن الركين ، ودفع دفعاً ليكون من الكافرين فى هذا الولاء للكافرين .

وجاء التعبير القرآنى العظيم ليصف ابن أبى وحزبه وأتباعه بقوله : ﴿ **فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم .** ﴾ (١) ، فهؤلاء إذن مرضى ، ضعاف ، مهاذيل ، والمرض ليس فى أجسادهم ، وليس فى أطرافهم ، بل فى لبهم وقلوبهم . فهم مدخولو الإيمان وهم غارقون فى النفاق . وهم مع الكفار حين يحسب الكفار والمسلمون وهم من الصف الكافر حين يتميز المؤمن من الكافر .

فإذا بالأمجاد التي بناها ابن أبى فى هذه الحماية لحلفائه تذل وتنهار ، ويصغر ابن أبى فى صف المؤمنين الخلّص ، وينظر إليه الذين يجارونه فى زعامته على أنه مريض يعالج ، وعليل يداوى ، ومنافق يمكن أن يسكبت عليه علّه يخلص قلبه ويتسلل الإيمان إلى قلبه .

٧ ـ أما ابن الصامت رضى الله عنه . فلم يترك موقفه كذلك بدون شيء . ولم يبق مؤمناً عادياً ، أتباعه قلة ، وأنصاره أخف بكثير من أنصار ابن أبى ، لقد أثنى الله تبارك وتعالى فى محكم كتابه ، ومن فوق سمواته على عبادة بن الصامت النموذج الرائع الخالد ، وقدمه طرازاً حياً للرجال ، ومثلاً حياً يحتذى من المؤمنين على وجه الأرض ، وإلى أن تقوم الساعة . ولئن جن جنون ابن أبى بهذا العز المحلى الممدود الفانى ، فقد فضح على رؤوس الخلائق والأشهاد ، حين عُزّى على أنه من الصف الكافر فى ولائه ، وبقى ابن الصامت رضى الله عنه القمة التى وصفت بقوله عز وجل :

﴿ **يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ .

---

(١) المائدة / ٥٢ .

ومثَّل عبادة بن الصامت رضى الله عنه ومن والاه من جنده حزب الله الذى يتولى الله ورسوله والجماعة المؤمنة ، ومثَّل عبد الله بن أبى وأتباعه وأزلامه وأنصاره الذين ارتدوا عن دينهم بهذا الولاء وهذا الحلف .

٨ ــ ولكنه لم يعامل معاملة المرتدين بعد ، فلا يزال الطريق مفتوحاً أمامه ليخاطب من بين الذين آمنوا أن يعود عن هذا الولاء ، وأن يعود عن موالاة اليهود فقد جاءت الآيتان التاليتان بعد ذلك تفيد التحذير والتخويف من هذا الولاء :

﴿ يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ [(١)] .

هذا وإن لم يثبت أن هاتين الآيتين قد نزلتا فى هذه المناسبة ــ فنقدّر أنهما نزلتا فى الفترة بين بدر وأحد لتعالجا البناء ، وتصححا المسار ، وتنهيا الالتباس الذى يمكن أن يقع فى هذه المسألة .

٩ ــ وهكذا تغيرت الموازين كلها بعد هذه الآيات ، وبرز معسكر المنافقين بسمات وعلامات واضحة من خلال المواقف العملية ، ولم يعد الصف الإسلامى واحداً بعدها كما كان قبلها ولفترة وجيزة حين انضم ابن أبى إليه ، لقد شاءت إرادة الله عز وجل أن تبدأ المعالم للتمييز بين الفريقين ، ولكنها لم تأخذ مداها الكامل ؛ لأن هذه الآيات نزلت بعد جلاء بنى قينقاع ، ولم تكن أى مخالفة بعدها تذكر ، ومن المنهجية الإسلامية فى التربية ألا يكون الحساب على الخطأ قبل نزول الحكم ؛ إنما يكون بعدها . لقد نزلت الآية تفرق بين حزب الله والمؤمنين وحزب الشيطان والمنافقين إنما وضعت هذه الآيات نقاط علامة . ونقاط ارتكاز . إذا استمر هذا الحزب على مواقفه .

١٠ ــ واستفاد الصف الإسلامى أيما استفادة بعد هذه الآيات ، وتحرَّر ضعاف الإيمان من هذه الشبهة وتوضح لهم المسار . وارتفع المد الإسلامى . بهذه النفوس لتبتعد رويداً رويداً عن المواقع التى تحوم حول الحمى ، فتوشك أن تقع فيه ، وكان هذا إيذاناً بأجواء أحد التى قدمت التمييز النهائى بين الفريقين .

---

١) المائدة /٥٧ ، ٥٨ .

غزوة أحد

التهيؤ للمعركة :

يقول تعالى : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال . والله سميع عليم . إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ .[(١)]

أخرج أبويعلى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن المسور بن مخرمة قال : قلت لعبد الرحمن بن عوف ياخالِ أخبرنى عن قصتكم يوم أحد ؟ قال :

(اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصتنا ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد القتال ..** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ..** ﴾ قال : هم الذين طلبوا الأمان من المشركين إلى قوله ﴿ .. **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه ..** ﴾ قال هو تمنى المؤمنين لقاء العدو إلى قوله ﴿ .. **أفإن مات أو قتل انقلبتم ..** ﴾ قال : هو صياح الشيطان يوم أحد : قتل محمد . : إلى قوله ﴿ .. **أمنة نعاساً ..**﴾ قال : ألقى عليهم النوم .)[(٢)]

فقد حددت هذه الرواية ابتداء الحديث عن قصة أحد فى سورة آل عمران ، ونجد رواية ثانية تحدد نهاية الحديث عن أحد فى السورة المذكورة وهى :

أخرج ابن إسحاق والبيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب وعاصم بن عمر بن قتادة ، ومحمد بن يحيى بن حبان والحصين بن عبد الرحمن بن سعد بن معاذ قالوا :

(كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ، ومحق به الكافرين ممن كان يظهر الإسلام بلسانه ، وهو مستخف بالكفر ، ويوم أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته ، فكان مما نزل من القرآن فى يوم أحد ستون آية من آل عمران ، فيها صفة ماكان من يومه ذلك ، ومعاتبة من عاتب منهم ، يقول الله تعالى لنبيه : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم** ﴾) .[(٣)]

---

(١) آل عمران /١٢١ ، ١٢٢ . (٢) الدر المنثور /٣٠٢/٢ . (٣) المصدر نفسه /٣٠٢/٢ .

ونلحظ أن ختام الستين آية هى قول الله عز وجل : ﴿ **ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم . بل هو شر لهم سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير** ﴾ . [١]

والمرجح أن نهاية الحديث عن أحد إنما هى الآية السابقة :

﴿ **ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم** ﴾ [٢] فقد نص المفسرون على ذلك .

(فعن مجاهد فى قول الله : ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ..** ﴾ قال : ميّز بينهم يوم أحد المنافق من المؤمن) . [٣]

وأورد السيوطى هذا القول عن مجاهد كذلك فيما رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم) . [٤]

بينما نلاحظ أن الآية ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون ..** ﴾ هى أولا فى موضوع متصل بالآيات التى تلتها ، وهو موضوع البخل . كما أن المفسرين يذكرون أنها فى أهل الكتاب ، لا خلاف فى ذلك ، وإن كانت عامة فى المعنى لهم ولغيرهم .

الآيات فى السياق :

ويربط ابن جرير الطبرى هذه الآيات ابتداءً بسياقها . دون علاقة بأسباب النزول فى الآية التى سبقتها .

يقول تعالى : ﴿ **.. إن تمسسكم حسنة تسؤهم . وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط . وإذ غدوت من أهلك ..** ﴾ . [٥]

أما هذا الارتباط الوثيق ـ فكما يقول ابن جرير :

(القول فى تأويل قوله : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم** ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين ..** ﴾ وإن

---

(١) آل عمران / ١٨٠ . (٢) آل عمران / ١٧٩ . (٣) تفسير الطبرى / ٢ / ٤ / ١٢٤ .
(٤) الدر المنثور / ٢ / ٣٩٣ . (٥) آل عمران ١٢٠ مصدر الآية / ١٢١ .

تصبروا وتتقوا لا يضركم أيها المؤمنون كيد هؤلاء الكفار من اليهود شيئا ، ولكن الله ينصركم عليهم إن صبرتم على طاعتى واتباع أمر رسولى ، كما نصرتكم ببدر وأنتم أذلة . وإن أنتم خالفتم أيها المؤمنون أمرى ولم تصبروا على ما كلفتكم من فرائضى ، ولم تتقوا مانهيتكم عنه ، وخالفتم أمرى وأمر رسولى - فإنه نازل بكم مانزل بكم بأحد ، واذكروا ذلك اليوم إذ غدا نبيكم يبوئ المؤمنين ...) . (١)

والملاحظ أن قصة أحد ابتدأت بعد الحديث عن أهل الكتاب ، وانتهت بالحديث عن أهل الكتاب ، مع أن غزوة أحد كانت مع المشركين . وأهل الكتاب المقصودون قبلها وبعدها هم اليهود كما هو المعروف من أسباب النزول ، وقد ربط الله تعالى بين اليهود والمشركين فى شديد حقدهم وعدائهم للمسلمين بقوله تعالى :

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون .. ﴾ . (٢)

لكن غزوة بنى قينقاع ردت كيد اليهود إلى نحورهم وصدورهم إذ كانت تجربة قاسية عليهم . وأصبح كيدهم فى الخفاء والسر كما وصفهم القرآن الكريم بالآيات السابقة فى الحديث عن أحد :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ، ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط ﴾ . (٣)

ولا شك أن نزول هذا التحذير - كان ذا علاقة وثيقة بوضع المؤمنين قبيل أحد ، وبعد بنى قينقاع وأن المنافقين المنبثين فى الصف المؤمن - لا تزال قلوبهم مرتبطة باليهود حباً ونصيحة ، فجاء التحذير القرآنى من موالاتهم ، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ، وهم حلفاء عبد الله بن أبى الذى لم يتراجع عن موقفه بعد بنى قنيقاع ، وبقى قلبه مشرباً بحب يهود .

(١) تفسير الطبرى / ٢/٣/٤٥ . (٢) المائدة / ٨٢ . (٣) آل عمران /١١٨ـ ١٢٠ .

الصف المؤمن :

لقد اختلف الصف المؤمن عما كان عليه قبيل بدر ، إذ كان التميز واضحاً قبيل بدر ، وكان عبد الله بن أبى ومن معه من المنافقين يعلنون كفرهم ، ومع انتصارات بدر حنوا ظهرهم للعاصفة ورأوا أن الأمر قد توجه ، وأعلنوا إسلامهم ظاهراً ، وبقيت علاقاتهم باليهود باطنا .

(أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهلية ، فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مباطنتهم تخوف الفتنة عليهم منهم : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم** .. ﴾) .[1]

وفى رأى آخر أن البطانة من دون المؤمنين هم المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر . (كما أخرج ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : نزلت فى المنافقين من أهل المدينة . نهى المؤمنين أن يتولوهم) .[2]

(وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ﴿ **لا تتخذوا بطانة من دونكم** .. ﴾ قال : هم المنافقون)[3] .

ولهذا الرأى وزنه . إذ أن سياق الآيات يؤكد الحديث عن الذين يعلنون إسلامهم ظاهراً ويبطنون الحقد والكيد . وهذا الوصف ينطبق على المنافقين ﴿ **وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور** . .. ﴾[4] . وليس هناك من تعارض بين الرأيين فظهير المنافقين فى المدينة هم اليهود من أهل الكتاب ، وسيان كان التحذير للمؤمنين الخلص من أهل الكتاب المعلنين ، أو من المنافقين المندسين فى الصف ، فالنتيجة واحدة ، والتميز غير واضح ، والمندسون كثر ، والصبر والتقوى هو سلاح النصر ، وفى هذه الأجواء كانت معركة أحد .

التعبئة للمعركة :

﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم** ﴾ .

---

(١) الدر المنثور /٢/٢٩٩ . آل عمران /١١٨ .
(٢) المصدر نفسه /٢/٣٠٠ .
(٣) المصدر نفسه / ٢/ ٣٠٠ .
(٤) آل عمران /١١٩ .

(عن مجاهد في قول الله عز وجل : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين** ﴾ قال : مشى النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ على رجليه يبوئ المؤمنين) . [1]

وعن قتادة قوله : (ذلك يوم أحد غدا نبى الله ﷺ من أهله إلى أحد يبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) . [2]

وكذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنهما والسدى .

بينما روى عن الحسن قال (..يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم غدا يبوئ المؤمنين مقاعد للقتال يوم الأحزاب) .

ويرجح ابن جرير الرأى الأول بقوله :

(وأولى هذين القولين بالصواب قول من قال : عنى بذلك يوم أحد لأن الله عز وجل يقول فى الآية التى بعدها : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ..** ﴾ ولا خلاف بين أهل التأويل أنه عنى بالطائفتين بنو سلمة وبنو حارثة ، ولا خلاف بين أهل السيرة المعرفة بمغازى رسول الله ﷺ أن الذى ذكر الله من أمرهما يوم أحد دون يوم الأحزاب .

فإن قال لنا قائل : وكيف يكون ذلك يوم أحد ورسول الله ﷺ إنما راح [3] إلى أحد من أهله للقتال يوم الجمعة بعد ما صلى الجمعة في أهله بالمدينة بالناس . ؟ قيل :

إن النبى ﷺ وإن كان خروجه للقوم كان رواحاً فلم يكن تبوئته للمؤمنين مقاعدهم للقتال عند خروجه ، بل كان ذلك قبل خروجه لقتال عدوه ، ذلك أن المشركين نزلوا منزلهم من أحد فيما بلغنا يوم الأربعاء ، فأقاموا به ذلك اليوم ويوم الخميس ويوم الجمعة ؛ حتى راح رسول الله ﷺ يوم الجمعة بعدما صلى بأصحابه الجمعة ، فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال ... فإن قال : وكيف كانت تبوئته للمؤمنين مقاعد للقتال غدواً قبل خروجه ، وقد علمت أن التبوئة : اتخاذ الموضع ؟ قيل : كانت تبوئته إياهم ذلك قبل مناهضته عدوه عند مشورته على أصحابه بالرأى الذى رآه لهم بيوم أو يومين وذلك أن رسول الله ﷺ لما سمع بنزول المشركين من قريش وأتباعها أحداً قال ـ فيما

(١ ، ٢) تفسير الطبرى م ٢ / ٤ / ٤٦ .

(٣) الغدو فى اللغة صباحًا . والرواح بعد الظهر . والتعبير القرآنى يذكر الغدو . أى قبل الصبح فيرجع الطبرى أن المقصود بالغدو فى الآية هى المشورة التى تمت قبل ظهر الجمعة لتحديد مكان القتال وموقعه . أو أنه وصل صباح السبت للنصف من شوال . والأرجح هو الرأي الأول .

جدثنا محمد بن الحسين .. عن السدى ـ لأصحابه :

« أشيروا على ما أصنع ؟ ! » فقالوا : يارسول الله أخرج إلى هذه الأكلب ، فقالت الأنصار : يارسول الله ماغلبنا عدو لنا فى ديارنا فكيف وأنت فينا ؟ فدعا رسول الله ﷺ عبد الله بن أبى بن سلول ، ولما يدعه قط قبلها فاستشاره فقال : يارسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب . وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة ، فيقاتلوا فى الأزقة ، فأتاه النعمان بن مالك الأنصارى فقال : يارسول الله لا تحرمنى الجنة فوالذى بعثك بالحق لأدخلنّ الجنة ، فقال له : بم ؟ قال : بأنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وأنى لا أفر من الزحف ، قال : صدقت ، فقتل يومئذ .

ثم إن رسول الله ﷺ دعا بدرعه فلبسها فلما رأوه وقد لبس السلاح ندموا وقالوا : بئسما صنعنا ، نشير على رسول الله ﷺ والوحى يأتيه . فقاموا واعتذروا إليه وقال اصنع ما رأيت . فقال رسول الله ﷺ : « لا ينبغى لنبى أن يلبس لأمته[1] فيضعها حتى يقاتل »)[2] .

وفى رواية أخرى يسوقها ابن جرير يقول لنا فيها :

(حدثنا ابن حميد قال : ثنا سلمة عن محمد بن إسحاق قال : ثنى ابن الزهرى ومحمد ابن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد ابن معاذ وغيرهم من علمائنا قالوا : لما سمع رسول الله ﷺ والمسلمون بالمشركين قد نزلوا منزلهم من أحد قال رسول الله ﷺ : « إنى قد رأيت بقراً تذبح فأولتها خيراً ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلماً ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها » وكان رأى عبد الله بن أبى بن سلول مع رأى رسول الله ﷺ يرى لا يخرج إليهم ، وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج من المدينة ، فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيرهم ممن كان فاته بدر وحضوره : يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لايرون أنا جبُنا عنهم وضعفنا ، فقال عبد الله بن أبى بن سلول : يارسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ماخرجنا منها إلى عدولنا قط إلا أصاب منا ، ولادخلها علينا قط إلا أصبنا منه ، فدعهم يارسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ،

(١) لأمته : عدة الحرب . (٢) تفسير الطبرى / ٢/ ٤/ ٤٥ .

وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا ، فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذى كان من أمرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته ، فكانت تبوئة رسول الله ﷺ المؤمنين مقاعد للقتال ماذكرنا من مشورته على أصحابه بالرأى الذى ذكرنا على ما وصفه الذين حكينا قولهم . يقال منه : بوأت القوم منزلاً وبوأته لهم ، فأنا أبوئهم المنزل تبوئة ، وأبوئ لهم منزلاً تبوئة .. وقد حكى عن العرب سماعا أبأت القوم منزلا فأنا أبيئهم إباءة ويقال منه أبأت الإبل إذا رددتها إلى المباءة ، والمباءة المراح الذى تبيت فيه ، والمقاعد جمع مقعد وهو المجلس . فتأويل الكلام : واذكر إذ غدوت يا محمد من أهلك تتخذ للمؤمنين معسكراً أو موضعاً لقتال عدوهم وقوله ﴿ **والله سميع عليم** ﴾ يعنى بذلك تعالى ذكره : والله سميع لما يقول المؤمنون لله فيما شاورتهم فيه من موضع لقائك ولقائهم عدوك وعدوهم ، من قول من قال اخرج بنا إليهم حتى نلقاهم خارج المدينة ، وقول من قال : لا تخرج إليهم وأقم بالمدينة حتى يدخلوها علينا على ماقد بينا من قبل ، ومما تشير به عليهم أنت يامحمد ، عليه بأصلح تلك الآراء لك ولهم ، و بما تخفيه صدور المشيرين عليك بالخروج إلى عدوك وصدور المشيرين عليك بالمقام فى المدينة وغير ذلك من أمرك وأمورهم . كما حدثنا ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق فى قوله : ﴿ **والله سميع عليم** ﴾ أى سميع لما يقولون عليه بما يخفون) [1] .

ويضيف السيوطى فى الدر المنثور فيما أخرجه ابن إسحاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الرواة السابقين الذين أوردهم ابن جرير : قالوا :

(لما أصيبت قريش ، أو من ناله منهم يوم بدر من كفار قريش ، ورجع فلّهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيره ـ مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية فى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يامعشر قريش ، إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصاب ، ففعلوا ، فأجمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ ، وخرجت بحدتها وحديدها ، وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة ولئلا يفروا ، وخرج أبو سفيان وهو قائد الناس فأقبلوا حتى نزلوا بعينين جبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادى ممايلى المدينة ..) [2]

(١) تفسير الطبرى / ٢ / ٤ / ٤٦ .
(٢) الدر المنثور / ٣ / ٣٠٣ .

ونعود إلى كتب السير لتكتمل سورة التعبئة للمعركة :

قال البلاذرى : (فأجمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ ، وبعثوا عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبعرى ، وهبيرة بن أبى وهب ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبا عزة الجمحى (الذى منّ عليه رسول الله ﷺ يوم بدر) إلى العرب يستنفرونها لحرب رسول الله ﷺ ، فألبوا العرب وجمعوها ، ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم[1]، فأخذ يؤلب على رسول الله ﷺ ويجمع الجموع ، فجمع قريبا من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحابيش فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس ، وكتب العباس رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ يعلمه بذلك مع رجل من بنى غفار ، فقدم عليه وهو بقباء فقرأه عليه أبى بن كعب ، واستكتم أبياً ، ونزل رسول الله ﷺ على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس ، فقال : والله إنى لأرجو أن يكون خيرا ، فاستكتمه إياه ، فلما خرج رسول الله ﷺ من عند سعد أتته امرأته فقالت : ماقال لك رسول الله ﷺ ؟ قال : ما أنت وذاك ، لا أمّ لكِ ، قالت : قد كنت أسمع عليكم ، وأخبرت سعداً بما سمعت ، فاسترجع وقال : أراك كنت تسمعين علينا ، وانطلق بها إلى رسول الله ﷺ فأدركه فأخبره خبرها ، وقال : يارسول الله إنى خفت أن يفشو الخبر فترى أنى المفشى له ، وقد استكتمتنى إياه ، فقال رسول الله ﷺ : « خلّ عنها » . ـ وشاع خبر قريش ومسيرهم فى الناس ، وأرجفت اليهود والمنافقون ، وقدم عمرو بن سالم الخزاعى فى نفر قد فارقوا قريشاً من ذى طوى ، فأخبروا النبى ﷺ الخبر وانصرفوا ، وبعث رسول الله ﷺ أنساً ومؤنسًا ابنى فضالة الظفريين ـ ليلة الخميس لخمس ليالٍ مضت من شوال ـ عينين فاعترضا لقريش بالعقيق ، وعادا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه بخبرهم ، وأنهم قد خلوا إبلهم وخيلهم فى الزرع الذى بالعربض ، حتى تركوه ليس به خضر ، وترك المشركون ظاهر المدينة بعينين جبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادى ، مقابل المدينة ـ يوم الأربعاء ، فرعت إبلهم آثار الحرث والزرع يوم الخميس ويوم الجمعة ، لم يتركوا خضراء .. ، وباتت وجوه الأوس والخزرج ليلة الجمعة عليها السلاح فى المسجد بباب رسول الله ﷺ ،خوفا من بيات المشركين . وحرست المدينة حتى أصبحوا)[2] .

(وروى ابن إسحاق والشيخان والنسائى وابن ماجه والبيهقى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت وفي لفظ أريت ـ أنى أهاجر من

(١) لذهاب أكابرهم : لمقتلهم فى بدر .

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤/ ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلى إلى أنها اليمامة أو هَجَر ، ، فإذا هى المدينة يثرب ، ورأيت فى رؤياى هذه أنى هززت سيفًا ـ وفى لفظ سيفى ذا الغفار ، فانقطع صدره ، وفى لفظ ، رأيت فى ذباب سيفى ثلماً ، فإذا هو ما أصيب به المؤمنون يوم أحد ، ـ قال عروة : وكان الذى رأى بسيفه ما أصاب وجهه ، وقال ابن هشام : وأما الثلم فى السيف فهو رجل من أهل بيتى يقتل ، ثم هززته أخرى ، فعاد أحسن ما كان . فإذا هو ماجاء الله به من الفتح واجتماع كلمة المؤمنين ، ورأيت فيها والله خيرا ، ، رأيت بقراً تذبح والله خير ، فإذا هم النفر المؤمنين يوم أحد ، وإذا الخير ماجاء الله به من الخير بعد ، وثواب الصدق الذى آتانا الله به بعد بدر) . (١)

(وروى الإمام أحمد والنسائى والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : تنفل رسول الله ﷺ سيفه ذا الغفار يوم بدر ، وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد ، قال : وكان مما قاله رسول الله ﷺ قبل أن يلبس الأداة : « إنى رأيت أنى فى درع حصينة فأولتها المدينة ، وإنى مردف كبشاً ، فأولته كبش الكتيبة ، ورأيت أن سيفى ذا الغفار فُلَّ (٢) فأولته فلاً فيكم ، ورأيت بقراً تذبح فبقر ، واللهُ خير ، فبقر والله خير » (٣)

(وروى الإمام أحمد والطبرانى والحاكم والبيهقى عن أنس رضى الله تعالى عنه :أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت فيما يرى النائم كأنى مردف كبشا ، كأن ظبة سيفى انكسرت ، فأولت إرداف الكبش أننا نقتل كبش القوم ، وأولت كسر ظُبة سيفى قتل رجل من عترتىَ (٤) » .) فقتل حمزة ، وقتل طلحة بن أبى طلحة ، وكان صاحب اللواء (للمشركين) .

(... ثم صلى رسول الله ﷺ العصر بالناس وقد حشدوا ، وحضر أهل العوالى ، ورفعوا النساء فى الآطام ، ودخل رسول الله ﷺ بيته ، ومعه أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما فعمماه وألبساه ، وقد صُف الناس مابين حجرته إلى منبره ، ينتظرون خروج رسول الله ﷺ ، فجاء سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا للناس : استكرهتم رسول الله ﷺ وقلتم له ماقلتم ، والوحى ينزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه ، فما أمركم به فافعلوه ، وما رأيتم له فيه هوى ورأيا فأطيعوه ، فبينما هم على ذلك إذ خرج رسول الله ﷺ وقد لبس لأمته ، ولبس الدرع وأظهرها ، وحزم وسطه بمنطقة (٥) من حمائل سيف من أدم ، واعتم ، وتقلد السيف ، وندم الناس على إكراهه . فقالوا : يارسول الله ،

(١ ، ٣ ، ٤) سبل الهدى والرشاد /٤/٢٧٤ ـ ٢٧٥ . (٢) فُلَّ : ثُلِم .
(٥) مِنطقة : ماينطق به على الخاصرة .

استكرهناك ولـم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعـد ، فقال رسول الله ﷺ : « قد دعوتـكم إلى هذا الحديـث فأبيتم ، ولا ينبغى لنبى إذا لبـس لأمته أن يضعها ؛ حـتى يحكم اللـه بينه وبين أعدائه ـ وفى روايـة : حتى يقاتل ـ انظروا مـا آمركم به فاتبعوه ، ، امـضوا على اسم الله تعـالى ، فلكم النصـر ماصبرتم » ووجد مالـك بن عمر والبخارى قـد مات ، ووضعوه عند موضع الجنائز ، فـصلّى عليه ، ثم دعا بثلاثة رماح فعقد ثـلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوس إلى أسيـد بن حضير ، ولواء الخـزرج إلى حباب بن المنـذر ، ويقال : إلى سعد بـن عبادة ، ودفع لواء المهاجـرين إلى على بن أبى طالب ، واستـخلف على المدينة ابن أم مـكتوم على الصلاة بمن بقى فى المدينة) [1] .

وبعد هذه العـدة وهذه التعبئة ينـتقل بنا النص القـرآنى إلى الحديث عن الفئـتين اللتين همتا أن تفشلا ، فهو حديث عن المؤمنين .

وكان تسلسل الأحداث فى السيرة يقتضى الحديث عن تخاذل عبد الله بن أبى بثلث الجيش ،لأن موقف هـاتين الفئتين كان علـى إثر ذلك ، غير أن الهدف فى الـعرض القرآنى ليس الحـدث نفسه إنما الإنسـان هو الأصل ، والبنـاء النفسى هـو الذى تتم معالجـته ، ومن أجل ذلـك نجد العرض الـقرآنى لـلأحداث شئ ، والعـرض البشـرى شىء آخر ، فلـيس الهدف هو القصة ، ومتعة التسلسل . إنما الهدف هـو إحكام البناء للنفس البشرية ، بحيث تتـرابط الأحداث كلـها لتـخدم هذا الهـدف ، فالحديـث هنا عـن المؤمنين ، وعـن عرض جوانـب القوة فيـهم وجوانب الـضعف ، وليـس الحديث عـن المنافقـين فلهم أولاء جـولة أخرى سيأتى الحديث عنها فيما بعد .

حديث الطائفتين :

﴿ إذ همـت طائفتـان منكـم أن تـفشـلا واللـه وليهـما وعلـى اللـه فليتـوكل المؤمنون ﴾[2] وكأنما الـقضية حدثت فـى ذات اللحظة التـى تمت التعبئـة فيها للمـؤمنين ، وبوئوا مقاعدهم للقتال ، فجرى هذا الوهن ، وتداركه الله تعالى فى رحمته .

(فعن قتـادة قال : قوله : **﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾** الآية . وذلك يوم أحد والطائفتان بنو سلمة وبنو حارثة ، حيان من الأنصار هموا بأمر فعصمهم الله من ذلك ، قال قتادة : وقد ذكرلنا أنـه لما أنزلت هذه الآية قالوا : مايسرنا أنا لم نهـم بالذى هممنا به ؛ وقد أخبرنا الله أنه ولينا) . [3]

---

(١) سبل الهدى والرشاد /٤/٢٧٥-٢٧٧ .

(٢) آل عمران /١٢٢ .

(٣) جامع البيان لابن جرير الطبرى ٤ / ٤٨ .

وعن ابن إسحاق قال : (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والطائفتان بنو سلمة من جشم بن الخزرج وبنو حارثة بن النبيت من الأوس وهما الجناحان) . [1]

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (الفشل : الجبن ، وكان همهما الذى هما به من الفشل الانصراف عن رسول الله ﷺ والمؤمنين - حين انصرف عنهم عبد الله بن أبى ابن سلول بمن معه جبنا منهم من غير شك منهم فى الإسلام ولا نفاق ، فعصمهم الله مما هموا به من ذلك ، ومضوا مع رسول الله ﷺ لوجهه الذى مضى له ، وتركوا عبد الله ابن أبى والمنافقين معه ، فأثنى الله عز وجل عليهما بثبوتهما على الحق ، وأخبر أنه وليهما وناصرهما على أعدائهما من الكفار) . [2]

يقول ابن جرير : (﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ أى من كان به ضعف من المؤمنين أو وهن فليتوكل علىّ ، وليستعن بى أعنه على أمره ، وأدفع عنه حتى أبلغ به وأقويه على نيته) . [3]

ويقول القرطبى :

(وقيل : كان ذلك حديث نفس منهم خطر ببالهم ، فأطلع الله نبيه عليه السلام عليه فازدادوا بصيرة ، ولم يكن ذلك الخور مكتسبا لهم فعصمهم الله ، وذم بعضهم بعضاً ، ونهضوا مع النبى ﷺ ، فمضى رسول الله حتى أطل على المشركين) . [4]

(وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخارى ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله قال : فينا نزلت فى بنى حارثة ، وبنى سلمة ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا** ﴾ وما يسرنى أنها لم تنزل لقول الله ﴿ **والله وليهما** ﴾) . [5]

والحساب مع المؤمنين لا يترك حتي خطرات النفس ، وحديث الصدر ، فلا بد أن تعرض النفوس كلها عارية كما فعل المؤمنين فى بدر ، ﴿ **وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** ﴾ ، لكن الله ولى المؤمنين المتقين .

﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا**

(١ ، ٢ ، ٣) جامع البيان لابن جرير الطبرى ٤/٤٨ .

(٤) تفسير القرطبى /٤/١٨٦ . (٥) الدر المنثور /٢/٣٠٥ .

وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾ . [1]

(وقبل أن يمضى (القرآن) فى الاستعراض والتعقيب على أحداث المعركة التى انتهت بالهزيمة - يذكرهم بالمعركة التى انتهت بالنصر - معركة بدر - لتكون هذه أمام تلك ، مجالاً للموازنة وتأمل الأسباب والنتائج ، ومعرفة مواطن الضعف ، ومواطن القوة ، وأسباب النصر ، وأسباب الهزيمة ، ثم بعد ذلك ليكون اليقين من أن النصر والهزيمة كليهما قدر من أقدار الله ؛ لحكمة تتحقق من وراء النصر ، كما تتحقق من وراء الهزيمة سواءً ، وأن مردَّ الأمر فى النهاية إلى الله على كلا الحالين وفى جميع الأحوال) . [2]

والصلة الوثيقة بين بدر وأحد وماقبلها وما بعدها فى هذا السياق هى قول الله عز وجل : **﴿ وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا ﴾** . [3]

فقد صبر المؤمنون واتقوا يوم بدر ، فكان إمداد الملائكة ، وكان النصر المؤزر **﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا .. ﴾** . [4]

ولم يكن النصر بالملائكة ، ولم يكن النصر بالصبر والتقوى ، كل هذه بشائر .

﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ . [5]

لكن للنصر عوامله وأسبابه ، وللهزيمة عواملها وأسبابها ، وهى الهدف الأبعد من العرض القرآنى . بناء الإنسان الصالح القوام على البشرية ، المؤهل للخلافة في الأرض .

يقول ابن جرير :

(والقول فى تأويل قوله : **﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾** [6] يعنى بذلك جل ثناؤه **﴿ وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا ﴾** وينصركم ربكم **﴿ ولقد نصركم الله ببدر .. ﴾** على أعدائكم وأنتم يومئذ أذلة ، يعنى : قليلون فى غير منعة من الناس حتى أظهركم الله على عدوكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم ، وأنتم اليوم أكثرعددا منكم حينئذ ، فإن تصبروا لأمراللهِ ينصركم كما نصركم

---

(١) آل عمران ١٢٣ - ١٢٧ . (٢) فى ظلال القرآن /٢/٤٦٩ . (٣) آل عمران / ١٢٠ .
(٤) آل عمران / ١٢٥ . (٥) آل عمران /١٢٦ (٦) آل عمران ١٢٣ .

ذلك اليوم ﴿ **فاتقوا الله ...** ﴾ يقول تعالى ذكره : فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب محارمه ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ يقول : لتشكروه على ما منّ عليكم من النصر على أعدائكم ، وإظهار دينكم ، ولما هداكم له من الحق الذى ضل عنه مخالفوكم ...) [1] .

وحين نقف أمام الصورتين المتقابلتين :

الأولى : ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة** ﴾ .

الثانية : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال** ﴾ .

وما تحمل كل صورة من الإيحاءات النفسية .

فالصورة الأولى : تحمل عامل الخوف من المواجهة والاستعداد للموت ، والاستعداد للصبر غير أن النصر لم يكن فى الحسبان عند بدر .

(اللهم إنهم عراة فاكسهم ، اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إن تهلك هذه العصابة ، فإن شئت لا تعبد فى الأرض . اللهم نصرك الذى وعدتنى) .

﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم . وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ...** ﴾ [2] .

هذه الصورة من الضعف والاستغاثة بالله ، والاستنجاد به ، والتبرؤ من كل حول وقوة ، تقابلها الصورة الثانية : بما فيها من ثقة بالنصر ، واعتماد على العدد ، واستخفاف بالعدو ، الذى دفع بالشباب المسلم أن يخرج خارج المدينة على غير رغبة قائده عليه الصلاة والسلام : وقال : إياس بن أوس بن عنبك ، نحن بنو عبد الأشهل ، إنا لنرجو أن نكون البقر المذبح ، وقال غيره : هى إحدى الحسنيين الظفر أو الشهادة ، والله لا تطمع العرب فى أن تدخل علينا منازلنا ، وقال حمزة : والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة . (وكان يوم الجمعة صائما ويوم السبت صائما . وقال النعمان بن مالك : يا رسول الله لا تحرمنا الجنة فوالذى نفسى بيده لأدخلنها ، فقال رسول الله ﷺ لم ؟ قال : لأنى أحب الله ورسوله . ولا أفر يوم الزحف ، فقال رسول الله ﷺ : « صدقت ») [3] .

---

(١) تفسير الطبرى / ٤ / ٤٨ ـ ٤٩ .
(٢) الأنفال : ٥ وصدر : ٦ .
(٣) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٢٧٦ .

وأمام هاتين الصورتين يظهر الفرق جلياً فى النفوس على أعتاب بدر ، والنفوس على أعتاب أحد ، ويظهر جو أحد كذلك من خلال خطبة رسول الله ﷺ يوم أحد ، وما كان يشفق به على المسلمين .

(ثم قام رسول الله ﷺ فخطب الناس فقال : « يأيها الناس أوصيكم بما أوصانى به الله فى كتابه من العمل بطاعته ، والتناهى عن محارمه ، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذى عليه ، ثم وطّن نفسه له على الصبر واليقين والجدّ والنشاط ، فإن جهاد العدو شديد ، شديد كربه ، قليل من يصبر عليه ، إلا من عزم الله له رشده ، فإن الله مع من أطاعه ، وإن الشيطان مع من عصاه ، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالذى آمركم به ، فإنى حريص على رشدكم ، فإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف مما لا يحب الله ، ولا يعطى عليه النصر ولا الظفر ...) (١) .

﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ (٢) .

وعلى خلاف فى الرأى أن ذلك كان يوم بدر أو كان يوم أحد .

(أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الشعبى أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربى يمد المشركين ، فشقّ ذلك عليهم ، فأنزل الله : **﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف ﴾** إلى قوله : **﴿ مسومين ﴾** . قال فبلغت كرزاً الهزيمة فلم يمد المشركين ولم يمد المسلمون الخمسة .) (٣) .

هذا الرأى الأول ، أما الرأى الثانى :

فعن ابن زيد قال : (قالوا لرسول الله ﷺ وهم ينتظرون المشركين : يا رسول الله أليس يمدنا الله كما أمدنا يوم بدر؟ فقال رسول الله ﷺ : « ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، فإنما أمدّكم يوم بدر بألف » ، قال : فجاءت الزيادة من الله على أن يصبروا ويتقوا)(٤) .

---

(١) المغازى للواقدى / ١ / ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) آل عمران : ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٣) الدر المنثور / ٤ /٣٠٨ .

(٤) الدر المنثور / ٤ /٣٠٨ ، ٣٠٩ .

ويزيد القرطبى الأمر وضوحاً بقوله :

(.. فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور ، والحمد لله (أى أن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت) وعن خارجة بن إبراهيم عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : « من القائل يوم بدرمن الملائكة أقدم حيزوم ؟ » فقال جبريل : « يا محمد ما كل أهل السماء أعرف » .

وعن على رضى الله عنه أنه خطب الناس فقال : (بينا أنا أمتح من قليب بدر جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط ، ثم ذهبت ، ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط إلا التى كانت قبلها ، قال : وأظنه ذكر ، ثم جاءت ريح شديدة . فكانت الريح الأولى جبريل نزل فى ألف من الملائكة مع رسول الله ﷺ ، وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل فى ألف من الملائكة عن يمين رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر عن يمينه . وكانت الريح الثالثة إسرافيل نزل فى ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله ﷺ وأنا فى الميسرة ..) (١) .

وقال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر . وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون إنما يكونون عدداً أو مدداً .

قال قتادة : كان هذا يوم بدر ، أمدهم الله بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين** ﴾ وقوله : ﴿ **ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلف من الملائكة منزلين** ﴾ وقوله : ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** ﴾ فصبر المؤمنون يوم بدر واتقوا فأمدهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم ، فهذا كله يوم بدر . وقال الحسن : فهؤلاء والخمسة آلاف ردء للمؤمنين يوم القيامة .

(وقيل : إنما كان هذا يوم أحد، وعدهم الله المدد إن صبروا . فما صبروا فلم يمدهم بملك واحد ولو أمدوا لما هزموا) (٢) .

(وأخرج بن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **إن تصبروا وتتقوا ...** ﴾ الآية قال : كان هذا موعداً من الله يوم أحد عرضه على نبيه ﷺ : أن المؤمنين إن اتقوا وصبروا أيدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، ففر المسلمون يوم

---

(١) تفسير الطبرى / ٤ / ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٢) المصدر السابق / ٤ / ١٩٥ .

أحد وولوا مدبرين فلم يمدهم الله) [1] .

(وأخرج ابن إسحاق والطبرانى عن ابن عباس قال : كانت سيما الملائكة يوم بدرعمائم بيضاً قد أرسلوها فى ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمراً ، ولم تضرب الملائكة فى يوم سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون عدداً ومدداً لا يضربون) [2] .

(قال عكرمة والضحاك فإن قيل . فقد ثبت عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن يساره يوم أحد رجلين عليهم ثياب بيض يقاتلون عنه أشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد) [3] .

قيل له : لعل هذا مختص بالنبى ﷺ ، خص بملكين يقاتلان عنه ولا يكون هذا إمداداً للصحابة والله أعلم) [4] .

ونخلص إلى أن فقدان الشرط الذى هو الصبر والتقوى ـ هو الذى حال دون تنفيذ موعود الله للمؤمنين . ولا شك أن الحديث عن القاعدة الصلبة من المؤمنين ، وليس الحديث عن المنافقين . فأولئك لهم حديث خاص .

﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . ليقطع طرفاً من الذين كفرو أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾ [5] .

(إن النصر من عند الله لتحقيق قدر الله ، وليس للرسول ـ ﷺ ـ ولا للمجاهدين معه فى النصر من غاية ذاتية ، ولا نصيب شخصى ، كما أنه ليس له ولا لهم دخل فى تحقيقه ، وإن هم إلا ستار القدرة ، تحقق بهم ما تشاء . فلا هم أسباب هذا النصر وصانعوه ، ولا هم أصحاب هذا النصر ومستغلوه ! إنما هو قدر الله يتحرك بحركة رجاله ، وبالتأييد من عنده ؛ لتحقيق حكمة الله من ورائه وقصده :

﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا ﴾ فينقص من عددهم بالقتل ، أو ينقص من أرضهم بالفتح ، أو ينقص من سلطانهم بالقهر ، أو ينقص من أموالهم بالغنيمة أو ينقص من فاعليتهم فى الأرض بالهزيمة ! **﴿ أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾** .

أى يصرفهم مهزومين أذلاء ، فيعودوا خائبين مقهورين) [6] .

---

(1) الدر المنثور / ٤ / ٣٠٨ .
(2) المصدر نفسه / ٤ / ٣٠٩ .
(3) البخارى كتاب ٤ / باب غزوة أحد ١٧ / جـ ٥ / ١٢٤ .
(4) تفسير القرطبى / ٤ / ١٩٥ .
(5) آل عمران / ١٢٦ ، ١٢٧ .
(6) فى ظلال القرآن / ٤ / ٤٧١ .

وإذا كانت الملائكة بألوفها المؤلفة لا تحقق نصراً ، والمؤمنون بالمئات لا تحقق نصراً ، فهل يحقق هذا النصر ، رسول الله ﷺ ؟

وعلى بساطة السؤال . لكن أهميته تلح علينا ، ونحن نعانى ما نعانى من فقر فى القيادات الفذة . وكثيراً ما نقول : إن وجود القائد الفذ التاريخى هو الذى ينقذ الجماعة المسلمة ، والأمة المسلمة . ويكون بطل انتصاراتها ، ومحقق إنجازاتها .

وإن كانت هذه القضية مسلمةً عند أمم الأرض ، فهى ليست كذلك عند الأمة المسلمة ، ولا تعدو أن تكون سببًا من الأسباب يحقق الله تعالى به وبدونه النصر .

لقد شرط القرآن الكريم لتنزيل نصره على المؤمنين ، وإمدادهم بملائكته أن يصبروا ويتقوا ، ولم يشرط عليهم وجود رسول الله ﷺ سيد القادة بشخصه بينهم .

وجاء التعقيب القرآنى هنا ليجرد هذه العقيدة خالصة نقية من الاعتماد على غير الله ، والثقة بغير الله ، ويحرر تلك القلوب من الارتباط بغير الله ، ولو كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ (١) .

أخرج ابن أبى شيبة وأحمد بن حميد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والنحاس فى ناسخه ، والبيهقى فى الدلائل عن أنس أن النبى ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد ، وشج فى وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال :

« كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ » فأنزل الله :

﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أويعذبهم فإنهم ظالمون ﴾) (٢) .

هذه هى الرواية الأولى الصحيحة ولنحيا تلك اللحظات من السيرة النبوية :

أ ـ روى البيهقى عن المقداد بن عمرو رضى الله عنه ، فذكر حديثاً فى يوم أحد ، وقال :

(.. فأوجعوا والله فينا قتلاً ذريعًا ، ونالوا من رسول الله ﷺ ما نالوا . ألا والذى

---

(١) آل عمران / ١٢٨ .

(٢) الدر المنثور / ٤ / ٣١٢ ، ٣١٠ ، ونص رواية البخاري عن أنس : (شج النبي ﷺ يوم أحد فقال كيف يفلح قوم شجوا نبيهم فنزلت ليس .....) كتاب ٦٤ / باب ١٧ غزوة أحد / جـ ٥ / ١٢٧ .

بعثه بالحق إن زال رسول الله ﷺ شبراً واحداً ، وإنه لفى وجه العدو ويفيئ إليه طائفة من أصحابه مرة ، وتفترق مرة عنه ، فربما رأيته قائماً يرمى عن قوسه ويرمى بالحجر حتى تحاجزوا) (١) .

(وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا على قتل رسول الله ﷺ ، وعرفهم المشركون بذلك ، عبد الله بن شهاب ، وعتبة بن أبى وقاص ، وابن قميئة ، وأبى بن خلف ، ورمى عتبة بن أبى وقاص يومئذ رسول الله ﷺ بأربعة أحجار وكسر رباعيته ـ أشظى باطنها اليمنى السفلى ـ وشج فى وجنتيه حتى غاب حلق المغفر فى وجنته ، وأصيبت ركبتاه فجحشتا ، وكانت حفر حفرها أبو عامر الفاسق كالخنادق للمسلمين ، وكان رسول الله ﷺ واقفاً على بعضها ولا يشعر به ، والثبت عندنا أن الذى رمى وجنتى رسول الله ﷺ ابن قميئة ، والذى رمى شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبى وقاص مع تجليل السيف . وكان عليه ﷺ درعان ، فوقع رسول الله ﷺ فى الحفرة التى أمامه فجحشت ركبتاه ، ولم يصنع سيف ابن قميئة شيئا إلا وهن الضربة بثقل السيف ، فقد وقع لها رسول الله ﷺ) (٢) .

ويروى لنا غلام أنصارى هذا المنظر فيقول : (حضرت يوم أحد وأنا غلام ، فرأيت ابن قميئة علا رسول الله ﷺ بالسيف ، فرأيت رسول الله ﷺ وقع على ركبتيه فى حفرة أمامه حتى توارى ، فجعلت أصيح ـ وأنا غلام ـ حتى رأيت الناس ثابوا إليه ، قال : فأنظر إلى طلحة بن عبيد الله آخذاً . بحضنه حتى قام رسول الله ﷺ) (٣) .

ويروى لنا الصدّيق رضى الله عنه منظراً آخر فيقول :

(... فانتهيت إلى رسول الله ﷺ ، وقد كسرت رباعيته ، وشج وجهه ، وقد دخل فى وجنتيه حلقتان من حلق المغفر (٤) . فقال رسول الله ﷺ عليكما صاحبكما ، يريد طلحة وقد نزف الدم فتركناه ، وذهبت لأنزع ذلك من وجه رسول الله ﷺ فقال أبو عبيدة أقسمت عليك بحقى لما تركتنى ، فتركته ، وكره أن يتناولها بيده فيؤذى رسول الله ﷺ . فأزم (٥) عليها بفيه ، فاستخرج إحدى الحلقتين ، ووقعت ثنيته(٦) مع تلك الحلقة ، وذهبت لأصنع ما صنع ، فقال : أقسمت عليك بحقى لما تركتنى ، ففعل كما فعل فى

(١) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٢٩٠ .
(٢) المغازى للواقدي / ١ / ٢٤٣ ، ٢٤٤ .
(٣) المغازى للواقدي عن الضحاك بن عثمان (صدوق مبهم) عن ضمرة ا بن سعيد (ثقة) عن أبي بشير المازني وهو الغلام الأنصارى .
(٤) المغفر : حلق درع ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .
(٥) أزِم عليها بفيه : عضَّ عليها شديداً .
(٦) ثنية : الضرس الذي في مقدم الفم .

المرة الأولى ، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتماً [١] ..) [٢] .

(وسال الدم في شجته التي في جبهته حتى أخضل الدم لحيته ﷺ ، كان سالم مولى أبي حذيفة يغسل الدم عن وجهه ورسول الله ﷺ يقول : «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم ، وهو يدعوهم إلى الله ؟» فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم** ... ﴾) [٣] .

وذاك غلام آخر ينقل لنا صورة نابضة بالحياة من هناك هو أبو سعيد الخدري فيقول :

(وكان أبو سعيد الخدري يحدث أن رسول الله ﷺ أصيب وجهه يوم أحد . فدخلت الحلقتان من المغفر في وجنته ، فلما نزعتا جعل الدم يسرب كما يسرب الشن[٤] ، فجعل مالك بن سنان يملج [٥] الدم بفيه ثم ازدرده [٦] . فقال رسول الله ﷺ : من أحب أن ينظر إلى من خالط دمه دمي فلينظر إلى مالك بن سنان فقيل لمالك : تشرب الدم ؟ قال : نعم . أشرب دم رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « من مس دمي دمه لم تصبه النار » ، قال أبو سعيد : فكنا ممن رُدّ من الشيخين [٧] ، لم نجز مع المقاتلة فلما كان من النهار ، وبلغنا مصاب رسول الله ﷺ وتفرق الناس عنه جئت مع غلمان من بني خدرة نعترض لرسول الله ﷺ وننظر إلى سلامته فنرجع بذلك إلى أهلنا . فلقينا الناس منصرفين ببطن قناة [٨] . فلم يكن لنا همة إلا النبي ﷺ ننظر إليه . فلما نظر إلي قال : سعد بن مالك ؟ قلت : نعم بأبي وأمي . فدنوت منه فقبلت ركبته ، وهو على فرسه ، ثم قال : آجرك الله في أبيك ، ثم نظر ت في وجنتيه موضع الدرهم في كل وجنة ، وإذا شجة في جبهته عند أصول الشعر ، وإذا شفته السفلى تدمي ، وإذا رباعيته اليمنى شظية .. فجعلت أعدو بين يديه حتى نزل ببابه ، فما نزل إلا حملاً . وأرى ركبتيه مجحوشتين [٩] يتكئ على السعدين [١٠] حتى دخل بيته) [١١] .

---

(١) هتماً : ساقط الثنيتين .
(٢) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٢٩٥ ـ ٢٩٦ عن الطيالسي وابن حبان .
(٣) المغازى للواقدى ١/٢٤٩ .
(٤) الشن : القربة القديمة .
(٥) يملج : يمص .
(٦) ازدرد : ابتلع .
(٧) الشيخين : اسم مكان .
(٨) قناة : اسم مكان .
(٩) مجحوشتين : مجروحتين .
(١٠) سعد بن معاذ وسعد بن عبادة .
(١١) المغازى للواقدى : ١ / ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(أما الرواية الثانية الصحيحة كذلك عن سبب نزول الآية فهى ما أخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وابن جرير والبيهقى فى الدلائل عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ يوم أحد : « اللهم العن أبا سفيان . اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية » فنزلت هذه الآية ﴿ **ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون** ﴾ فتيب عليهم كلهم) .[1]

ولا تعارض بين الروايتين ، فلعل هذا اللعن قد وقع عقب ما أصابه عليه الصلاة والسلام فى أحد وهو يعلم أن الذين يوقدون نار هذه الحرب ضد الله ورسوله ، هم هؤلاء الأربعة ، فأبو سفيان الذى آلت إليه زعامة قريش بعد بدر ، بعد مقتل الملأ ، والحارث بن هشام خليفة أخيه أبى جهل بن هشام ،وسهيل بن عمرو زعيم بنى عامر ، وصفوان بن أمية الذى خلف بنى جمح فى زعامتهم بعد مقتل أبيه أمية فى بدر ، وهؤلاء هم الذين مشوا ، وأوقدوا هذه الحرب .

إن مكان هذه القطعة من المعركة فى قلب المعركة ، ولكنها جاءت هنا ولما تبتدئ المعركة بعد ولما يبتدىء الحديث عنها بعد ، ولا يزال الحديث عند التعبئة الأولى للقتال ، لكن معركة العقيدة والبناء يقع أنسب مكان لها فى هذا الموقع ، فى مكان الاعتماد على الله وحده دون خلقه .

﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون ..** ﴾ .

﴿ **وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن قلوبكم به** ﴾ .

﴿ **وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم** ﴾ .

﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ .

﴿ **أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون** ﴾ .

﴿ **ولله مافى السموات ومافى الأرض يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء والله غفور رحيم** ﴾ [2] فلله وحده مافى السموات ومافى الأرض ، وله وحده الحكم على هؤلاء الناس فلاحًا أو شقاء ، توبة أو عذاباً ، ولله وحده الأمر ، ومن الله وحده النصر ، وعليه وحده التكلان ، ومنه البشرى ، وبذكره تطمئن القلوب ، والجميع ستار لقدره ، ومن قدره عز وجل أن يتوب على الأربعة الكبار ، ويفلحوا بعد أن خضبوا وجه نبيهم

(١) الدر المنثور ٣١٢/٤ .
(٢) آل عمران / ١٢٩ .

بالدم.

فلقد قطع طرف منهم فماتوا كفاراً فى بدر ، وانقلبوا خائبين من كان منهم أحياء ، ثم كان قدر الله أن يمتد الزمن بهؤلاء الكبار الأربعة ، ويترضى عنهم المؤمنين فى الأرض ، بدلاً من لعنة الأجيال تترى عليهم ، فذلك قدر الله ، الذى لا يعرفه أحد سواه ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء .

معركة الأخلاق :

ومن الجولة الأولى فى معركة العقيدة إلى الجولة الثانية فى معركة الأخلاق .

قال تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التى أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء . والكاظمين الغيظ . والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ .(١)

يحسن ألا ننسى أن هذه التوجيهات القرآنية تتنزل على المجتمع الإسلامى الأول على تفاوت طبقاته ففيهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وفيهم الجيل الجديد الذى غزا الإسلام قلبه بعد بدر ورأى نصر الله تعالى يتنزل على المؤمنين ، ووضح له الفرقان بين الحق والباطل من خلالها ، أى أن عمره فى الإسلام عامٌ واحدٌ فقط ، ومن بين هؤلاء الذين لا يزالون فى الصف المسلم من المنافقين ، ولا يزال النداء يتوجه إليهم ليثوبوا إلى رشدهم ، ويؤمنوا حقيقة لا نفاقاً ، ويتقوا النار التى أعدت للكافرين ، ويسارعوا إلى مغفرة من ربهم ، وتوبة نصوح تغسل حوبتهم ، وتعيد نظافتهم مما تلوثوا به من النفاق .

وكان كل فرد فى الصف المسلم يتلقى هذه الآيات حسب مستوى الإيمان عنده ليزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين فى قلوبهم مرض .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ،

(١) آل عمران / ١٣٠ - ١٣٦ .

واتقوا النار التى أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾ .

ولا يزال البناء بالصبر والتقوى ، هذا البناء الذى ظهر على الساحة الخلل فيه ، فأفقد المؤمنين النصر ، لا بد أن يعودوا إلى صياغة البناء من جديد .

(أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : كانوا يتبايعون إلى الأجل ، فإذا حل الأجل زادوا عليهم وزادوا فى الأجل فنزلت ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة** ﴾) [1]

(يقول ابن جرير : يعنى بذلك جل ثناؤه (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا فى إسلامكم بعد إذ هداكم الله ، كما كنتم تأكلونه فى جاهليتكم. وكان أكلهم فى جاهليتهم أن الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل ، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول له الذى عليه المال أخّر عنى دينك ، وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة . فنهاهم الله عز وجل فى إسلامهم عنه) [2] .

ويعجب المرء عن علاقة الربا فى معركة أحد ، لكن هذا العجب سرعان مايزول حين نعلم أن الربا ابتداء جشع في النفس ونهم إلى المال ، وحين نذكر أن هذا الداء من النهم إلى المال ، والطمع فى الدنيا هو الذى قاد محنة أحد إلى المسلمين ، حين لم يتمالكوا أنفسهم أمام الغنيمة من المشركين ، وعصوا أمر رسول الله ﷺ الصريح فى عدم مغادرتهم مواقعهم ، يتضح تماماً دور هذا التوجيه فى أعقاب المعركة .

والدواء الأصيل للمؤمن فى الخلاص من أكل الربا ، هو تقوى الله ، وخوف عذابه فى النار التى أعدت للكافرين . ولكنها قد تلتهم المؤمنين العصاة ، الذين يحاربهم الله ورسوله مالم يذروا الربا .

ومن جانب آخر إذا كان الإصرار على الربا عقوبة ﴿ **فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ . والذى يحاربه الله عز وجل ليس مؤهلا للاستخلاف من جهة ، أو النصر من جهة ثانية ، فلابد أن يخلص الصف المؤمن من هذا الداء الوبيل ، ويرتفع إلى مستوى الطاعة التامة لله والرسول لتحقيق الفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة .

لكن هلى يكفى الامتناع عن الربا ، وأكله أضعافاً مضاعفة للنجاة والفلاح والنجاح ؟!

لابد من الخطوة اللاحقة لتحقيق التقوى .

(١) الدر المنثور /٤/٣١٣ .
(٢) تفسير الطبرى /٤/٥٩ .

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ والمسارعة إلى التوبة من الربا وذيوله لتحقيق المغفرة ، واتقاء النار التى أعدت للكافرين ، لابد من الخطوات الايجابية السريعة للوصول إلى الجنة التى أعدت للمتقين .

فليس الأمر كفاً عن الحرام فقط . لكنه كذلك مبادرة إلى الخيرات .

فمن هم هؤلاء المتقون ؟

﴿ الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ .

(فليس الأمر انتهاءً عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة لإثمار المال بالطرق الحرام ، بل هو إنفاق كذلك فى السراء والضراء ، فى العسر واليسر ، لإثمار المال بالطريق الحلال . إنها خطوات ضخمة في البناء ، من تنمية المال بالحرام أضعافاً مضاعفة ، إلى إنفاقه فى الحلال أضعافاً مضاعفة ، فى الفاقة والغنى ، والعسر واليسر والسراء والضراء ، ولا شك أن هذا يحتاج إلى خطوات متسارعة للوصول إلى هذا الأفق الوضيء . من ذلك المستنقع الوبيء ، وتبقى القضية كلها ابتداء معركة نفوس ترقى وترقى حتى تصل إلى هذا المستوى ، فوراء الربا أضعافا مضاعفة نفوس منحطة منهمة شرهة ، تقتات على حاجة الآخرين ، ووراء الإنفاق فى السراء والضراء نفوس عالية كريمة رفيعة تتخلى عن قوتها لتكفى حاجة الآخرين ، وشتان بين الثرى والثريا .

هذه النفوس تحتاج إلى بذل غير بذل المال ، تحتاج لتكون من المتقين أن تكون من : **﴿ الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾** تحتاج ابتداء أن توقف جماح غيظها وغضبها ، كما توقف جماح نهمها وشهوتها ، ثم تنتقل بعدها إلى العفو والإحسان إلى الإنفاق من العفو كما تنفق من المال ، إلى الصدقة بالإعراض على من شتم ، كما تتصدق بالضراء على من احتاج ، تحتاج إلى أن تكون من المحسنين . إلى من أساء إليها بالعفو والإكرام ، وإلى من احتاج النفقة أو قوت بالبذل والإكرام ، وتبقى أخيراً ضمن إطار المتقين . هذا الصبر وهذه التقوى ، الذى فات قبل أحد ، كيف يعاد ؟ وكيف يبنى من جديد ؟

كظم الغيظ وحده لا يكفى (فالغيظ انفعال بشرى ، تصاحبه أو تلاحقه فورة في الدم ، فهى إحدى دفعات التكوين البشرى وإحدى ضروراته ، وما يغلبه الإنسان إلا بتلك

الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراقة التقوى ، وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات ، والضرورات ، وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى ، وهى وحدها لا تكفى ، فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن ، فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة ، ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين .. وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن .. لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم فى نفوس المتقين - إنها العفو والسماحة والانطلاق .

إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه ، وشواظ يلفح القلب ، ودخان يغشى الضمير .. فأما حين تصفح النفس ، ويعفو القلب ، فهو الانطلاق من ذلك الوقر ، والرفرفة فى آفاق النور ، والبرد فى القلب ، والسلام فى الضمير .. والله يحب المحسنين) .[1]

(وحين تتجسد الآية فى واقع عملى تتضح أبعادها ، فقد روى عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مرقة حارة ، وعنده أضياف فعثرت فصبت المرقة عليه ، فأراد ميمون أن يضربها ، فقالت الجارية : يامولاى استعمل قول الله تعالى ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ قال لها قد فعلت ، فقالت : اعمل بما بعده ﴿ **والعافين عن الناس** ﴾ فقال: قد عفوت عنك ، فقالت الجارية ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ قال ميمون : قد أحسنت إليك فأنت حرة لوجه الله تعالى) .[2]

وروى عن الأحنف بن قيس مثله .

﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون** ﴾ .

ثلاثة خطوط فى النفس البشرية - تنطلق هذه الآيات لتعالجها : شهوة المال ، وشهوة الغضب ، وشهوة الجنس . ولابد من ضبط هذه الشهوات ابتداءً بحيث لا تجمح خارج الإطار ، فى الربا الماحق ، والغضب الساحق ، والفاحشة المهلكة . ثم تعود لترتفع بعدها ، إلى الإنفاق فى السراء والضراء ، وإلى العفو عن المسىء والإحسان إليه ، وإلى الاستغفار وهجر الإصرار .

وكم هو ارتباط الصبر والتقوى - بكبح جماح هذه الشهوات الثلاث ، التى يعتمل سعارها فى القلب فيؤدى لظاها إلى السعير ، بينما تقف عظمة مواجهتها حرقاً لحب المال

(١) في ظلال القرآن / ١ / جـ ٤ / ٤٦٩ .

(٢) تفسير القرطبى ٤ / ٣٠٧ .

بالإنفاق ، وخنقا للغيظ بالإحسان للمسيء وإطفاء لهيب الشهوة الحرام بالتوبة النصوح .

وإن المتقين فى أعلى مراتب المؤمنين .. ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك فى عداد المتقين : ﴿ **الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ .. والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها ، ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها من رحمة الله ، ولا تجعلهم فى ذيل القافلة .. قافلة المؤمنين .. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة .. مرتبة « المتقين » .. على شرط واحد . شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته .. أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم ، وألا يصروا على مافعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة ، وألا يتبجحوا بالمعصية فى غير تحرج ولا حياء .. وبعبارة أخرى أن يكونوا فى إطار العبودية لله والاستسلام له فى النهاية ، فيظلوا فى كنف الله وفي محيط عفوه ورحمته وفضله .

(إن هذا الدين ليدرك ضعف المخلوق البشرى الذى تهبط به ثقلة الجسد أحيانًا إلى درك الفاحشة وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة الحيوان فى حمى الشهوة ، وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله فى حمى الاندفاع . يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه ، ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه ، حين يرتكب الفاحشة .. المعصية الكبيرة ، وحسبه أن شعلة الإيمان ماتزال فى روحه لم تنطفىء وأن نداوة الإيمان ماتزال فى قلبه لم تجف ،وأن صلته بالله ماتزال حية لم تذبل ، وأنه يعرف أنه عبد يخطىء وأن له رباً يغفر ، وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطىء المذنب بخير ، إنه سائر فى الدرب لم ينقطع به الطريق ، ممسك بالعروة لم ينقطع به الحبل ،فليعثر ماشاء له ضعفه أن يعثر ، فهو واصل فى النهاية مادامت الشعلة معه ، والحبل فى يده . ما دام يذكر الله ولا ينساه ، ويستغفره ، ويقر بالعبودية له ، ولا يتبجح بمعصيته) . (١)

﴿ **أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين** ﴾ . (٢)

فلابد أن تكون النتيجة جاهزة والثمرة دانية للذين يستغفرون ولا يصرون على مافعلوا ، فالجزاء المغفرة والجنة التى تجرى من تحتها الأنهار .

---

(١) فى ظلال القرآن /٢/٤٧٦ .

(٢) آل عمران / ١٣٦ .

(أخرج عبد بن حميد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن رجلاً أذنب ذنباً فقال : رب إني أذنبت ذنبًا فاغفره ، فقال الله : عبدى عمل ذنباً ، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى ، ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنبًا فاغفره فقال تبارك وتعالى : علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى ، ثم عملا ذنبًا آخر فقال : رب إني عملت ذنبًا فاغفره ، فقال الله : علم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به ، أشهدكم أني قد غفرت لعبدى فليعمل ماشاء ») [1] .

(وأخرج أبو يعلى عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال : « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما فإن إبليس قال : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، وهم يحسبون أنهم مهتدون » [2] .

الجولة الثالثة : في قلب المعركة

قال تعالى :

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض . فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة و لما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ . [3]

يقول ابن جرير رحمه الله :

(يعنى بقوله تعالى ذكره **﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾** قد خلت من قبلكم سنن مضت وسلفت فيمن كان قبلكم يامعشر أصحاب محمد وأهل الإيمان من نحو قوم عاد وثمود وقوم هود وقوم لوط وغيرهم من سلاف الأمم قبلكم سنن يعنى مثلات سير بها فيهم ، وفيمن كذبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم ، بإمهالى أهل التكذيب فيهم ؛ واستدراجى إياهم حتى بلغ الكتاب فيهم أجله الذى أجلته لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم ، ثم أحللت بهم

(١ ، ٢) الدر المنثور /٣٢٧ ، ٣٢٨ . (٣) آل عمران / ١٣٧-١٤٢ .

عقوبتى ، وأنزلت بساحتهم نقمتى ، فتركتهم لمن بعدهم أمثالاً وعبراً ﴿ **فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ يقول : فسيروا أيها الظانون أن إدالتى من أدلت من أهل الشرك على محمد يوم أحد لغير استدراج منى لمن أشرك بى وكفر برسلى ، وخالف أمرى فى ديار الأمم الذين كانوا قبلكم ممن كان على مثل الذى عليه هؤلاء المكذبون برسولى والجاحدون وحدانيتى ، فتعلموا عند ذلك أن إدالتى من أدلت من المشركين على نبيى محمد وأصحابه بأحد إنما هى استدراج وإمهال ليبلغ الكتاب أجله الذى أجلت لهم ، ثم إما أن يؤول حالهم إلى مثل مآآل عليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم من تعجيل العقوبة عليهم ، أو ينيبوا إلى طاعتى واتباع رسولى ، وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل) .(١)

لقد كانت معجزة بدر والنصر الساحق العظيم الذى تحقق فيها ـ قد رسم فى نفوس المؤمنين أن خط المحنة قد انتهى ، وأن خط النصر سيمضى صعداً لا تراجع فيه ولا انحناء ، ولذلك اختلفت الصورة من ﴿ **كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** ﴾ إلى ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون** ﴾(٢) إنهما صورتان نفسيتان متقابلتان متعارضتان . تحمل كل واحدة فيهما مدلولاً عميقًا على أغوار هذه النفس ومسارب اتجاهاتها .

ولذلك كان لابد بعد المحنة ، وبعد الاضطراب النفسى الذى وقع ، وبعد الخلل الذى حصل ، لابد بعد هذا كله من وقفة مستأنية هادئة ، تزيل هذا الاضطراب ، وتوضح هذا الخلل ، وتدعو المؤمنين الخلص إلى أن يفقهوا بعناية ودقة سنن الله تعالى مع الأمم ، وقوانين النصر والهزيمة ، لابد من التعمق فى هذه المفاهيم ، وبعد التجربة العملية الحية ، أمكن للمؤمنين أن يفقهوا هذه السنن ، فليس الحديث الآن حديثاً نظرياً ، وفلسفة تجريدية ، إنه حديث مفعم بالدم ، مثخن بالجراح .

ومهمة هذا الكتاب الكريم االذى يتلقونه غضاً طرياً من رسول الله ﷺ ـ أن يقدم البيان لهذه السنن ، والهدى للمؤمنين بعد ضلال الجاهلية المظلم ، والموعظة الحية للمتقين بعدما أصابهم ما أصابهم فى أحد .

(إن القرآن ليربط ماضى البشرية بحاضرها ، وحاضرها بماضيها ، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها وهؤلاء العرب الذين وُجِّه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم

(١) تفسير الطبرى .

(٢) آل عمران /١٤٣ .

ولم تكن معارفهم ، ولم تكن تجاربهم قبل الإسلام لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة ، لولا هذا الإسلام - وكتابه القرآن - الذى أنشأهم الله به نشأة أخرى . وخلق به منهم أمة تقود الدنيا .

إن النظام القبلى الذى كانوا يعيشون فى ظله ، ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة ومجريات حياتهم ، فضلاً عن الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها ، فضلا عن الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التى تجرى وفقها الحياة جميعاً .. وهى نقله بعيدة لم تنبع من البيئة ، ولم تنشأ من مقتضيات الحياة فى ذلك الزمان ! إنما حملتها إليهم هذه العقيدة ، بل حملتهم إليها ! وارتقت بهم إلى مستواها ، فى ربع قرن من الزمان ، على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير العالى إلا بعد قرون وقرون ، ولم يهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس الكونية ، إلا بعد أجيال وأجيال . فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقة المشيئة الإلهية ، وأنه إلى الله تصير الأمور .. فأما هذه الأمة المختارة . فقد استيقنت هذا كله ، واتسع له تصورها ، ووقع فى حسها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة ، فاستقامت حياتها على التعامل مع سنن الله الثابتة والاطمئنان - بعد هذا - إلى طلاقة المشيئة) . (١)

أما أولى هذه السنن :

﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ . (٢)

ولنقف قليلاً عند المعنى المباشر للآية ، كما وردت فى المأثور من التفاسير :

(أخرج ابن جرير عن الزهرى قال : كثر فى أصحاب محمد ﷺ القتل والجراح حتى خلص إلى كل امرئ منهم البأس فأنزل الله عز وجل القرآن ، فآسى فيه المؤمنين بأحسن ما آسى به قوماً من المسلمين كانوا قبلهم من الأمم الماضية ، فقال : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ إلى قوله ﴿ .. **لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم** . ﴾) (٣) وما أروع تلك التعزية الربانية التى تقول للمؤمنين ابتداء من تحت مطارق الموت ﴿ **أنتم الأعلون** ﴾ وتنتهى التعزية بأن ما وقع من القتل والجراح لابد أن يقع حتى لو كان القتلى فى مضاجعهم النائمين فيها وعلى فرشهم وبين أهليهم ...

---

(١) فى ظلال القرآن / ٤ /٤٧٩ .

(٢) آل عمران / ١٣٩ .

(٣) تفسير الطبرى /٢/٤/٦٧ وآل عمران /١٥٤ .

(وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج قال : انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في الشعب يوم أحد ، فسألوا : مافعل النبى ﷺ ؟ وما فعل فلان ؟ فنعى بعضهم لبعض ، وتحدثوا أن النبى ﷺ قتل ، فكانوا فى هم وحزن ، فبينما هم كذلك علا خالد بن الوليد بخيل المشركين فوقهم على الجبل ، وكان على أحد مجنبتى المشركين ، وهم أسفل من الشعب ، فلما رأوا النبى ﷺ فرحوا ، فقال النبى ﷺ « اللهم لاقوة لنا إلا بك ، وليس أحد يعبدك بهذا البلد غير هؤلاء النفر ، فلا تهلكهم ، وثاب نفر من المسلمين رماة ، فصعدوا فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله ، وعلا المسلمون الجبل ، فذلك قوله ﴿ **وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾) . (١)

وتربط هذه الرواية الآية بالحدث الواقعى الذى تم فى أحد . وميزتها أنها تؤكد للمؤمنين من واقعهم العملى - أنهم حقيقة الأعلون ، حين واجهوا ذلك الطوفان البشرى وهم أسفل البشر ، وخلصوا من وهنهم وحزنهم حين رأوا بارقة حياتهم الجديدة ، محمداً ﷺ حيًا بين ظهرانيهم ، واستطاعوا أن يحتلوا الجبل من جديد ، ويكونوا الأعلون حقيقة في المعركة .

أما رواية ابن إسحاق فتقول :

(فبينما رسول الله ﷺ بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه ، إذ علت عالية من قريش الجبل ، قال ابن هشام : كان على تلك الخيل خالد بن الوليد . قال ابن إسحاق : فقال رسول الله ﷺ : « اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا » فقاتل عمر بن الخطاب ورهط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل) . (٢)

والتعبير النبوى العظيم الخالد ، يؤكد هذا العلو : « اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا » يؤكد المعنى القرآنى الذى نزل فيما بعد ﴿ **وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

ولا يكفى القرار النظرى في الأمر ، فلابد أن يتحول فى التو إلى واقع عملى ، فمن نهض لتغيير هذا الواقع ؟ الواقع الذى جعل محمداً ﷺ وصحبه فى الشعب والمشركين فى قلة الجبل .

نهض ليغير هذا الواقع ، اللبنات الأولى من القاعدة الصلبة ، التى تحضر عندما يغيب الجميع عن الساحة ، ويعجز كل من فى الساحة عن العمل ، عندئذ تتقدم .

---

(١) الدر المنثور /٤/ ٣٣٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢/ ٨٦ .

فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل ، هذا العلو المادى ، وماذا عن العلو المعنوي ؟ عن العلو الذى رفع نفس أبى سفيان فى لحظة من اللحظات ـ قبل أن يسلم رضى الله عنه ـ لأن يزهو بهبله ووثنه ويعتبر نفسه الأعلى :

(ثم إن أبا سفيان بن حرب ، حين أراد الانصراف ، أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته فقلل : انعمت فعال ، وإن الحرب سجال ، يوم بيوم أعل هبل . وإن الموقف ليذكر بأولئك الذين يرفعون دائما راية النصر بأصبعيهم . وكأنما قد تحقق النصر)

فقال رسول الله ﷺ : قم ياعمر فأجبه فقل :« الله أعلى وأجل ، لا سواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم فى النار » . (١)

وما قال هذا الكلام إلا بعد أن انتفخت أوداجه بمقتل قيادات المسلمين .

(لما تحاجز الفريقان أراد أبو سفيان الانصراف فأقبل على فرس حتى أشرف على المسلمين فى عُرض الجبل فنادى بأعلى صوته : أفى القوم محمد ؟ ثلاثًا . فقال رسول الله ﷺ « لا تجيبوه » فقال أفى القوم ابن أبى قحافة : فقال :« لا تجيبوه » . فقال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فقال :« لا تجيبوه » .

(ولم يسأل عند هذه الثلاث إلا لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم) . فقال أبو سفيان بعد أن رجع إلى أصحابه إن هؤلاء قد قتلوا . فلو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه !) (٢)

وفى حديث ابن عباس عن الإمام أحمد والطبرانى والحاكم : أن عمر بن الخطاب قال : ألا أجيبه ؟ قال : بلى (قال فى الفتح : كأنه نهى عن إجابته فى الأول وأذن فيها فى الثالثة) . فقال عمر : كذبت ياعدو الله قد أبقى الله لك مايخزيك . إن الذين عددت لأحياء كلهم) (٣) .

فقال أبو سفيان : أعل هُبل : فقال : عمر : الله أعلى وأجل ! قال أبو سفيان : إنها قد أنعمت فعال عنها : ثم قال : أين ابن أبى كبشة ؟ أين ابن أبى قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : هذا رسول الله ، وهذا أبو بكر ، وهذا عمر . فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٨٦ .

(٢) المغازى للواقدى ١ /٢٩٦ ، ٢٩٧ . وهى فى البخارى كتاب ٦٤ / باب ١٣ / جـ٥ /١٢١ .

(٣) سبل الهدى والرشاد /٤/٣٢٤

ألا إن الأيام دول ، وإن الحرب سجال . فقال عمر : لا سواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار ! قال أبو سفيان : إنكم تقولون ذلك ! لقد خبنا إذن وخسرنا ! قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ! فقال عمر : الله مولانا ولا مولى لكم : قال أبو سفيان إنها قد أنعمت يابن الخطاب فعال عنها ، ثم قال : قم إلىَّ يابن الخطاب أكلمك . فقام عمر . فقال أبو سفيان : أنشدك بدينك ، هل قتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال : أنت عندى أصدق من ابن قميئة) . (١)

(وذكر الأموى فى مغازيه : أن المشركين صعدوا على الجبل فقال رسول الله ﷺ لسعد : « اردده‍م » قال : كيف أردهم وحدى ؟ فقال ذلك ثلاثاً . فأخذ سعد سهماً من كنانته فرمى به رجلاً فقتله ، قال : ثم أخذت سهمى أعرفه فرميت به آخر فقتلته ، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته . فهبطوا من مكانهم) . (٢)

ونخلص من الأسباب المباشرة لنزول الآية إلى الآفاق الوضيئة التى تجول فيها هذه الآية .

يقول القرطبى بصدد هذه الآية :

(﴿ **وأنتم الأعلون** ﴾ يعنى الغالبين على الأعداء بعد أحد ، فلم تُخرجوا بعد ذلك عسكرًا إلا ظفروا فى كل عسكر كان فى عهد رسول الله ﷺ ، وفى كل عسكر كان بعد رسول الله ﷺ ، وكان فيه واحد من الصحابة كان الظفر لهم ، وهذه البلدان كلها إنما افتتحت على عهد أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم بعد انقراضهم ما افتتحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتتحون فى ذلك الوقت ، وفى هذه الآية بيان فضل هذه الأمة ؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه ، لأنه قال لموسى ﴿ **إنك أنت الأعلى** ﴾ وقال لهذه الأمة : ﴿ **وأنتم الأعلون** ﴾ وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى . فهو سبحانه العلى ، وقال للمؤمنين : ﴿ **وأنتم الأعلون** ﴾) . (٣)

(﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

لا تهنوا من الوهن والضعف ، ولا تحزنوا ـ لما أصابكم ولما فاتكم ، وأنتم الأعلون عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون لله وحده ، وهم يسجدون لشىء من خلقه أو لبعض من خلقه ! ومنهجكم أعلى ، فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله ، وهم يسيرون على

---

(١) المغازى للواقدى /١/٢٩٧ .
(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ /٣١١ .
(٣) تفسير القرطبى /٤/٢١٧ .

منهج من صنع خلق الله ! ودوركم أعلى فأنتم الأوصياء على هذه البشرية ، كلها الهداة لهذه البشرية كلها ، وهم شاردون عن المنهج ، ضالون عن الطريق ، ومكانكم فى الأرض أعلى ، فلكم وراثة الأرض التى وعدكم الله بها ، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون . فإن كنتم مؤمنين حقا فأنتم الأعلون . وإن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا ، فإنما هى سنة الله أن تصيبوا وتصابوا على أن تكون لكم العقبى بعد الابتلاء والتمحيص) . (١)

وأن يأتى هذا الكلام من عند الله تعالى . للمؤمنين فى أحد . فى أول حديث عن سننه تعالى فى الأمم . لا فى مجال المرحلة العابرة ، واللحظة الماضية ، إنما فى مجال التحديد النوعى للمؤمنين ، وتطالبهم أن يدعوا الحزن والوهن ، فهم الأعلون طالما أنهم مؤمنون .

وهو من جهة ثانية استنهاض للهمم التى فترت ، والنفوس التى حزنت ، لتتجاوز حزنها وتتعالى على مصيبتها ، وتمضى قدماً فى تحقيق ذلك الهدف .

فأى علاج فى هذا الوجود يفوق هذا العلاج ، ويشحذ تلك الهمم ، وينغص ذلك الألم ، الذى ألم بالمؤمنين ؟

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ . (٢)

لقد كان هذا القرح مرتبطا بأسرى بدر .

(فعن على بن أبى طالب أن رسول الله ﷺ قال : إن جبرائيل هبط عليه فقال له : خيِّرهم يعنى أصحابك فى أسارى بدر القتل أم الفداء على أن يقتل منهم قابل مثلهم ، قالوا : الفداء ويقتل منا) . (٣)

فقد كان عدد قتلى أحد بعدد أسرى بدر ، أما الجرحى فكان عددهم أوفر وأكثر ولابد أن نعيش فى داخل السيرة ، لنشهد شيئا من هذا القرح . وهذا التمحيص والشهداء المجتبين .

---

(١) فى ظلال القرآن /٤/٤٨٠ . (٢) آل عمران /١٤٠ - ١٤٢ .

(٣) رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث الثورى . وفى الباب عن ابن مسعود وأنس وأبى برزة وجبير بن مطعم .

١ ـ (قال ابن إسحاق : وكان أول من أقبل من المسلمين بعد التولية قيس بن محرِّث .. فصادفوا المشركين فدخلوا حومتهم فما أفلت منهم رجل حتى قتل ، ولقد ضاربهم قيس حتى قتل نفراً ، فما قتلوه إلا بالرماح ، نظموه ووجدوا به أربع عشرة طعنة قد جافته ، وعشر طعنات في بدنه) . (١)

٢ ـ (وكان عباس بن عبادة بن نضلة ، وخارجة بن زيد ، وأوس بن أرقم يرفعون أصواتهم فيقول عباس : يامعشر المسلمين : اللهَ ونبيكم ، هذا الذى أصابكم بمعصية نبيكم ، فوعدكم النصر ماصبرتم ، ثم نزع مغفره ، وخلع درعه ، وقال لخارجة بن زيد : هل لك فيها ؟ قال : لا . أنا أريد الذى تريد ، فخالطوا القوم جميعاً وعباس يقول : ماعذرنا عند ربنا إن أصيب رسول الله ﷺ ، ومنا عين تطرف ، فيقول خارجة : لا عذر لنا عند ربنا ولا حجة ، فقتل سفيان بن عبد شمس عباساً وأخذت خارجة بن زيد الرماح فجرح بضعة عشر جرحًا ، وأجهز عليه صفوان بن أمية ، وقتل أوس بن أرقم رضى الله عنه ، ومرَّ مالك بن الدخشم على خارجة بن زيد ، وهو قاعد في حشوته وبه ثلاثة عشر جرحاً كلها قد خلصت إلى مقتل ، فقال : أما علمت أن محمداً قد قتل ؟ فقال خارجة : إن كان رسول الله قد قتل ، فإن الله حى لا يموت ، فقد بلغ رسول الله ﷺ فقاتل عن دينك) (٢) .

٣ ـ (وروى الطبرانى بسند رجاله ثقات عن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : لما كان يوم أحد وصرنا إلى الشعب . كنت أول من عرف رسول الله ﷺ ، فقلت : هذا رسول الله ﷺ ، فأشار إلىَّ بيده أن اسكت ، ثم ألبسنى لأمته ولبس لأمتى ، فلقد ضربت حتى جرحت عشرين جراحة ، أو قال : بضعة وعشرين جراحة ، كل من يضربنى يحسبنى رسول الله ﷺ ..) . (٣)

٤ ـ (روى الطيالسى وابن أبى شيبة وابن سعد والشيخان والترمذى والبغوى وغيرهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وابن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك ، غاب عن بدر فشقّ عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، لئن أشهدنى الله تعالى قتال المشركين ليرين الله تعالى ما أصنع ، فلما كان يوم أحد ، وانكشف المسلمون فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٠٥ .
(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٠٥، ٣٠٦
(٣) مجمع الزوائد للهيثمى / ٦ / ١١٢ .

يعني أصحابه – وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء – يعني المشركين – فانتهى إلى رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم ، فقال مايجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ ، فقال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على مامات عليه رسول الله ﷺ ، ثم استقبل القوم ، فلقيه سعد بن معاذ دون أحد . فقال : سعد : أنا معك . قال سعد : فاستقبل أنس القوم فلم أستطع أن أصنع ماصنع . فقال : ياسعد بن معاذ واها لريح الجنة ، ورب النضر إني لأجد ريحها دون أحد ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، فوجدوا في جسده بضعاً وثمانين ضربة من بين ضربة بسيف وطعنة برمح ، ورمية بسهم ، قال أنس : ووجدناه قد مثل به المشركون ، فما عرفه أحد منا إلا أخته بشامة – أو ببنانه ، فكنا نرى أو نظن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿ **رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ..** ﴾) . [1]

٥ – (وروى محمد بن سعد الأسلمي عن شيوخه وابن وهب عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد : ألا تأتي ندعو الله تعالى في ناحية ، فدعا سعد فقال : يارب إذا لقيت العدو غداً فلقيني رجل شديد بأسه ، شديد حرده أقاتله ، فيك ويقاتلني ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله ، وآخذ سلبه ، فأمن عبد الله بن جحش . ثم قال : اللهم ارزقني رجلاً شديداً بأسه ، شديداً حرده أقاتله فيك ، يقاتلني فيقتلني ، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني ، فإذا لقيتك . قلت : ياعبدي فيم جدع أنفك وأذنك ؟ فأقول : فيك وفي رسولك ، فيقول الله تعالى : صدقت . قال سعد : كانت والله دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي ولقد رأيته آخر النهار وإن أذنيه وأنفه معلقات في خيط) . [2]

٦ – (روى محمد بن سعد عن محمد بن شرحبيل العبدري قال : حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى ، فأخذ اللواء بيده اليسرى ، وهو يقول : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ الآية ، ثم قطعت يده اليسرى ، فحنى على اللواء و ضمه بعضديه إلي صدره وهو يقول : ﴿ **وما محمد إلا رسول ..** ﴾ الآية ، ثم قتل فسقط اللواء ، قال محمد بن شرحبيل وما نزلت هذه الآية ﴿ **.. وما محمد إلا رسول** ﴾ يومئذ حتى نزلت بعد) . [3]

٧ – (وقال ابن إسحاق ومحمد بن عمر : (لما انصرف المشركون أقبل المسلمون

---

(١) البخاري كتاب ٦٤ باب ١٧ / جـ٥ / ١٢٣ .
(٢) سبل الهدى والرشاد ٤ / ٣٢٢ .
(٣) المغازي للواقدي / ١ / ٢٣٩ .

على موتاهم يطلبونهم وروى الحاكم والبيهقى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه وابن إسحاق عن شيوخه : أن رسول الله ﷺ قال : « من ينظر لى مافعل سعد بن الربيع أفى الأحياء أم فى الأموات ؟ فإني رأيت اثنى عشر رمىّ شرعى إليه » فقام رجل من الأنصار - فنظر فى القتلى فناداه ثلاثاً فلم يجبه ، فقال : إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أنظر إلى خبرك ، وفى حديث زيد : فبعثنى رسول الله ﷺ يوم أحد لأنظر سعد بن الربيع ، وقال : إن رأيته فأقره منى السلام ، وقل له : كيف تجدك ؟ قال : فأصبته وهو فى آخر رمق ، وبه سبعون ضربة مابين طعنة برمح وضربة بسيف ، ورمية بسهم فقلت إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟ فقال : أنا فى الأموات ، فأبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول : جزاك الله تعالى عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، وقل له :إنى أجد ريح الجنة ، وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن يخلص إلى رسول الله ﷺ ومنكم عين تطرف ، ثم لم يبرح أن مات ، فجاء رسول الله ﷺ فأخبره خبره) . (١)

٨ - قال ابن إسحاق : وخرج رسول الله ﷺ فيما بلغنى يلتمس حمزة بن عبد المطلب . قال محمد بن عمر وغيره وجعل يقول : مافعل عمى ؟ ويكرر ذلك ، فخرج الحارث بن الصُمَّة يلتمسه فأبطأ ، فخرج على فوجد حمزة ببطن الوادى مقتولا ، فأخبر النبى ﷺ فخرج يمشى حتى وقف عليه ، فوجده قد بقر بطنه عن كبده ، ومُثّل به فجدع أنفه وأذناه فنظر إلى شىء لم ينظر إلى شئ قط كان أوجع لقلبه منه . ونظره وقد مُثِّل بـــه) (٢) .

٩ - (وروى أبو داود عن هشام بن عامر الأنصاري قال :جاءت الأنصار يوم أحد فقالوا : يا رسول الله لقد أصابنا قرح وجهد ، فكيف تأمرنا ؟ قال : احضروا وأعمقوا ووسعوا ، واجعلوا الرجلين والثلاثة في القبر الواحد ، قيل : يا رسول الله فأيهم يقدم ؟ قال : أكثرهم قرآناً) (٣) .

١٠ - (وروى الترمذي وحسنه وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند والنسائى وابن المنذر وابن خزيمة في فرائده وابن حبان والضياء في صحيحيهما عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً من المهاجرين

(١) ابن إسحاق والواقدى والحاكم والبيهقي وفى المغازي / ١ / ٢٩٢ - ٢٩٣ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٩٥ . (٣) كتاب الجنائز / ٦٧ باب تعميق القبر .

ستة . منهم حمزة ، فمثّلوا به ، فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم ، فلما كان فتح مكة أنزل الله تعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ (١) .

فقال رسول الله ﷺ : نصبر ولا نعاقب ، كفوا عن القوم إلا أربعة ..) (٢) .

وعن قتادة قال : (ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً أعز يوم القيامة من الأنصار) .

﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾ (٣) .

لقد شهدنا قرح المؤمنين ، وتداول الأيام بين المؤمنين والكافرين ، والحكمة كما يذكرها جل شأنه ليس هوان المؤمنين على الله ، بل تمحيصهم ليعرف الصادق من المنافق ، وهدف آخر .

﴿ **ويتخذ منكم شهداء** ﴾ . فهو يصطفيهم لأنه يحبهم ، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، والله لا يحب الظالمين .

إن الله تعالى اطلع على المؤمنين ؛ فأحب أن يتخذ ويختار ويصطفى منهم هؤلاء السبعين ، وهذه نماذج جديدة من السبعين كانت في الدفعات الأولى من الشهداء ، يظهر فيها اصطفاء الله تعالى لهم :

١ ـ (لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد رُفع حُسيل وثابت بن وقش في الآطام مع النساء والصبيان ، فقال أحدهما لصاحبه ـ وهما شيخان كبيران ـ لا أبالك ما ننتظر ، فوالله ما بقي لواحد منا من عمره إلا ظِمٌ حمار ، إنما نحن هامة اليوم أو غداً ، أفلا نأخذ أسيافنا ، ثم نلحق برسول الله ﷺ لعل الله تعالى يرزقنا الشهادة ، فأخذا أسيافهما ، ثم خرجا حتى دخلا في الناس من جهة المشركين ، ولم يعلم المسلمون بهما ، فأما ثابت فقتله المشركون ، وأما حسيل فاختلفت عليه أسياف المسلمين فقتلوه ، ولم يعرفوه ، فقال حذيفة : أبي ، فقالوا : ما عرفناه ، وصدقوا . فقال حذيفة : يغفر الله لكم ، وهو أرحم

---

(١) النحل / ١٢٦ .
(٢) سنن الترمذي / ١١ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
(٣) آل عمران / ١٤٠ ، ١٤١ .

الراحمين ، فأراد رسول الله ﷺ أن يديه ، فتصدق حذيفة بديته على المسلمين ، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيرا) [1] .

٢ ـ (مقتل مخيريق : هو من بني النضير .. وكان عالماً من أحبار يهود ، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته ، وما يجد في علمه ، وغلب عليه إلف دينه ، فلما كان يوم السبت قال والله يا معشر يهود ، إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق . قالوا : اليوم يوم السبت قال : لا سبت لكم ، ثم عهد إلى من وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم فأموالى إلى محمد يصنع فيها ما أراد ، ثم أخذ سلاحه ، فخرج ، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل ، فكان رسول الله ﷺ يقول : « مخيريق خير يهود » .)[2] .

٣ ـ (مقتل الأصيرم : روى ابن إسحاق عن محمود بن لبيد وأبو داود والحاكم عن أبى هريرة رضي الله عنهما أن الأصيرم كان يأبى الإسلام على قومه ، فجاء ذات يوم ورسول الله ﷺ وأصحابه بأحد ، فقال : أين سعد بن معاذ ؟ فقيل : بأحد ، فقال : أين بنو أخيه ؟ قيل بأحد ، فسأل عن قومه فقيل بأحد ، فبدا له فى الإسلام فأسلم ، وأخذ بسيفه ورمحه وأخذ لأمته ، وركب فرسه فعدا حتى دخل في عرض الناس ، فلما رآه المسلمون قالوا : إليك عنا يا عمرو ، قال إني قد آمنت ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة ، فبينا رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم فى المعركة إذا هم به ، فقالوا : والله إن هذا للأصيرم ، ما جاء به ؟ لقد تركناه ، وإنه لمنكر لهذا الحديث ، فسألوه : ما جاء به ؟ فقالوا : ما جاء بك ؟ أحدب على قومك أم رغبة فى الإسلام ؟ . فقال : بل رغبة فى الإسلام ، آمنت بالله تعالى ورسوله ، وأسلمت ثم أخذت سيفى فغدوت مع رسول الله ﷺ ، ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني ، وإن مت فأموالى إلى محمد يضعها حيث شاء . ولفظ أبي هريرة : فجاءه سعد بن معاذ فقال لأخيه : سله حمية لقومه أو غضباً لله ورسوله ؟ فقال : بل غضباً لله ورسوله ؟ فقال : غضبًا لله ورسوله ، ثم لم يلبث أن مات في أيديهم ، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال : إنه من أهل الجنة) [3] .

وأى جلاء ووضوح لاتخاذ الشهداء واصطفائهم من ربهم ، واختيارهم حباً لهم أوضح وأجلى من هذه الصور الأربع : للشيخين الكبيرين فى الحصن يندفعان منه للشهادة وللفتيين مخيريق اليهودي والأصيرم المشرك ، يسلمان ويتجهان لحظة إسلامهما للجهاد ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٨٧ .

(٢) المصدر نفسه / ٢ / ٨٩ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٩٠ .

فيتلقاهما ربهما بالشهاده .

والله لا يحب الظالمين ، إذ لا تتضح الصورة إلا بعرض قزمان كذلك ، مع هؤلاء الأربعة ، ويتجلى الفرق بين الشهداء المصطفين ، والظالمين الممقوتين .

(وكان يعرف بالشجاعة وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذكر له :« إنه من أهل النار » ، فتأخر يوم أحد فعيرته نساء بني ظفر ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يسوى الصفوف حتى انتهى إلى الصف الأول ، فكان أول من رمى من المسلمين بسهم ، فجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح ، ويكُتُّ كتيت الجمل ، ثم فعل بالسيف الأفاعيل حتى قتل سبعة أو تسعة وأصابته جراحة ، فوقع فناداه قتادة بن النعمان : يا أبا الفيداق هنيئاً لك الشهادة ، وجعل رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر ، قال : بماذا أبشر ؟ فوالله ما قاتلت إلا على أحساب قومي ولولا ذلك ما قاتلت ، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال :« إنه من أهل النار ، إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» .) (١) .

لقد انتهوا إلى القتل ، فكان أولاء إلى الجنة شهداء ، وكان هذا إلى النار ، وآن لدعاة القومية والوطنية أن يرعووا ويراجعوا حساباتهم مع الله ، وأن الذى يقتل لغير الله ـ حمية لقومه ـ أو عصبية لوطنه ، أو رياء لشخصه ، فهو من أهل النار . ولو قاتل تحت راية النبي عليه الصلاة والسلام .

ولنتابع العرض مع نماذج الشهداء ، الذين رفت أرواحهم ، وصفت نفوسهم . فرأوا الشهادة رأي عين قبل أن يذوقوها .

٤ ـ (ذكر محمد بن عمر أن خيثمة قال يوم أحد : يا رسول الله لقد أخطأتني وقعة بدر ، وكنت والله حريصاً عليها ، حتى ساهمت ابني في الخروج ، فخرج سهمه فرزق الشهادة ، وقد رأيته البارحة في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها ، ويقول : الحق بنا ترافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقا ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته في الجنة ، فادع الله تعالى أن يرزقنى الشهادة ، ومرافقته في الجنة ، فدعا له رسول الله ﷺ فقتل في أحد) (٢) .

٥ ـ (روى ابن إسحاق عن محمود بن لبيد وابن سعد عن عروة وأبو نعيم عن يحيى

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣١٧

(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٢٣ .

ابن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده قالوا : لما انكشف المشركون ضرب حنظلة فرس أبي سفيان بن حرب فوقع على الأرض ، فصاح وحنظلة يريد ذبحه ، فأدركه الأسود بن شداد فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ، ومشى إليه حنظلة في الرمح وقد أثبته ، ثم ضربه الثانية فقتله ، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « إني رأيت الملائكة تُغَسّله بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضة » .

قال أبو أسيد الساعدى : فذهبنا إليه فإذا رأسه يقطر ماءً ، فقال رسول الله ﷺ : فاسألوا أهله ما شأنه ؟ فسألوا صاحبته عنه ، فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة ، فقال رسول الله ﷺ فلذلك غسلته الملائكة) (١) .

٦ ـ (مقتل عمرو بن الجموح : كان عمرو أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسد ، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد ، وهم خلاد ومعوذ ومعاذ وأبو أيمن ، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه ، قالوا : إن الله قد عذرك ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : إن بنيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه ، والخروج معك فيه ، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : أما أنت فقد عذرك الله تعالى فلا جهاد عليك ، وقال لبنيه : ما عليكم ألا تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج يقول وهو مستقبل القبلة : اللهم لا تردنى إلى أهلي خائباً ، فقتل شهيداً) (٢) .

وروى الإمام أحمد عن قتادة بن الحارث قال : أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أُقتل أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة ؟ وكانت رجله عرجاء ـ فقال رسول الله ﷺ : نعم ، فقتلوه يوم أحد هو و ابن أخيه ومولى لهم ، فمر عليه رسول الله ﷺ وقال كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة ، فأمر بهم رسول الله ﷺ فجعلوا في قبر واحد) (٣) .

٧ ـ (مقتل عبد الله بن عمرو بن حرام :

وروى محمد بن عمر عن شيوخه قالوا : قال عبد الله بن عمرو بن حرام : رأيت في النوم قبل أحد مبشر بن عبد المنذر يقول لي : أنت قادم علينا في أيام ، فقلت : وأين أنت ؟ قال : في الجنة ، أسرح بها كيف أشاء ، قلت : ألم تقتل يوم بدر ؟ قال : بلى ، ثم أحييت ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : هذه الشهادة يا أبا جابر) (٤) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣١٤ .

(٢ ، ٣) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣١٥ .

(٤) المغازى للواقدى / ١ / ٢٦٦ .

٨ - (وأقبل وهب بن قابوس المزني ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة المزني بغنم لهما من جبل مزينة فوجدا المدينة خلوفا ، فسألا : أين الناس ؟ فقالوا : بأحد ، خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش ، فقالا : لا نبتغي أثرا بعد عين ، فخرجا حتى أتيا النبي ﷺ بأحد فيجدان القوم يقتتلون ، والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه فأغارا مع المسلمين في النهب ، وجاءت الخيل من ورائهم ، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل فاختلطوا ، فقاتلا أشد القتال ، فانفرقت فرقة من المشركين ، فقال رسول الله ﷺ : « من لهذه الفرقة ؟ » فقال : وهب بن قابوس : أنا يا رسول الله ، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ، ثم رجع . فانفرقت فرقة أخرى ، فقال رسول الله ﷺ : « من لهذه الكتيبة ؟ » فقال المزنى : أنا يا رسول الله ، فقام فذبها بالسيف حتى ولوا ، ثم رجع المزنى ، ثم طلعت كتيبة أخرى فقال : « من يقوم لهؤلاء ؟ » فقال المزني : أنا يا رسول الله . فقال : « قم وأبشر بالجنة » . فقام المزني مسروراً يقول : والله لا أقبل ولا أستقبل ، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف ورسول الله ﷺ ينظر إليه والمسلمون حتى خرج من أقصاهم ، ورسول الله ﷺ يقول : « اللهم ارحمه » ، ثم يرجع فيهم فمازال كذلك وهم محدقون به ، حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه ، فوجد به يومئذ عشرون طعنة برمح كلها قد خلصت إلى مقتل ، ومُثل به أقبح المثل يومئذ ، ثم قام ابن أخيه فقاتل كنحو قتاله حتى قتل ، فكان عمر ابن الخطاب يقول : إن أحب ميتة أموت عليها لما مات عليه المزنى)(١) .

٩ - (عن يزيد بن رومان قال : قال خوات بن جبير : لما كر المشركون انتهوا إلى الجبل ، وقد عرى من القوم ، وبقى عبد الله بن جبير فى عشرة نفر ، فهم على رأس عينين ، فلما طلع خالد بن الوليد وعكرمة في الخيل ، قال لأصحابه : انبسطوا نشزا لئلا يجوز القوم ، فصفوا وجه العدو ، واستقبلوا الشمس فقاتلوا ساعة حتى قتل أميرهم عبد الله بن جبير ، وقد جرح عامتهم ، فلما وقع جرّدوه ومثلوا به أقبح المثل ، وكانت الرماح قد شرعت في بطنه حتى خرقت ما بين سرته إلى خاصرته إلى عانته ، فكانت حشوته قد خرجت منها(٢) ..) .

١٠ - (وعن الحارث بن الفضيل الخطمي ، قال : أقبل ثابت بن الدحداحة يومئذ والمسلمون أوزاع قد سُقط في أيديهم ، فجعل يصيح : يا معشر الأنصار ، إلى ! إلى ! أنا ثابت بن الدحداحة ، إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت ! فقاتلوا عن دينكم ،

---

(١) المغازى للواقدى / ١ / ٧٥ .

(٢) المصدر نفسه / ٢٨٤ .

فإن الله مظهركم وناصركم . فنهض إليه نفر من الأنصار ، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين ، وقد وقفت لهم كتيبة خشناء ، فيها رؤساؤهم خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب . فجعلوا يناوشونهم وحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه فأنفذه فوقع ميتا ، وقتل من كان معه من الأنصار ، فيقال : إن هؤلاء لآخرمن قتل من المسلمين ، ووصل رسول الله ﷺ إلى الشعب مع أصحابه ، فلم يكن هناك قتال) (١) .

(وروى الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء علي بسيفه يومُ أحد وقد انحنى فقال لفاطمة : هاك السيف حميداً ، فإنه قد شفاني اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : لئن أجدت الضرب بسيفك ، لقد أجاد سهل بن حنيف ، وأبو دجانة ، وعاصم ابن ثابت ، والحارث بن الصمة) (٢) .

(﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ .

لقد شهدنا نماذج كافية عن الذين جاهدوا في سبيل الله ، والذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وشهدنا الصابرين على المكاره والشدائد فى البأساء والضراء وحين البأس .

وسنعرض لنماذج من المؤمنات الصابرات لتكتمل الصورة ؛ فالصابرون من الرجال غالباً يبرز صبرهم في الشدائد والمحن ، وقتال العدو ، لكن جزع المرأة وهلعها وفقدانها صبرها على مصيبة الأهل والولد ـ هو الغالب . وذلك لتتجلى صورة هذه المحنة التي أراد الله بها تمحيص الصف المؤمن ، وتتضح هذه الصورة بجلاء إذا رافقنا رسول الله ﷺ في عودته إلى المدينة :

١ ـ لما فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه رضي الله عنهم ، ركب فرسه وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة فلقيته حمنة بنت جحش ، فقال لها رسول الله ﷺ : « يا حمنة احتسبى » ، قالت : من يا رسول الله ؟ قال : « خالك حمزة بن عبد المطلب » ، قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ، هنيئاً له الشهادة . ثم قال لها : « احتسبى » قالت : من يا رسول الله ؟ قال : « أخوك عبد الله بن جحش » ، قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له . هنيئاً له الشهادة ، ثم قال لها : « احتسبى » . قالت : من يا رسول الله ؟ قال : « زوجك مصعب بن عمير » ، فقالت : واحزناه ، وفي لفظ : واعقراه ،

(١) المصدر نفسه / ٢٨١ .
(٢) المستدرك / ٣ / ٢٤ .

وصاحت وولولت . فقال رسول الله ﷺ : « إن زوج المرأة منها لبمكان ؛ لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها ، ثم قال لها : « لم قلت هذا » ؟ قالت : يا رسول الله ذكرت يتم بنيه فراعنى ، فدعا لها رسول الله ﷺ ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخلف) (١) .

(وهذا نموذج من نساء المهاجرات الأول رضى الله عنها .

ولنشهد . ونحن نتابع المسيرة . نماذج من نساء الأنصار . اللائى أحببن رسول الله ﷺ أكثر من سمعهن وبصرهن وأهلهن وولدهن .

٢ ـ وأقبل رسول الله ﷺ حتى طلع على بنى عبد الأشهل وهم يبكون على قتلاهم فذرفت عينا رسول الله ﷺ ثم قال : « لكن حمزة لا بواكى له ») (٢) .

(ومضى سعد بن معاذ إلى نسائه ونساء قومه ، فساقهن حتى لم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله ﷺ يبكين حمزة بين المغرب والعشاء ، والناس في المسجد يوقدون النيران ويتكمدون بها من الجراح) (٣) .

(وأذن بلال العشاء حين غاب الشفق الأحمر ، فلم يخرج رسول الله ﷺ حتى ذهب ثلث الليل ثم ناداه الصلاة يا رسول الله ، فهب رسول الله ﷺ من نومه وخرج . فإذا هو أخف فى مشيته منه حين دخل وسمع البكاء ، فقال : ما هذا ؟ فقيل : نساء الأنصار يبكين على حمزة فقال: « رضى الله عنكن وعن أولادكن » ، وأمر أن ترد النساء إلى منازلهن) (٤) .

وذكر ابن هشام أنه ﷺ خرج عليهن ، وهن على باب المسجد يبكين على حمزة ، فقال : ارجعن رحمكن الله ، لقد واسيتن . رحم الله الأنصار . فإن المواساة فيهم ما علمت فزعة ، فرجعن بليل مع رجالهن) (٥) .

٣ ـ وهذه سيدة نساء الأنصار ، أم من اهتز له العرش ، وقد أصبحت ثكلى بوليدها الحبيب عمرو بن معاذ ، وقد خرجت تستقبل رسول الله ﷺ .

---

(١) المغازى للواقدي / ١ / ٢٩١ ، ٢٩٢ .
(٢) سبل الهدى والرشاد /٤/ ٣٣٧ وقال : رواه أبو يعلى برجال الصحيح وأحمد وابن ماجه بسند صحيح جـ ١ / ١٥٩ .
(٣) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٣٧ .
(٤) المصدر نفسه عن المغازى / ١ / ٣١٧ .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٩٩ .

(وجاءت أم سعد بن معاذ وهى كبشة بنت رافع تعدو نحو رسول الله ﷺ وقد وقف على فرسه ، وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه ، فقال سعد : يا رسول الله : أمي ! فقال : مرحبًا بها ! فدنت حتى تأملت رسول الله ﷺ وقالت : أما إذ رأيتك سالماً فقد أشوت المصيبة فعزاها رسول الله ﷺ بعمرو بن معاذ ابنها ثم قال : « يا أم سعد أبشرى وبشرى أهليهم ، أن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعاً ، وقد شفعوا فى أهليهم » ، قالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يبكى عليهم بعد هذا ؟ !

ثم قالت : يا رسول الله ادع لمن خُلِّفُوا . فقالْ :

« اللهم اذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبتهم ، واحسن الخلف على من خلّفوا » .
ثم قال : « خل أبا عمرو ـ يعنى سعد بن معاذ ـ الدابة ، فخلى سعد الفرس ، فتبعه الناس فقال : يا أبا عمرو إن الجراح فى أهل دارك فاشية ، وليس منهم مجروح إلا يأتى يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك ، فمن كان مجروحًا فليقر فى داره . وليداو جرحه ، ولا يبلغ معى بيتى ، عزيمة منى » فنادى فيهم سعد : عزيمة من رسول الله ﷺ ألا يتبع رسول الله ﷺ جريح من بنى عبد الأشهل ، فتخلف كل مجروح ، فباتوا يوقدون النيران ، ويداوون الجرحى . ومضى سعد مع رسول الله ﷺ حتى جاء بيته .. فما نزل نبى الله ﷺ عن فرسه إلا حملا . متكئا على سعد بن عبادة وسعد بن معاذ حتى دخل بيته) (٢) .

« والله لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار » .

هكذا يقول عليه الصلاة والسلام . وبنو عبد الأشهل غرة جبين الأنصار . كما يقول عليه الصلاة والسلام : (خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث ابن خزرج ، ثم بنو ساعدة ، وفى كل دور الأنصار خير) (٣) .

فهم الطبقة الثانية فى الخيرية بعد بنى النجار . وهى الذين قال لهم سعد يومًا :

كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله فلم يبق من بنى عبد الأشهل من رجل ولا امرأة ولا صبى إلا أسلم ، هؤلاء الذين أسلموا هذا الإسلام الجماعى . كانوا النماذج الحية الخالدة فى الإسلام . فعندما جد الجد ودعا منادى الجهاد .

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٣٦ عن المغازى للواقدى / ١ / ٣١٥ ، ٣١٦
(٢) البخارى / ٦٤٥ / ٥ / ٣٨ .

كانوا أسداً حول رسول الله ﷺ ، وكانوا أكثر القوم شهداء وجرحى ، فحقت لهم هذه الشهادة . وشهدنا نماذجهم رجالا ونساءً ، وسيدهم سعد بن معاذ . الذى اهتز له عرش الرحمن .

٤ ـ (ولنشهد نموذجاً من الخيرية الأولى ، من بنى النجار ، مر رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار (١) قد أصيب أبوها وزوجها وأخوها مع رسول الله ﷺ بأحد ، فلما نُعوا إليها قالت : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير بها إليه .

فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل) (٢) .

(وروى الطبراني عن أنس بن مالك رضي الله عنه : لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حيصة وقالوا : قُتل محمد . حتى كثر الصراخ فى ناحية المدينة ، فخرجت امرأة من الأنصار محزمة ، فاستُقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها ، لا أدرى أيهم استُقبلت به أولاً ، فلما مرت على آخرهم قالوا : أبوك ، زوجك ، أخوك ، ابنك . فتقول : ما فعل رسول الله ؟ يقولون : أمامك . حتى دفعت إلى رسول الله ﷺ . فأخذت بناحية ثوبه ثم قالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمت من عطب) (٣) .

(وروي ابن أبى حاتم عن عكرمة مرسلاً قال لما أبطأ الخبر على النساء خرجن يستخبرن فإذا رجلان مقتولان على دابة أو بعير ، فقالت امرأة من الأنصار : من هذان ؟ قالوا : فلان وفلان أخوها وزوجها ، أو زوجها وابنها ، فقالت : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ . قالوا : حى . قالت : فلا أبالى ، يتخذ الله من عباده شهداء .

وأنزل الله تعالى على ما قالت : ﴿ **ويتخذ منكم شهداء** ﴾) (٤).

٥ ـ (... واستشهد ابنه خلاد بن عمرو ، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر . فحملتهم هند بنت عمرو بن حرام زوجة عمرو بن الجموح على بعير لها تريد بهم المدينة ، فلقيتها أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ ، وقد خرجت فى نسوة تستروح

---

(١) بنو دينار فرع من بنى النجار .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام / ٢ / ٩٩ .

(٣) مجمع الزوائد للهيثمى / ٦ / ١١٥ ، وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط عن شيخه محمد بن شعيب ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات .

(٤) الدر المنثور / ٢ / ٣٣٣ .

الخبر ، ولم يضرب الحجاب يومئذ فقالت لها : هل عندك خبر ؟ ما وراءك ؟ . قالت : أما رسول الله ﷺ فصالح ، وكل مصيبة بعد جلل ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء ، قالت :عائشة من هؤلاء ؟ قالت : أخي وابني خلاد وزوجي عمرو بن الجموح . قالت : وأين تذهبين بهم ؟ قالت : إلى المدينة أقبرهم فيها . ثم قالت : حَلْ حَلْ تزجر بعيرها فبرك ، فقالت لها عائشة : لما عليه ؟. قالت : ما ذاك به لربما حمل ما يحمل بعيران ، ولكن أراه لغير ذلك وزجرته فقام وبرك ، فوجهته راجعة إلى أحد ، فأسرع ، فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال : « إن الجمل مأمور ، هل قال عمرو : شيئا ؟ » قالت : إن عَمْراً لما توجه إلى أحد قال : اللهم لا تردني إلى أهلي وارزقني الشهادة ، فقال رسول الله ﷺ : « فلذلك الجمل لا يمضي ، إن منكم ـ معشر الأنصار ـ من لو أقسم على الله لأبره ، منهم عمرو بن الجموح . ولقد رأيته يطأ بعرجته الجنة ، يا هند ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ، ينتظرون أين يدفن » ، ثم مكث رسول الله ﷺ حتى قَبَّرهم ، ثم قال : « يا هند قد ترافقوا في الجنة » ، قالت يا رسول الله ادع الله عسى أن يجعلني معهم)[1] .

فقـدان القائـــد :

قالت تعالى : ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون . وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزى الله الشاكرين . وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابًا مؤجلاً . ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين** ﴾[2] .

وبعد أن أعلم الله تعالى سننه في المؤمنين على سنن من قبلهم في الأمم . وأن التمحيص لابد وأن يقع في الصف المؤمن. عرض القرآن الكريم الصفحة النفسية ابتداءاً والتى كان عليها المؤمنون قبيل أُحد ، ذلك الجو المشحون بالشهادة ، العبق بالدم .

﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون** ﴾ .

(أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس . أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون : ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ونستشهد ، أو ليت لنا يومًا كيوم بدر

---

(١) المغازي للواقدى / ١ / ٢٦٦ .
(٢) آل عمران / ١٤٣ ـ ١٤٥ .

نقاتل فيه المشركين ، ونُبلى فيه خيراً ، ونلتمس الشهادة والجنة والحياة والرزق ، فأشهدهم الله أحداً فلم يلبثوا إلا من شاء الله منهم فقال الله : ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ....** ﴾) [1] .

(وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى الآية قال : غاب رجال عن بدر، فكانوا يتمنون مثل بدر فيصيبوا من الأجر والخير ما أصاب أهل بدر ، فلما كان يوم أحد ولّى من ولى ، فعاتبهم الله على ذلك) [2] .

(وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : بلغنى أن رجالاً من أصحاب النبى ﷺ كانوا يقولون لئن لقينا مع النبى ﷺ لنفعلن ولنفعلن ، فابتُلوا بذلك ، فلا والله ما كلهم صدق الله ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت ....** ﴾) [3] .

هذه الصورة نلقاها فى القرآن الكريم ، ونلقاها فى التفسير ، لكننا نبحث عنها فى ثنايا السيرة فلا نجدها وكل ما نجده عند ابن إسحاق فى السيرة قوله :

(ولقد كنتم تمنون الشهادة على الذى أنتم عليه من الحق قبل أن تلقوا عدوكم ، يعنى الذين استنهضوا رسول الله ﷺ إلى خروجه بهم إلى عدوهم ؛ لما فاتهم من حضور اليوم الذى كان قبله ببدر، ورغبة فى الشهادة التى فاتتهم بها ، فقال : ﴿ **ولقد كنتم تمنون الوت من قبل أن تلقوه ...** ﴾ أى الموت بالسيوف فى أيدى الرجال قد خلى بينكم وبينهم ، وأنتم تنظرون إليهم ، ثم صدهم عنكم) [4] .

ولا نلاحظ من خلال تفسير ابن إسحاق رحمه الله تعالى للآية معنى هذا العتاب النفسى ، والذى هو هدف رئيسى فى التربية القرآنية .

وحين نعرض للآيتين بهدف المقارنة للتربية المطلوبة يتضح جانب مهم من المعنى المطلوب بناؤه فى نفس الجيل النبوى :

الآية الأولى فى بدر : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** ﴾[5] .

والآية الثانية فى أحد : ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه**

(١ ، ٢) الدر المنثور / ٢ / ٣٣٥ .
(٣) تفسير الطبرى / ٢ / ٤ / ٧٢ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام / ٣ / ٢ / ١١١ .
(٥) الأنفال / ٥ ، ٦ .

وانتم تنظرون ﴾ فقد كان الخوف من المواجهة مع العدو هو الشعور المسيطر قبيل بدر . ﴿ **وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ...** ﴾ وهذا الخطاب عام لأهل بدر ، وإن كان هذا الشعور قد ارتفع أكثر وأكثر عند فريق منهم ، فبلغ ذروته ، كما يشهد التعبير القرآني ﴿ **كأنما يساقون إلى الموت ...** ﴾ .

بينما كانت الثقة بالنصر ، والتأييد الربانى ، والرغبة بالشهادة ، هى الشعور المسيطر قبيل أحد ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت** ﴾ .

والفرق واسع جداً بين ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت** ﴾ وبين ﴿ **كأنما يساقون إلى الموت ...** ﴾ والأنعام هى التى تساق للذبح .

وكلا الشعورين ، حين يعرضهما القرآن جليين يهدف إلى عرض الضعف البشرى عند الخوف من المواجهة والضعف البشرى عند الاستخفاف بالعدو ، والإرادة الربانية تقول لهذا الجيل : إن الصورتين متكاملتان ، على ما فيهما من تناقض ، وهو تعالى الذى يملك النصر ويعطيه هبة منه سبحانه على إرادتكم غير ذات الشوكة ، ورعب فريق منكم كأنه يساق إلى الموت .

وهو جل شأنه الذى يقرر الابتلاء والمحنة، رغم الاستخفاف بالعدو ، وتمنى الموت ، والاعتماد على النفس فى إمكانية تحقيق النصر .

إنه درس عميق لهذه النفوس حين تخاف ، وحين ترجو أن ترتبط بالله وحده واهب النصر ، والقادر على المحنة والابتلاء .

ونقف مع صاحب الظلال رحمه الله فى آفاق هذه الآية :

(﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون** ﴾ .

وهكذا يقفهم السياق وجهًا لوجه مرة أخرى أمام الموت الذى واجهوه فى المعركة ، وقد كانوا من قبل يتمنون لقاءه ، ليوازنوا فى حسهم بين وزن الكلمة يقولها اللسان ، ووزن الحقيقة يواجهها فى العيان ، فيعلمهم بهذا أن يحسبوا حسابًا لكل كلمة تطلقها ألسنتهم ، ويزنوا حقيقة رصيدها الواقعى فى نفوسهم ، على ضوء ما واجهوه من حقيقتها حين واجهتهم ! وبذلك يقدرون قيمة الكلمة ، وقيمة الأمنية ، وقيمة الوعد فى ضوء الواقع الثقيل ! ثم يعلمهم أن ليست الكلمات الطائرة والأمانى المرفرفة هى التى تبلغهم

الجنة ، إنما هو تحقيق الحلمة ، وتجسيم الأمنية ، والجهاد الحقيقى ، والصبر على المعاناة ؛ حتى يعلم الله ذلك منهم كله واقعاً كائناً فى دنيا الناس !

ولقد كان الله سبحانه قادراً على أن يمنح النصر لنبيه ولدعوته ولدينه ولمنهجه منذ اللحظة الأولى ، وبلا كدٍ من المؤمنين ولا عناء ، وكان قادرًا على أن ينزل الملائكة تقاتل معهم أو بدونهم . وتدمر على المشركين كما دمرت على عاد وثمود وقوم لوط ....

ولكن المسألة ليست هى النصر ، إنما هى تربية الجماعة المسلمة ، التى تُعد لتتسلم قيادة البشرية ـ البشرية بكل ضعفها ـ ونقصها ، وبكل شهواتها ونزواتها ، وبكل جاهليتها وانحرافها وقيادتها قيادة راشدة تقتضى استعداداً عاليًا من القادة ، وأول ما تقتضيه صلابة فى الخلق ، وثبات على الحق ، وصبر على المعاناة ، ومعرفة بمواطن الضعف ، ومواطن القوة فى النفس البشرية ، وخبرة بمواطن الزلل ، ودواعى الانحراف ، ووسائل العلاج .. ثم صبر على الرخاء كالصبر على الشدة .. وصبر على الشدة بعد الرخاء ، وطعمها يومئد لاذع مرير !

وهذه التربية هى التى يأخذ الله بها الجماعة المسلمة حين يأذن بتسليمها مقاليد القيادة ، ليعدَّها بهذه التربية للدور العظيم الهائل الشاق ، الذى ينوطه بها فى هذه الأرض ، وقد شاء سبحانه أن يجعل هذا الدور من نصيب الإنسان الذى استخلفه فى هذا الملك العريض .

وقدر الله فى إعداد الجماعة المسلمة للقيادة يمضى فى طريقه ، بشتى الأسباب والوسائل ، وشتى المناسبات والوقائع ، يمضى أحيانًا عن طريق النصر الحاسم للجماعة المسلمة، فتستبشر وترتفع ثقتها بنفسها ــ فى ظل العون الإلهى ، وتجرب لذة النصر ، وتصبر على نشوته ، وتجرِّب مقدرتها على مغالبة البطر والزهو والخيلاء ، وعلى التزام التواضع والشكر لله ... ويمضى أحيانًا عن طريق الهزيمة والكرب والشدة فتلجأ إلى الله ، وتعرف حقيقة قوتها الذاتية ، وضعفها حين تنحرف أدنى انحراف عن منهج الله ، وتجرب مرارة الهزيمة ، وتستعلى مع ذلك على الباطل ، بما عندها من الحق المجرد ، وتعرف مواضع نقصها وضعفها ، ومداخل شهواتها ومزالق أقدامها ، فتحاول أن تصلح من هذا كله في الجولة القادمة .. وتخرج من النصر ومن الهزيمة بالزاد والرصيد ، ويمضى قدر الله وفق سننه لا يتخلف ولا يحيد .

وقد كان هذا كله طرفًا من رصيد معركة أحد ؛ الذى يحشده السياق القرآنى للجماعة المسلمة ، على نحو ما نرى فى هذه الآيات ، وهو رصيد مدخر لكل جماعة مسلمة ولكل جيل من أجيال المسلمين) [١] .

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾ .

يقول الإمام ابن جرير :

... ثم قال لأصحاب محمد معاتبهم على ما كان منهم من الهلع والجزع حين قيل لهم بأحد أن محمداً قد قتل ، ومقبحاً إليهم انصراف من انصرف منهم عن عدوهم وانهزامه عنهم . أفإن مات محمد أيها القوم لانقضاء أجله أو قتله عدوكم انقلبتم على أعقابكم ؟ يعنى ارتددتم على دينكم الذى بعث الله محمداً بالدعاء إليه ، ورجعتم عنه كفاراً بالله بعد الإيمان به .. ومن ينقلب على عقبيه يعنى ذلك من يرتدد منكم عن دينه ويرجع كافراً بعد إيمانه فلن يضر الله شيئاً يقول : فلن يوهن ذلك عزة الله وسلطانه ، ولا يدخل بذلك نقص فى ملكه بل نفسه يضر .

فهل كان مقتل رسول الله ﷺ من الضخامة بحيث يدفع بعض المسلمين إلى الارتداد عن دينه ؟

لقد برزت هذه الظاهرة فى إطار ضيق فى أحد ، ولكنها كانت فى إطار واسع بعد وفاة رسول الله ﷺ يوم كانت الردة الكبرى من العرب .

إن غياب شخص القائد عن الساحة له من الآثار الضخمة بحيث يؤدى إلى الارتداد والكفر عن ضعاف الإيمان . خاصة إذا كان القائد هو رسو ل رب العالمين .

وحين يشير القرآن إلى هذا الأمر الخطير ـ نجد أن كتب السيرة لا تعطيه حجمه المطلوب ، إنما تركز على الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ، بحيث لا يكاد حيز هذه القضية يذكر : بجوارهم .

بينما نرى صورة واضحة عن ذلك فى كتب التفسير .

(فعن قتادة قوله : **﴿ وما محمد إلا رسول .. ﴾** قال : ذاكم يوم أحد حين أصابهم القرح والقتل ثم تنازعوا نبى الله ﷺ بقية ذلك ، فقال أناس : لو كان نبيًا ما قتل ، وقال

(١) فى ظلال القرآن / ١ / ٤٨٢ .

أناس من علية أصحاب نبى الله ﷺ : قاتلوا على ماقاتل عليه محمد نبيكم حتى يفتح الله لكم أو تلحقوا به .) [1]

وعن السدى قال : (... وفشا فى الناس أن رسول الله ﷺ قد قتل ، فقال بعض أصحاب الصخرة : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبى فنأخذ لنا أمنة من أبى سفيان ، ياقوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم ..) .[2]

وعن الضحاك قال : (.. نادى مناد يوم أحد حين هزم أصحاب محمد ﷺ : ألا إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى دينكم الأول ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **وما محمد إلا رسول ...** ﴾) .[3]

وفى رواية عنه (.. ناس من أهل الارتياب والمرض والنفاق قالوا يوم فر الناس عن نبى الله ﷺ وشج فوق حاجبيه ، وكسرت رباعيته : قتل محمد فالحقوا بدينكم الأول) .[4]

وعن ابن عباس رضى الله عنهما (أن رسول الله ﷺ اعتزل هو وعصابة معه يومئذ على أكمة والناس يفرون ورجل قائم على الطريق يسألهم : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فيقولون ماندرى مافعل ، فقال : والذى نفسى بيده لئن كان النبى ﷺ قتل لنعطينهم بأيدينا إنهم لعشائرنا وإخواننا) .[5]

(وصرخ الشيطان عند جبل عينين . وقد تصور فى صورة جعال بن سراقة رضى الله عنه : إن محمداً قد قتل . (ثلاث صرخات) . ولم يشك فيه أنه حق ، وكان جعال إلى جنب أبى بردة يقاتل أشد القتال ، فقال جماعة من المسلمين لما سمعوا ذلك : إن كان رسول الله ﷺ قد قتل أفلا تقاتلون على دينكم ، وعلى ما كان عليه نبيكم ، حتى تلقوا الله شهداء ؟ ، وقالت جماعة : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبى ليأخذ لنا أماناً من أبى سفيان ، يا قوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم ..) .[6]

ونلحظ أن الذين ارتدوا على أعقابهم هم الذين قالوا :

لو كان نبياً ماقتل . فارجعوا إلى دينكم الأول .

أما الذين ضعفوا . وانهارت عزائمهم ، فلا يدخلون ضمن هذا الفريق ..

والملاحظة الثانية : أن هؤلاء ليسوا من المنافقين ، الذين كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون

---

(١) تفسير الطبرى /٤/٧٤ .   (٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) المصدر نفسه /٤/٧٤ .

(٦) سبل الهدى والرشاد /٤/ ٢٦٠ ، ٢٦١ .

الكفر ، إنما هم من المؤمنين الذين ارتدوا عن دينهم ، وانقلبوا على أعقابهم حين علموا بمقتل الرسول ﷺ .

والحديث فى هذا القسم من الآيات لايزال يتناول فريق المؤمنين . الثابتين منهم كالطود لا يتزعزع إيمانهم ولا يضعفون ولا يستكينون والذين اهتزت نفوسهم وضعفوا ، ووصل الأمر لدى بعضهم أن يطلبوا الأمان من أبى سفيان عن طريق عبد الله بن أبى ، أو يلقوا بأنفسهم أسرى بيد أعدائهم ، أو فروا من المعركة . والفريق الثالث هم الذين نكصوا على أعقابهم ، وارتدوا على أدبارهم .

ولا يفوتنا أن نشير إلى رأى آخر فى تفسير هذه الآية . وهو أن المقصود فى الانقلاب على العقب هو الانهزام والفرار من المعركة .

يقول القرطبى :

(.. روى أنها نزلت بسبب انهزام المسلمين يوم أحد حين صاح الشيطان : قد قتل محمد . قال عطية فقال بعض الناس : قد أصيب محمد فأعطوهم بأيديكم فإنما هم إخوانكم ، وقال بعضهم : إن كان محمد قد أصيب ألا تمضون على ما مضى عليه نبيكم ، حتى تلحقوا به فأنزل الله تعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول ..** ﴾ .. فهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين ، أى لم يكن الانهزام وإن قتل محمد . والنبوة لا تدرأ بالموت ، والأديان لا تزول بموت الأنبياء . والله أعلم) [1]

﴿ وسيجزى الله الشاكرين . وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً . ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين ﴾ . [2]

(وتطالعنا رواية على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو يعرض علينا الأفق الأبعد لهذه الآيات ، كما أوردها ابن جرير عنه فى قوله تعالى : ﴿ **.. وسيجزى الله الشاكرين** ﴾ الثابتين على دينهم أبا بكر وأصحابه ، فكان على رضى الله عنه يقول : كان أبو بكر أمين الشاكرين ، وأمين أحباء الله ، وكان أشكرهم وأحبهم إلى الله) . [3]

وذلك لأن الردة حين وقعت . كان الثابتون على دينهم قد اختاروا أبا بكر رضى الله

(١) تفسير القرطبى /٤/٢٢٢ . (٢) آل عمران /١٤٤ ـ ١٤٤٥ .
(٣) تفسير الطبرى ٤ / ٧٢ .

عنه أميراً لهم وخليفة عليهم بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فكان أبو بكر أمين الشاكرين وأمير الشاكرين ، وعصم الله به وبالمؤمنين هذه الأمة وحفظها من الضياع .

وقد رأينا الانقلاب على العقب يوم إشاعة القتل ، ونعلم الانقلاب على العقب والردة يوم موت النبي ﷺ . كما وصفتها عائشة رضى الله عنها :

(لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبة واشرأب النفاق ، والله لقد نزل بى ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها ، وصار أصحاب محمد ﷺ كأنهم معزى مطيرة فى حش فى ليلة مطيرة فى أرض مسبعة ، فوالله ما اختلفوا فى نقطة إلا طار أبى بخطلها وعنانها وفصلها .) . (١)

وبصدد الموازنة بين دور القيادة ودور العقيدة من خلال هذه الآيات يطالعنا صاحب الظلال بقوله : (وكأنما أراد الله ـ سبحانه ـ بهذه الحادثة . وبهذه الآية أن يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبى ﷺ وهو حى بينهم ، وأن يصلهم مباشرة بالنبع ، النبع الذى لم يفجره محمد ﷺ ولكن جاء فقط ليومئ إليه ، ويدعو البشر إلى فيضه المتدفق ، كما أومأ إليه من قبله الرسل ، ودعوا القافلة إلى الارتواء منه !

وكأنما أراد الله ــ سبحانه ــ أن يأخذ بأيديهم فيصلها مباشرة بالعروة الوثقى ، العروة التى لم يعقدها محمد ﷺ ، إنما جاء ليعقد بها أيدى البشر ، ثم يدعهم عليها ويمضى وهم بها مستمسكون !

وكأنما أراد الله ــ سبحانه ــ أن يجعل ارتباط المسلمين بالإسلام مباشرة ، وأن يجعل عهدهم مع الله مباشرة ، وأن يجعل مسؤوليتهم فى هذا العهد أمام الله بلا وسيط ، حتى يستشعروا تبعتهم المباشرة ، التى لايخليهم منها أن يموت الرسول ﷺ أو يقتل . فهم إنما بايعوا الله ، وهم أمام الله مسؤولون .

وكأنما كان الله ــ سبحانه ــ يعد هذه الجماعة المسلمة لتلقى هذه الصدمة الكبرى ــ حين تقع ــ وهو ــ سبحانه ــ يعلم أن وقعها عليهم يكاد يتجاوز طاقتهم . فشاء أن يدربهم عليها هذا التدريب ، وأن يصلهم به هو ، وبدعوته الباقية قبل أن يستبد بهم الدهش والذهول) (٢) .

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ﴾ .

---

(١) البداية والنهاية ٦/٣٠٩ . (٢) فى ظلال القرآن / ١ / ٤ / ٤٨٦ .

فإن كانت قضية مقتل رسول الله ﷺ إشاعة فى أحد ، فهذا لايعنى أن هذا لن يقع فيما بعد فى الموعد المحدد ، والوقت المقرر ، والكتاب المؤجل ، كما هو مصير كل نفس . لابد أن تموت أو تقتل .

﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الاخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين﴾ .

وفى أجواء أحد بين الثابتين على إيمانهم ، الذين ابتغوا رضوان الله والدار الآخرة ، وبين الناكصين على أعقابهم ، والمتزلزلين فى نفوسهم الذين طمعوا فى الحياة الدنيا ، ورعبوا من الموت ، فآثروا الفانية على الباقية ــ كان لابد من الإشارة إلى الفريقين ، وأن الراغبين فى الدنيا والطامعين فيها ينالون شيئاً من دنياهم ، لكن ليس لهم فى الآخرة من نصيب ، أما الراغبون فى لقاء الله والمتشوقون للجنة . والذين اختاروا الآخرة على الأولى ــ سينالون ثمرة جهادهم ، وسيجزيهم الله فى دنياهم وآخرتهم . وهل يمكن أن يستوى الناكص على عقبه والمرتد عن دينه والفار من الزحف مع الذى اندفع يشوط فى زماح القوم ويتشحط فى دمه ، ولايكاد يعرف من غزارة جراحاته ؟

﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الاخرة والله يحب المحسنين﴾ [١] .

(يقول الإمام القرطبى : معنى الآية تشجيع المؤمنين ، والأمر بالاقتداء بمن تقدم من خيار أتباع الأنبياء ، أى كثير من الأنبياء قتل معه ربيون كثير ، أو كثير من الأنبياء قتلوا فما ارتد أممهم ؛ قولان : الأول للحسن وسعيد بن جبير . قال الحسن : ما قتل نبى فى حرب قط ، وقال سعيد بن جبير : ما سمعنا أن نبياً قتل فى القتال ، والثانى عن قتادة وعكرمة) [٢] .

واختار ابن جرير المعنى الأول فقال :

(.. ثم أخبرهم عما كان فعل كثير من اتباع الأنبياء قبلهم ، وقال : هلا فعلتم كما كان أهل الفضل والعلم من أتباع الأنبياء قبلكم يفعلونه إذا قتل نبيهم من المضى على منهاج نبيهم ، والقتال على دينه أعداء دين الله ، على نحو ما كانوا يقاتلون مع نبيهم ، ولم تهنوا

---

(١) آل عمران / ١٤٦ ــ ١٤٨ .　　(٢) تفسير القرطبى /٤/ ٢٢٩ .

ولم تضعفوا كما لم يضعف الذين كانوا قبلكم من أهل العلم والبصائر من أتباع الأنبياء إذا قتل نبيهم . ولكنهم صبروا لأعدائهم حتى حكم الله بينهم وبينهم)[1] .

وهذا الرأى على القراءة الثانية المشهورة وكأين من نبى قُتل معه ربيون كثير .

بتقدير . قُتِل : ومعهم ربيون كثير لم يضعفوا ولم يستكينوا .أو تقدير قُتِل وقتل معه ربيون كثير . فما وهن الباقون وما ضعفوا وما استكانوا .

وهذا المعنى امتداد للآيات السابقة التى تتحدث عن إشاعة قتل النبى ﷺ وأثر هذه الإشاعة على نفوس المؤمنين .

لكن القراءة المشهورة . وهى على الرأى الأول أنه ما قتل نبى فى حرب قط .

أن النبى قاتلَ ومعه الربيون الكثير ، فما ضعفوا وما استكانوا ، إنما مضوا على الدرب الطويل يجاهدون ويموتون على ما مات عليه نبيهم وما قاتل عليه .

(والربيون : هم الجموع الكثيرة . كما ورد عن الحسن وابن عباس كذلك . وورد عن ابن مسعود : الربيون : الألوف كما ورد عن الضحاك مثله : الربة الواحدة : ألف . والربيون ألوف)[2] .

ونستطيع بعد هذه الجولة التى فقهنا فيها المعنى العام للآيات ، والتى تحث المؤمنين على أن يصبروا على درب النبوة والجهاد ، كما صبر أتباع الأنبياء وجنودهم من قبل ، مهما اشتدت المحنة ، ونيلت القيادة ـ فلابد أن نشير إلى أن هذا الجيل قد قدم نماذج خالدة مثل النماذج التى قدمها أتباع الأنبياء من قبل . وإن كنا لا نملك صورة محددة عن جهاد وصبر أتباع الأنبياء من مصدر نثق به ونطمئن إليه ـ إلا ما ورد يسيراً فى القرآن والسنة ـ لكن جهاد جنود محمد ﷺ فى أحد يبقى هو الصورة الماثلة أمام أعيننا لهذا الجهاد .

وإن كنا قد عرضنا فى الفقرة السابقة صورة الذين انقلبوا على عقبهم وضعفوا واستكانوا ، فسنعرض فى الصورة المقابلة صورة الربيين الكثير الذين قاتلوا مع نبيهم وما ضعفوا وما وهنوا وما استكانوا لما أصابهم فى سبيل الله .

وبهذا العرض نستطيع أن نصل بين القرآن والسيرة من جهة كما نستطيع أن نصل بين الآيات السابقة واللاحقة بحيث يصبح المعنى العام :

---

(١) تفسير الطبرى /٤/٧٦ .　　(٢) الدر المنثور /٤/٣٤٠ .

أيها المؤمنون إذا كان فريق منكم قد انقلب على عقبه أمام إشاعة مقتل النبى ﷺ فإن فريقا آخر من العلماء والحواريين والصحب كانوا على مستوى إيمانهم، وما تزعزعوا أمام الإشاعة لمقتل نبيهم، أو أمام نبيهم المثخن بالجراح.

وهذه هى النماذج الخالدة :

١ ـ (بعد إشاعة القتل روى ابن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنه ـ وبه سمي أنساً ـ غاب عن بدر فشقّ عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، لئن أشهدنى الله تعالى قتال المشركين ليرين الله تعالى ما أصنع فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى أصحابه ـ وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ فانتهى إلى رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيدهم، فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ، فقال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم فلقيه سعد بن معاذ دون أحد، فقال سعد : أنا معك. قال سعد : فاستقبل أنس القوم فلم أستطع أن أصنع ما صنع. فقال : يا سعد بن معاذ ـ وفى لفظ يا أبا عمرو ـ واهاً لريح الجنة، ورب النضر إنى لأجد ريحها من دون أحد، ثم تقدم فقاتل حتى قتل، فوجدوا فى جسده بضعاً وثمانين ضربة من بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم. قال أنس : ووجدناه قد مثل به المشركون فما عرفه أحد منا إلا أخته بشامة أو ببنانه، فكنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾) (١).

لقد مثل أنس بن النضر رضى الله عنه أعلى صور الفداء والتضحية والثبات، وقد بلغه مقتل رسول الله ﷺ، فما وهن وما استكان وما ضعف، وتكفيه شهادة ربه سبحانه به وبأمثاله أنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴿ **فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر** ﴾.

ولابد لنا أن نشير إلى ما ورد فى بعض الروايات لهذه الحادثة والتى تقول : « انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا ما بأيديهم، فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا :

(١) سبل الهدى والرشاد وقال : رواه الطيالسى وابن أبى شيبة وابن سعد والشيخان والترمذى والبغوى الكبير / ٤ / ٢١٧.

قتل رسول الله ﷺ ، قال : فماذا تصنعون بالحياة بعده ، فموتوا على ما مات عليه رسول الله .. »[1] .

حيث قد تلقى هذه الحادثة ظلالاً حول موقف طلحة وعمر رضى الله عنهما .

وفى بعض الروايات (وفيهم أبو بكر وعمر) .

وفى بعضها : أنهم يتساءلون (ما نفعل وقد قتل رسول الله ﷺ) .

وكل هذه الروايات قد يتبادر إلى الذهن فيها أن الإحباط قد نال من هذه القمم المذكورة بعد إشاعة مقتل النبى ﷺ ، وهذا الخاطر مرفوض ابتداء ، لأن هذه القمم تحس بأن عليها مسؤولية قيادة المعركة بعد رسول الله ﷺ ، وقيادة الأمة ، فلابد أن تدرس الموقف المناسب وصادف مرور أنس بن النضر رضى الله عنه فى هذه اللحظات وأعطى رأيه ، فى أن يقتل القوم على ما قتل عليه رسول الله ﷺ ، ومضى لينفذ قناعته . وهذا موقف جندى ملتزم مخلص فى أعلى درجات الجندية والتضحية والالتزام ، لكن ليس بالضرورة هو موقف القائد المسؤول عن المعركة والأمة بعد إشاعة القتل ، ويجب أن لايقودنا الحماس الطاغى فى إعجابنا ببطولات أنس رضى الله عنه إلى نسيان هذا التصور أو تجاهله تجاه هذه القيادات المذكورة .

ومرفوض انتهاء ـ أى وصف هذا الفريق بالإحباط أو اليأس ـ لأنه ثبت فيما بعد أنهم كانوا الرواد الأوائل فى الوصول إلى رسول الله ﷺ ، والتدافع إلى الموت حوله وبإمرته وتسلسل الأحداث فيما بعد يجلى هذه الصورة .

٢ ـ عند الهجوم المباغت على القائد ، ماذا فعلت أم عمارة ؟

ونحن مضطرون لعرض هذا التسلسل . لنشهد من خلاله هذه النماذج الخالدة .

(.. وكان مالك بن زهير أخو أبى أسامة الجشمى هو وحيان بن العرقة قد أكثرا فى المسلمين القتل بالنبل ، فرمى سعدُ مالكاً بسهم أصاب عينه حتى خرج من قفاه وقتله ، وقاتلت أم عمارة نسيبة .. فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ ، وباشرت القتال وجعلت تذب عنه بالسيف ، وترمى عن القوس . ولما قصد ابن قمئة رسول الله ﷺ اعترضت له ومصعب بن عمير ، وضربت ابن قمئة ضربات . ولكن عدو الله كان عليه

---

(١) السيرة لابن هشام /٢/٣١ .

درعان وضربها هو بالسيف فجرحها جرحاً عظيماً صار له فيما بعد غوْر ، فقال رسول الله ﷺ : « لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان ، ما التفت يمنياً أو شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى » وقال لابنها عبد الله بن زيد بن عاصم « بارك الله تعالى عليكم أهل بيت ، مُقام أمكم خير من مقام فلان وفلان ، ومقام زوج أمك غزية بن عمرو خير من مقام فلان وفلان ، رحمكم الله أهل بيت » قالت أم عمارة : ادع الله تعالى أن نرافقك في الجنة . قال : « اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة » قالت : ما أبالى ما أصابنى من أمر الدنيا .

قال البلاذرى : شهدت نسيبة يوم أحد وزوجها وابناها ، وخرجت معها بشنٍ لها ، تسقى الجرحى فقاتلت ، وجرحت اثنى عشر رجلاً بسيف ورمى ، وكانت أول النهار تسقى المسلمين والدُولة لهم ثم قاتلت حين كر المشركون ، وقاتلت يوم اليمامة فقطعت يدها وهى تريد مسيلمة الكذاب لتقتله قالت : وما كانت ناهية لى حتى رأيت الخبيث مقتولاً ، وإذا ابنى عبد الله بن زيد يمسح سيفه بثيابه ، فقلت : أقتلْته ؟ قال : نعم فسجدت لله شكراً ») [1] .

وبقيت نسيبة وبلاؤها يومَ أحد ـ ماثلة فى ذهن السابقين الأولين :

فقد روى ابن سعد عن موسى بن ضمرة بن سعيد عن أبية فقال : (أتى عمر بن الخطاب بمروط وفيها مرط مرجل واسع ، فقال بعضهم : لو أرسلت به إلى زوجة عبد الله ابن عمر صفية بنت أبى عبيد ، قال : ابعثوا به إلى من هو أحق به منها ، إلى أم عمارة نسيبة بنت كعب . فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما التفت يميناً ولا شمالاً يوم أحد إلا رأيتها تقاتل دونى .

٣ ـ دور مصعب بن عمير :

أ ـ (روى ابن سعد عن محمد بن شرحبيل العبدرى قال :

حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى ، فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ الآية ، ثم قطعت يده اليسرى فحنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : ﴿ **وما محمد إلا رسول** ﴾ الآية ، ثم قتل فسقط اللواء . قال محمد بن شرحبيل : وما نزلت هذه الآية : ﴿ **وما محمد إلا رسول** ﴾ يومئذ حتى نزلت بعد) [2] .

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد .

ب ـ (وروى ابن سعد عن عبد الله بن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب قال : أعطى رسول الله ﷺ يوم أحد مصعب بن عمير اللواء فقتل مصعب ، فأخذه ملك فى صورة مصعب فجعل رسول الله ﷺ يقول : تقدم يا مصعب ، فالتفت إليه الملك . فقال : لست بمصعب فعرف رسول الله ﷺ أنه ملك أيد به) [1] .

جـ ـ وقال ابن أبى شيبة فى المصنف : (عن محمد بن ثابت أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد : اقدم يامصعب . فقال له عبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ألم يقتل مصعب ؟ قال : بلى . ولكن ملك قام مكانه وتسمى باسمه) [2] .

٤ ـ رسول الله ﷺ وحده :

(روى أبو داود الطيالسى . والشيخان عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال :

ورأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ، ومارأيتهما قبل ولا بعد يعنى جبريل وميكائيل) [3] .

ورواه البيهقى ثم روى مجاهد قال : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر قال البيهقى : مراده لم يقاتلوا يوم أحد عن القوم حين عصوا رسول الله ﷺ ولم يصبروا على ما أمرهم به .

٥ ـ دور العشرة المبشرين بالجنة :

(وثبت معه ﷺ خمسة عشر رجلاً . ثمانية من المهاجرين : أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسبعة من الأنصار : ....) [4] .

أ ـ أبو عبيدة وأبو بكر :

(روى أبو داود الطيالسى وابن حبان عن عائشة قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك اليوم كله لطلحة ، ثم أنشأ يحدّث قال : كنت ممن فاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد ، فرأيت رجلاً يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه . قال : وأراه قال يحميه ـ قال : قلت : كن طلحة حيث فاتنى ما فاتنى فقلت : يكون رجلاً من قومى أحب إلى ؟ وبينى

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) سبل الهدى والرشاد /٤/٣٠٤ .
(٣) سبل الهدى والرشاد /٤/٣٠٣ .
(٤) سبل الهدى والرشاد /٤/٢٩٢ .

وبين رسول الله ﷺ رجل لا أعرفه . وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ . وهو يخطف المشى خطفا لا أخطفه فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح . فانتهيت إلى رسول الله ﷺ . وقد كسرت رباعيته ، وشج وجهه ، وقد دخل فى وجنته حلقتان من حِلَق المغفر . فقال رسول الله ﷺ : عليكما صاحبكما ـ يريد طلحة ، وقد نزف الدم فتركناه ، وذهبت لأنزع ذلك من وجه رسول الله ﷺ فقال أبو عبيدة : أقسمت عليك بحقى لما تركتنى ، فتركته . وكره أن يتناولها بيده فيؤذى رسول الله ﷺ ، فأزمَّ عليها بفيه ، فاستخرج إحدى الحلقتين ، ووقعت ثنيته مع الحلقة .وذهبت لأصنع ما صنع ، فقال : أقسمت عليك بحقى لما تركتنى ففعل كما فعل فى المرة الأولى . فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتماً ، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ ، ثم أتينا طلحة فى بعض تلك الحفر ، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة وضربة ورمية ، وإذا قد قطعت إصبعه فأصلحنا من شأنه) (١) .

ب ـ **طلحة بن عبيد الله :**

(وذكر محمد بن عمر أن طلحة أصيب يومئذ فى رأسه ، فنزف الدم حتى غشى عليه ، فنضح أبو بكر الماء فى وجهه حتى أفاق ، فقال : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقال : خيراً هو أرسلنى إليك قال : الحمد لله كل مصيبة بعدك جلل) (٢) .

وروى الدراقطنى فى الإفراد . والطبرانى عن طلحة والنسائى والطبرانى والبيهقى عن جابر قال : أن طلحة أصابه سهم فى أنامله ، فقال : حس فقال رسول الله ﷺ : لو قلت بسم الله لطارت بك الملائكة ، والناس ينظرون حتى تلج فى جو السماء . ولرأيت بناءك الذى بنى الله لك فى الجنة وأنت فى الدنيا) (٣) .

جـ ـ **سعد بن أبى وقاص :**

روى الحاكم عن عائشة بنت سعد عن أبيها قالت : لما جال الناس يوم أحد تلك الجولة تنحيت فقلت : أزود عن نفسى ، فإما أنجو ، وإما أستشهد ، فإذا رجل محمر وجهه قد كاد المشركون أن يركبوه فملأ يده من الحصى فرماهم به ، وإذا بينى وبينه المقداد ، فأردت أن أسأله عن الرجل فقال لى : يا سعد هذا رسول الله ﷺ يدعوك ؟ فقمت ولكأنه لم يصبنى شئ من الأذى فأتيته فأجلسنى أمامه فجعلت أرمى وأقول : اللهم سهمك فارم

(١) المصدر نفسه /٢٩٥ ، ٢٩٦ .
(٢) المغازى للواقدى /١/٢٥٥ .
(٣) سبل الهدى والرشاد /٤/٣٠٠ .

به عدوك ، ورسول الله ﷺ يقول اللهم استجب لسعد : اللهم سدد لسعد رميته ، إيها سعد فداك أبى وأمى يا سعد . فما من سهم أرمى به إلا قال رسول الله : « اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته ، حتى إذا فرغت من كنانتي نثر رسول الله ﷺ ما فى كنانته ، فنبلني سهماً نضياً ، قال : (وهو الذى قد ريش ، وكان أسدَّ من غيره) .

قال الزهرى : (السهام التى رمى بها سعد يومئذ كانت ألف سهم) .

(وروى ابن عائذ عن يحيى بن حمزة مرسلاً ، عن سعد بن أبى وقاص قال : رميت بسهم فردَّ على رسول الله ﷺ وسهمى أعرفه ، حتى واليت بين ثمانية أو تسعة ، كل ذلك يرده على رسول الله ﷺ ، فجعلت هذا السهم فى كنانتى لا يفارقنى)[1] .

(وروى البخارى عن على رضى الله عنه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ جمع أبويه لأحد إلا لسعد بن أبى وقاص سمعته يقول يوم أحد : يا سعد إرم فداك أبى وأمى يا سعد)[2].

د ـ **عبد الرحمن بن عوف :**

(وقاتل عبد الرحمن بن عوف قتالاً شديداً عن رسول الله ﷺ ، وأصيب فوه فهتم ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر ، وجرح فى رجله ، وكان يعرج منها) .

(وروى الطبرانى وابن مندة وابن عساكر عن طريق محمود بن لبيد ـ قال الحارث بن الصمة : سألنى رسول الله ﷺ وهو فى الشعب عن عبد الرحمن بن عوف ، فقلت : رأيته فى جنب الجبل ، فقال : إن الملائكة تقاتل معه ، قال الحارث : فرجعت إلى عبد الرحمن فوجدت بين يديه سبعة صرعى ، فقلتُ : ظفرت يمينك ، أكل هؤلاء قتلت ؟ قال : أما هذا وهذا فأنا قتلتهما ، وأما هؤلاء فقتلهم من لم أره ، فقلت : صدق الله ورسوله)[3] .

هـ ـ **على بن أبى طالب :**

(وروى أبو يعلى بسند حسن ، عن على رضى الله عنه قال : لم انجلى الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد ـ نظرت فى القتلى ، فلم أر رسول الله ﷺ ، فقلت : والله ما كان ليفر ، وما أراه فى القتلى . ولكن أرى الله تعالى غضب علينا بما صنعنا ، فرفع نبيه

(١) المصدر نفسه ٣٠٢/٤ .   (٢) البخارى / م٢ / جـ ٢ / ٢١٩ .

(٣) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

ﷺ ، فما كان لى خير من أن أقاتل حتى أقتل ، فكسرت جفن سيفى ، ثم حملت على القوم فأفرجوا لى ، فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم ، أى يقاتلهم ﷺ) (١) .

(وقاتل على بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ من ناحية ، وأبو دجانة من ناحية ، وسعد بن أبى وقاص من ناحية ، وانفرد على بن أبى طالب بفرقة فيها عكرمة بن أبى جهل ، فدخل وسطهم بالسيف يضرب به ، وقد اشتملوا عليه حتى أفضى إلى آخرهم ، ثم كرَّهم ثانياً حتى رجع من حيث جاء) (٢) .

و ـ الزبير بن العوام :

(وبايعه يومئذ على الموت ثمانية : ثلاثة من المهاجرين ، وهم : على ، والزبير ، وطلحة ، وخمسة من الأنصار : أبو دجانة ، والحارث بن الصمة ، والحباب بن المنذر ، وعاصم بن ثابت ، وسهل بن حنيف فلم يقتل منهم أحد) (٣) .

ز ـ عمر بن الخطاب :

قال ابن إسحاق : (فبينا رسول الله ﷺ بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه إذ علت عالية من قريش الجبل ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنه لاينبغى لهم أن يعلونا ، فقاتل عمر بن الخطاب ، ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل) (٤) .

٦ ـ دور العشرة السابقين من الأنصار :

أ ـ وقد مر بنا دور أم عمارة رضى الله عنها وزوجها وابنها ، وشهادة رسول الله ﷺ لهذا البيت ، ودعوته لهم أن يكونوا رفاقه فى الجنة ، كما مر معنا دور أنس بن النضر رضى الله عنه .

ب ـ (روى الشيخان ومحمد بن عمر الأسلمى عن أنس رضى الله عنه قال : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن رسول الله ﷺ ، وأبو طلحة بين يدى رسول الله ﷺ يجوب (٥) عنه بجحفته (٦) .. وكان أبو طلحة رامياً شديد الرمى ــ فنثر كنانته بين يدى رسول الله ﷺ فلم يزل يرمى بها ، وكسر يومئذ قوسين أو ثلاثة ، وكان الرجل يمر بالجعبة من النبل فيقول ﷺ : « انثرها لأبى طلحة » ويشرف رسول الله ﷺ ينظر إلى القوم فيقول

(١) المصدر نفسه /٤/٢٩٣ . (٢) المصدر نفسه /٤/٣٠١ .
(٣) المصدر نفسه /٤/٢٩٣ . (٤) السيرة النبوية لابن هشام /٢/٣٥ .
(٥) يجوب : يترّس . (٦) جحفته : الكنانة التى يجعل فيها السهام .

أبو طلحة يانبى الله بأبى أنت وأمى ، لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم نحرى دون نحرك) (١) .

جـ ـ وفى حديث أبى سعيد الخدرى عن محمد بن عمر : أن الحلقتين لما نزعتا جعل الدم يسرب كما يسرب الشن ، فجعل مالك بن سنان يأخذ الدم بفيه ، ويمجه منه ، ويزدرد منه . فقال له : أتشرب الدم قال : نعم يارسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « من مس دمه دمى لم تمسه النار » (٢) .

(وترس دون رسول الله ﷺ أبو دجانة بنفسه ، يقع النبل فى ظهره ، وهو ينحنى عليه ، حتى كثر النبل ، وهو لا يتحرك) (٣) .

ويجب أن لاننسى أن أبا دجانة هو صاحب عصابة الموت ، وأن أبا دجانة هو الذى استحق سيف رسول الله ﷺ من دون الصحابة جميعاً ، حيث قاتل حتى ينحنى ، وانحنى . وعندما وجد أن أجدى وسيلة لحماية رسول الله ﷺ هى أن يقع النبل على ظهره ، وهو ينهمر انهمار المطر ، كان ذلك وترك سيفه ، وسل ظهره عوضاً عن سيفه يقى به حبيبه محمداً صلوات الله وسلامه عليه .

د ـ وكان الحباب بن المنذر يجوش المشركين كما تجاش الغنم ، ثم استملوا عليه حتى قيل قد قتل ، ثم برز والسيف فى يده ، وافترقوا عنه .

هـ ـ ومر مالك بن الدخشم على خارجة بن زيد (بن أبى زهير) وهو قاعد فى حشوته وبه ثلاثة عشر جرحاً كلها قد خلصت إلى مقتل ، فقال : أما علمت أن محمداً قد قتل ؟ فقال خارجة إن كان رسول الله ﷺ قد قتل فإن الله حى لايموت ، فقد بلّغ رسول الله ﷺ فقاتل عن دينك ؟

و ـ (وروى الطبرانى بسند رجاله ثقات عن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : لما كان يوم أحد وصرنا إلى الشعب كنت أول من عرف رسول الله ﷺ فقلت هذا رسول الله ﷺ فأشار إلىّ بيده أن اسكت ، ثم ألبسنى لأمته ، ولبس لأمتى (٤) ، فلقد ضُربت حتى جرحت عشرين جراحة ـ أو قال : بضعة وعشرين جراحة ، كل من يضربنى يحسبنى رسول الله ﷺ ، فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ أقبلوا عليه كأنهم لم

---

(١) سبل الهدى والرشاد /٤/٣٠١ ، ٣٠٢ .
(٢) المغازى /١/٢٤٧ .
(٣) سبل الهدى والرشاد /٤/٣٠١ .
(٤) اللأمة : الدرع .

يصيبهم شيء حين رأوه . وفرحوا بذلك فرحًا شديداً) .

ز ـ (قال محمد بن عمر : أقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي على فرس أبلق ، وعليه لأمة كاملة ، يريد رسول الله ، وهو متوجه إلى الشعب ، وهو يصبح لانجوت إن نجوت ، فوقف رسول الله ﷺ ، فعثر بعثمان فرسه في بعض تلك الحفر ، فوقع ، وخرج الفرس عائراً ، فأخذه المسلمون . ومشى الحارث بن الصمة إليه ، فاصطدما ساعة بسفيهما ، ثم ضربه الحارث على رجله ، وكانت الدرع مشمره ، فبرك وذفف عليه ، وأخذ الحارث يومئذ درعه ومغفره ، ولم يسمع بأحد يومئذ سلب غيره ، فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذى أحانه » وكان عبد الله بن جحش رضى الله عنه أسره ببطن نخلة ، فافتدى من رسول الله ﷺ ، وعاد إلى مكة حتى قدم فقتله الله بأحد .

وأقبل عبيد بن حاجز العامرى يعدو كأنه سبُعُ فضرب الحارث بن الصمة ، فجرحه على عاتقه ، فاحتمله أصحابه ، ووثب أبو دجانة إلى عبيد فناوشه ساعة ، ثم ذبحه بالسيف ذبحًا ولحق برسول الله ﷺ) [1] .

ح ـ (فحمله ـ أى اللواء ـ مسافع بن طلحة بن أبى طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت ابن أبى الأقلح فقتله ، فحمله الحارث بن طلحة ـ أخوه فرماه عاصم بن ثابت فقتله ، كلاهما يشعره سهماً فيأتى أمه سلافه فيضع رأسه فى حجرها ، فتقول : يا بنى من أصابك ؟ فيقول سمعت رجلاً رمانى يقول : خذها وأنا ابن الأقلح ، فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب به الخمر ، وجعلت لمن جاء به مائة من الإبل ..) [2] .

ط ـ (وروى الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء على بسيفه يوم أحد وقد انحنى ، فقال لفاطمة هاك السيف حميداً ؛ فإنه قد شفانى اليوم ، فقال رسول الله ﷺ لئن أجدت الضرب بسيفك لقد أجاد سهل بن حنيف ، وأبو دجانة ، وعاصم بن ثابت ، والحارث بن الصمة) [3] .

٧ ـ الشهداء الأحد عشر :

روى النسائى والبيهقى بسند جيد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال :

(انهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد ، وبقى معه أحد عشر رجلاً من الأنصار ،

---

(١) المغازى للواقدى /جـ١ /٢٥٢ .
(٢) سبل الهدى والرشاد /٤/٢٨٨ ، ٢٨٩ .
(٣) سبل الهدى والرشاد /٤/٣٣٦ .

وطلحة بن عبيد الله ، وهو يصعد فى الجبل فلحقهم المشركون ، فقال : ألا أحد لهؤلاء ؟ فقال طلحة : أنا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « كما أنت ياطلحة » فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله . فقاتل عنه ، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقى معه ، ثم قتل الأنصارى ، فلحقوه . فقال : ألا رجل لهؤلاء ؟ فقال طلحة مثل قوله ، فقال رسول الله ﷺ مثل قوله ، فقال رجل من الأنصار ، فأنا يا رسول الله ، فقاتل وأصحابه يصعدون فى الجبل ، ثم قتل الأنصارى ، فلحقوه . فلم يزل يقول مثل قوله الأول ويقول طلحة : أنا يا رسول الله فيحبسه ، ويستأذنه رجل من الأنصار للقتال ؛ فيأذن له ، فيقاتل مثل من كان قبله ، حتى لم يبق معه إلا طلحة فغشوهما . فقال رسول الله ﷺ : من لهؤلاء يا طلحة ؟ فقال : أنا ، فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله ، وأصيبت أنامله فقال : حس . فقال : لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك فى جو السماء) (١) .

قال ابن إسحاق : (قال رسول الله ﷺ حين غشيه القوم : من رجل يشرى لنا نفسه ، فقام زياد بن السكن فى نفر خمسة من الأنصار ، وبعض الناس يقول : إنما هو عمارة بن يزيد بن السكن ، فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً يقتلون دونه ، حتى كان آخرهم زياد أو عمارة ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة . ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه ، فقال رسول الله ﷺ . ادنوه منى ، فأدنوه منه . فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ) (٢) .

ولعل تسلسل الأحداث كان على المراحل التالية :

١ ـ ابتدأ هجوم المشركين على رسول الله ﷺ من ابن قمئة . حيث كانت أم عمارة رضى الله عنها وزوجها ومصعب بن عمير ، يزودون عن رسول الله ﷺ .

٢ ـ عندما قتل مصعب بن عمير ، وصاح ابن قمئة أنه قتل رسول الله ﷺ وصاح الشيطان كذلك : اختلطت الأمور ، وغشى القوم رسول الله ﷺ يودون قتله .

٣ ـ وقف زياد بن السكن والأنصار الخمسة معه . يزودون عن النبى صلوات الله عليه حتى قتلوا عن آخرهم . وفاءت فئة من المسلمين أوقفت الهجوم الضارى .

٤ ـ عاد المشركون ، فتابعوا هجومهم الشرس ، وكانت خطة النبى ﷺ فى هذه

(١) دلائل النبوة للبيهقى /٣/٢٣٦ ، ٢٣٧ ، والنسائى فى باب الجهاد باختلاف يسير فى باب ما يقول من يطعنه العدو /٦/٢٩ ، ٣٠ .

(٢) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٩ .

الظروف العصيبة أن يصعد إلى الجبل ، فيأخذ موقعاً استراتيجياً جديداً ، يملك به ناصية الموقف . ويصل للجيش المحاصر .

٥ ـ وعندما اتخذ قراره هذا كان قد أفرد مع أحد عشر أنصارياً ، ومهاجر واحد هو طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه ، واستطاعت هذه الكتيبة الفدائية أن تضمن الصعود إلى الجبل بعد أن قتلت عن آخرها ، وسقط طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه مغشياً عليه .

٦ ـ وحين أفرد رسول الله ﷺ وحده ـ بعث الله تعالى ملكى الحماية له جبريل وميكائيل يذودان عنه ويقاتلان أشد القتال ، كما روى سعد رضى الله عنه .

٧ ـ ثم فاء سعد وأبو عبيدة : ، وأبو بكر رضى الله عنهم ، ومالك بن سنان . حيث عالجوا جراح رسول الله ﷺ ، ثم جراح طلحة .

٨ ـ وراح بقية قيادات الصحابة يفيئون إلى رسول الله ﷺ . حيث شق بهم جموع المشركين ، ومضى إلى الشعب حيث صعداً ثم تجمع الجيش الإسلامى من جديد .

٩ ـ وعندما حاول المشركون احتلال الجبل . قال عليه الصلاة والسلام : « اللهم لاينبغى لهم أن يعلونا » فأزاحهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع سرية من المهاجرين ، وكان سعد رضى الله عنه يرميهم ، ويحس أن عليه أن يردهم وحده ، حتى تركوا الجبل ، واستلمه المسلمون مرة ثانية .

١٠ ـ وفى الشعب تجمع الجيش الإسلامى ، وفقدت قريش الموقع الذى احتلته ، وعجزت عن أن تقوم بهجوم آخر ، بعد الخطة النبوية العظيمة التى تم بها السيطرة على الجبل ، وإزاحة المشركين عنه .

وفى الوقوف أمام الآيات الكريمات يتجلى لنا بعد هذه الجولة معنى قوله سبحانه :

﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير . فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .فآتاهم الله ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ . [١]

---

(١) آل عمران / ١٤٦ ، ١٤٧ .

(أخرج ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة . ﴿ **فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة** ﴾ "الفلاح والظهور والتمكن والنصر على عدوهم فى الدنيا « وحسن ثواب الآخرة » هى الجنة) . [١]

وشاءت إرادة الله تعالى أن يشهد هذا الجيل الإسلامى النصر والتمكين فى الدنيا ، وشهد رسول الله ﷺ لهم بحسن ثواب الآخرة بالجنة .

﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين** ﴾ [٢] .

يقول الإمام القرطبى :

(لما أمر الله تعالى بالاقتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذّر طاعة الكافرين ، يعنى : مشركى العرب : أبا سفيان وأصحابه ، وقيل : اليهود والنصارى .

وقال على رضى الله عنه : يعنى المنافقين فى قولهم للمؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى دين أبائكم ﴿ **يردوكم على أعقابكم** ﴾ أى إلى الكفر ﴿ **فتنقلبوا خاسرين** ﴾ أى فترجعوا مفتونين ، ثم قال : ﴿ **بل الله مولاكم وهو خير الناصرين** ﴾ أى متولى نصركم وحفظكم إن أطعتموه) [٣] .

(وهذا التفسير متناسق مع تفسير الارتداد على العقب بالكفر .

والتفسير الآخر : الذى يرى الارتداد على العقب هو الهزيمة والتخلى عن الجهاد ، فله مايؤيده مما أورده ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب ، أنه سئل من هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا** .... ﴾ التعرب [٤] . فقال : بل هى الزرع) [٥] .

(وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمرو قال :

ألا أخبركم بالمرتد على عقبيه ، الذى يأخذ العطاء ، ويغزو فى سبيل الله ، ثم يدع ذلك ويأخذ الأرض بالجزية والرزق ، فذلك الذى يرتد على عقبيه) [٦].

﴿ **سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين** ﴾ [٧] .

---

(١) الدر المنثور / ٤ / ٣٤١ . (٢) آل عمران / ١٤٩ ، ١٥٠ . (٣) تفسير القرطبى / ٤ / ٢٣٢ .

(٤) التعرب أى العودة إلى البداوة . والانقطاع عن الجهاد . ففسرها بالانشغال بالزرع عنه .

(٥) الدر المنثور / ٤ / ٣٤٢ . (٦) الدر المنثور / ٤ / ٣٤٢ . (٧) آل عمران / ١٥١ .

وعلى طريقة المنهج القرآني في التربية ، ودون ارتباط بتسلسل أحداث الغزوة ، حيث نجد الانتقال من إشاعة مقتل رسول الله ﷺ إلى إشاعة الرعب في صفوف العدو بعد الغزوة .

وحيث يراعى في الأمر التسلسل النفسي لا التسلسل الزمني ، فالذين أصابهم الرعب وارتدوا على أعقابهم بعد خبر مقتل نبيهم ، لابد أن يعرفوا أن هذا الجيش اللجب الضخم قد أصابه الرعب بعد عودته من المدينة ؛ لأن الله تعالى حافظ جنده وحزبه الذين ماوهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وماضعفوا وماستكانوا .

فالنماذج الخالدة التي صدقت الوعد مع ربها ونبيها . على قلتها ماتطرق لها الوهن . ولا أصابها الضعف ، والجموع الضخمة وعلى رأسها أبي سفيان قد أصابه الرعب فقد (أخرج ابن جرير عن السدي قال : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين إلى مكة ـ انطلق أبو سفيان حتى بلغ بعض الطريق ، ثم إنهم ندموا فقالوا :

بئسما صنعتم أنكم قتلتموهم حتى لم يبق إلا الشريد ، تركتموهم ؟ ارجعوا فاستأصلوا ، فقذف الله في قلوبهم الرعب ، فانهزموا ، فلقوا أعرابياً . فجعلوا له جعلاً ، وقالوا له : إن لقيت محمداً ، فأخبره بما قد جمعنا لهم . فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ ، فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد ، فأنزل الله عز وجل في ذلك ، فذكر أبا سفيان حين أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ ، وماقذف في قلبه من الرعب ، فقال ﴿ **سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب ..** ﴾)[1] .

والذي يؤكد مدى الرعب الذي حل بأبي سفيان ، وما سخر الله تعالى لنبيه في ذلك ـ ماأورده ابن إسحاق عن وفد خزاعة ، وقد لقي النبي ﷺ في حمراء الأسد .

قال ابن إسحاق : وقد مر به ـ كما حدثني عبد الله بن أبي بكر ـ معبد بن أبي معبد الخزاعي ، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول الله ﷺ بتهامة ، صَفَقُهُم[2] معه .

لايخفون عنه شيئاً كان بها ، ومعبد يومئذ مشرك ، فقال :

---

(١) تفسير الطبري / ٤ / ٨١ .

(٢) صفقهم معه : إنفاقهم وهواهم له .

يامحمد أما والله لقد عز علينا ماأصابك فى أصحابك ، ولوددنا أن الله عافاك فيهم ، ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد ؛ حتى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، وقالوا : أصبنا أصحابه وأشرافهم وقادتهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم . لنكرّن على بقيتهم فلنفرغنّ منهم .

فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ماوراءك يامعبد ؟

قال : محمد قد خرج فى أصحابه ، يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم ، وندموا على ماضيعوا ، فيهم من الحنق عليكم شئ لم أر مثله قط ؛ قال : ويحك ماتقول ! قال : والله ماأرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم ؛ لنستأصل بقيتهم ، قال : فإنى أنهاك عن ذلك ، ووالله لقد حملنى مارأيت على أن قلت فيهم أبياتا من الشعر ، قال : وما قلت ؟ . قال : قلت :

كادت تهد من الأصوات راحلتى ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل (١)

تردى بأسد كرام لا تنابلة ... عند اللقاء ولا ميل معازيل (٢)

فظلت عدواً (٣) أظن الأرض مائلة ... لما سموا برئيس غير مخذول

فقلت : ويل ابن حرب من لقائكم ... إذا تغطمطت البطحاء بالجيل (٤)

إنى نذير لأهل البسل ضاحية ... لكل ذى أربة منهم ومعقول (٥)

من جيش أحمد لا وحش قنابله (٦) ... وليس يوصف ماأنذرت بالقيل (٧)

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه .

---

(١) الجرد الأبابيل : الخيل العتاق . والأبابيل الجماعات .
(٢) التنابلة : الكسالى ، والميل : الذى لارمح معه ، والمعازيل : الذين لاسلاح معهم .
(٣) العدو : المشى السريع .
(٤) تغطمطت : اهتزت وارتجت ، والجيل : الصنف من الناس .
(٥) أهل البسل : قريش .
(٦) الوحشى : الأراذل والأخساء .ش والقنابل : القطعة من الخيل .
(٧) السيرة لابن هشام / ٢ / ٥٥ .

جانب من تسلسل المعركة في القرآن

يقول جل ثناؤه :

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيتم من بعد ماأراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم . ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ (١) .

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ .

ولنستمع إلى صدق هذا الوعد من الشهود العيان :

١ ـ فعن البراء بن عازب قال :

(لما كان يوم أحد ولقينا المشركين أجلس رسول الله ﷺ ناساً من الرماة وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير ، وقال لهم : « لاتبرحوا مكانكم ، وإذا رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تعينونا عليهم » فلما التقى القوم ، وهزمهم المسلمون ؛ حتى نظرن إلى النساء يشتددن في الجبل قد رفعن عن سوقهن ، بادية خلاخيلهن ، فجعلوا يقولون : الغنيمة الغنيمة ، فقال لهم عبد الله أمهلوا . أما عهد إليكم رسول الله ﷺ أن لا تبرحوا ؟ . فانطلقوا ، فلما أتوهم صرف الله وجوههم ، وقتل من المسلمين سبعون رجلاً) (٢) .

٢ ـ وعن الزبير رضي الله عنه قال :

(والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم (٣) هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ، مادون أخذهن قليل ولا كثير ، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه ، وخلوا ظهورنا للخيل ، فأتينا من خلفنا ، وصرخ صارخ : ألا إن محمداً قد قتل ! انكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى مايدنو منه أحد من القوم) (٤) .

٣ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

(ما نصر الله نبيه في موطن كما نصر يوم أحد ، فأنكروا ، فقال ابن عباس : بيني وبين

---

(١) آل عمران / ١٥٢ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي / ٣ / ٢٦٧ . وقد روى أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير مثله .

(٣) خدم : خلاخل .

(٤) السيرة لابن هشام / ٢ / ٢٥ .

من أنكر ذلك كتاب الله ، إن الله تعالى يقول فى يوم أحد ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه** ﴾ والحس : القتل ، ﴿ **حتى إذا فشلتم** ﴾ إلى قوله ﴿ **ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين** ﴾ وإنما عنى هذا الرماة ، وذلك أن النبى ﷺ أقامهم فى موضع ثم قال : « احموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا » فلما غنم النبى ﷺ ، وأباحوا عسكر المشركين ، انكفأت الرماة جميعاً فدخلوا فى العسكر ينتهبون ، والتفت صفوف المسلمين فهم هكذا ، وشبك بين يديه ـ والتبسوا ، فلما أخلّ الرماة تلك الخلة التى كانوا فيها ، دخل الخيل من ذلك الموضع على الصحابة ، فضرب بعضهم بعضاً والتبسوا ، وقتل من المسلمين ناس كثير ، ولقد كان لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة ، وجال المسلمون جولة نحو الجبل ، ولم يبلغوا حيث يقول الناس : الغابٌ . إنما كانوا تحت المهراس وصاح الشيطان : قتل محمد . فلم يشك فيه أنه حق .

فمازلنا كذلك مانشك أنه قتل ، حتى طلع بين السعدين نعرفه بتكفؤه إذا مشى ، ففرحنا حتى كأنه لم يصبينا ما أصابنا ، فرقى نحونا وهو يقول : « اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه نبيهم ») [1] .

﴿ **.. حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة** ﴾ [2] .

(لما رأى أصحاب عبد الله بن جبير وهم الرماة ماحصل للمشركين قالوا : أى قوم ، الغنيمة الغنيمة ، لم تقيمون غير هنا فى غير شئ ، قد هزم الله تعالى العدو ، وهؤلاء إخوانكم قد ظهروا ، وهم ينتهبون عسكرهم ، فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم ، فقال عبد الله بن جبير ومن وافقه : ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم : « احموا ظهورنا ، ولاتبرحوا من مكانكم ، وإذا رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإذا غنمنا فلا تشركونا ، احموا ظهورنا .... ! » .

فقال الآخرون : لم يرد رسول الله ﷺ هذا ، وانطلقوا . فلم يبق مع أميرهم عبد الله ابن جبير إلا دون العشرة ، وذهب الباقون إلى عسكر المشركين ينتهبون ، فلما أتوهم

---

(١) الدر المنثور ، قال فيه : وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أنه قال .... » .

(٢) آل عمران / ١٥٢ .

صرفت وجوههم فانقلبوا منهزمين ، ونظر خالد بن الوليد إلى الجبل ، وقلة أهله ، فكرٌ بالخيل ، وتبعه عكرمة بن أبي جهل ـ وأسلما بعد ذلك ـ فحملوا على من بقي من الرماة حتى قتلوهم ، وثبت أميرهم عبد الله بن جبير ، فقاتل حتى قتل ، فجردوه ومثلوا به أقبح مُثلة ، وكانت الرماح قد شرعت فى بطنه ، حتى خرقت مابين سرته إلى خاصرته إلى عانته ، وخرجت حشوته ، وأحاطوا بالمسلمين . فبينما المسلمون قد شغلوا بالنهب والغنائم إذ دخلت الخيول تناوى فرسانها بشعارهم : يا للعزى ، يالهبل ، ووضعوا السيوف فى المسلمين وهم آمنون وكل فى يديه أو حضنه شئ قد انتهبه ، ولما رأى المشركون خيلهم ظاهرة رجعوا فشدوا على المسلمين ، فهزموهم ، فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً ، وتفرق المسلمون فى كل وجه ، وتركوا ما انتهبوا ، وخلّوا من أسروا ، وانتقضت صفوف المسلمين ، واستدارت رحاهم ، وكانت الريح أول النهار صباً فصارت دبوراً ، وكر الناس منهزمين يحطم بعضهم بعضاً ، فصاروا أثلاثاً . ثلثاً جريحاً ، وثلثاً منهزماً ، وثلثاً مقتولاً . وصرخ الشيطان لعنه الله : أى عباد الله إخوانكم ، فرجعت أولاهم ، فاجتدلت هى وأخراهم وهم يظنون أنهم من العدو ، وكان غرض إبليس من ذلك أن يقتل المسلمون بعضهم بعضاً ، وكان أول النهار للمسلمين على الكفار ، كما قال تعالى : ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون . منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين** ﴾[1] . فما كانت دولةٌ أسرع من دولة المشركين ، وصرخ الشيطان عند جبل عنين ، وقد تصور فى صورة جعال بن سراقة رضى الله عنه « إن محمداً قد قتل » ثلاث صرخات ، ولم يشك فى أنه حق ، وكان جعال إلى جنب أبى بردة يقاتل أشد القتال ، فقال جماعة من المسلمين لما سمعوا ذلك : إن كان رسول الله قد قتل أفلا تقاتلون على دينكم ؟ وعلى ماكان عليه نبيكم حتى تلقوا الله تعالى شهداء ؟ ! وقالت جماعة : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبى ليأخذ لنا أمانا من أبى سفيان ، ياقوم إن محمداً قد قتل ، فارجعوا إلى قومكم ، قبل أن يأتوكم فيقتلوكم ، واختلط المسلمون ، فصاروا يقتلون على غير شعار ، ويضرب بعضهم بعضا ، من العجلة والدهش ومايدرى)[2] .

لقد كان تسلسل الحوادث . يقتضىً أن تكون الآيات ﴿ **ومامحمد إلا رسول ..** ﴾

---

(١) آل عمران / ١٥٢ . (٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٢٨٩ ـ ٢٩١ .

بعد هذه الآيات ﴿ ولقد صدقكم الله وعده .... ﴾ .

لكن المنهج القرآنى للتربية يقتضى غير ذلك ، فالآيات تتنزل على المسلمين بعد أحد ، وقد انتهت المعركة ، وسقط من سقط شهيدا ، وأثخن بالجراح من أثخن ، والنفوس تعتمل بالألم ، وتفعم بالتساؤلات ، وجمهور أهل أحد وغيرهم يتساءلون عن هذا الواقع ، فتأتى الآيات تترى ، والنفوس فى هذا الجو العالى من التوتر ، تحتاج إلى تثبيت ، ومواساة .

فجاء البيان القرآنى الشافى ، ليؤكد أن ماتم ليس فلتة عابرة ، ولاصدفة هائمة ، إنما هى سنن ثابتة خالدة ربانية ، مع جنوده وأعدائه لاتتخلف .

وأول هذه السنن : أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، رغم هول المحنة ، وفداحة المصيبة .

﴿ ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (١) .

وثانى هذه السنن : أن الأمر بين الأنبياء وأعدائهم دول ، وليس نصراً دائماً لا يتخلف ، كما تراءى للقوم بعد بدر .

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس ... ﴾ (٢) .

وثالث هذه السنن : أن القرح الذى يصيب المؤمنين . هو لتمحيص الصف المؤمن ، ولاصطفاء شهداء منه .

﴿ .. وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء . والله لايحب الظالمين ﴾ .

ورابع هذه السنن : هدف المحنة فى الصف المؤمن هو التمحيص فقط . بينما هدف القرح فى الصف الكافر هو المحق والإبادة .

﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ (٣).

وخامس هذه السنن : أن المعاناة العملية للابتلاء أمر ثابت ، يختلف عن التحليق الشاعرى ، والاندفاع العاطفى ، ولن تتضح هذه السنة إلا من خلال القرح والمحنة .

---

(١) آل عمران / ١٣٩ . (٢) آل عمران / ١٤٠ .

(٣) آل عمران / ١٤١ .

﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ [1] .

وسادس هذه السنن : أن ارتباط المؤمن بدينه وعقيدته هو الأصل . أما ارتباطه بجماعته وقيادته هو تبع لذلك الأصل ، فلا عذر للمؤمن فى نكوصه وارتداده إن فقد قيادته .

وسابع هذه السنن : أن الارتداد على العقب . فراراً أو كفراً . لن ينال من دين الله شيئا . ولن يضر هذا الأمر إلا صاحبه .

وثامن هذه السنن : أن أصحاب الأنبياء على مدار التاريخ ــ كانوا يصابون بهذا القرح وهذا الابتلاء ــ فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى جاءهم نصر الله ، وهذه الأكثرية الصابرة هى التى يؤتيها الله تعالى نصره ، يؤتيها ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة .

وتنتقل الآيات بعد عرض هذه السنن الربانية فى الأمم السالفة لتعرض هذه العصبة المؤمنة عليها ، ويبدأ العرض المباشر لتطبيق الواقع القائم فى أحد ، على السنن الربانية الثابتة علماً بأن هذه السنن قد توضح جزء كبير منها من الواقع العملى الحى للمسلمين ، ومن المحنة التى عانوها .

لقد اختل شرط كبير من شروط تحقيق النصر ، وهو مدار الحديث فى الآية السابقة ، وتم اختلال هذا الشرط أثناء المعركة ، وقبل أن يختل تحقق موعود الله وتم النصر .

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ... ﴾ .

وكما مر معنا من واقع المعركة .

(لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصويحباتها مشمرات هوارب مادون أخذهن قليل ولا كثير .)

(قد هزم الله العدو ، وهؤلاء إخوانكم قد انتصروا) .

لكن أعجب مافى هذه السنة . فى هذا الجيل الرائد . أنه لم يمر لحظات على المخالفة حتى فقد النصر ، ففى السنن لدى الأمم ، يمهل الله تعالى الأمة قليلاً قليلاً حين تخالف ، أما هنا فقد كانت المحنة مباشرة بعد المخالفة .

---

(١) آل عمران / ١٤٣ .

ولم تكن العقوبة والقرح والمحنة ؛ لأن الرماة تركوا الجبل ، في تصرف شخصي بحت . فقد كان يمكن في عالم الأسباب أن يستمر النصر ، ولاتنتبه خيالة المشركين إلى فقدان أربعين من الرماة مواقعهم في الجبل ، وتستمر هزيمة المشركين ويسلِّم الله تعالى من هذا البلاء ، كما سلَّم الله تعالى في أكثر من موطن .

ولنقف عند هاتين المقارنتين .

يقول الله تعالى في بدر :

﴿ .. ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ، ولكن الله سلم ...﴾ (١) .

والمفروض في عالم الأسباب أن يراهم رسول الله ﷺ كثيراً .فقد أراهم الله تعالى نبيه قليلاً ـ على غير واقعهم ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا .

﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ... ﴾ (٢) .

فليست القضية معجزة خاصة بالنبي ﷺ ، بل هي معجزة له في جيشه كله ، وكرامة لأصحابه وجيشه كله ، أن تنقلب الحقيقة كلها فيراهم المسلمون قليلاً ، وأن تظهر الحقيقة كما هي للمشركين **﴿ ويقللكم في أعينهم ﴾** (٣) .

وقد وقعت في أحد كرامات ومعجزات لاتحصى . يرد عنها الحديث في حينها .

لماذا سلَّم الله في بدر . ولم يكن الفشل والتنازع ! ؟

ولماذا لم يسلِّم الله تعالى في أحد . وكان الفشل والتنازع ؟

والفشل والتنازع عموماً سنة من سنن الهزيمة .

﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ (٤) .

والجواب واضح .

فكثرة عدد المشركين ، وقلة عدد المسلمين في بدر ـ لم يكونا ناشئين عن معصية ، فما تخلف أحد عن بدر معصية لله ورسوله ، بينما انسحب ثلث الجيش في أحد معصية لله ورسوله ، وماتخاذل أهل بدر رغم رؤيتهم قوة عدوهم ، وماوهنوا وما استكانوا ، وقاتلوا مع رسولهم .

---

(١) الأنفال / ٤٣ . (٢) الأنفال / ٤٤ .
(٣) الأنفال / ٤٤ . (٤) الأنفال / ٤٦ .

بينما كانت مغادرة الجبل فى أحد معصية ظاهرة لله ورسوله ، إذ قال لهم رسول الله ﷺ : « لا تبرحوا مكانكم . ولو رأيتم الطير تخطفنا فلا تعينونا . وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا ، احموا ظهورنا » .

ولاعذر بالنسيان ، فقد ذكرهم أميرهم بأمر رسول الله ﷺ ألا يغادروا مواقعهم .

وحتى لايقع فى حس المسلم أن فقدان النصر فى أحد ـ كان مداره السبب المباشر من أسباب الأرض ، وهو مغادرة الجبل ، والتى كانت فى القدرة الربانية يمكن أن تسد ثغرتها ، لم يذكر القرآن الكريم الحادثة ذاتها ، فليست هى الهدف ، إنما ذكر الدافع لها مباشرة .

﴿ حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم ـ من بعد ماأراكم ماتحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ (1) .

ومع أن الفشل والتنازع والمعصية لم تقع فى الجيش كله ، إنما وقع فى مجموعة صغيرة منه ، والذين يريدون الدنيا ـ كما برزوا فى الغزوة ـ لم يكونوا كثرة بالنسبة للجيش ، وإن كانوا كثرة بالنسبة للرماة ـ إذ بلغوا أربعة أخماسهم .

فالخلل فى البناء التربوى والنفسى ، والمعصية ، وحب الدنيا ، والتنازع جعل العقوبة الربانية جاهزة ، ومع ذلك ففى هذه العقوبة لطف وعفو ، وحكمة .

﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم . ولقد عفا عنكم . والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ (2) .

فقد حال بين الرماة العصاة وبين الغنائم ، وانهزموا عندما مضوا إلى المعسكر ينتهبون ، حتى تبرز معصيتهم واضحة ، فلا يضيعوا فى خضم الذين يجمعون الغنائم دون معصية ، برزت قضيتهم جلية للعيان ، ولعلها ـ والله أعلم ـ لم تبرز كما برزت وجلاها القرآن الكريم فى الآية .

ولم تكن القضية على الأقل واضحة فى البداية ـ حين وقعت المحنة ، فقد تتالت المحن يعقب بعضها بعضا ، والغم تلو الغم ، بحيث لم تنجل الصورة تماماً ـ إلا بالعرض القرآنى بعد ذلك .

﴿ ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ .

---

(1) آل عمران / ١٥٢ .　　(2) آل عمران / ١٥٢ .

فقد كان يمكن أن تكون نتيجة هذه المعصية ـ استئصال المؤمنين وانتهاؤهم وإبادتهم ، وكان هذا في متناول المشركين ، بل رأوا أنهم فعلوا ذلك ـ حين وقف أبو سفيان بعد المعركة ، يسأل : أفيكم ابن أبي كبشة ؟ أفيكم ابن أبي قحافة ؟ أفيكم ابن الخطاب ؟

وهم يرون أنهم قضوا على هذه القيادات ، وانتهى أمر المسلمين بذلك ، وهنا تتجلى الحكمة أوضح . في أن سبقت الآية ﴿ **سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾ الآية المذكورة .

فعندما توجه المشركون للاستئصال ، دفع عنهم ذلك الأعرابى الذى لقوه فحذرهم من المسلمين ، فعادوا إلى مكة ، والرعب يملأ كيانهم .

أليس هذا من العفو والفضل على المؤمنين ؟ !

هناك فرق كبير بين القرح والمحنة . وبين المحق والإبادة !

﴿ **ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾ .

ولعل أية إلقاء الرعب فى قلوب الكافرين ـ هى الدليل الأكبر والأوضح على عفو الله ولطفه بالمؤمنين ، لكنه عفو مرتبط بالابتلاء ﴿ **ثم صرفكم عنهم ليبتليكم** ﴾ .

وتنتقل الآيات إلى حيث تم التوافق النفسي والتربوي مع التوافق الحركي للأحداث . ويتجلى ذلك في الآية التالية :

﴿ **إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم في أخراكم ، فأثابكم غمًا بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ، ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون** ﴾ (١) .

إنه القرآن الكريم يتابع عرض الواقع الذي أدى للهزيمة ، ونجد أنه قد أفرد للمعصية الثانية آية مبينة ، ما كنا لندرك أبعادها لولا القرآن الكريم .

﴿ **إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد . والرسول يدعوكم فى أخراكم ..** ﴾ .

فإذا كان الفريق الأول قد عصى وأراد الدنيا ، فإن الفريق الثاني لم يستجب لرسول الله ﷺ ، وهو يدعوه للثبات ، وليست هذه المعصية بأقل من تلك .

ونبحث في جل مصادر السيرة فلا نجد هذه الصورة أبدا . ﴿ **والرسول يدعوكم**

(١) آل عمران / ١٥٣ .

في أخراكم ﴾ . وإنما نجدها لدى المفسرين حين يعرضونها بالشرح والتعليق .

وهذه المعصية من الأهمية بحيث يجليها القرآن الكريم ، ويوضح عقوبة الغم المضاعف بسببها أى لا يمكن أن يقف المرء أمامها عرضاً ، ويمر عليها عابراً ، فهي جديرة بالوقوف والتأني ـ جدارة المعصية الأولى لأخذ العبرة منها .

﴿ إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد ﴾ .

(وقراءة العامة تُصعِدون بضم التاء وكسر العين ، وقرأ أبو رجاء العطاردى وأبو عبد الرحمن السلمى والحسن وقتادة بفتح التاء والعين ، يعنى تصعدون الجبل ـ وقال أبو حاتم : أصعدت : إذا مضيت خيال وجهك ، وصعِدت إذا ارتقيت في جبل أو غيره ، فالإصعاد : السير في مستو من الأرض ، وبطون الأودية والشعاب ، والصعود : والارتفاع على الجبال والسطوح والسلالِم والدرج) (١) .

(أخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس : ﴿ **إذ تصعدون** .. ﴾ قال : صعدوا فى أحد فرارا وهو يدعوهم في أخراهم : « إليّ عباد الله ارجعوا إليّ عباد الله ارجعوا) (٢) .

(وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه سئل عن قوله ﴿ **إذ تصعدون** .. ﴾ الآية . قال : فروا منهزمين في شعب شديد لا يلوون على أحد ، والرسول يدعوهم فى أخراهم « إليّ عباد الله إليّ عباد الله . ولا يلوى عليه أحد) (٣) .

(وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ **إذ تصعدون** .. ﴾ الآية . قال : ذاكم يوم أحد صعدوا فى الوادى فراراً ونبى الله ﷺ يدعوهم فى أخراهم « إليّ عباد الله . إليّ عباد الله ») (٤) .

وحسب تسلسل الأحداث لابد أن تكون هذه الدعوة مباشرة ، بعد كرّ خيل المشركين على المسلمين ، وكما تصف أحداث السيرة أن المسلمين قد أصبحوا بين كفي كماشة ، حيث عاد المشركون من أمامهم يقاتلونهم ، والخيل والفرسان يطعنون بهم من خلفهم ، وكان رسول الله ﷺ في أخراهم لأنهم كانوا متقدمين ينتهبون الغنائم ، ويلحقون بالفارين من المشركين ، وأمام هول الصدمة ووقع المفاجأة حيث وجدوا أنفسهم

(١) تفسير القرطبى / ٤ / ٢٣٩ . (٢) تفسير القرطبى / ٤٠ / ٨٨ .
(٣ ، ٤) الدر المنثور / ٣ / ٣٥٠ .

يقتلون من أمامهم ومن خلفهم ، وأحياناً يجتلدون مع بعضهم ـ فروا مذعورين ، وفي بداية هذا الفرار ـ ولا يزال الجيش الإسلامي على وضعه ـ كانت دعوة رسول الله ﷺ لهم كي يثبتوا ، ويدعوهم إلى التجمع حوله ، ويلح في ذلك ، وهم لا يلوون على أحد .

لأن المرحلة التالية ، وحين أفرد رسول الله ﷺ مع اثني عشر من أصحابه ثم غدا وحده ، وفصل بينه وبين جيشه ، لم تعد الخطة النبوية أن يعلن عن وجود النبي ﷺ ، لأنه الهدف الرئيسي في المعركة ، فلو نادى المسلمين ـ لانقض المشركون إلى موقع النداء ، ووجدنا سمة هذه المرحلة كما وصفها كعب بن مالك رضي الله عنه ، حين رأى رسول الله ﷺ ، فصاح هذا رسول الله ! فأشار له رسول الله ﷺ أن اصمت . وللمبالغة في السرية ، أخذ لأمة كعب وأعطاه لأمته ليفوّت الهدف على العدو في مقتله ، ونال كعباً رضي الله عنه بضع عشرة ضربة في رأسه ، على أساس أنه رسول الله صلوات الله عليه .

فقد كانت الدعوة ابتداء ، وحين كانت أم عمارة تذود عن رسول الله ﷺ ، أما بعد تفرق الجيش ، وتبعثره في الشعاب والأودية ـ فقد انتهت الدعوة .

ولا بد أن نشير إلى ثبات رسول الله ﷺ وقد فر عنه أصحابه . روى البيهقي عن المقداد بن عمرو قال :

(.. فأوجعوا والله فينا قتلاً ذريعاً . ونالوا من رسول الله ﷺ ما نالوا . ألا والذي بعثه بالحق إن زال رسول الله ﷺ شبراً واحداً ، وإنه لفي وجه العدو ويفئ إليه طائفة من أصحابه مرة ، وتفترق مرة عنه ، فربما رأيته قائماً يرمي عن قوسه ، ويرمي بالحجر حتى تحاجزوا ، وثبت رسول الله ﷺ في عصابة ثبتت معه) (١) .

وقال محمد بن عمر : ثبت رسول الله ﷺ مكانه ما يزول قدماً واحداً ، بل وقف في وجه العدو ومايزال يرمي عن قوسه حتى تقطع وتره ، وبقيت في يده منه قطعة تكون شبراً في سية القوس ، فأخذ القوس عكاشة بن محصن ليوتره له ، فقال : يا رسول الله لا يبلغ الوتر ، فقال : مُدّه فيبلغ ، قال عكاشة : فوالذي بعثه بالحق لمددته حتى بلغ وطويت منه ليتين أو ثلاثاً على سيّة القوس ، ثم أخذ رسول الله ﷺ قوسه ، فما زال يرمي به ، وأبو طلحة يستره متترساً عنه ، حتى تحطمت القوس ، وصارت شظايا ، وفنى نبله ، فأخذ القوس قتادة بن النعمان ، فلم تزل عنده . ورمى رسول الله ﷺ بالحجارة ، وكان أقرب الناس إلى العدو ...) (٢) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٢٩١ .

(٢) المغازي للواقدي / ١ / ٢٤٢ .

(وروى الطبراني عن ابن عباس : أن ابن مسعود ثبت يومئذ مع رسول الله ﷺ ، وجعل رسول الله لما انكشف الناس عنه إلى الجبل لا يلوون عليه يدعوهم في أخراهم يقول : « إليّ يا فلان أنا رسول الله » فما يعرّج عليه أحد ، هذا والنبل يأتيه من كل ناحية ، والله تعالى يصرف ذلك عنه) [1] .

(وروى عبد الرزاق بسند مرسل قوى عن الزهرى قال : ضرب وجه رسول الله ﷺ يوم أحد سبعين ضربة بالسيف ، وقاه الله شرها كلها .

قال الحافظ : ويحتمل أنه أراد بالسبعين حقيقتها ، أو المبالغة في الكثرة . انتهى) [2] .

فدعوة رسول الله ﷺ لهم أثناء فرارهم تشي بثباته ﷺ دون أن يتزحزح شبراً واحداً عن موقعه ، إلا عندما رسم الخطة لإعادة تجميع جيشه من جديد ، ومضى نحو الجبل ليواجه بكتائب العدو تريد قتله ، واستئصاله . لكن ثباته وشجاعته حطم هذا الكيد ، وأوصله إلى جيشه المبعثر . ﴿ **فأثابكم غماً بغم ..** ﴾ .

وتبلغ المأساة ذروتها ـ بعد هاتين المعصيتين ـ بالجيش النبوي ، كما يصف القرآن هذه القلوب قبل أن يصف الأحداث ، ولنشهد هذه الغموم هناك .

وعندنا خمس روايات تحدثنا عن هذه الغموم :

١ ـ (أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس ﴿ **إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم .فأثابكم غما بغم ..** ﴾ فرجعوا وقالوا : والله لنأتينهم ثم لنقتلنهم قد خرجوا منا فقال رسول الله ﷺ : « مهلاً فإنما أصابكم الذى أصابكم من أجل أنكم عصيتمونى » فبينما هم على ذلك إذ آتاهم القوم وقد أنسوا ، وقد اخترطوا سيوفهم ﴿ **فأثابكم غماً بغم** ﴾ .فكان غم الهزيمة ـ وغمهم حين أتوهم ﴿ **لكيلا تحزنوا على مافاتكم** ﴾ من الغنيمة ﴿ **ولا ما أصابكم** ﴾ من القتل والجراحة) [3] .

٢ ـ (وأخرج ابن مردوية عن عبد الرحمن بن عوف ﴿ **فأثابكم غمّا بغم** ﴾ قال : الغم الأول بسبب الهزيمة والثانى حين قيل : قتل محمد ، وكان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة)[4] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٢٩٢ .
(٢) سبل الهدى والرشاد / ٤ / ٢٩٣ .
(٣) تفسير الطبرى /٤/٩١ . والدر المنثور /٢/٣٥١ .
(٤) الدر المنثور / ٢/٣٥١ .

٣ ـ (وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فأثابكم غمًا بغم** ﴾ قال : فرة بعد الفرة الأولى حين سمعوا الصوت أن محمدا ﷺ قد قتل ، فرجع الكفار فضربوهم مدبرين حتى قتلوا منهم سبعين رجلاً ، ثم انحازوا إلى النبى ﷺ ، فجعلوا يصعدون في الجبل والرسول يدعوهم فى أخراهم)[1] .

٤ ـ (وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **فأثابكم غماً بغم** ﴾ قال : الغم الأول الجراح والقتل ، والغم الآخر حين سمعوا أن النبى ﷺ قد قتل ، فأنساهم الغم الآخر ما أصابهم من الجراح والقتل ، وما كانوا يرجون من الغنيمة .

وذلك قوله ﴿ **لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم** ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله)[2] .

٥ ـ (وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : انطلق النبى ﷺ يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة ، فلما رأوه وضع رجل سهمًا فى قوسه فأراد أن يرميه فقال : أنا رسول الله ، ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول الله ﷺ حيا ، وفرح رسول الله ﷺ حين رأى أن فى أصحابه من يمتنع ، فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله ﷺ حين ذهب عنهم الحزن ، فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه ، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا ، فأقبل أبو سفيان حتى أشرف عليهم ، فلما نظروا إليه نسوا ذلك الذى كانوا عليه ، وهمهم أبوسفيان فقال رسول الله ﷺ : « ليس لهم أن يعلونا ، اللهم إن تقتل هذه العصابة لا تعبد » ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة حتي أنزلوهم ، فذلك قوله : ﴿ **فأثابكم غمًا بغم** ﴾ الغم الأول ما فاتهم من الغنيمة ، والغم الثانى إشراف العدو عليهم ﴿ **لكيلا تحزنوا على مافاتكم** ﴾ من الغنيمة ، ولا ما أصابكم من القتل حين تذكرون فشغلهم أبو سفيان)[3] .

(وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : أصاب الناس حزن وغم على ما أصابهم فى أصحابهم الذين قتلوا ، فلما تولجوا فى الشعب وقف أبو سفيان وأصحابه بباب الشعب ، فظن المؤمنون أنهم سيميلون عليهم فيقتلونهم أيضاً ، فأصابهم حزن من ذلك أنساهم حزنهم في أصحابهم فذلك قوله سبحانه ﴿ **فأثابكم غماً بغم** ﴾)[4] .

---

(١) تفسير الطبرى / ٤/٨٨ ، ٨٩ . والدر المنثور /٢/٣٥١ (٢) تفسير الطبرى /٤/٨٩ والدر المنثور /٢/٣٥١ .

(٣) تفسير الطبرى /٤/٨٩ والدر المنثور /٢/٣٥١ . (٤) تفسير الطبرى /٤/٩٠ والدر المنثور /٢/٣٥٠ .

ونخلص من هذه الرويات الستة إلى أن الغم المجمع عليه فى الروايات كلها . هو ما أصابهم من فقدان إخوانهم ، وما فاتهم من الفتح والغنيمة وأما الغم الثانى فهو :

ـ إما : قدوم أبو سفيان إليهم فى صعوده للجبل أو وقوفه فى فم الشعب .

ـ وإما : ماسمعوه من أن محمداً ﷺ قد قتل بعد فواتهم الفتح الأول .

ـ وإما : عودة الكفار إليهم بعد إشاعة مقتل النبى ﷺ ، واستشهاد سبعين منهم .

﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ .

وحين يتحدث القرآن عن هذه المرحلة ، إنما يعنى أصحاب النبى ﷺ جميعا ، فالغم الأول والثانى نزل بهم كلهم ، والخطأ الذى تم فى العمل من الرماة ، والمعصية التى تمت نتيجة حب الدنيا من بعض المسلمين أعقبها سلوك مماثل - هو فرار وتبعثر وفقدان للوعى ، والمعصية الثانية بعدم تلبية النبى ﷺ من البعض .

﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد . والرسول يدعوكم فى أخراكم ﴾ .

لقد كانت آثار المعصيتين التى تمت من فريق من المسلمين أولاً ، وفريق ثان ثانياً ، والمرتبطة بحب الدنيا ، والخوف من القتل - كانت الآثار شاملة للجيش كله . **﴿ فأثابكم غمًا بغم ﴾** .

ونالت هذه الآثار شخص رسول الله ﷺ ، فكسرت رباعيته ، وشج وجهه ، ودخلت حلقتا المغفر في وجنته ، والجراحات التى خلصت للجيش كله ، والذين استشهدوا ولم يكونوا هم المخالفون ، ولكن المخالفة والمعصية عمل ، والعقوبة على هذا العمل **﴿ والله خبير بما تعملون ﴾** .

(يقول ابن إسحاق فى تفسير قوله تعالى : **﴿ فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم ﴾** (أى : كرباً بعد كرب لقتل من قتل من إخوانكم ، وعلو عدوكم عليكم ، وما وقع فى أنفسكم من قول من قال : قتل نبيكم ، فكان ذلك مما تتابع عليكم غماً بغم ، لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم من قتل إخوانكم حتى فرِّجتُ ذلك الكرب عنكم **﴿ والله خبير بما تعملون ﴾** وكان الذى فرج الله به عنهم ما كانوا فيه من الكرب والغم الذى أصابهم - أن الله عز وجل رد عنهم كذبة الشيطان بقتل نبيهم ﷺ ، فلما رأوا رسول الله ﷺ حياً بين أظهرهم - هان عليهم ما فاتهم من القوم

بعد الظهور عليهم ، والمصيبة التى أصابتهم فى إخوانهم حين صرف الله القتل عن نبيهم ﷺ) (١) .

وكأن ابن إسحاق رحمه الله جمع بين هذه الروايات ، واعتبر القضية غماً بعد غم ليست محصورة فى غمين فقط ، ولكن الذى أزال الغموم كلها ، رؤية رسول الله ﷺ حياً بين أظهرهم .

والمعنى الذى نحى إليه ابن إسحاق نجد له شواهد كثيرة من السيرة ، في النساء الصحابيات وفى الصحابة ، حيث كان المعنى العام : كل مصيبة دونك يارسول الله جلل (٢) .

يقول جل ثناؤه :

﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر شئ . قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ، ماقتلنا ها هنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلى الله مافى صدوركم وليمحص مافى قلوبكم والله عليم بذات الصدور ﴾ (٣) .

ويتضح التميز في هذه الآية فى أجلى صوره بين المؤمنين والمنافقين . بين الفريق الذين رضى الله عنهم لثباتهم بجوار حبيبه المصطفى ، وفدوه بالدم والروح ، وبين الذين عفا عنهم ففروا جزعاً وخوفاً ــ وبين الذين كشفوا خبيئة نفوسهم الخبيثة ، وفقدوا إيمانهم ، أو كشفوا زيفهم وكفرهم من أهل الشك والريب والنفاق .

وكأن المعركة معركة نفوس وقلوب وضمائر ، قبل أن تكون معركة سيوف ورماح وبواتر . فلو انتهت المعركة من الجولة الأولى ، واستوى الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه مع الذين نقضوا العهد والميثاق ، واستوى الذين يفدونه بأرواحهم ومهجهم ، مع الذين يشكون فيه وفى رسالته ــ لما تميز الخبيث من الطيب ــ ومن أجل ذلك ، وفى خضم المعارك تتميز الصفوف ، ويعرف المؤمن من المنافق .

لقد كان صرف المؤمنين عن المشركين ــ مع مافيه من محنة ــ قدراً ربانيا . وفضل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام /٢/٦٨ . وقد أوردها ابن جرير بسنده عن ابن إسحاق فى ٤/٩٠ .

(٢) جلل : تستعمل بمعنى العظيم ، وتستعمل بمعنى الصغير ، والمعني الثانى هو المقصود .

الله تعالى على المؤمنين فى تمييز الصف واصطفاء الشهداء ـ أعظم من فضله عليهم بالنصر في صف مخلخل غير خالص ، ومن أجل ذلك كانت المعركة مع العدو وهى الميدان الوحيد لكشف خبايا النفوس وحنايا الضمائر ، ومن أجل هذا برز الفريقان على الساحة ، وعلى كل فريق سمته وعلامته التى تكشف أعماق قلبه ، ودخيلة نفسه .

وإذا كان النعاس في بدر قد شمل المؤمنين جميعاً ، لأنها كانت محط التميز بين المؤمنين والكافرين ، فقد كان النعاس فى أحد ، يغشى فقط طائفة خلصت من حظوظ نفسها ، ولم يشغلها شئ إلا ربها ودينها ونبيها ، فتولاها ربها بحنوه ورعايته .

﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ﴾ (1)

(أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبخارى والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن حبان ، والطبرانى ، وأبو الشيخ وابن مردوية ، وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل عن أنس أن أبا طلحة . قال :

غشينا ونحن فى مصافنا يوم أحد ، حدث أنه كان ممن غشيهم النعاس يومئذ . فقال : فجعل سيفي يسقط من يدى وآخذه ، ويسقط وآخذه ، فذلك قوله **﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ﴾**) (2) .

(وأخرج ابن سعد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وصححه والحاكم وصححه وابن مردوية وابن جرير والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى معًا فى الدلائل عن الزبير ابن العوام قال : رفعت رأسى يوم أحد فجعلت أنظر ومامنهم أحد إلا وهو مميد تحت حجفته من النعاس وتلا هذه الآية : **﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ﴾**) . (3) (وروى الطبرانى في الأوسط عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : ألقى علينا النوم يوم أحد) . (4)

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (آمنهم الله تعالى يومئذ بنعاس غشاهم ، وإنما ينعس من يأمن) (5) .

وروى محمد بن عمر الأسلمى عن أبى اليسر ـ واسمه كعب بن عمرو الأنصارى ـ رضى الله عنه قال : لقد رأيتنى يومئذ فى أربعة عشر رجلاً من قومى إلى جنب رسول الله

---

(1) آل عمران / ١٥٤ . (2) الدر المنثور / ٤/ ٣٥٣ .
(3) الدرر المنثور ٤ / ٣٥٣ . (4) تفسير الطبرى / ٤/ ٩٢ . (5) تفسير الطبرى / ٤ / ٩٢ .

ﷺ ، وقد أصابنا النعاس أمنة منه ، مامنهم أحد إلا يغط غطيطاً حتى أن الجحف لتتناطح ، ولقد رأيت سيف بشر بن البراء بن معرور سقط من يده وما يشعر ، حتى أخذه بعد ماتثلم ، وأن المشركين لتحتنا [1] .

قال محمد بن إسحاق : (أنزل الله تعالى النعاس أمنة منه لأهل اليقين . فهم نيام لا يخافون) [2] .

يقول صاحب الظلال :

(ولقد أعقب هول الهزيمة وذعرها وهرجها ومرجها ـ سكون عجيب ، سكون فى نفوس المؤمنين الذين ثابوا إلى ربهم ، وثابوا إلى نبيهم ، لقد شملهم نعاس لطيف يستسلمون إليه مطمئنين !

والتعبير عن هذه الظاهرة العجيبة يشف ويرق وينعم ، حتى ليصور بجرسه وظله ذلك الجو المطمئن الوديع ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً** ﴾ .

وهى ظاهرة عجيبة تشى برحمة الله التى تحف بعباده المؤمنين ، فالنعاس حين يلم بالمجهدين المرهقين المفزعين ، ولو لحظة واحدة ـ يفعل فى كيانهم فعل السحر ، ويردهم خلقاً جديداً ويسكب فى قلوبهم الطمأنينة ، كما يسكب فى كيانهم الراحة بطريقة مجهولة الكنة والكيف) [3] .

﴿ .. وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية . يقولون : هل لنا من الأمر من شئ قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شئ ماقتلنا ها هنا . قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله مافى صدوركم ، وليمحص مافى قلوبكم والله عليم بذات الصدور . ﴾ [4] .

وعودة إلى قلب المعركة نستمع إلى الزبير رضى الله عنه ، وهو يغط فى نومه مع الطائفة الأولى يقول :

(لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا ، أرسل الله علينا النوم ، فما منا من رجل إلا ذقنه فى صدره ، فوالله إنى لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه

---

(١) المغازى للواقدى /١/٢٩٦ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام /٣/٦٩ .
(٣) فى ظلال القرآن /١/٤٩٥ .
(٤) آل عمران /١٥٤ .

إلا كالحلم : « لو كان لنا من الأمر شئ ما قتلنا ها هنا » فحفظتها منه ، وفي ذلك أنزل الله **﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسًا ﴾** إلى قوله **﴿ ما قتلنا ها هنا ﴾** لقول معتب بن قشير [(١)] .

لقد كانا بجوار بعضهما : الزبير بن العوام يغط في نومه غطيطاً ، وذقنه في صدره وقد سكبت الطمأنينة في قلبه ، وتناهى إلى سمعه كأنما هو في حلم صوت معتب بن قشير الذي قتله هم وغم نفسه : لو كان لنا من الأمرشئ ما قتلنا ها هنا ، حتى ليحفظها الزبير منه وأي تميز أعظم من هذا التميز .

يأخذ الله تعالى أرواح المؤمنين ، فيسكب فيها الطمأنينة والرضى واليقين ، وتقذف نفوس المنافقين ما أخفوه طويلاً طويلاً ، حتى تظهر في لحن أقوالهم : لوكان لنا من الأمر شئ ما قتلنا ها هنا . وفي لحظة رعب وندم وحقد وغضب على المصير البائس الذي لا قوه .

يقول الإمام ابن جرير الطبري : (يعني بذلك جل ثناؤه . وطائفة منكم أيها المؤمنون قد أهمتهم أنفسهم يقول : هم المنا فقون لاهم لهم إلا أنفسهم ، فهم من حذر القتل على أنفسهم وخوف المنية عليها في شغل قد طار من أعينهم الكرى ، يظنون بالله الظنون الكاذبة ، ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله شكاً في أمر الله ، وتكذيباً لنبيه ﷺ ، ومحسبة منهم أن الله خاذل نبيه ، ومُعْلٍ عليه أهل الكفر به) [(٢)] .

ويقول القرطبي في قوله تعالى : **﴿ وليبتلي الله مافي صدوركم وليمحص مافي قلوبكم ﴾** . (فرض الله عليكم القتال والحرب ولم ينصركم يوم أحد ليختبر صبركم ، وليمحص عنكم سيئاتكم إن تبتم وأخلصتم ، وقيل معنى ليبتلي : ليعاملكم معاملة المختبر ، وقيل ليقع منكم مشاهدة ماعلمه غيباً ... والله عليم بذات الصدور . أي مافيها من خير وشر . وقيل : ذات الصدور هي الصدور لأن ذات الشيء نفسه) [(٣)] .

القضية تبقى تدور في مجال العقيدة . فالمؤمنون يؤمنون بقدر الله وحكمته في كل أمر ، ويصدقون قول الله تعالى ورسوله ، أما المنافقون فيشكون في قدر الله ، ويقولون : **﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ماقتلنا هاهنا . ﴾** ويحسبون أن مقتلهم أو مقتل إخوانهم مرهون بوجودهم في ساحة المعركة ، وجاء القرآن ليكشف زيف هذه العقيدة في

(١) المغازي / ١ / ٢٩٦ .　　(٢) تفسير الطبري / ٤ / ٩٣ .

عقولهم وقلوبهم ويقول لهم : ﴿ **لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم** ﴾ أى (لو كنتم فى بيوتكم لم تشهدوا مع المؤمنين مشهدهم ، ولم تحضروا حرب أعدائهم من المشركين ، فيظهر للمؤمنين ماكنتم تخفونه من نفاقكم وتكتمونه من شرككم فى دينكم ، لبرز الذين كتب عليهم القتل أى لظهر للموضع الذى كتب عليه فيه مصرعه ، من قد كتب عليه القتل منهم ، ويخرج من بيته إليه حتى يصرع فى الموضع الذى كتب عليه أن يصرع فيه)[١] .

فالأجل المحدد ليس مرتبطاً بالمعركة ، والذى كتب عليه القتل سيناله القتل فى المكان الذى شاء القدر أن يلقى فيه حتفه . ومن جهة ثانية هى تشكيك بقيادة النبى ﷺ . وأن مقتل إخوانهم هو بسبب طاعتهم لمحمد فى الخروج إلى المشركين . وتمتد أصابع عبد الله ابن أبى الذى خذل النبى ﷺ إلى داخل المعركة فتكشفه وتكشف أتباعه الذين بقوا فى الصف المسلم ، ولو انتهى الأمر بالنصر ـ لما كشفت خبيئة هؤلاء الذين يخفون فى أنفسهم ما لايبدون للنبى ﷺ .

لقد كانت الكلمة الأولى : ﴿ **هل لنا من الأمر من شىء** . ﴾

(فعن ابن جريج أن المنافقين قالوا لعبد الله بن أبى ـ وكان سيد المنافقين ـ : قتل اليوم بنو الخزرج ، فقال : وهل لنا من الأمر شىء أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)[٢] .

وعن الحسن أنه سئل عن هذه الآية ، فقال : لما قتل من قتل من أصحاب محمد أتوا عبد الله بن أبى فقالوا له : ماترى ؟ فقال : إنا والله لانؤامر ﴿ **لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا** ﴾) .[٣]

ولا شك أن كلمة عبد الله بن أبى وفكرته أصبحت عقيدة كل منافق حضر المعركة أم لم يحضرها ، وأصبح فى وضعه النفسى يدين بالقيادة على زعمه لعبد الله بن أبى الذى رفض أن يحضر المعركة ابتداء ، وقال : ماأدرى علام نقتل أنفسنا أيها الناس ، وراح يشمت بقومه المؤمنين الذين كانوا أكثر الناس جراحاً وقتلاً ، ويؤكد أنه لو كان صاحب الرأى ، ومسؤول القيادة لما وقع ماوقع ، ولو كان له من الأمر شىء ما قتل قومه من الخزرج ، وصاروا من طرف آخر يشككون فى القيادة النبوية التى قادتهم للمعركة ، وأدت بهم إلى هذه التهلكة كما يزعمون .

---

(١) تفسير الطبرى / ٤ / ٩٥ .　(٢) الدر المنثور / ٢ / ٣٥٤ .　(٣) الدر المنثور / ٢ / ٣٥٤ .

وتحقق الهدف فى الابتلاء والتمحيص :

وما أحوجنا إلى أن نؤكـد ثانية وثالثة ، أن المعركة معركـة عقيدة ، ومعركة إيمان ونفاق . فلو بقى الأمر فى ظاهره ـ لكان قزمان سيد الشهداء مثل حمزة ، فقد قتل وحده ثمانية أو تسعة من المشركين ، إذا كان الأمر يحسب بالتضحيات والبطولات ، أما إذا كان يحسب بالإيمان والنفاق ، فلافرق فى ميزان الله بين البطل قزمان الذى قاتل ؛ حتى قتل ثمانية من المشركين ، وبين عبد الله بن أبى الذى انخذل بثلث الجيش من المنافقين . وإذا كان الأمر يحسب بالبطولات والتضحيات ـ فقزمان فى الميزان أعلى من عثمان بن عفان الذى عفا الله تعالى عنه ، وعن إخوانه الذين فروا من المعركة ـ وهذا ما نشهده فى الآية التالية ـ وعثمان وإخوانه فى ميزان الأرض أكرم عند الله .. ولو فروا . من طباق الأرض رجالاً من قزمان ـ ولو ثبت ـ وتأتى الآية التالية فى هذا السياق ، فى قلب المعركة ، لتكشف الضمائر والخبايا ، وتفرق بين خطأ السلوك ، والشك فى العقيدة .

﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا ، ولقد عفا عنهم إن الله غفور حليم ﴾ [1] .

فعندما ذكر القرآن الطائفتين من قبل : قال عن الأولى **﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ﴾** فقد ذكـر كلمة منكـم . وذكـر الأمن قبل النعاس ، بصفـته الإرادة الربانية من النعاس ليسربل به قلوب عباده المجاهدين فى سبيله . لكنه عندما ذكر الطائفة الثانية لم يقل **﴿ وطائفة منكم قد أهمتهم أنفسهم ﴾** فهم ليسوا من المؤمنين . إنما قال : **﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾** .

فقد كانوا ابتداء قبل كشف الخبايا وعلى ظاهر الأمر طائفة من المؤمنين ، أما بعد كشف الخفايا ، وظن الجاهلية ، والتشكيك بقدر الله ، والطعن الخفى فى القيادة النبوية ، والحنين إلى قيادة ابن أبى التى كان يمكن أن تحميهم من القتل ، بعد ذلك لم يعودوا طائفة من المؤمنين ؛ لما يحملون من عقيدة فاسدة ومايخفون من شك ونفاق وريب .

أما الذين فروا من المؤمنين ـ وليس جميع الذين فروا كما تذكر الروايات ـ فهم منهم وقال الله تعالى عنهم : **﴿ إن الذين تولوا منكم ﴾** . وقد يقع الخطأ فى السلوك . والضعف البشرى حيناً للمؤمن . لكن عقيدته تبقى أرسخ من الجبال الرواسى . وشاءت إرادة الله

---

(١) آل عمران / ١٥٥ .

تعالى أن يكون واحد من هؤلاء ثالث شخصية في الإسلام . وثالث الخلفاء الراشدين ، عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ليبقى في الأمر سعة في التفريق بين الخطأ مهما كان جسيمًا ، وبين الزلزلة والشك في العقيدة ، ولننظر ماذا تقول لنا الروايات في هؤلاء الذين فروا من المؤمنين :

١ ـ (أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن عوف ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** ..﴾ الآية قال : هم ثلاثة : واحد من المهاجرين ، واثنان من الأنصار)[1].

٢ ـ (وأخرج ابن مندة في معرفة الصحابة عن ابن عباس في قوله : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** ..﴾ الآية نزلت في عثمان بن عفان ، ورافع بن المعلى ، وحارثة بن زيد)[2] .

٣ ـ (وأخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** ..﴾ قال : نزلت في رافع بن المعلى ، وغيره من الأنصار . وأبي حذيفة بن عتبة ، ورجل آخر)[3] .

٤ ـ (وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** ..﴾ قال : عثمان . والوليد بن عقبة . وخارجة بن زيد ، ورفاعة بن معلى)[4] .

٥ ـ (وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كان الذين ولوا الدبر يومئذ : عثمان ابن عفان ، وسعد بن عثمان ، وعقبة بن عثمان ـ أخوان من الأنصار من بني زريق)[5] .

٦ ـ (وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن إسحاق ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** .﴾ فلان ، وسعد بن عثمان ، وعقبة بن عثمان الأنصاريان ثم الزرقيان ، وقد كان الناس انهزموا عن رسول الله ﷺ ؛ حتى انتهى بعضهم إلى المنقى دون الأغوص ، وفر عقبة بن عثمان ، وسعد بن عثمان ، حتى بلغوا الجلعب جبل بناحية المدينة مما يلي الأغوص ، فأقاموا به ثلاثاً ، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ . قال : لقد ذهبتم بها عريضاً)[6] .

ومجموع هذه الروايات الست . لايخرج في العدد في أقصاه إذا ذكرنا مجموع من

---

(١) الدرر النثور / ٢ / ٣٥٥ .
(٢) المصدر نفسه / ٢ / ٣٥٥
(٣) تفسير الطبرى / ٤ / ٩٦ .
(٤) الدر المنثور / ٢ / ٣٥٥ .
(٥) المصدر نفسه / ٢ / ٣٥٥ .
(٦) المصدر نفسه / ٢ / ٣٥٥ .

وردت أسماؤهم فى هذه الروايات ـ عن سبعة أشخاص . ثلاثة من المهاجرين وأربعة من الأنصار فمن المهاجرين : عثمان بن عفان ، والوليد بن عقبة ، وأبو حذيفة بن عتبة . ومن الأنصار : خارجة بن زيد ، ورافع بن المعلى ، وسعد بن عثمان ، وعقبة بن عثمان . وليس هؤلاء وحدهم الذين فروا ، فلا شك أنه فر أكثر هؤلاء . لكن الذين فروا من المؤمنين حيث استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا . ونالوا عفو الله . لايخرجون عن هؤلاء السبعة .

ولابد أن نفرق بين هؤلاء السبعة ، وبين فريق المؤمنين ، وأغلب الجيش الذين أخذهم هول الفجاءة ، فأصعدوا فى الجبل وفروا ، فهؤلاء ليسوا هم المقصودين فى هذه الآية ، وإن كان بعض الروايات ينحو نحو هذا المنحى .

(أخرج ابن جرير عن كليب قال : خطب عمر يوم الجمعة ، فقرأ آل عمران . وكان يعجبه إذا خطب أن يقرأها ، فلما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** .. ﴾ قال : لما كان يوم أحد هزمنا ، ففررت حتى صعدت الجبل ، فلقد رأيتنى أنزو كأننى أروى . والناس يقولون : قتل محمد ، فقلت : لا أجد أحداً يقول قتل محمد إلا قتلته ، حتى اجتمعنا إلى الجبل فنزلت : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** .. ﴾ الآية كلها) (١) .

وهذا من فقهه رضى الله عنه ألا يفرد هذه الآية بأفراد قلائل من الجيش . إنما هى تشمل كل من أخذه هول المفاجأة ففر من الساحة . طالما أنهم قد شملهم عفو الله .

(وقد روى عن سعيد بن جبير مثل ذلك وهو قوله : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** .. ﴾ يعنى انصرفوا عن القتال منهزمين ﴿ **يوم التقى الجمعان** .. ﴾ يوم أحد حين التقى الجمعان : جمع المسلمين ، وجمع المشركين ، فانهزم المسلمون عن النبى ﷺ وبقى فى ثمانية عشرة رجلاً ﴿ **إنما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا** ﴾ يعنى حين تركوا المركز وعصوا الرسول ﷺ حين قال للرماة يوم أحد : « لاتبرحوا مكانكم » فترك بعضهم المركز ﴿ **ولقد عفا الله عنهم** ﴾ حين لم يعاقبهم فيستأصلهم جميعاً ، ﴿ **إن الله غفور حليم** ﴾ فلم يجعل لمن انهزم يوم أحد بعد قتال بدر النار كما جعل يوم بدر . فهذه رخصة بعد التشديد) .

وإن كان الأرجح أن تكون هذه الآية قد نزلت بأشخاص بأعيانهم ، ولم تنزل بجمهرة المؤمنين ، وذلك للأسباب التالية :

١ ـ إن جمهرة المؤمنين قد ذكر وضعهم تفصيلاً فى الآيات السابقة : ﴿ **إذ**

---

(١) الدر المنثور / ٢ / ٣٥٥ .   (٢) المصدر نفسه / ٢ / ٣٥٦ .

تصعدون ولاتلوون على أحد . والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غماً بغم ﴾
وحيث أن أكثرية المؤمنين قد نزل بهم هذا الفرار المفاجىء ، فقد كان الوصف القرآنى أنه يمثل المسلمين جميعاً دون تمييز ، والأقلية التى ثبتت مع رسول الله ﷺ لم تذكر ، لأنها لاتمثل قوام الجيش الإسلامى .

٢ ـ والتعبير فى هذه الآية يشى بأن الأمر يتعلق بفريق محدود ونفر معين ، حيث تقول الآية ﴿ **إن الذين تولوا منكم** ﴾ وليس المؤمنين جميعاً .

٣ ـ والذى اشتهر فيما بعد ـ أن عثمان رضى الله عنه هو الذى فر مع نفر من المؤمنين ، كما ورد فى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : (فعن عثمان بن مرهب قال : جاء رجل حج البيت ، فرأى قوماً جلوساً ، فقال : من هؤلاء القعود ؟ قالوا : هؤلاء قريش ، قال : من الشيخ . ؟ قالوا : عبد الله بن عمر . فأتاه فقال إنى سائلك عن شىء أتحدثنى ؟ قال : أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فرَّ يوم أحد ؟ قال : نعم . قال : فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها ؟ قال : نعم . قال : فتعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم . فكبر الرجل . قال ابن عمر : تعال لأخبرك ولأبين لك ماسألتنى عنه :

أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه ، وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ ، وكانت مريضة ، فقال له النبى ﷺ « إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه » وأما تغيبه عن بيعة الرضوان ، فإنه لو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه ، فبعث عثمان . وكانت بيعة الرضوان بعدها ذهب عثمان إلى مكة ، فقال النبى ﷺ بيده اليمنى « هذه يد عثمان » فضرب بها على يده ، فقال : هذه لعثمان ، اذهب بها الآن معك)[1] .

﴿ يأيها الذين آمنو لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزىً لو كانوا عندنا ما ماتوا وماقتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم . والله يحيى ويميت . والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾[2] .

---

(١) البخارى / م ٢ / جـ ٢ / ٢٢١ (غزوة أحد) .
(٢) آل عمران / ١٥٦ ـ ١٥٨ .

لأول مرة تعرض الأخوة بين الكفار والمنافقين ، وذلك بعد إعلان الموقف المخزى منهم ، وانفصالهم عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قبيل المعركة . وتأتى هذه الآيات لتضع حداً فاصلاً بين فريقين رغم تشابه الموقف بين الفريقين :

فريق فر يوم التقى الجمعان ، واستزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا .

وفريق سماهم القرآن (الذين كفروا) وقد تخلوا عن المعركة ، وشمتوا بأقاربهم من المؤمنين الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ فى المعركة ، أو شمتوا بإخوانهم من المنافقين الذين لم ينسحبوا معهم عندما تخاذلوا عن رسول الله صلوات الله عليه ، كلا الفريقين قد غادر ساحة المعركة ابتداءً وانتهاء ، لكن الفريق الأول سماهم القرآن ﴿ **الذين كفروا** ﴾ ، والفريق الثانى قال الله تعالى عنهم : ﴿ **إن الذين تولوا منكم** ﴾ ، والفرق بين المؤمنين والذين كفروا . هو الفرق تماماً بين الإيمان والكفر ، ولنستمع إلى أقوال المفسرين بهذا الصدد :

(يقول ابن جرير رحمه الله : القول فى تأويل قوله ﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم ...** ﴾ يعنى بذلك جل ثناؤه : يأيها الذين صدقوا الله ورسوله ، وأقروا بما جاء به محمد من عند الله ، لاتكونوا كمن كفر بالله ورسوله ، فجحد نبوة محمد ﷺ ، وقال لإخوانه من أهل الكفر إذا ضربوا فى الأرض فخرجوا من بلادهم سفراً فى تجارة ، أو كانوا غزىً ، يقول : أو كان خروجهم من بلادهم غزاة ، فهلكوا فماتوا فى سفرهم ، أو قتلوا فى غزوهم لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا : .. وقد قيل : إن الذين نهى الله المؤمنين بهذه الآية أن يتشبهوا بهم ، وفيما نهاهم عنه من سوء اليقين بالله ـ هم عبد الله بن أبى بن سلول ، وأصحابه . ذكر من قال ذلك .) [١] .

(وقال آخرون فى ذلك . هم جميع المنافقين . وروى عن ابن إسحاق قوله : أى لاتكونوا كالمنافقين الذين ينهون إخوانهم عن الجهاد فى سبيل الله ، والضرب فى الأرض فى طاعة الله ورسوله ، ويقولون إذا ماتوا وقتلوا لو أطاعونا ماماتوا وماقتلوا) [٢] .

ولأول مرة تبلغ الشدة فى الحديث عن المنافقين هذا المبلغ بحيث يفرزون من الصف المؤمن ويخاطبون بالذين كفروا .

وموطن الكفر هنا ليس متوقفاً على الكفر بالله عز وجل ، فالكفر بقدر الله خيره وشره ضرب من الكفر . لأن الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره

(١ ، ٢) تفسير الطبرى ٤ / ٩٩ .

وشره من الله تعالى . والقوم هنا ينكرون القدر ويقولون عن إخوانهم : ﴿ **لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا** ﴾ (١) والذى يناله القوم من هذه العقيدة ، ويناله كل كافر بقدر الله ، الحسرة التى تأكل القلب ، والكمد والغيظ الذى ينهش النفس ﴿ **ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ، والله يحيى ويميت ، والله بماتعملون بصير** ﴾ .

أما قدر الله سبحانه ، والرد على تخرصات هؤلاء المنافقين فهو : ﴿ **ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون : ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون** ﴾ (٢) فإذا كان القتل فى سبيل الله خسارة ، لأنه فقدان للدنيا وملذاتها ــ كما يؤمن المنافقون ــ فهو الربح الأكبر ، والفوز الأعظم ﴿ **خير مما يجمعون** ﴾ من كل مايحوزه الكفار والمنافقون من مال وزينة ومتاع وعقار ، فالمؤمن سعيد بقضاء الله وقدره ؛ لأن القتل فى سبيل الله خير من كل مايحوزه أهل الأرض ، والمؤمن من جهة ثانية آت للقاء ربه ؛ يحشر إلى ربه مع المؤمنين ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا . ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا .** ﴾ (٣) وكم الفرق بين المتقين والمجرمين ؟ بين الوفد والورد ؟

حديث إلى رسول الله ﷺ وصحبه :

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك . فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر . فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلاغالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده . وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وماكان لنبى أن يغل ، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة . ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون . أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون . لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها . قلتم أنى هذا . قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير ﴾(٤) .

بعد كل محنة تتجه الأنظار دوماً للقيادة ، وذلك لتحميلها مسئولية المحنة كاملة ، وتثور الهواجس أن خطأ القيادة وعجزها هو الذى أدى لهذه النكسات المتلاحقة ، وتحمل

---

(١) آل عمران / ١٥٦ .
(٢) آل عمران / ١٥٧ ، ١٥٨ .
(٣) مريم / ٨٥ ، ٨٦ .
(٤) آل عمران / ١٥٩ ــ ١٦٥ .

القيادة كذلك بصورة معاكسة ثمرة النصر ، وتسمى صانعته . هكذا يفكر البشر القاصرون ، وها نحن أولاء هنا أمام تربية رب العالمين ، فماذا يقول الله تعالى لنا عن هذه القيادة النبوية الخالدة ؟ ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فبما رحمة من الله** ﴾ يقول فبرحمة من الله ﴿ **لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ أى والله طهره من الفظاظة والغلظة ، وجعله قريباً رحيماً رؤوفاً بالمؤمنين ، وذكر لنا أن نعت محمد ﷺ فى التوراة ليس بفظ ولاغليظ ولاصخوب فى الأسواق ، ولايجزى بالسيئة مثلها ، ولكن يعفو ويصفح .

نحن أمام ثناء الله تعالى على نبيه وعبده ورسوله وسيد خلقه ، الثناء على اللين فى خلقه ، ولو كان فظاً غليظاً لانفض الناس من حوله وانصرفوا عنه . وهذا الخلق النبوى العظيم سجله الله تعالى فى كتابه الخالد ، وهذا يعنى أنه من الأهمية بمكان ، ولا أدل على أهميته من أنه مسجل فى الكتب المنزلة من قبل ، فى التوراة التى أنزلها الله تعالى على موسى : ليس بفظ ولا غليظ ولاصخوب فى الأسواق . والخلق الثانى كذلك . خلق العفو والصفح ، إضافة إلى خلق اللين فاعف عنهم ـ كما ذكر القرآن الكريم .

ولايجزى بالسيئة مثلها . ولكن يعفو ويصفح .

وفى بعض الروايات : يسبق حلمه جهل الجاهل ، ولايزيده شدة الجهل إلا حلما . ولندع عبد الله بن سلام سيد أحبار يهود ـ رضى الله عنه ـ يحدثنا عن الحبر اليهودى الآخر زيد بن سعية وكيف كان إسلامه :

(عن عبد الله بن سلام قال : إن الله عز وجل لما أراد هدى زيد بن سعية قال زيد : مامن علامات النبوة شىء إلا وقد عرفته فى وجهه سوى اثنتين لم أخبرهما منه ؛ يسبق حلمه جهل الجاهل ، ولايزيده شدة الجهل عليه إلا حلما . فكنت أنطلق إليه لأخالطه وأعرف حلمه ، فخرج يوماً ومعه على بن أبى طالب ، فجاءه رجل كالبدوى . فقال : يارسول الله إن قرية بنى فلان أسلموا ، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رغداً ، وقد أصابتهم سنة وشدة ، وإنى مشفق عليهم أن يخرجوا من الإسلام ، فإن رأيت أن ترسل لهم بشىء يعينهم .

قال زيد : فقلت : أنا أبتاع منكم بكذا وكذا وسقا ، فأعطيته ثمانين ديناراً فدفعها إلى الرجل وقال : اعجل عليهم بها فأغنهم ، فلما كان قبل المحلّ بيوم أو يومين أو ثلاثة خرج رسول الله ﷺ إلى جنازة فى نفر من أصحابه ، فجبذت رداءه جبذة شديدة حتى سقط عن عاتقه ثم أقبلت بوجه جهم غليظ ، فقلت : ألا تقضينى يامحمد ، فوالله ماعلمتكم بنى عبد المطلب لمطل . فارتعدت فرائص عمر بن الخطاب كالفلك المستدير ، ثم رمى ببصره فقال : أى عدو الله أتقول هذا لرسول ﷺ ، وتصنع به ماأرى ، وتقول ما أسمع ؟ فوالذى بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقنى رأسك ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى تؤدة وسكون . ثم تبسم وقال : أنا وهو أحوج إلى غير هذا ، أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة ، اذهب يا عمر فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعاً من تمر .

فقلت ماهذا ؟ قال أمرنى رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان منازعتك ، فقلت : أتعرفنى يا عمر ؟ قال : لا . فمن أنت ؟ قلت : أنا زيد بن سعية ، قال : الحبر ؟ قلت : الحبر . قال : فما دعاك أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت ، وتقول له ما قلت ؟ قلت : ياعمر إنه لم يبق من علامات النبوة شىء إلا وقد عرفته فى وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما به ، يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، فقد اختبرته منه ، فأشهدك يا عمر أنى رضيت بالله ربًا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً . وأشهدك أن شطر مالى لله ، فإنى أكثرها مالاً ، صدقة على أمة محمد ﷺ.

فقال عمر : أو على بعضهم فإنك لا تسعهم كلهم ، قلت : أو على بعضهم .

قال : فرجع عمرو وزيد بن سعية إلى رسول الله ﷺ فقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله

فآمن به وصدقه ، وبايعه ، وشهد معه مشاهد كثيرة) . (١)

(قال ابن حجر فى الإصابة ، واستشهد فى غزوة تبوك مقبلا غير مدبر) . (٢)

وفى رواية أخرى : وأسلم أهل بيت اليهودى كلهم . إلا شيخا كان له مائة سنة فبقى على الكفر .

إنه نموذج حى للينه عليه الصلاة والسلام ، ولبعده عن الفظاظة والغلاظة التى تجعل الناس يفرون منه ويذعرون عنه .

---

(١) الوفا بأخبار المصطفى لابن الجوزي /٢/٤٢٥-٤٢٧ .

(٢) الإصابه فى تاريخ الصحابة /١/٥٦٦ .

إن الحاكم أو الملك أو القائد قد يتمكن بحزمه أن يضبط أمور مملكته أو جيشه ، وقد يسود النظام فلا يجرؤ أحد على مخالفته ، وتنفذ أوامر القائد أو الحاكم حرفيا ، فلا يعصى له أمر ، لكن هذا لا يعنى أن قلوب شعبه معه ، أو قلوب جيشه معه ، إنه فى اللحظة التى يزول فيها سلطانه سرعان ما تنهمر عليه اللعنات ، وتكال له الشتائم ويعرى من المحاسن . وهذا هو نصيب كثير من الطغاة . فى الأمس واليوم .

أما رسول رب العالمين ، الرحمة المهداة ، والبشير النذير ، فيتعامل مع قلوب الخلق ، يفتح مغاليقها ويستأثر بودها ، ويفك أقفالها ، لينضم الناس طواعية إلى هذا الدين الذى جاء به والكسب الحقيقى الأكبر والأعظم هو كسب هذه النفوس ، وامتلاك هذه القلوب :
﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك ﴾ .
وما أروع هذا الثناء بعد أحد . مع الجيش المثخن بالجراح ، والمعبق بالشهادة ، والمترع بالدم ، يأسو جراحه ، ويعالج مصيبته . ويسكب الطمأنينة والحب فى أعماقه فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر .

ماذا يفعل القائد العسكرى بأركان حربه ومستشاريه الذين أشاروا عليه برأى خلاف قناعته ، وأدى هذا الرأى إلى هزيمته ؟

إنه ليس أمامهم إلا التصفية الجسدية - الإعدام أو المقصلة .. وفى أحسن الأحوال عزلهم عن مواقعهم ، وإحالتهم على التقاعد .

أما مع رسول رب العالمين ، مع صحبه الذين استكرهوه على الخروج والذين خالفوا أمره صراحة وعلانية حتى فقد النصر فى المعركة ، حتى شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، ودخلت حلق المغفر فى وجنتيه .

ماذا فعل معهم فى أحلك اللحظات ؟

قال وأعمق الأسى فى قلبه ، والدم ينفجر منه :

« كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله ؟ » أليس العتب عليهم ، والأسى عليهم - هو الذى يدفعه لهذا الموقف ؟ ولم يرض الله تعالى لصفوة خلقه هذا العتب ، فقال له .

﴿ ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ .[1]

---

(١) آل عمران /١٢٨

وهل انتهى عند هذا الحد ، أن يكف عن العتب عليهم ، أو لومهم وتعنيفهم ؟ أبدا ، لابد من مرحلة أرقى وأعلى تناسب خاتمة الكمالات البشرية :

﴿ **فاعف عنهم** ﴾ لما فرطوا فى حقك ، ولما عصوا من أوامرك ، ولما سببوا لك من جراح ﴿ **واستغفر لهم** ﴾ لما فرطوا في حق الله ، ولما عصوا من أوامر رسوله ، ولما تزلزلوا عند المحنة ، وهل انتهى الأمر عند هذا الحد ؟

العفو عنهم ، والاستغفار لهم ، ويبقى لسيد الخلق توجيه الأوامر ، وإعفاؤهم من المسؤولية وإقصاؤهم عن المشاركة فى الرأى ، لما أثبتوا من خلل فيه لا كذلك مرة ثالثة .

﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ رغم كل ما تم ، فهم معك ، ومع كونك صفوة الله من خلقه فالأمر إليك تستشيرهم فى الكبيرة والصغيرة وتأنس برأيهم ، وتأخذ به .

ونقف رويًا مع المشاورة :

مع المشاورة فى أحد ابتداءً ، والدعوة إليها انتهاء ، ونشهد عظمة التربية الربانية لهذه الأمة .

روى الإمام أحمد والنسائى والبيهقى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : تنفَّل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر ، وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد وكان مما قال لهم رسول الله ﷺ يومئذ قبل أن يلبس الأداة .

« إنى رأيت أنى فى درع حصينة ، فأولتها المدينة ، وأنى مردف كبش فأولته كبش الكتيبة ، ورأيت أن سيفى ذا الفقار فُلَّ ، فأولته فلاّ فيكم ، ورأيت بقراً تذبح فبقر . واللهُ خير ، فبقر والله خير » .

وروى الإمام أحمد والنسائى والدارمى والضياء المقدسى بسند جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت أنى فى درع حصينة ورأيت بقراً تنحر ، فأولت أن الدرع الحصينة المدينة ، وأن البَقَرَ بَقْر والله خير » .

(قال ابن عتبة وابن إسحاق وابن سعد وغيرهم :

رأى رسول الله ﷺ هذه الرؤيا ليلة الجمعة ، فلما أصبح جاء أصحابه ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم ذكر الرؤيا لهم وقال : « إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة ونجعل النساء والذرية فى الآطام ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فى الأزقة فنحن أعلم بها منهن ، ورموا من فوق الصياصى والآطام » وكانوا قد شبكوا المدينة بالنبيان من

كل ناحية ، فهى كالحصن ، وكان هذا الذى ذكره رسول الله ﷺ ، رأى الأكابر من المهاجرين و الأنصار ، وكان عبد الله بن أبى يرى رأى رسول الله ﷺ فقال جماعة من المسلمين ـ غالبهم أحداث ، لم يشهدوا بدراً ، وطلبوا الشهادة وأحبوا لقاء العدو ، وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يوم أحد ـ : يا رسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لايرون أنا جبنا عنهم ، فقال عبد الله بن أبى :

يارسول الله أقم بالمدينة ولاتخرج ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم الصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا . فقال حمزة بن عبد المطلب ، وسعد بن عبادة ، والنعمان بن مالك فى طائفة من الأنصار :

إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جبنًا عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت يوم بدر فى ثلاثمائة رجل ، فظفرك الله تعالى عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير ، وقد كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله تعالى به ، فساقه الله تعالى إلينا فى ساحتنا .

ورسول الله ﷺ لما يرى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح .... فلما أبوا إلا ذلك صلى ـ ﷺ ـ الجمعة بالناس ، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، ففرح الناس بالشخوص إلى عدوهم ، وكره ذلك المخرج بشر كثير ، ثم صلى ـ ﷺ ـ العصر بالناس وقد حشدوا ، وحضر أهل العوالى ورفعوا النساء إلى الآطام ، ودخل رسول الله ﷺ بيته ، ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فعمماه وألبساه ، وقد صُف الناس له ما بين حجرته إلى منبره ، ينتظرون خروج رسول الله ﷺ فجاء سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، فقالا للناس :

استكرهتم رسول الله ﷺ ، وقلتم ما قلتم ، والوحى ينزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه ، فما أمركم به فافعلوه ، وما رأيتم له فيه هوىً ورأيًا فأطيعوه .

فبينما هم على ذلك إذ خرج رسول الله ﷺ وقد لبس لأمته ، ولبس الدرع فأظهرها وحزم وسطه بمنطقة من حمائل سيف من أدَم ، واعتم وتقلد السيف ، وندم الناس على إكراهه فقالوا : يا رسول الله ، استكرهناك ، ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد .

فقال رسول الله ﷺ : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه » وفي رواية : « حتى يقاتل انظروا ما آمركم به فاتبعوه امضوا على اسم الله تعالى فلكم النصر ما صبرتم » ووجد مالك بن عمرو البخاري قد مات ، ووضعوه عند موضع الجنائز و فصلى عليه ، ثم دعا بثلاثة رماح فعقد ثلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج إلى حباب بن المنذر ، ويقال إلى سعد بن معاذ ، ودفع لواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب . واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة)(١) .

هذه قصة الشورى ابتداء ، ونلحظ منها نقاطًا ثلاثة :

النقطة الأولى : تفسير الرؤيا ، ورؤيا الأنبياء حق ، والدرع الحصينة التي أولها عليه الصلاة والسلام بالمدينة .

النقطة الثانية : الإعلان الصريح عن الرأي بالبقاء بالمدينة ومميزات هذا الرأي .

« إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة ، ونجعل النساء والذرية في الآطام ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة ، فنحن أعلم بها منهم ، ورموا من فوق الصياصي والآطام » .

النقطة الثالثة : هي أن رسول الله ﷺ لم ينف الاستكراه ، ولم ينف أنه نزل عند رأي صحبه على خلاف رأيه .

« قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولاينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » .

وهذه النقاط من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تعليق ، ومع ذلك كله نزل قوله تعالى بعد النتائج الرهيبة في أحد :

﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾

وماذا يقول المفسرون حول هذه الآية ؟

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن الحسن في قوله **﴿ وشاورهم في الأمر ﴾** قال : قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة ، ولكن أراد الله أن

(١) سبل الهدى والرشاد /٤/٢٧٤ ـ ٢٧٧ .

يستن به من بعده .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ قال أمر الله نبيه أن يشاور أصحابه في الأمور ، وهو يأتيه وحى السماء لأنه أطيب لأنفس القوم ، وإن القوم إذا شاور بعضهم بعضاً ، وأرادوا بذلك وجه الله عزم لهم على رشده .

(وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن الضحاك قال :

ما أمر الله نبيه بالمشاورة إلا لما علم ما فيها من الفضل والبركة .

قال سفيان : وبلغنى أنها نصف العقل ، وكان عمر بن الخطاب يشاور حتى المرأة وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : ما شاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم) [1] .

وأخرج ابن عدى والبيهقى فى الشعب بسند جيد عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ قال رسول الله ﷺ : أما إن الله ورسوله لغنيان عنها ، ولكن جعلها الله رحمة لأمتى ، فمن استشار منهم لم يعدمْ رشداً ، ومن تركها لم يعدم غيًا .

وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار » .

وأخرج الحاكم وصححه . والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾

قال : أبو بكر وعمر .

وأخرج من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ قال : أبو بكر وعمر .

وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر :

« لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما » .

(وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : ما رأيت أحداً من الناس أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ) [2] .

---

(١) الدر المنثور /٢/٣٥٨ ، ٣٥٩ .

(٢) الدر المنثور /٢/٣٥٩ .

وينقلنا القرطبي إلى جو آخر يعرض فيه ثمان مسائل حول قوله تعالى : ﴿ **فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر** ﴾ نعرض منها ما يلي :

(الأولى : قال العلماء : أمر الله تعالى نبيه ﷺ بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ وذلك أنه أمره بأن يعفو عنهم ماله من خاصته عليهم من تبعة ، فلما صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر فيما لله عليهم من تبعة أيضاً ، فإذا صاروا في هذه الدرجة ، صاروا أهلاً للاستشارة في الأمور ...

الثانية : قال ابن عطية : والشورى من قواعد الشريعة ، وعزائم الأحكام ، من لايستشير أهل العلم فعزله واجب ، هذا ما لا خلاف فيه ، وقد مدح الله المؤمنين بقوله : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ ... وقال ابن خويز منداد : واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون ، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين ، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها ، وكان يقال : ماندم من استشار وكان يقال : من أُعجب برأيه ضل .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ يدل على جواز الاجتهاد في الأمور ، والأخذ بالظنون مع إمكان الوحي ، فإن الله أذن لرسوله ﷺ في ذلك ، واختلف أهل التأويل في المعنى الذي أمر الله نبيه عليه السلام أن يشاور فيه أصحابه ، فقالت طائفة : ذلك في مكائد الحروب وعند لقاء العدو وتطييباً لنفوسهم ، ورفعاً لأقدارهم ، وتألفاً على دينهم ، وإن كان الله تعالى قد أغناه عن رأيهم بوحيه ، روى هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق والشافعي ، قال الشافعي : هو كقوله : « والبكر تستأمر » تطييبًا لقلبها ، لا أنه واجب وقال مقاتل وقتادة والربيع : كان سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شقَّ عليهم ، فأمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يشاورهم في الأمر ، فإن ذلك أعطف لهم عليه ، وأذهب لأضغانهم ، وأطيب لنفوسهم ، فإذا شاورهم عرفوا إكرامه لهم ، وقال آخرون : ذلك فيما لم يأت به وحي ، روى ذلك عن الحسن البصري والضحاك ؛ وقالا : ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم ، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من الفضل ، ولتقتدي به أُمته من بعده ...) [1] .

أي والله : « إن الله ورسوله لغنيان عنها » كما يقول عليه الصلاة والسلام ، ولكنها التكرمة العظيمة لهذه الأمة ، أن يجعل فيها من يستشيره رسول الله ﷺ ، ويأخذ

---

(١) تفسير القرطبي ٤/٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

باستشارته . أن يرتفع بشر من البشر ؛ ليكون مستشار رسول رب العالمين الجليل من الأمور ، والصغير منها . ويمكن أن يأتي الوحى فى أى منها ، وليس بالضرورة أن يكون قرآنا يتلى ، فكل ما عند رسول الله ﷺ وحى ، ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى** ﴾ .

فالله تعالى لايريد لحزبه أن يكونوا أرقامًا تعد ، وأدوات تنفذ ، إن الله تعالى قد جعل فى صفوف هذه الأمة طاقات بشرية ، وإمكانات عبقرية ، يريد لها أن تعمل ، وتشحذ ذهنها ، وتشغل فكرها ، وتوقد عبقريتها فى البناء ، والحضارة والحرب والسلم . وكان بالإمكان أن تعطل أمام الوحى ، وألا تترك قضية إلا وينزل فيها وحى ، ولكن سوف تتعطل هذه الطاقات وتوقف هذه الخيرات و يستوى الجندى والقائد والراعى والرعية ، لكن رحمة الله تعالى بهذه الأمة شاءت أن يكون تدريب هذه الأمة على يد نبيها ، على يد صفوة الله من خلقه ، بحيث تعمل هذه الطاقات ، ويقدم الفكر البشرى عصارته ، وعبقريته ، ويوجه هذا الفكر بالتوجيه الربانى .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية :

أن لا يأتى دعى بعد رسول الله ﷺ ، أو طاغية من الطغاة ، يزعم أن عنده من العبقرية والإمكانات والعقل ما يستغنى به عن رأى غيره ، ألا يأتى الدعى أو الدكتاتور العادل ، أو المستبد الملهم ، فتصبح الأمة كلها أدوات مسخرة بين يديه ، فيئد هذه الطاقات ، ويلغى هذه العقول بحجة موهومة أن النبى ﷺ استغنى عن الاستشارة ، وهو على سنته ، وأن العباقرة لايستشيرون ، وأن العمالقة لايستشيرون ، وأن المصلحين المجددين لايستشيرون ، كما هى الحال مع رسول رب العالمين .

نحن لانناقش الطغاة الذين يحادون الله ورسوله ، فأولئك ليسوا فى صف الحساب ، ومقام النقاش فى هذا الموقع ـ إنما نناقش الذين يستأثرون بالحكم والسلطان باسم الإسلام ، وتحت راية الإسلام ، ويعطون لرأيهم الأولوية التى لاتحتاج لاستشارة ، ويحددون الناس حولهم بالمنفذين ، ويقصون كل صاحب خبرة ، وصاحب طاقة ، لأنه يناقش تصرفاتهم ، إنها العصمة لهذه الأمة أن تزل قدم بعد ثبوتها .؛

فإذا كان الأمر جاء من رب العالمين إلى رسول رب العالمين أن يستشير صحبه وحزبه : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ وهو الذى لاينطق عن الهوى ، فمن هو الدعى بعد ذلك الذى سيعطى لنفسه صلاحيات فوق صلاحيات رسول رب العالمين ، ويبقى له من الإسلام أو الانتساب للإسلام شىء .

ألا ما أعظم هـذه الكرامة وهذه الرحـمة التى ساقها الـله تعالى لهـذه الأمة ؛ أن يأمر نبيه بقوله : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾.

ولنقف مع حـديث رسول الله ﷺ الذى يحدد الـهدف الأعظم للاستـشارة « أما إن الله ورسـوله لغنيان عـنها ، ولكن جعـلها الله رحـمة لأمتى ، فمن اسـتشار منهم لـم يعدم رشداً ، ومن تركها لم يعدم غيًا » (١) .

وحين نربط هذا الحديث بهذه الآية :

﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾ (٢) .

فالله تعالى قد أتم نعمته ، وأكمل ديـنه ، وأبان لعباده الرشد من الغى ، وحين لايوجد نص يحـدد هذا الأمر ـ فـالوصول إلى الرشـد فى هذه الأمة المرحومة عن طـريق الإمام العادل المستشير ـ فلن يعدم رشدا .

والذى يتنكب الشـورى مهما كان دينه ، ومهما كان عقله ، ومهما كانـت عبقريته ، فلن يعدم غيًا .

وندع صاحب الـظلال يغوص أكثر وأكثر فـى هذا الخضم يستخرج لآلـئه : (وبهذا النص الجازم : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ يقرر الإسلام هـذا المبدأ فى نظام الحـكم ، حتى ومحمد رسول الله ﷺ هو الذى يتولاه . وهو نص قاطع لايدع للأمة المسلمة شكا فى أن الشورى مبدأ أساسى ، لايقوم نظام الإسلام على أساس سواه ، أما شكل الشورى والوسيلة التى تتحقق بها ، فهذه أمور قابلة للتـحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها ، وكل شكل وكل وسيلة تتم بها حقيقة الشورى ـ لا مظهرها ـ فهى من الإسلام .

لقد جاء هذا النص عقب وقوع نتائج للشـورى تبدو فى ظاهرها خطيرة مريرة ، فقد كان من جـرائها ظاهـرياً وقوع خلل فـى وحدة الصف المسـلم ! اختلـفت الآراء ، فرأت مجموعة أن يبقى المسـلمون فى المدينة محتمين بها ، حتى إذا هاجمـهم العدو قاتلوه على أفواه الأزقة ، وتحمست مـجموعة أخرى فرأت الخروج للقاء المشركين ، وكان من جراء ذلك الاختـلاف ذلك الخلل فـى وحدة الصف ، إذ عاد عـبد الله بن أبـى بن سلول بثلث الجيش ، والعدو على الأبواب ـ وهو حدث ضخـم وخلل مخيف ـ كذلك بدا أن الخطة التى نفذت لم تكن فى ظـاهرها أسلم الخطط من الناحية العسكريـة إذ أنها كانت مخالفة للسوابق فى الدفاع عن المدينة ـ كما قال عبد الله بن أبى ـ وقد اتبع المسلمون عكسها فى

(١) رواه البيهقى بسند جيد عن ابن عباس كما ذكر السيوطى وابن عدى .
(٢) البقرة /٢٥٦ .

غزوة الأحزاب التالية ، فبقوا فعلاً فى المدينة ، وأقاموا الخندق ، ولم يخرجوا للقاء العدو ، منتفعين بالدرس الذى تلقوه فى أحد .

ولم يكن رسول الله ﷺ يجهل النتائج الخطيرة التى« تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج ، فقد كان لديه الإرهاص من رؤياه الصادقة التى رآها ، ويعرف مدى صدقها ، والتى تأولها قتيلاً من أهل بيته ، وقتلى من أصحابه ، وتأول المدينة درعًا حصينة ، وكان من حقه أن يلغى ما استقر عليه الأمر نتيجة للشورى ، ولكنه أمضاها وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات لأن إقرار المبدأ ، تعليم الجماعة ، وتربية الأمة أكبر من الخسائر الوقتية .

ولقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة ، أمام ما أحدثته من انقسام فى الصفوف فى أحرج الظروف ، وأمام النتائج المريرة التى انتهت إليها المعركة ! ولكن الإسلام كان ينشىء أمة ويربيها ، ويعدها لقيادة البشرية ، وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة أن تربى بالشورى ، وأن تدرب على حمل التبعة ، وأن تخطىء مهما كان الخطأ جسيماً وذا نتائج مريرة ـ لتعرف كيف تصحح خطأها ، وكيف تحتمل تبعات رأيها وتصرفها فهى لاتتعلم الصواب إلا إذ زاولت الخطأ ، والخسائر لاتهم إذا كانت الحصيلة هى إنشاء الأمة المدربة المدركة المقدرة للتبعة ، واختصار الأخطاء والتراث والخسائر فى حياة الأمة ليس فيها شىء من الكسب لها إذا كانت نتيجته أن تظل هذه الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية ، إنها فى هذه الحالة تتقى خسائر مادية ، وتحقق مكاسب مادية ، ولكنها تخسر نفسها ، وتخسر وجودها ، وتخسر تربيتها ، وتخسر تدريبها على الحياة الواقعية ، كالطفل الذى يمنع من مزاولة المشى ـ مثلاً ـ لتوفير العثرات أو الخبطات ، أو توفير الحذاء !

كان الإسلام ينشىء أمة ويربيها ، ويعدها للقيادة الراشدة ، فلم يكن بد أن يحقق لهذه الأمة رشدها ، ويرفع عنها الوصاية فى حركات حياتها الواقعية العملية ، كى تدرب عليها فى حياة الرسول ﷺ وبإشرافه ، ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشورى ، ويمنع تدريب الأمة عليها تدريباً عملياً واقعياً فى أخطر الشؤون ، كمعركة أحد التى قد تقرر مصير الأمة المسلمة نهائياً ، وهى أمة ناشئة تحيط بها العدوان والأخطار من كل جانب ، ويحل للقيادة أن تستقل بالأمر وله كل هذه الخطورة ـ لو كان وجود القيادة الراشدة فى الأمة يكفى ، ويسد مسد مزاولة الشورى فى أخطر الشؤون ـ لكان وجود

محمد ﷺ ومعه الوحى من الله سبحانه وتعالى ـ كافيًا لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى ! وبخاصة على ضوء النتائج المريرة التى صاحبتها فى ظل الملابسات الخطيرة لنشأة الأمة المسلمة ، ولكن وجود محمد رسول الله ﷺ ومعه الوحى الإلهى ، ووقوع تلك الأحداث ، ووجود تلك الملابسات ـ لم يلغ هذا الحق ؛ لأن الله سبحانه ـ يعلم أنه لابد من مزاولته فى أخطر الشؤون ، ومهما تكن النتائج ، ومهما تكن الخسائر ، ومهما يكن انقسام الصف ، ومهما تكن التضحيات المريرة ، ومهما تكن الأخطاء المحيطة ـ لأن هذه كلها جزئيات لاتقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة ، المدربة بالفعل على الحياة ، المدركة لتبعات الرأى والعمل ، الواعية لنتائج الرأى والعمل . ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهى فى هذا الوقت بالذات ﴿ **فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر** ﴾[1] .

ليقرر المبدأ فى مواجهة أخطر الأخطار التى صاحبت استعماله ، وليثبت هذا القرار فى حياة الأمة المسلمة أيًا كانت الأخطار التى تقع فى أثناء التطبيق ، وليسقط الحجة الواهية التى تثار لإبطال هذا المبدأ فى حياة الأمة المسلمة ... كلما نشأ عن استعماله بعض العواقب التى تبدو سيئة ، ولو كان هو انقسام الصف ، كما وقع فى ـ أحد ـ والعدو على الأبواب ، لأن وجود الأمة الراشدة مرهون بهذا المبدأ ، ووجود الأمة الراشدة أكبر من كل خسارة أخرى فى الطريق)[2] .

وبقى لنا أن نقول شيئاً حول عظمة التطبيق للشورى ، وأن نتحدث عن الطريقة النبوية فيها .

فالحروب عادة أو قرار الحرب فى الأمم ـ إنما يكون فى أضيق نطاق ، وعلى أعلى المستويات ، يقرر أو يدرس من قيادات الجيش العليا ، وأركان حرب القائد الأعلى . ويقرر فى المجالس التشريعية فيها وكذلك خطة التنفيذ ، وطريقة الهجوم ، وطبيعة التحركات ـ إنما تكون أوامر ترد إلى القيادات دون العليا ؛ لتأخذ طريقها إلى التنفيذ .

لكننا هنا أمام ظاهرة فريدة فى تاريخ الشورى ، فخطة الهجوم ، والخروج لملاقاة العدو هى موطن الشورى من رسول الله ﷺ لجميع جنده ، من أصغر فرد فى جيشه إلى أكبر مسؤول فيه ، وقد أوضح عليه الصلاة والسلام رأيه ، وأيده فيه كبار الصحابة ، لكن رأى الشباب كان يخالف رأى القائد الأعظم عليه الصلاة والسلام ، وأبدوا رأيهم بصراحة متناهية أنهم يرغبون الخروج من المدينة لملاقاة العدو ، ولم يواجه النبى عليه

(١) آل عمران /١٥٧ .

(٢) فى ظلال القرآن ٥٠١/١ ، ٥٠٢ .

الصلاة والسلام هذا الحماس بالكبت ، وإنما استجاب لهذه الرغبة الجياشة طالما أنها تمثل رأى الأكثرية فى جيشه .

لقد كانت الشورى فى بدر منصبة على الأنصار ، حيث أنهم وعدوه أن يحموه فى المدينة ، أما الآن فالشورى عامة للجميع ، ولم يعهد بقائد أن يغير خطته انطلاقاً من حماس جنوده ، إذ قد يقع أن تتغير الخطة لدراسة فنية مغلقة فى قيادة الجيش ، وفى أركان الحرب ، أما أن تتعدل الخطة لآراء الشباب المسلم من رسول رب العالمين ولديه رؤياه بالقلعة الحصينة ، فهذا ما انفرد به تاريخ الحروب فى الأرض .

﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين** ﴾ .

ومن الشورى إلى العزيمة ، ونعود أدراجنا إلى أئمة التفسير :

(السابعة قوله تعالى ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾ قال قتادة : أمر الله تعالى نبيه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يمضى فيه ، ويتوكل على الله ، لا على مشاورتهم ، والعزم هو الأمر المروّى المنقح ، وليس ركوب الرأى دون روية عزمًا ...

وامتثل هذا النبى ﷺ من أمر ربه فقال : « لاينبغى لنبى يلبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله » أى ليس ينبغى له إذا عزم أن يتصرف ، لأنه نقض للتوكل الذى شرطه الله عز وجل مع العزيمة) [1] .

أما ابن جرير رحمه الله تعالى فيقول :

(وأولى الأقوال بالصواب فى ذلك أن يقال : أن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ بمشاورة أصحابه فيما حز به من أمر عدوه ، ومكايد حربه تألفًا منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرة التى يؤمن عليه معها فتنة الشيطان ، وتعريفًا منه أمته ما فى الأمور التى تحزبهم من بعده ومطلبها ؛ ليقتدوا به فى ذلك عند النوازل التى تنزل بهم ، فيتشاوروا فيما بينهم ، كما كانوا يرونه فى حياته ﷺ يفعله .

فأما النبى ﷺ فإن الله تعالى كان يعرفه مطالب وجوه ما حزبه من الأمور بوحيه ، أو إلهامه إياه صواب ذلك ، وأما أمته فإنهم إذا تشاوروا مستنين فى ذلك ، على تصادق وتآخ للحق ، وإرادة جميعهم للصواب من غير ميل إلى هوى ، ولاحيدٍ عن هدى ، فالله مسددهم وموفقهم .

---

(١) تفسير القرطبى /٤/٢٥٢ .

﴿ وأما قوله : ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾ فإنه يعنى : فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نابك ، وحزبك من أمر دينك ودنياك ـ فامض لما أمرناك به ، وافق ذلك آراء أصحابك ، وما أشاروا به عليك أو خالفها ، وتوكل فيما تأتى من أمورك وتدع ، وتحاول أو تزاول ـ على ربك فثق به فى كل ذلك وارض بقضائه فى جميعه دون سائر خلقه ومعونتهم فإن الله يحب المتوكلين)[1] .

(وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾ قال : أمر الله نبيه ﷺ إذا عزم على أمر أن يمضى فيه ، ويستقيم على أمر الله ، ويتوكل على الله ، وأخرج ابن مردوية عن على قال : سئل رسول الله ﷺ عن العزم فقال : « مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم »)[2] .

﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين** ﴾ .

(إن مهمة الشورى هى تقليب أوجه الرأى ، واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة ، فإذا انتهى إلى هذا الحد ، انتهى دور الشورى ، وجاء دور التنفيذ ، التنفيذ فى عزم وحسم ، وفى توكل على الله يصل الأمر بقدر الله ، ويدعه لمشيئته تصوغ العواقب كما تشاء .

وكما ألقى النبى ﷺ درسه النبوى الربانى ، وهو يعلم الأمة الشورى ، ويعلمها إبداء الرأى ، واحتمال تبعته وتنفيذه فى أخطر الشؤون وأكبرها ، كذلك ألقى عليها درسه الثانى فى المضاء بعد الشورى ، وفى التوكل على الله ، وإسلام النفس لقدره ـ على علم بمجراه واتجاهه ـ فأمضى الأمر فى الخروج ، ودخل بيته ، فلبس درعه ولأمته ـ وهو يعلم إلى أين هو ماض ، وما الذى ينتظره وينتظر الصحابة معه من آلام وتضحيات .. وحتى حين أتيحت فرصة أخرى بتردد المتحمسين ، وخوفهم من أن يكونوا استكرهوه ـ ﷺ على ما لا يريد ، وتركهم الأمر له ليخرج أو يبقى .... حتى حين أتيحت هذه الفرصة ، لم ينتهزها ليرجع ؛ لأنه أراد أن يعلمهم الدرس كله ، درس الشورى ثم العزم والمضى مع التوكل على الله ، والاستسلام لقدره ، وأن يعلمهم أن للشورى وقتها ، ولا مجال بعدها للتردد أو التأرجح ، ومعاودة تقليب الرأى من جديد ، فهذا مآله الشلل والسلبية والتأرجح الذى لاينتهى ، وإنما هو رأى وشورى ، وعزم ومضاء ، وتوكل على الله .

﴿ **إن الله يحب المتوكلين** ﴾ .

---

(١) تفسير الطبرى /٤/١٠١ .　　　　(٢) الدر المنثور /٢/٣٥٩ ، ٣٦٠ .

والخلة التي يحبها الله ، ويحب أهلها هي الخلة التي ينبغي أن يحرص عليها المؤمنون ، بل هي التي تميز المؤمنين ، والتوكل على الله ، ورد الأمر إليه في النهاية ، هو خط التوازن الأخير في التصور الإسلامي ، وفي الحياة الإسلامية ، وهو التعامل مع الحقيقة الكبيرة : حقيقة أن مرد الأمر كله لله ، وأن الله فعال لما يريد) (١) .

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٢) .

لاغرو أن تثور الهواجس في نفوس المؤمنين عقب هذه الآيات وأن تتحرك المشاعر : ما السبب الذى أدى إلى المحنة ؟

هل الأخذ برأى المتحمسين هو الذى أدى إلى ذلك ؟

ولعل الفريق الآخر يثور هذا الهاجس في نفسه أكثر وأكثر ، وإن كان ابن أبي قد عبر صراحة عنه مع حزبه :

(عصاني وحلفائي ما أدرى علام نقتل أنفسنا أيها الناس)

﴿ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ... ﴾ (٣) .

﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا .. ﴾ (٤) .

﴿ لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ (٥) .

والذى يجيش في صدور الشباب المتحمس أن سبب الهزيمة معروف هو خذلان عبد الله بن أبي وأصحابه ، وانفصالهم بثلث الجيش عن رسول الله ﷺ . وحين تتماوج النفوس بإلقاء التبعة من كل فريق على الآخر ، يأتي النص القرآني ليحزم الأمر ويعيد الأمر إلى نصابه ، فالله تعالى وحده هو الذى ينصر ، لقد تلقوا هذا الدرس في بدر حتى لا يبطروا في النصر. ولايقولوا كما ذكر أحدهم :

(إن رأينا إلا عجائز صلعا)

فقال لهم الله تعالى : **﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾** (٦) .

---

(١) في ظلال القرآن / م ١ / جـ٤ / ٥٠٢ ، ٥٠٣ .
(٢) آل عمران / ١٦٠ .
(٣) آل عمران / ١٥٦ .
(٤) آل عمران / ١٥٤ .
(٥) آل عمران / ١٦٨ .
(٦) الأنفال / ١٠ .

وها هم أولاء يتلقون هذا الدرس فى أحد بعد المحنة الشديدة ، ويغيب عن أذهانهم الناصر والمعين فقال لهم الله تعالى : إن النصر بيده وحده ، والهزيمة بيده وحده .

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ [1] .

وذلك ليتجردوا من ذواتهم ونفوسهم ، ويتوكلوا على الله وحده فى تحقيق النصر أو إيقاع الهزيمة .

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

فالتوكل والاعتماد على الله تعالى وحده ، وطلب النصرة منه وحده ، فليس الناصر العدد ولا الملائكة إنما الناصر الله تعالى وحده ، ولهذا يتوكل عليه المؤمنون ، وإذا كان معنى النصر من الله وحده قد نص عليه صراحة بعد بدر وأحد ، لكن معنى الخذلان والهزيمة نص عليه صراحة هنا فقط ، فله طعم ومذاق وخاصة بعد المحنة الصعبة التى نزلت بجند الله عز وجل .

وعبر عن النصر والهزيمة فى أحد كما عُبر عنه فى بدر .

فقد جاء هذا المعنى فى بدر فى الأنفال :

﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

وجاء تعقيبا على أحد فى آل عمران :

﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ .

بينما جاء التعبير عنه فى أحد ينفى كل ناصر أو خاذل غير الله عز وجل

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ [2] .

﴿ وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ [3] .

وذلك لتعميق هذا المعنى فى نفوسهم أكثر ، وليبقى الأمر فى حسهم ـ وهمْ لايزالون يعانون من آثاره ـ مرتبطًا بالله وحده ، حين يخرجون عن سنن الله فى النصر فيفوتهم ، وينالهم الخذلان إذ قال لهم من قبل : **﴿ ثم صرفكم عنهم ﴾** ـ بعد تحقيق النصر ـ

---

(١) آل عمران / ١٦٠ .　　(٢ ، ٣) آل عمران / ١٦٠ .

﴿ ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ [1] .

﴿ وما كان لنبى أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون ﴾ [2] .

وإذا كان الانشغال بالغنائم والانكباب عليها قد ذاقوا منه مرارة الخذلان الربانى لهم من جرائه فلابد أن يعلموا أن الداء فى النفس ، والحرص على الدنيا هو سبب الابتلاء ، ولابد أن يتعلموا كذلك أن النبى قد برأه الله تعالى من هذا الداء ، نفساً وواقعاً ، فلا وجود أصلاً له عنده فالنفى المطلق لأصل الداء يؤكد هذا المعنى .

﴿ وما كان لنبى أن يغل ﴾ .

يقول ابن جرير رحمه الله :

(القول فى تأويل قوله :**﴿ وما كان لنبى أن يغل ﴾** اختلف القراء فى قراءة ذلك فقرأته جماعة من قراء الحجاز والعراق وما كان لنبى أن يغل بمعنى أن يخون أصحابه فيما أفاء الله عليهم من أموال أعدائهم ، واحتج بعض قارئى هذه القراءة أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ فى قطيفة فقدت من غنائم القوم يوم بدر ، فقال بعض من كان مع النبى ﷺ لعل رسول الله ﷺ أخذها ورووا على ذلك روايات) [3] .

ـ وقد أورد هذه الروايات عن ابن عباس وابن جبير ـ وقال آخرون : إنما نزلت هذه الآية فى طلائع كان رسول الله ﷺ وجههم فى وجه ، ثم غنم النبى ﷺ فلم يقسم للطلائع فأنزل الله عز وجل هذه الآية على نبيه ﷺ يعلمه فيها أن فعله الذى فعله خطأ ، وأن الواجب عليه فى الحكم أن يقسم للطلائع مثل ما قسم لغيرهم) [4] .

(وأورد ذلك عن الضحاك وابن عباس) .

(وقال آخرون ممن قرأ ذلك ... إنما أنزل الله ذلك تعريفًا للناس أن النبى لا يكتم من وحى الله شيئاً) [5] .

(وأورد ذلك عن ابن إسحاق ومجاهد والسدى) .

وقرأ ذلك آخرون وما كان لنبى أن يُغَلَّ بضم الياء وفتح الغين وهى قراءة معظم قراء

---

(١) آل عمران /١٥٢ .
(٢) آل عمران /١٦١ .
(٣) تفسير الطبرى /١٠٢/٤ .
(٤ ، ٥) تفسير الطبرى ١٠٣/٤ ، ١٠٤ .

أهل المدينة والكوفة واختلف قارئو ذلك فى تأويله . فقال بعضهم معناه : ما كان لنبى أن يغلَّه أصحابه ثم أسقط الأصحاب وبقى الفعل غير مسمى فاعله ، وتأويله :

« وما كان لنبى أن يخان » .

(وأورد ذلك عن الحسن وقتادة والربيع) [1] .

ثم ختم كلامه بقوله :

(وأولى القراءتين فى الصواب ذلك عندى قراءة من قرأ وما كان لنبى أن يَغُل بمعنى ما الغلول من صفات الأنبياء . ولا يكون نبياً من غل ...) [2] .

﴿ ومن يغلل يأت بما غلَّ يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

(أخرج ابن أبى شيبة وأحمد والبخارى ومسلم وابن جرير والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ يومًا فذكر الغلول ، فعظمه وعظم أمره ثم قال : « ألا لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء فيقول : يا رسول الله ، أغثنى . فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ، قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة فيقول : يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت [3] فيقول : يا رسول الله أغثنى . فأقول : لاأملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك ») [4] .

(وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد ومسلم وأبو داود ، عن عدى بن عميرة الكندى قال : قال رسول الله ﷺ : « من عمل منكم لنا فى عمل فكتمنا منه مخيطًا فما فوقه فهو غل » وفى لفظ ـ فإنه غلول يأتى به يوم القيامة ») [5] .

(وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر وقال : لو كنت مستحلاً من الغلول القليل لاستحللت منه الكثير ، ما من أحد يغل غلولاً إلا كلف أن يأتى به من أسفل درك جهنم)[6] .

---

(١) ، (٢) تفسير القرطبى ١٠٣/٤ ، ١٠٤ .
(٣) صامت : ذهب وفضة .
(٤) ، (٥) الدر المنثور ٣٦٤/٢ ، ٣٦٥ .
(٦) الدر المنثور ٣٦٥/٢ .

﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . هم درجات عند الله والله بصير بما تعملون ﴾ (١).

(قوله تعالى : ﴿ أفمن اتبع رضوان الله ﴾ يريد بترك الغلول ، والصبر على الجهاد ، ﴿ كمن باء بسخط من الله ﴾ يريد بكفر أو غلول أو قول عن النبى ﷺ فى الحرب ﴿ ومأواه جهنم ﴾ أى مثواه النار ، أى إن لم يتب أو يعفو الله عنه ﴿ وبئس المصير ﴾ أى المرجع ... ثم قال تعالى : ﴿ هم درجات عند الله ﴾ أى ليس من اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ، قيل ﴿ هم درجات ﴾ متفاوتة ، أى هم مختلفو المنازل عند الله ، فلمن اتبع رضوانه بالكرامة والثواب العظيم ، ولمن باء بسخط منه المهانة والعذاب الأليم ، ومعنى ﴿ هم درجات ﴾ أى ذوو درجات ، أو على درجات ، أو فى درجات ، أو لهم درجات ، وأهل النار أيضاً ذوو درجات ... فالمؤمن والكافر لايستويان فى الدرجة ، ثم المؤمنون يختلفون أيضاً ، فبعضهم أرفع درجة من بعض ..) (٢) .

ويبقى جو المعركة ، وجو القيادة ، وجو التربية هو المسيطر فى هذه الآيات ، وبعد تبرئة رسول الله ﷺ من الغُلول ، وبعد الثناء عليه بالرحمة واللين ، وبعد دعوته للاستشارة والاستغفار ، والعفو للمؤمنين ، يبقى المؤمنون يتلقون من السماء الحكم على مواقفهم وتصرفاتهم ، تأييداً أو تأنيباً ، تختم هذه الفقرة ، بقمة المن الإلهى على المؤمنين فى الأرض عامة ، وعلى صحب محمد خاصة ، أن اختار منهم رسوله .

﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (٣) .

(أن يرتفع إنسان ويسمو فيصبح أهلاً لتلقي وحى الله فى هذا الوجود ، وأن يتصل بالعالم العلوى وبسيد الملائكة جبريل ينزل عليه بكلام الله تعالى وآياته ، هى العزة والكرامة فى هذه الأرض التى لاتعلو فوقها عزة أو كرامة .

وهذا السمو البشرى لهذا الفرد النبى ـ هو كرم لبيته وأمته كلها ، أن يكون منها هذا الرسول وتسمو الأمّة به ، وترتفع به ، وتعلو به ، وتسعد به .

وإذا كان رسول الله ﷺ ليس ملكاً لقومه فقط ، بل هو ملك للبشرية كافة ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

---

(١) آل عمران /١٦٣ .　　(٢) تفسير القرطبى /٤/٢٦٢ ، ٢٦٣ .　　(٣) آل عمران /١٦٤ .

ونستدرك فنقول ليس للبشرية فقط ، بل لكل العالمين ، والثقلين الإنس والجن وغير ذلك . لكن أسعد الناس به بلا شك هم المؤمنون فى الأرض على امتداد الزمان والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولابد أن يحفر فى قلب المؤمنين هذا المعنى ، ويعرفوا عظمة هذا النبى الذى أخلوا بواجبه فى هذه المحنة ، وأقدم بعضهم على معصية أمره .

ولابد أن يرضعوا ألبان هذه العقيدة فى التعرف على جوانب العظمة النبوية ، فيرعوا حقها ، ويؤدوا ضريبة وجودها بينهم ، فتأتى هذه الآية ، لتتابع تربيتهم على هذه المعانى ، وندع لصاحب الظلال أن يتحدث عن هذه العظمة بما وهبه الله تعالى من بيان :

﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾ .

إنها المنة العظمى أن يبعث الله فيهم رسولاً ، وأن يكون هذا الرسول من أنفسهم ، إن العناية من الله الجليل بإرسال رسول من عنده إلى بعض خلقه ، وهى المنة التى لا تنبثق إلا من فيض الكرم الإلهى ، المنة الخالصة التى لا يقابلها شيء من جانب البشر ، وإلا فمن هؤلاء الناس ؟ ومن هم هؤلاء الخلق حتى يذكرهم الله هذا الذكر ، ويعنى بهم هذه العناية ؟ ويبلغ من حفاوة الله بهم . أن يرسل لهم رسولاً من عنده ، يحدثهم بآياته ـ سبحانه ـ وكلماته لولا أن كرم الله يفيض بلا حساب ، ويغمر خلقه بلا سبب منهم ولا مقابل .

وتتضاعف المنة بأن يكون هذا الرسول « من أنفسهم » ولم يقل منهم ، فإن للتعبير القرآنى « من أنفسهم » ظلالاعميقة الإيحاء والدلالة .. إن الصلة بين المؤمنين والرسول هى صلة النفس بالنفس لا صلة الفرد بالجنس ، فليست المسألة أنه واحد منهم وكفى ، إنما هى أعمق من ذلك وأرقى ، ثم إنهم بالإيمان يرتفعون إلى هذه الصلة بالرسول ، ويصلون إلى هذا الأفق من الكرامة على الله ، فهو منة على المؤمنين ، فالمنة مضاعفة ممثله فى إرسال الرسول ، وفى وصل أنفسهم بالرسول . ونفس الرسول بأنفسهم على هذا النحو الحبيب .

ثم تتجلى هذه المنة العلوية فى آثارها العملية فى نفوسهم وحياتهم وتاريخهم الإنسانى : **﴿ يتلو عليهم آياته . ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾** تتجلى هذه المنة فى أكبر مجاليها ، فى تكريم الله لهم . بإرسال رسول من عنده ، يخاطبهم بكلام الله الجليل .

﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ .

ولو تأمل الإنسان هذه المنة وحدها لراعته وهزته حتى مايتمالك أن ينصب قامته أمام الله حتى وهو يقف أمامه للشكر والصلاة !

ولو تأمل أن الله الجليل ـ سبحانه ـ يتكرم عليه ، فيخاطبه بكلماته ، يخاطبه ليحدثه عن ذاته الجليلة ، وصفاته ، وليعرفه بحقيقة الألوهية وخصائصها ، ثم يخاطبه ليحدثه عن شأنه هو ـ هو الإنسان ـ العبد الصغير الضئيل ـ وعن حياته ، وعن خوالجه وعن حركاته وسكناته ، يخاطبه ليدعوه إلى مايحييه ، وليرشده إلى مايصلح قلبه وحاله ، ويهتف به إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، فهل هو إلا الكرم الفائض الذى يجرى بهذة المنة ، وهذا التفضل ، وهذا العطاء ؟

إن الله الجليل غنى عن العالمين ، وإن الإنسان الضئيل لهو الفقير المحووج .. ولكن الجليل هو الذي يحفل هذا الضئيل ويتلمسه بعنايته ، ويتابعه بدعوته ! والغنى هو الذى يخاطب الفقير ويدعوه ويكرر دعوته !

فيا للكرم ، ويا للمنة ! ويا للفضل والعطاء الذى لا كفاء له من الشكر والوفاء !

﴿ ويزكيهم ﴾ :

يطهرهم ويرفعهم وينقيهم ، يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم ، ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم ، ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم ، يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة ، وما تبثه فى الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالإنسان ، وبمعنى إنسانيته .. ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية ، وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم .

﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ :

وكان المخاطبون بهذه الآية أميين جهالاً ، أمية القلم ، وأمية العقل سواء ، وما كان لهم من المعرفة شيء ذو قيمة بالمقاييس العالمية للمعرفة ، فى أى باب من الأبواب ، وما كان لهم في حياتهم من هموم كبيرة تنشئ معرفة ذات قيمة عالية فى أى باب من الأبواب ، فإذا هذه الرسالة تحيلهم أساتذة الدنيا ، وحكماء العالم . وأصحاب المنهج العقيدى والفكرى والاجتماعى والتنظيمى ، الذى ينقذ البشرية كلها من جاهليتها فى ذلك الزمان ، والذى يرتقب دوره في الجولة القادمة ـ بإذن الله ـ لإنقاذ البشرية مرة أخرى من جاهليتها

الحديثة ، التى تتمثل فيها كل خصائص الجاهلية القديمة ، من النواحى الأخلاقية والاجتماعية ، وتصور أهداف الحياة الإنسانية وغايتها كذلك ! على الرغم من فتوحات العلم المادى والإنتاج الصناعى ، والرخاء الحضارى .

﴿ وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ .

ضلال فى التصور والاعتقاد ، وضلال فى مفهومات الحياة ، وضلال فى الغاية والاتجاه ، وضلال في العادات والسلوك ، وضلال فى الأنظمة والأوضاع ، وضلال فى المجتمع والأخلاق .

والعرب الذين كانوا يخاطبون بهذه الآية كانوا يذكرون ـ ولا شك ـ ماضى حياتهم وأوضاعهم ، ويعرفون طبيعة النقلة التى نقلهم إليها الإسلام ، وما كانوا ببالغيها بغير الإسلام ، وهى نقلة غير معهودة في تاريخ البشرية الطويل .

كانوا يدركون أن الإسلام ـ والإسلام وحده ـ هو الذى نقلهم من طور القبيلة ، واهتمامات القبيلة وثارات القبيلة ، لا ليكونوا أمة فحسب ، ولكن ليكونوا ـ على حين فجأة ومن غير تمهيد يتدخل فيه الزمن ـ أمة تقود البشرية ، وترسم لها مثلها ، ومناهج حياتها ، وأنظمتها كذلك ، في صورة غير معهودة فى تاريخ البشرية الطويل .

كانوا يدركون أن الإسلام ـ والإسلام وحده ـ هو الذى منحهم وجودهم القومى ، ووجودهم السياسى ، ووجودهم الدولى .. وقبل كل شىء ، وأهم من كل شىء .. وجودهم الإنسانى ، الذى يرفع إنسانيتهم ، ويكرم آدميتهم ، ويقيم نظام حياتهم كله على أساس هذا التكريم ، الذى جاء هم هدية ومنة من لدن ربهم الكريم ، والذى أفاضوه هم على البشرية كلها بعد ذلك ، وعلموها كيف تحترم الإنسان ، وتكرمه بتكريم الله غير مسبوقين فى هذا ، لافى الجزيرة العربية ولا فى أى مكان .. وفى اللفتة السابقة إلى الشورى طرف من هذا المنهج الإلهى ، الذى كانوا يدركون فيه عظم المنة عليهم من الله .

وكانوا يدركون أن الإسلام ـ والإسلام وحده ـ هو الذى جعل لهم رسالة يقدمونها للعالم ، ونظرية للحياة البشرية ، ومذهبًا مميزًا للحياة الإنسانية ، والأمة لا توجد فى الحقل الإنسانى الكبير إلا برسالة ونظرية ومذهب ، تقدمه للبشرية ، لتدفع بالبشرية إلى الأمام .

وقد كان الإسلام ، وتصوره للوجود ، ورأيه في الحياة ، وشريعته للمجتمع ، وتنظيمه للحياة البشرية ومنهجه المثالي الواقعي الإيجابي لإقامة نظام يسعد في ظله الإنسان .. كان الإسلام بخصائصه هذه هو ـ بطاقة الشخصية التي تقدم بها العرب للعالم ، فعرفهم ، واحترمهم وسلمهم القيادة.

وهم اليوم وغداً لا يحملون إلا هذه البطاقة ، ليست لهم رسالة غيرها يتعرفون بها إلى العالم ، وهم إما أن يحملوها فتعرفهم البشرية وتكرمهم ، وإما أن ينبذوها فيعودوا هملاً ـ كما كانوا ـ لا يعرفهم أحد ، ولا يعترف بهم أحد !

وما الذي يقدمونه للبشرية حين لا يتقدمون إليها بهذه الرسالة ؟

يقدمون لها عبقريات في الإنتاج الصناعي المتفوق ، تنحني له الجباه ، ويغرقون به أسواقها ، ويغطون به على ما عندها من إنتاج ؟؟ لقد سبقتهم شعوب كثيرة ، في يدها عجلة القيادة في هذا المضمار !

يقدمون لها فلسفة مذهبية اجتماعية ، ومناهج اقتصادية وتنظيمية من صنع أيديهم ، ومن وحي أفكارهم البشرية ؟ إن الأرض تعج بالفلسفات والمذاهب والمناهج الأرضية ، وتشقى بها جميعًا غاية الشقاء ! ماذا إذن يقدمون للبشرية لتعرفهم به ، وتعترف لهم بالسبق والتفوق والامتياز ؟

لاشيء إلا هذه الرسالة الكبيرة ، لا شيء إلا هذا المنهج الفريد ، لاشيء إلا هذه المنة التي اختارهم الله لها ، وأكرمهم بها ، وأنقذ بها البشرية كلها على أيديهم ذات يوم ، والبشرية اليوم أحوج ما تكون إليها ، وهي تتردى في هاوية الشقاء والحيرة والقلق والإفلاس.

إنها ـ وحدها ـ بطاقة الشخصية التي تقدموا بها قديماً للبشرية ، فأحنت لها هامتها ، والتي يمكن أن يقدموها لها اليوم ، فيكون فيها الخلاص والإنقاذ .

إن لكل أمة من الأمم الكبيرة رسالة ، وأكبر أمة هي التي تحمل أكبر رسالة ، وهي التي تقدم أكبر منهج وهي التي تنفرد في الأرض بأرفع مذهب للحياة .

والعرب يملكون هذه الرسالة ، وهم فيها أصلاء ، وغيرهم من الشعوب هم شركاء ـ فأي شيطان ياترى يصرفهم عن هذا الرصيد الضخم ؟ أي شيطان ؟!

لقد كانت المنة الإلهية على هذه الأمة بهذا الرسول ، وبهذه الرسالة عظيمة عظيمة ،

وما يمكن أن يصرفها عن هذه المنة إلا شيطان .. وهى مكلفة من ربها بمطاردة هذا الشيطان)[1]

﴿ **أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا . قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير** ﴾ .[2]

إنه تتمة الحديث مع المؤمنين ، مع الصف المؤمن الذى تزلزل فامتحن ، وأخطأ فعوقب ، ولقد كانت المفاجأة كبيرة ، والمحنة ضخمة على أعصابهم ، وهم جند الله ، وجند نبيه ، فكيف يفوتهم النصر؟ وأمام هذا القلق النفسى ، كان لابد أن يأتى الجواب التربوى المناسب من رب العزة جل جلاله .

وجاء الجواب الربانى ، معيداً للساحة أجواء نصر بدر ، ومعجزة النصر فى بدر ، ليملأ على النفس آفاقها ، ويجيب على كل تساؤلاتها .

أخرج ابن جرير عن عكرمة قال :

(قتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين ، وأسروا سبعين ، وقتل المشركون يوم أحد من المسلمين سبعين ، فذلك قوله : (قد أصبتم مثليها ، قلتم أنى هذا ؟ ونحن مسلمون نقاتل غضباً لله وهؤلاء مشركون ﴿ **قل هو من عند أنفسكم** ﴾ عقوبة لكم بمعصيتكم النبى ﷺ حين قال ما قال) .[3]

وأخرج ابن أبى شيبة والترمذى وحسنه وابن جرير وابن مردوية عن على قال :

(جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك فى أخذهم الأسارى ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين ، إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم ، فدعا رسول الله ﷺ الناس ، فذكر ذلك لهم فقالوا :

يارسول الله ، عشائرنا وإخواننا نأخذ فداءهم ، فنقوى بهم على قتال عدونا ، ويستشهد منا بعدتهم فليس فى ذلك مانكره ، فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً عدة أسارى أهل بدر .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن وابن جريج : ﴿ **قل هو من عند أنفسكم** ﴾ عقوبة لكم بمعصيتكم النبى ﷺ حين قال : لا تتبعوهم يوم أحد ، فاتبعوهم) .[4]

---

(١) في ظلال القرآن / مقتطفات من ٥٠٦ ـ ٥١٢/م١/جـ٤ .
(٢) آل عمران /١٦٥ .
(٣) تفسير الطبرى /٤/١٠٩
(٤) الدر المنثور / م٢/ جـ٤ / ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها** ﴾ قال : أصيبوا يوم أحد قتل منهم سبعون يومئذ ، وأصابوا مثليها يوم بدر قتلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين ﴿ **قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم** ﴾ ذكر لنا « أن نبى الله ﷺ قال لأصحابه يوم أحد حين قدم أبو سفيان والمشركون : « فى جنة حصينة - يعنى بذلك المدينة - فدعوا القوم يدخلوا علينا نقاتلهم » فقال له أناس من الأنصار : إنا نكره أن نقتل فى طرق المدينة ، وقد كنا نمنع من الغزو فى الجاهلية ، فبالإسلام أحق أن يمتنع منه ، فابرز بنا إلى القوم ، فانطلق فلبس لأمته ، فتلاوم القوم فقالوا : عرض نبى الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره ، اذهب ياحمزة فقل له : أمرنا تبع لأمرك ، فأتى حمزة فقال له ، فقال : « إنه ليس لنبى إذ لبس لأمته أن يضعها حتى يناجز ، وإنه ستكون فيكم مصيبة ، قالوا : يانبى الله خاصة أو عامة ؟ قال : سترونها ») . (١)

وهكذا نرى أن المصيبة التى نزلت بالصف المؤمن يوم أحد مردها إلى ثلاثة أسباب :

السبب الأول : هو حرصهم على فداء الأسرى يوم بدر ، وتخليهم عن قتلهم ، وقبولهم استشهاد أمثالهم .

السبب الثاني : إصرارهم على الخروج من المدينة ، وتخليهم عن الدرع الحصينة التي كانت لهم ، كما وصفها رسول الله ﷺ ، وكيف أعلمهم رسول الله بالبقر المذبح.

السبب الثالث: معصيتهم أوامر رسول الله ﷺ ، ومغادرة الرماة مواقعهم رغم الأوامر المؤكدة الجازمة بعدم الخروج .

ولهذا ، فالمصيبة لم تأت جزافاً أو عرضاً ، إنما جاءت عقوبة لذنب ، وتربية على خطأ ، أو معالجة لزلل .

ويبقى الهدف التربوى ماثلاً أمام أعيننا يعالج هذه الهنات والأخطاء ، ويأخذ على النفس أقطارها ، ويعيدها إلى الجادة .

حديث عن المنافقين :

﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان . فبإذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا . قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر

---

(١) الدر المنثور / م٢/جـ٤ /٣٦٨ - ٣٦٩ .

يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم .والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ .(1)

لقد عالجت الآية السابقة مسؤولية المؤمنين عن المحنة ، لكن هذا الأمر ـ كما تشير الآية هذه ـ جزء من قدر الله عز وجل ، وسنة من سنن الله تعالى فى النصر والهزيمة ، وبناء الأمم وحركة الدعوات ، وحين يطمئن قلب المؤمن إلى أن ما أصابه إنما كان لخلل فى بنيانه فيعيد صياغة نفسه على ضوء هذا التقرير الربانى ، حينئذ يضاف الرصيد الجديد الآخر ، أن المحنة لها دور آخر ، غير دور تربية المؤمنين وتصحيح أخطائهم ، هذا الدور . هو تمييز الصف المؤمن من المنافق ، ولئن كان الصف قد تفاوتت مستوياته ، لكن لابد من إفراز المنافقين خارجه ، فكان هذا الأمر .

﴿ وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ﴾ .

وتحددت هوية المنافقين المتلبسين بالصف تحديداً يكاد يكون عينياً وبأشخاصهم وذواتهم . لوضوح المواصفات لهم .

فهم أولاً : الذين رفضوا حضور المعركة ، وقدموا عذراً بسيطاً **﴿ لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ﴾** .

وهم ثانيا : الذين قعدوا وقالوا عن إخوانهم **﴿ لو أطاعونا ماقتلوا ﴾** .

وتؤكد النصوص من المفسرين جميعاً ـ أنهم عبد الله بن أبى وأصحابه ، فالزهرى ومجاهد وعكرمة والسدى وقتادة والربيع وابن جريج وابن إسحاق جميعهم على هذا الرأى ، فقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن شهاب وغيره قال : خرج رسول الله ﷺ إلى أحد فى ألف رجل من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشرط بين أحد والمدينة انخذل عنهم عبد الله بن أبى بثلث الناس ، وقال :

أطاعهم وعصانى ، والله ماندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا ، فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق والريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام من بنى سلمة ، يقول : ياقوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم ، وعندما حضرهم عدوهم . قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكن لا نرى أن يكون قتال) .(2)

---

(1) آل عمران /١٦٦ ـ ١٦٨ .

(2) الدر المنثور /٤/٣٦٩ .

لقد جاء ذكر الطائفتين من بنى سلمة وبنى حارثة فى بداية السورة ، فالحديث ابتداءً عن المؤمنين ومع المؤمنين يعالج ضعفهم ، ويثنى على ثباتهم ، أما الحديث هنا فعن المنافقين الذين أفرزوا من الصف المؤمن وخرجوا عليه وانصاعوا لقيادة غير القيادة النبوية لعبد الله ابن أبى ، وراحوا يقدمون التعليلات والمعاذير لانسحابهم ، وذكر القرآن لهم عذراً واحدا .

﴿ لونعلم قتالا لا تبعناكم ﴾

وذكرت نصوص السيرة إضافات تعكس مافى نفوسهم ،وتكشف المخبوء من خبيث قلوبهم .

(١) أطاعهم وعصانى .

(٢) عصانى ورد حلفائى .

(٣) علام نقتل أنفسنا أيها الناس .

فالقضية عند عبد الله بن أبى لا تخرج عن عبادة ذاته ، وتنطعه للقيادة ، وإيجاد تكتل له ضمن الصف المسلم ، فجاءت هذه الآية كالصاعقة التى أحرقته وصحبه .

﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ .

﴿ يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ﴾ .

وأى تعرية لهم تفوق هذه التعرية ؟

ثم يتابع العرض القرآنى . فيكشف عما فى قلوبهم :

﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا . لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ .

فهو من جانب شماتة بقتلى المؤمنين وشهدائهم ، ولو أخذ برأى ابن أبى لما قتلوا ، وهو من جانب آخر حسرة على من فقدوا من إخوانهم المنافقين مثلهم ، فجاء الرد الصارم عليهم :

﴿ قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ .

فإذا كان القتل قد نال المؤمنين وإخوانهم ، فهل هم ناجون من الموت ؟

حديث عن الشهداء والمؤمنين الربانيين :

لكن السياق الذى يتابع الرد على تخرصات المنافقين هو الصفة العنيفة لهم . فمن هم ؟ ﴿ **هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان** ﴾ ومن الشهداء ؟ . يجيب رب العزة على ذلك فيقول :

﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾ . [1]

(أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد . وابن أبى حاتم عن أبى الضحى فى قوله : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا** ﴾ قال : نزلت فى قتلى أحد ، استشهد منهم سبعون رجلاً ، أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير من بنى عبد الدار ، وعثمان بن شماس من بنى مخزوم ، وعبد الله بن جحش من بنى أسد وسائرهم من الأنصار) . [2]

وأخرج أحمد وهناد وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :

(لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقبلهم ، قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ماصنع الله لنا - وفى لفظ - قالوا : إنا أحياء فى الجنة نُرزق ؛ لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولاينكلوا عن الحرب فقال الله : أنا أبلغهم عنكم . فأنزل الله هؤلاء الآيات ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا** ... ﴾ الآية وما بعدها) . [3]

(وأخرج الترمذى وحسَّنه وابن ماجة وابن أبى عاصم فى السنة وابن خزيمة والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله قال : (لقينى رسول الله ﷺ، فقال يا جابر « مالى أراك منكسراً ؟ » قلت : يارسول الله استشهد أبى ، وترك عيالاً وديناً ، فقال : « ألا أبشرك بما لقى الله به أباك ؟ » قال : بلى .

---

(١) آل عمران / ١٦٩ - ١٧١

(٢) الدر المنثور /٤/٣٧١ .

(٣) الدر المنثور /٤/٣٧١ .

قال : « ما كلَّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب ، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً ، وقال : ياعبدى تمنَّ على أعطك ، قال يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية قال الرب تعالى : قد سبق منى أنهم لا يرجعون ، قال : أى رب فأبلغ من ورائى ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله** ﴾)[1] الآية .

(وأخرج عبد الرزاق فى المصنف والفريابى ، وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد ومسلم والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى الدلائل عن مسروق قال : سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله** ﴾ فقال أما إنا قد سألنا عن ذلك ، أرواحهم فى جوف طير خضر ـ ولفظ عبد الرزاق أرواح الشهداء عند الله كطير خضر ـ لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم إطلاعة فقال : هل تشتهون شيئا ؟ قالوا :أى شيء نشتهى ، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا) .[2]

(وأخرج عبد الرزاق عن أبى عبيدة عن عبد الله ، أنه قال فى الثالثة حين قال لهم : هل تشتهون من شيء ؟ قالوا : تقرئ نبينا السلام ، وتبلغه أنا قد رضينا ورضى عنا) .[3]

(وعن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له فى أول دفعة ، ويرى مقعده فى الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع فى سبعين من أقاربه » .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب) .[4]

﴿ **ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم** ﴾

(وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم** ﴾ قال : لما دخلوا الجنة ، ورأوا مافيها من الكرامة . فإذا شهدوا القتال باشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبون ما أصبنا من الخير ، فأخبر النبى ﷺ بأمرهم ،

---

(١) المصدر نفسه / ٣٧١ ، ٣٧٢ .
(٢ ، ٣) المصدر نفسه / ٣٧٣ ، ٣٧٤ .
(٤) الترمذى / كتاب ٢٣ فضائل الجهاد / باب ٢٥ ماجاء فى ثواب الشهيد /جـ٤ / ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

وما هم فيه من الكرامة ، فاستبشروا بذلك . فذلك قوله ﴿ **ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم** ﴾ يعنى من إخوانهم من أهل الدنيا أنهم سيحرصون على الجهاد ويلحقون بهم) .[1]

(وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله ﴿ **ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم** ﴾ ، قال : إن الشهيد يؤتى بكتاب فيه من يقدم عليه من إخوانه وأهله يقال : يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا . فيستبشر حين يقدم عليه كما يستبشر أهل الغائب بقدومه فى الدنيا) .[2]

(وأخرج ابن أبى شيبة والطبرانى برجال الصحيح عن كعب بن مالك (أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد : « من رأى مقتل حمزة ؟ فقال رجل : أنا قال : « فانطلق فأرناه » . فخرج حتى وقف على حمزة فرآه قد بقر بطنه ، وقد مُثّل به ، فكره رسول الله ﷺ أن ينظر إليه ، ووقف بين ظهرانى القتلى ، وقال : « أنا شهيد على هؤلاء القوم ، لفوهم فى دمائهم ، فإنه ليس جريح يجرح إلا جرحُه يوم القيامة يدمى ، لونه لون الدم ، وريحه ريح المسك ، قدموا أكثر القوم قرآنا فاجعلوه فى اللحد ») .[3]

(وأخرج أحمد ومسلم والنسائى والحاكم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله له : يابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب خير منزل .فيقول : سل وتمنَّ . فيقول : أسألك أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات لما رأى من فضل الشهادة ، قال : ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول الله : يابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب شر منزل . فيقول : فتفتدى منه بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول نعم . فيقول : كذبت قد سألتك دون ذلك فلم تفعل ») .[4]

﴿ **يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾

يقول جل ثناؤه : (يستبشرون) يفرحون بنعمة من الله ، يعنى بما حباهم به تعالى ذكره من عظيم كرامته عند ورودهم عليه ، و (فضل) يقول وبما أسبغ عليهم من الفضل ، وجزيل الثواب على ماسلف منهم من طاعة الله ورسوله ﷺ ، وجهاد أعدائه وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين[5]

هولاء هم الشهداء الأحياء عند الله ، الذين تقعر المنافقين بقولهم : ﴿ **لو أطاعونا ماقتلوا** ﴾ فماذا عن الجرحى والمقاتلين ؟

(١) الدر المنثور ٤ / ٣٧٥ . (٢) المصدر نفسه /٣٧٥ ، ٣٧٦ .
(٣) سبل الهدى والرشاد م٤ / ٣٣١ . (٤) المصدر نفسه /٤/٣٧٧ . (٥) تفسير الطبرى /٤/١١٦ .

﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ (1) .

وندع الحديث لمحمد بن عمر الأسلمي يحدثنا عن هذه الآيات من خلال الحديث عن غزوة حمراء الأسد يقول : وكانت يوم الأحد لثمان خلون من شوال ، على رأس اثنين وثلاثين شهرا .. ودخل المدينة يوم الجمعة وغاب خمساً .

قالوا : لما صلى رسول الله ﷺ الصبح يوم الأحد ومعه وجوه الأوس والخزرج ، وقد باتوا فى المسجد على بابه ـ سعد بن عبادة . وحباب بن المنذر ، وسعد بن معاذ ، وأوس بن خولي ، وقتادة بن النعمان ، وعبيد بن أوس فى عدة منهم ـ فلما انصرف رسول الله ﷺ من الصبح أمر بلالاً أن ينادى : إن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس ،

قال : فخرج سعد بن معاذ راجعاً إلى داره يأمر قومه بالمسير قال : والجراح في الناس فاشية ، عامة بني عبد الأشهل جريح ، بل كلها . فجاء سعد بن معاذ فقال : إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تطلبوا عدوكم قال : يقول أسيد بن حضير ، وبه سبع جراحات ، وهو يريد يداويها سمعاً وطاعة لله ورسوله ، فأخذ سلاحه ، ولم يعرج على دواء جراحه . فأمرهم بالسير فتلبسوا ولحقوا . وجاء أبو قتادة أهل خُربى وهم يداوون الجراح فقال : هذا منادي رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم ، فوثبوا إلى سلاحهم ، وما عرجوا على جراحاتهم فخرج من بني سلمة أربعون جريحاً ، بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً وبخراش بن الصمة عشر جراحات ، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحاً ، وبقطبة بن عامر بن حديدة تسع جراحات ، حتى وافوا النبي ﷺ ببئر أبي عنبة إلى رأس الثنية ـ الطريق الأولى يومئذ ـ عليهم السلاح قد صفوا لرسول الله ﷺ . فلما نظر إليهم والجراح فيهم فاشية قال « اللهم ارحم بني سلمة » .

(قال الواقدى : وحدثنا ثنى عتبة بن جبيرة عن رجال من قومه قالوا : إن عبد الله بن سهل ورافع بن سهل بن عبد الأشهل رجعا من أحد وبهما جراح كثيرة ، وعبد الله أثقلهما من الجراح ؛ فلما أصبحوا وجاءهم سعد بن معاذ يخبرهم أن رسول الله ﷺ يأمرهم بطلب عدوهم قال أحدهما لصاحبه : والله إن تركنا غزوة مع رسول الله ﷺ لغبن ، والله ما عندنا دابة نركبها ، وما ندري كيف نصنع : قال عبد الله : انطلق بنا : قال

---

(1) آل عمران / ١٧٢ .

رافع : لا والله ما بى مشى ، قال أخوه : انطلق بنا نتجار ونقصد ، فخرجا يزحفان فضعف رافع ، فكان عبد الله يحمله على ظهره عقبة ، ويمشي الآخر عقبة ، حتى أتوا رسول الله ﷺ عند العشاء ، وهم يوقدون النيران . فأتى بهما إلى رسول الله ﷺ ـ وعلى حرسه تلك الليلة عباد بن بشر ـ فقال : ما حبسكما ؟ فأخبراه بعلتهما فدعا لهما بخير ، وقال : إن طالت لكم مدة ، كانت لكم مراكب من خيل وبغال وإبل ، وليس ذلك بخير لكم .

وقال جابر بن عبد الله : يا رسول الله إن منادياً نادى ألا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس ، وقد كنت حريصاً على الحضور ، ولكن أبي خلفني على أخوات لى وقال : يا بنى لا ينبغى لى ولك أن ندعهن ولا رجل عندهن ، وأخاف عليهن ، وهن نُسيّات ضعاف ، وأنا خارج مع رسول الله ﷺ لعل الله يرزقنى الشهادة ، فتخلفت عليهن فاستأثره الله علي بالشهادة ، وكنت رجوتها . فأذن لى يا رسول الله أن أسير معك ، فأذن له رسول الله ﷺ . قال جابر : فلم يخرج معه أحدا يشهد القتال بالأمس غيرى واستأذنه رجال لم يحضروا القتال ، فأبى ذلك عليهم ، ودعا رسول الله ﷺ بلوائه ، وهو معقود ولم يحل من الأمس فدفعه إلى على عليه السلام ، ويقال : دفعه إلى أبى بكر .

وخرج رسول الله ﷺ وهو مجروح في وجهه أثر الحلقتين ، ومشجوج في جبهته في أصول الشعر ، ورباعيته قد شظيت ، وشفته قد كلمت من باطنها وهو متوهن منكبه الأيمن بضربة ابن قميئة ، وركبتاه مجحوشتان . فدخل رسول الله ﷺ المسجد فركع ركعتين ، والناس قد حشدوا ، ونزل أهل العوالي حيث جاءهم الصريخ . ثم ركع رسول الله ﷺ ركعتين ، فدعا بفرسه على باب المسجد ، وتلقاه طلحة رضي الله عنه ، وقد سمع المنادى ، فخرج ينظر متى يسير رسول الله ﷺ ، فإذا رسول الله ﷺ عليه الدرع والمغفر ، وما يرى منه إلا عيناه ، فقال : « يا طلحة ، سلاحك » فقلت : قريباً . قال طلحة . فأخرج أعدو ألبس درعى ، وآخذ سيفى ، وأطرح درقتى فى صدرى ؛ وإن بى لتسع جراحات ، ولأنا أهم بجراح رسول الله ﷺ مني بجراحى ، ثم أقبل رسول الله ﷺ على طلحة فقال : « ترى القوم الآن » ؟ قال : هم بالسيالة . قال رسول الله ﷺ : « ذلك الذى ظننت « أما إنهم يا طلحة لن ينالوا منا مثل أمس حتى يفتح الله مكة علينا » .

وبعث رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من أسلم طليعة فى آثار القوم : سليطاً ونعمان بنى سفيان بن خالد بن عوف بن دارم من بني سهم ، ومعهما ثالث من أسلم من بنى عوير لم

يسم لنا ، فأبطأ الثالث وهما يجمزان [1] . وقد انقطع قبال [2] نعل أحدهما . فقال : أعطني نعلك قال : لا والله لا أفعل . فضرب أحدهما برجله في صدره . فوقع لصدره ، فأخذ نعليه ولحق القوم بحمراء الأسد ، ولهم زجل وهم يأتمرون بالرجوع ، وصفوان ينهاهم عن الرجوع فبصروا بالرجلين ، فعطفوا عليهما فأصابوهما فانتهى المسلمون إلى مصرعهما بحمراء الأسد فعسكروا وقبروهما في قبر واحد ، فقال ابن عباس . هذا قبرهما وهما القرينان ، ومضى رسول الله ﷺ في أصحابه حتى عسكروا بحمراء الأسد .

قال جابر : وكان عامة زادنا التمر ، وحمل سعد بن عبادة ثلاثين جملا حتى وافت الحمراء ، وساق جزراً فنحروا في كل يوم اثنين وفي يوم ثلاثاً ، وكان رسول الله ﷺ يأمرهم في النهار بجمع الحطب ، فإذا أمسوا أمرنا أن نوقد النيران ، فيوقد كل رجل ناراً فلقد كنا تلك الليالي نوقد خمسمائة نار في كل وجه حتى كان مما كتب الله تعالى لعدونا) [3] .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ .

(وانتهى معبد بن أبي معبد الخزاعي ، وهو يومئذ مشرك ، وكانت خزاعة سلماً للنبي ﷺ . فقال : يامحمد ، لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن الله أعلى كعبك [4] ، وأن المصيبة كانت بغيرك .

ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقريشاً بالروحاء ، وهم يقولون : لا محمداً أصبتم ، ولا الكواعب أردفتم ، فبئس ما صنعتم ! فهم مجمعون على الرجوع ، ويقول قائلهم فيما بينهم : ما صنعنا شيئاً ، أصبنا أشرافهم ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ، قبل أن يكون لهم وفر ـ والمتكلم بهذا عكرمة بن أبي جهل ـ فلما جاء معبد إلى أبي سفيان قال : هذا معبد وعنده الخبر ، ما وراءك يا معبد ؟ قال : تركت محمداً وأصحابه خلفي يتحرقون عليكم بمثل النيران ، وقد أجمع معه من تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج ، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم ، وغضبوا لقومهم غضباً شديداً ، ولمن أصبتم من أشرافهم .

---

(1) يجمزان : يسرعان .

(2) قبال النعل : الزمام الذي يكون بين الإصبع الوسطى والتي تليها .

(3) المغازي للواقدي / ٣٣٦ ـ ٣٣٨ .

(4) أعلى كعبك : أعلى شرفك .

قالوا : ويلك ! ما تقول ؟ قال : والله ما نرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل ! ثم قال معبد : لقد حملني ما رأيت منهم أن قلت أبياتاً :

كادت تهد من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالجرد (١) الأبابيل (٢)

تعدو بأسد كرام لا تنابلة (٣) ... عند اللقاء ولا ميل (٤) معازيل

فقلت ويل ابن حرب من لقائكم ... إذا تغطمطت (٥) البطحاء بالجيل

وكان مما رد أبا سفيان وأصحابه كلام صفوان بن أمية قبل أن يطلع معبد وهو يقول : يا قوم لا تفعلوا ! فإن القوم قد حزنوا ، وأخشى أن يجمعوا عليكم من تخلَّف من الخزرج ، فارجعوا والدولة لكم . وإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم ، قال رسول الله ﷺ : أرشدُهم صفوان وما كان برشيد ، والذي نفسي بيده لقد سُوِّمت لهم الحجارة ، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب ، وانصرف القوم سراعاً خائفين من الطلب لهم .

ومر بأبي سفيان نفر من عبد القيس يريدون المدينة فقال : هل مبلغو محمداً وأصحابه ما أرسلكم به على أن أوقر لكم أباعركم زبيباً غداً بعكاظ إن أنتم جئتموني ؟ قالوا : نعم قال : حيثما لقيتم محمداً وأصحابه فأخبروهم أنا قد أجمعنا الرجعة إليهم ، وأنا آثاركم ، فانطلق أبو سفيان ، وقدم الركب على النبي ﷺ وأصحابه بالحمراء فأخبروهم الذى أمرهم به أبو سفيان فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ! وفى ذلك أنزل الله عز وجل : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح** ﴾ الآية وقوله : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم** ﴾ الآية . وكان معبد قد أرسل رجلاً من خزاعة إلى رسول الله ﷺ يعلمه أن قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجلين ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة) (٦) .

وهناك روايات متفرقة تؤكد ما ذكره الواقدى فى مغازيه .

(.روى النسائى وابن أبي حاتم والطبراني بسند صحيح من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : لما رجع المشركون عن أحد قالوا : لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئسما صنعتم ارجعوا ، فسمع رسول الله ﷺ بذلك ، فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ

---

(١) الجرد : الخيل العتاق . (٢) الأبابيل : الجماعات . (٣) التنابلة : القصار .

(٤) الميل : جمع أميل وهو الذي لا رمح له وقيل هو الذى لا يثبت على السرج .

(٥) تغطمطت : اهتزت وارتجت . (٦) المغازى للواقدى / ٣٣٨ ـ ٣٤٠ .

حمراء الأسد أو بئرر أبى عتبة شك سفيان . فقال المشركون . فرجع قابل . فرجع رسول الله ﷺ ، فكانت تعد غزوة فأنزل الله : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول ..** ﴾) [1] .

(وأخرج البخارى والنسائى وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد حين قالوا ﴿ **.. إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾)[1] .

(وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة ، وأحمد والبخارى ومسلم وابن ماجه وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن عائشة فى قوله : ﴿ **.. الذين استجابوا لله والرسول ..** ﴾ الآية قالت لعروة : يا بن أختى كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر ، لما أصاب نبى الله ﷺ ما أصاب يوم أحد ـ انصرف عنه المشركون . خاف أن يرجعوا ، فقال : من يرجع في أثرهم ؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبو بكر والزبير فخرجوا فى آثار القوم فسمعوا بهم ، فانصرفوا بنعمة من الله وفضل . قال : لم يلقوا عدواً [3] .)

غير أن هناك رأياً آخر هو أن هذه الآيات نزلت فى غزوة بدر الموعد ، أى بعد عام من أحد ، كما تواعد أبو سفيان ورسول الله ﷺ .

يقول القرطبى :

(هذا تفسير الجمهور لهذه الآية ، وشذ مجاهد وعكرمة رحمهما الله تعالى فقالا : إن هذه الآية من قوله « الذين قال لهم الناس ــ إلى قوله ـ عظيم . إنما نزلت في خروج النبي ﷺ إلى بدر الصغرى وذلك أنه خرج لميعاد أبي سفيان في أحد إذ قال : موعدنا بدر من العام المقبل ، فقاله النبي ﷺ : « قولوا : نعم » فخرج النبي ﷺ قبل بدر ، وكان بها سوق عظيم فأعطى رسول الله ﷺ أصحابه دراهم ، وقرب من بدر ، فجاءه نعيم بن مسعود الأشجعى فأخبره أن قريشاً قد اجتمعت ، وأقبلت لحربه هي ومن انضاف إليها ، فأشفق المسلمون من ذلك لكنهم قالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فصمموا حتى أتوا بدراً فلم يجدوا أحداً ، ووجدوا السوق فاشتروا بدراهمهم أُدماً وتجارة ، وانقلبوا ولم يلقوا كيداً وربحوا فى تجارتهم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل** ﴾ أى

(١) الدر المنثور / ٢ / ٣٨٥ .   (٢) المصدر نفسه / ٢ / ٣٩٠ .
(٣) المصدر نفسه / ٢ / ٣٨٧ .

وفضل في تلك التجارات ، والله أعلم) (1) .

قوله تعالى ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ (2) .

(اختلف في قوله تعالى : ﴿ **الذين قال لهم الناس** ﴾ .

فقال مجاهد وعكرمة ومقاتل والكلبي : هو نعيم بن مسعود الأشجعي ، واللفظ عام ومعناه خاص كقوله ﴿ **أم يحسدون الناس** ﴾ يعني محمداً ﷺ .

السدى : هو أعرابى جعل له جعل على ذلك .

وقال ابن إسحاق وجماعة : يريد بالناس ركب عبد القيس ، مروا بأبي سفيان فدسهم إلى المسلمين ليثبطوهم .

وقيل : الناس هنا المنافقون ، قال السدى : لما تجهز النبي ﷺ للسير إلى بدر الصغرى لميعاد أبى سفيان أتاهم المنافقون وقالوا : نحن أصحابكم الذين نهيناكم عن الخروج إليهم وعصيتمونا ، وقد قاتلوكم في دياركم وظفروا ، فإن أتيتموهم في ديارهم فلا يرجع منكم أحد فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

وقال أبو معشر : دخل ناس من هذيل من أهل تهامة المدينة ، فسألهم أصحاب رسول الله ﷺ عن أبي سفيان ، فقالوا : قد جمعوا لكم جموعاً كثيرة فاخشوهم : أي خافوهم واحذروهم ، فإن لا طاقة لكم بهم .

فالناس على هذه الأقوال على بابه من الجمع والله أعلم) (3) .

﴿ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

يقول ، فلا تخافوا أيها المؤمنون المشركين ، ولا يعظمن عليكم أمرهم . ولا ترهبوا جمعهم مع طاعتكم إياى ما أطعتمونى وأتبعتم أمرى فأنا متكفل لكم بالظفر والنصر . واتقوا الله أن تعصونى وتخالفوا أمرى فتهلكوا إن كنتم مصدقى رسولى ، وما جاءكم به من عندى) .

(وأخرج الفريابى وابن حميد من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لم**

---

(1) تفسير القرطبى / ٤ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ .
(2) آل عمران / ١٧٣ .
(3) تفسير القرطبى / ٤ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

يمسسهم سوء ﴾ قال : لم يؤذهم أحد ﴿ **واتبعوا رضوان الله** ﴾ قال : أطاعوا الله ورسوله)[1] .

(وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءه** ﴾ قال : يخوف المؤمنين بأوليائه)[2] .

(وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءه** ﴾ : يخوف المؤمنين بالكفار)[3] .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم ثم عن أبي مالك (يخوّف أولياءه)

قال : (يعظم أولياءه في أعينكم)[4] .

ختام المعركة :

﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثما . ولهم عذاب مهين . ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب . وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾[5] .

لقد كان الحديث عن المنافقين صارماً حازماً فسماهم الله عز وجل مرة

(الذين كفروا) بقوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزىً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ..** ﴾ .

وسماهم مرة : أقرب إلى الكفر فى قوله تعالى :

﴿ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ .

وسماهم ثالثة : (يسارعون في الكفر) في قوله تعالى :

---

(١) الدر المنثور / ٢ / ٣٩١ . (٢) تفسير الطبري / ٤ / ١٤٢ . (٣) الدر المنثور ٢ / ٤ / ٣٩١ .
(٤) المصدر نفسه / ٢ / ٤ ٣٩١ . (٥) آل عمران / ١٧٦ ـ ١٧٩ .

﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ... ﴾

وسماهم رابعة : (اشتروا الكفر بالإيمان) بقوله :

﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم ﴾ (١) .

وإذا تصورنا معسكر الإيمان على رأسه رسول الله ﷺ ، ومعسكر اليهود على شتى منازعهم ، فقد كان المنافقون ابتداءً محسوبين على المعسكر الإسلامى ، وبإمرة الرسول ﷺ ، لكنهم يوم انسلخوا عن الجيش ، وغادروا رسول الله وحده مع صحبه المؤمنين يقاتلون فى ساحة الجهاد ـــ فقد شكلوا تجمعاً جديداً ، لكن هذا التجمع غير قادر علي الثبات والاستمرار ، فهو في باطنه مع الكافرين ، وفي ظاهره مع المسلمين ، ولذلك جاء القرآن الكريم ليحدد هويتهم في هذه الآيات الكريمة ، ويؤكد أنهم يسارعون في الكفر ، ويشترون الكفر بالإيمان ، وأنهم كفار كذلك .

يقول الإمام الطبرى رحمه الله :

القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ **ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ...** ﴾ يقول جل ثناؤه : ولا يحزنك يا محمد كفر الذين يسارعون فى الكفر مرتدين على أعقابهم من أهل النفاق ، فإنهم لن يضروا الله شيئًا بمسارعتهم في الكفر ، كما أن مسارعتهم لو سارعوا إلى الإيمان لم تكن بنافعته كما أن مسارعتهم إلى الكفر غير ضارته (٢) .

وقد روى هذا التأويل عن مجاهد وابن إسحاق .

(لكن سبب النزول الخاص هذا لا يحصر القضية بالمنافقين فعموم النص يدخل به كل مسارع إلى الكفر سواءً أكان منافقاً أو كافراً ، ولذلك روى عن الضحاك أنهم كفار قريش ، وعن الكلبى أنهم رؤساء اليهود وبقية أهل الكتاب ، قال القشيرى : الحزن على كفر الكافر طاعة ، ولكن النبى ﷺ كان يفرط في الحزن على كفر قومه فنهى عن ذلك) (٣) .

والقرآن يهدم نفوس المنافقين الذين يحسبون أنهم قادرون على الكيد للإسلام وأهله ، في الوقت الذي يزرع الثقة العظيمة في صفوف المؤمنين فكيد المنافقين ومظاهرتهم للكافرين لن يثمر إلا الخزى في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، كما يؤكد

---

(١) آل عمران / ١٧٧ . (١) تفسير الطبرى / ٤ / ١٢٣ . (٢) تفسير القرطبى / ٢ / ٤ / ٢٨٥ .

للمنافقين أن تظاهرهم الإسلامى ، وتواطؤهم مع الكفار فى الخفاء ـ لايمكن أن ينجيهم من عذاب الله تعالى :

واستمرارهم فى هذه المسارعة ستكون عاقبته ألا يكون يكون لهم حظ فى الآخرة ، ولن يفيدهم أن يحملوا هوية المسلمين فى الظاهر ، بل يعاملون معاملة الكافرين ، ولهم عذاب عظيم .

وعظمة البناء القرآنى تتجلى فى تنبيه المنافق أن يعيد حساباته من جديد ، وأن يراجع مواقفه من جديد ، ليتدارك أمره ، ويثوب إلى رشده ، إن كان به بقية من خير .

ومن جهة ثانية ، وحتى لا يفت فى عضد المؤمنين ، تأتى هذه الآية لتؤكد لهم أنهم لن يضروا الله شيئاً ، أى لن يضروا المؤمنين جند الله كذلك بعد افتضاح أمرهم .

وتأتى الآية التالية لتتحدث عن الذين تابعوا مسيرتهم نحو الكفر ، وسمعوا هذه القوارع وأصروا على نفاقهم ، فهم قد وصلوا إلى الكفر ، واشتروا الكفر بالإيمان ، فلن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم ، كما يذكر ابن جرير رحمه الله .

(القول فى تأويل قوله ﴿ **إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم** ﴾ يعنى بذلك جل ثناؤه المنافقين الذين تقدم إلى نبيه ﷺ فيهم ألا يحزن مسارعتهم إلى الكفر ، فقال لنبيه ﷺ : إن هؤلاء الذين ابتاعوا الكفر بإيمانهم ، فارتدوا عن إيمانهم بعد دخولهم فيه ، ورضوا بالكفر بالله وبرسوله عوضاً عن الإيمان ـ لن يضروا الله شيئاً ، بل إنما يضرون أنفسهم وإنما حث الله جل ثناؤه بهذه الآيات من قوله : ﴿ **وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله** ﴾ إلى هذه الآية عباده المؤمنين على إخلاص اليقين ، والانقطاع إليه فى أمورهم ، والرضا به ناصراً وحده دون غيره من سائر خلقه ، ورغب بها فى جهاد أعدائه وأعداء دينه ، وشجع بها قلوبهم ، وأعلمهم أن من وليه بنصره فلن يخذل ولو اجتمع عليه جميع من خالفه وحاده ، وأن من خذله فلن ينصره ناصر ينفعه نصره ، ولو كثرت أعوانه ونصراؤه ، كما حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن ابن إسحاق أن الذين اشتروا الكفر بالإيمان أى المنافقين لن يضروا الله شيئاً)[1] .

﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم . إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين** ﴾[2] .

---

(١) تفسير الطبرى / ٤ / ١٢٣ . (٢) آل عمران / ١٧٨ .

والآية فى حقيقة الأمر جواب عن سؤال يصطرع فى نفوس المؤمنين :

لم أصابتهم مصيبة أحد ؟ لم مُكّن الكفار من المؤمنين ؟ لم بقى المنافقون دون عقوبة ؟

إضافة إلى تساؤلات خافتة فى نفوس الكفار والمنافقين .

أليس نصر الكفار فى أحد دليل صحة اتجاهم ؟ . أليست نجاة المنافقين من الموت أو القتل دليل بعد نظرهم فى عدم المشاركة فى معركة أحد ؟ ، وهذا قول ابن أبى :

(أطاعهم وعصانى . ماأدرى علام نقتل أنفسنا أيها الناس) .

أليس وعيهم ونجاتهم من الموت أو القتل دليلا على سلامة خطهم وصحةُ اتجاههم ؟؟

تأتى الآية الكريمة لتجيب على هذه التساؤلات جميعاً وتبين أن إملاء الله تعالى لهم ليس خيراً ، بل هو شر مستطير يتبعه العذاب المهين ، فهم يعبون من الإثم عباً ، وتتراكم عليهم الانحرافات حتى ينالهم العقاب العادل لما اقترفوا من إثم .

أخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو بكر المروزى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال :

(مامن نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها من الحياة ، إن كان براً فقد قال الله : ﴿ **وماعند الله خير للأبرار** ﴾ وإن كان فاجراً فقد قال الله : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً . ولهم عذاب مهين** ﴾ .(١)

وقد روى مثل هذا الأثر عن محمد بن كعب وأبى برزة .

وعلى صحة هذا الأثر ـ فلعل فسحة الأجل ، تزيد المؤمن طاعة وتزيده ثوابا ، وتهيىء التوبة للفاسق أو المنافق ليعود إلى حظيرة الإيمان ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « خير الناس من طال عمره ، وحسن عمله ، وشر الناس من طال عمره ، وساء عمله »(٢)

ويؤكد هذا المعنى مـاأدبنا به رسول الله ﷺ فى الدعاء : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان لابد متمنياً فليقل : اللهم أحينى مادامت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى »(٣) .

---

(١) الدر المنثور / ٢/ ٤ / ٣٩٢ .

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذى والحاكم . انظر صحيح الجامع الصغير للألبانى

(٣) أحمد والبخارى / ١٠ / ١٠٧ ، ١٠٨ باب تمنى المريض الموت . ومسلم ٢٦٨٠ فى الذكر .

﴿ ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ (١) .

(القول فى تأويل قوله ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ يعنى بقوله ما كان الله ليدع المؤمنين على ماأنتم عليه من التباس المؤمن منكم بالمنافق . فلا يعرف هذا من هذا حتى يميز الخبيث من الطيب . يعنى بذلك حتى يميز الخبيث وهو المنافق المستسر للكفر من الطيب وهو المؤمن المخلص الصادق الإيمان بالمحن والاختبار كما ميز بينهم يوم أحد عند لقاء العدو وعند خروجهم إليهم . واختلف أهل التأويل فى الخبيث الذى عنى الله بهذه الآية فقال بعضهم فيه مثل قولنا ...

قال مجاهد : يوم أحد ميز بعضهم عن بعض المنافق عن المؤمن .

وعن ابن إسحاق : ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب أى المنافق وقال آخرون حتى يميز المؤمن من الكافر بالهجرة والجهاد .) (٢)

ويقول ابن جرير رحمه الله :

(وأولى الأقوال فى ذلك ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ ما كان الله ليطلعكم على ضمائر قلوب عباده فتعرفوا المؤمن منهم من المنافق والكافر ، ولكنه يميز بينهم بالمحن والابتلاء ، كما ميز بينهم بالبأساء يوم أحد وجهاد عدوه ، وما أشبه ذلك من صنوف المحن حتى تعرفوا مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم . غير أنه تعالى ذكره يجتبى من رسله من يشاء فيصطفيه فيطلعه على بعض مافى ضمائر بعضهم بوحيه ذلك إليه ورسالته) . (٣)

(ويقول رحمه الله فى ختام تأويل الآية : ﴿ فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ يعنى بذلك جل ثناؤه بقوله : وإن تؤمنوا وتصدقوا من اجتبيته من رسلى بعلمى وأطلعته على المنافقين منكم ، وتتقوا ربكم بطاعته فيما أمركم به نبيكم محمد ﷺ ، وفيما نهاكم عنه فلكم أجر عظيم .) (٤) .

لقد افتتحت آيات أحد بقوله تعالى :

---

(١) آل عمران / ١٧٩. (٢ ، ٣ ، ٤) تفسير الطبرى / ٤ / ١٢٥ .

﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم . إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(١).

وانتهت الآيات بقوله تعالى :

﴿ ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب . ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾(٢) .

(لقد كان الجيش الإسلامى واحداً يوم غدا به رسول الله ﷺ يتبوأ به مقاعد للقتال ، وانسلخ ثلثه ، عندما همت طائفتان أن تلتحقا بهذا الثلث ، فعصمهما الله من ذلك ، واختتمت الآيات بحكمة هذا الابتلاء ، سواء فى تخلف المنافقين حيث تم التميز الأول ، وبالذين قالوا : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا ، حيث تم من خلال المعركة التميز الثانى ، وتبلور لدى المسلمين حكمة هذه المحنة فى هذا التمييز ، وتحليل المواقف وتحديد العدو والصديق ، وإيضاح الخطأ والخلل ، حتى تتم التربية لهذا الجيش المسلم . ويعرف الخبيث من الطيب .

وفى مقارنة ثانية مع أهل بدر فى الأنفال نجد قول الله عز وجل :

﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون . والذين كفروا إلى جهنم يُحشرون . ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون . ﴾(٣) .

حتى يميز الخبيث من الطيب ، **﴿ ليميز الخبيث من الطيب ﴾** .

أما تمييز الخبيث من الطيب فى بدر فهذا يعنى أنه تمييز الكافرين من المؤمنين ، فقد كان المعسكران فى الأرض العربية يتنازعان ، وكل معسكر يقدم نفسه أنه يمثل هدى الله ، ولدى قريش من الادعاء فى هذا المجال ما تدعم هذا الادعاء ، من سقاية البيت ، وعمارة المسجد الحرام .

﴿ أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الاخر

(١) آل عمران / ١٢١ .   (٢) آل عمران / ١٧٩ .   (٣) الأنفال / ٣٦ ، ٣٧ .

وجاهد في سبيل الله لايستوون عند الله . والله لايهدى القوم الظالمين ﴾ (1) .

فكانت بدر فرقاناً بين الحق والباطل ، فرقاناً بين المؤمنين والكافرين ، وتمييزاً بين الخبيث والطيب ، وعرفت العرب أن محمداً على حق ، فاتجهت إليه .

أما أحد ، فكانت فرقاناً بين المؤمنين والمنافقين ، وتمحيصاً للصف المؤمن نفسه ، **﴿ ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾** (2) .

وكان أهل بدر كعدة أصحاب طالوت ، وكفضل أصحاب طالوت . الذين جاوزوا النهر ، فما جاوزه مع طالوت إلا مؤمن ، وكانوا أفضل المؤمنين .

لكن أهل أحد ، ومحنة أحد هى التى أخرجت الخبث من الصف المؤمن الطيب ، وتلك سنة الله فى الدعوات ، مع أعدائها ، وفى صفها الداخلى .

وندع صاحب الظلال رحمه الله يحدثنا عن هذا التمييز .

(ويقطع النص القرآنى بأنه ليس من شأن الله سبحانه ، وليس من مقتضى ألوهيته ، وليس من فعل سنته أن يدع الصف المسلم مختلطاً غير مميز ، يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان ومظهر الإسلام ، بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان ، ومن روح الإسلام ، فقد أخرج الله الأمة المسلمة لتؤدى دوراً كونياً كبيراً ، ولتحمل منهجاً إلهياً عظيماً ، ولتنشىء فى الأرض واقعاً فريداً ، ونظاماً جديداً وهذا الدور الكبير يقتضى التجرد والصفاء والتميز والتماسك ، ويقتضى ألا يكون فى الصف خلل ، ولا فى بنائه دخل .. وبتعبير مختصر : يقتضى أن تكون طبيعة هذه الأمة من العظمة بحيث تسامى عظمة الدور الذى قدره الله لها فى هذه الأرض ، وتسامى المكانة التى أعدها الله فى الآخرة .

وكل هذا يقتضى أن يصهر الصف ليخرج منه الخبث ، وأن يضغط لتتهاوى اللبنات الضعيفة ، وأن تسلط عليه الأضواء لتنكشف الدخائل والضمائر .. ومن ثم كان شأن الله ـ سبحانه ـ أن يميز الخبيث من الطيب ، ولم يكن شأنه أن يذر المؤمنين على ماكانوا عليه قبل هذه الرجة العظيمة ، .. ولم يكن من شأنه سبحانه ، ولامقتضى حكمته ، ولا من مجرى سنته أن يطلع الناس على الغيب .

إذن : كيف يميز الله الخبيث من الطيب ؟ وكيف يحقق شأنه وسنته فى تطهير الصف

---

(1) التوبة / 19 .   (2) آل عمران / 179 .

المسلم . وتجريده من الغبش ، وتمحيصه من النفاق ، وإعداده للدور الكونى العظيم . الذى أخرج الأمة المسلمة لتنهض به ؟ . ﴿ **ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء** ﴾ (١) .

وعن طريق الرسالة ، وعن طريق الإيمان بها أو الكفر ، وعن طريق جهاد الرسل فى تحقيق مقتضى الرسالة ، وعن طريق الابتلاء لأصحابهم فى طريق الجهاد ، عن طريق هذا كله يتم شأن الله ، وتتحقق سنته ، ويميز الله الخبيث من الطيب ، ويمحص القلوب ، ويطهر النفوس ، ويكون من قدر الله مايكون .

وهكذا يرفع الستار عن جانب من حكمة الله ، وهى تتحقق فى الحياة ، وهكذا تستقر هذه الحقيقة على أرض صلبة مكشوفة منيرة .

وأمام مشهد الحقيقة متجلية بسيطة مريحة ، يتجه إلى الذين آمنوا ليحققوا فى ذواتهم مدلول الإيمان ومقتضاه ، ويلوح لهم بفضل الله العظيم ، الذى ينتظر المؤمنين .

﴿ **فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم** ﴾ (٢) .

فيكون هذا التوجيه ، وهذا الترغيب ، بعد ذلك البيان ، وذلك الاطمئنان . خير خاتمة لاستعراض الأحداث فى أحد والتعقيب على هذه الأحداث) (٣) .

ولا نستطيع أن نغادر غزوة أحد كما وردت فى القرآن ، دون أن نستمع لتعقيبات صاحب الظلال عن الطريقة القرآنية فى التربية ، حيث نختار ثلاث تعقيبات من ستة ، توضح هذه الطريقة :

(١ ــ وتمخضت المعركة والتعقيب عليها عن حقيقة أساسية كبيرة عن طبيعة النفس البشرية ، وطبيعة الفطرة الإنسانية ، وطبيعة الجهد البشرى ، ومدى مايمكن أن يبلغه فى تحقيق المنهج الإلهى ، إن النفس البشرية ليست كاملة ــ فى واقعها ــ ولكنها فى الوقت ذاته قابلة للنمو والارتقاء حتى تبلغ أقصى الكمال المقدر لها فى هذه الأرض .

وها نحن أولاء نرى قطاعاً من قطاعات البشرية ــ كما هو على الطبيعة ــ ممثلاً فى الجماعة التى تمثل قمة الأمة التى يقول الله عنها : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** .. ﴾ (٤) وهم أصحاب محمد ــ ﷺ ــ المثل الكامل للنفس البشرية على الإطلاق .. فماذا نرى ؟ . نرى مجموعة من البشر فيهم الضعف ، وفيهم النقص ، وفيهم

---

(١) آل عمران / ١٧٩ .
(٢) آل عمران / ١٧٩ .
(٣) فى ظلال القرآن / م ١ / ٥٢٦ .
(٤) آل عمران / ١١٠ .

من يبلغ أن يقول الله عنهم : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا ولقد عفا الله عنهم** ﴾ (١) ومنهـم من يبلغ أن يقول الله عنهـم : ﴿ **حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر . وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون . منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكـم عنهـم ..** ﴾ (٢) وفيهم من يقول الله عنهم : ﴿ **إذ همت طائفتـان منكم أن تفشـلا والله وليهما ، وعلى الله فليتوكـل المؤمنـون** ﴾ (٣) .. وفيهم من ينهزم وينكشف ، وتبلغ منهم الهزيمة ماوصفه الله سبحانه بقوله : ﴿ **إذ تصعدون ولاتلوون على أحد . والرسول يدعوكم فى أخراكم . فأثابكم غماً بغم لكى لا تحزنوا على مافاتكم ولا ماأصابكم** ﴾ .(٤)

وكل هؤلاء مؤمنون مسلمون ، ولكنهم كانوا فى أوائل الطريق ، كانوا فى دور التربية والتكوين ولكنهم كانوا جادين فى أخذ هذا الأمر ، مسلمين أمرهم لله ، مرتضين قيادته ، ومستسلمين لمنهجه ، ومن ثم لم يطردهم الله من كنفه ، بل رحمهم وعفا عنهم ؛ وأمر نبيه ـ ﷺ ـ أن يعفوا عنهم ويستغفر لهم ، وأمره أن يشاورهم فى الأمر ـ بعد كل ماوقع منهم ، وبعد كل ماوقع من جراء المشورة .

نعم إنه سبحانه تركهم يذوقون عاقبة تصرفاتهم تلك ، وابتلاهم ذلك الابتلاء الشاق المرير ، .. ولكنه لم يطردهم خارج الصف ، ولم يقل لهم إنكم لا تصلحون لشيء من هذا الأمر ، بعد مابدا منكم فى التجربة من النقص والضعف . ، لقد قبل ضعفهم هذا ونقصهم ، ورباهم بالابتلاء ، ثم رباهم بالتعقيب على الابتلاء ، والتوجيه إلى مافيه من عبر وعظات . فى رحمة وفى عفو وفى سماحة ، كما يربت الكبير على الصغار ، وهم يكتوون فى النار ، ليعرفوا ويدركوا وينضجوا ، وكشف لهم ضعفهـم ، ومخبآت نفوسهـم ، لا ليفضحهم بها ، ويرذلهم ، ويحقرهـم ، ولا ليرهقهم ويحملهم مالا يطيقون له حملا ، ولكن ليأخذ بأيديهم ، ويوحى إليهم أن يثقوا بأنفسهم ، ولا يحتقروها ، ولا ييأسوا من الوصول ما داموا موصولين بحبل الله المتين .

ثم وصلوا ، وصلوا فى النهاية ، وغلبت فيهم النماذج التى كانت فى أول المعركة معدودة ، وإذا هم فى اليوم الثانى للهزيمة والقرح يخرجون مع رسول الله ﷺ غير هيابين ولا مترددين ولا وجلين من تخويف الناس لهم حتى استحقوا تنوية الله بهم . ﴿ **الذين قال**

---

(١) آل عمران / ١٥٥ .
(٢) آل عمران / ١٥٢ .
(٣) آل عمران / ١٢٢ .
(٤) آل عمران / ١٥٣ .

لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ . [1]

(.... إنها الطبيعة التى يحافظ عليها هذا المنهج . ولا يبدلها أو يبطلها ، ولا يحملها مالا تطيق وإن بلغ بها أقصى الكمال المقدر لها فى هذه الأرض .

وهذه الحقيقة ذات قيمة كبيرة فى إعطاء الأمل الدائم للبشرية لتحاول وتبلغ فى ظل هذا المنهج الفريد . فهذه القمة السامقة التى بلغتها تلك الجماعة ، وإنما بدأت تنهد إليها من السفح الذى التقطها منه . وهذه الخطى المتعثرة فى الطريق الشاق ـ زاولتها جماعة بشرية متخلفة فى الجاهلية ، متخلفة فى كل شيء على النحو الذى عرضنا نماذج منه فى سياق هذا الدرس ... وكل ذلك يعطى البشرية أملاً كبيراً فى إمكان الوصول إلى ذلك المرتقى السامى ، مهما تكن قابعة فى السفح ، ولايعزل هذه الجماعة الصاعدة فيجعلها وليدة معجزة خارقة لا تتكرر ـ فهى ليست وليدة خارقة عابرة ، إنما هى وليدة المنهج الإلهى الذى يتحقق بالجهد البشرى فى حدود الطاقة البشرية كما نرى قابلة للكثير .

هذا المنهج يبدأ بكل جماعة من النقطة التى هىَ فيها ، ومن الواقع المادى الذى هى فيه ، ثم يمضى بها صعداً كما بدأ بتلك الجماعة من الجاهلية العربية الساذجة ـ من السفح ـ ثم انتهى بها فى فترة وجيزة لم تبلغ ربع قرن من الزمان إلى ذلك الأوج السامق .

شرط واحد لابد أن يتحقق .. أن تسلم الجماعات البشرية قيادها لهذا المنهج ، أن تؤمن به وأن تستسلم له ، وأن تتخذه قاعدة لحياتها ، وشعار حركتها ، وحادى خطاها فى الطريق الشاق الطويل .

٢ ـ وحقيقة رابعة .. عن طبيعة منهج التربية الإسلامى ، فهو يأخذ الجماعة المسلمة بالأحداث وماتنشئه فى النفوس من مشاعر وانفعالات واستجابات ، ثم يأخذهم بالتعقيب على الأحداث على النحو الذى يمثله التعقيب القرآنى على غزوة أحد ، وهو فى التعقيب يتلمس كل جانب من جوانب النفس البشرية تأثر بالحادثة ، ليصحح تأثره ، ويرسِب فيه الحقيقة التى يريد لها أن تستقر وتستريح ، وهو لايدع جانباً من الجوانب ، ولا خاطرة من الخواطر ، ولاتصوراً من التصورات ، ولااستجابة من الاستجابات ، حتى يوجه إليها

---

(١) آل عمران / ١٧٣ .

الأنظار ، ويسلط عليها الأنوار ، ويكشف عن المخبوء منها فى دروب النفس البشرية ومنحنياتها الكثيرة ، وتقف النفس تجاهها مكشوفة عارية ، وبذلك يمحص الدخائل ، وينظفها ويطهرها فى وضح النور ، ويصحح المشاعر والتصورات والقيم ، ويقر المبادىء التى يريد أن يقوم عليها التصور الإسلامى المتين . وأن تقوم عليها الحياة الإسلامية المستقرة .. مما يلهم وجوب اتخاذ الأحداث التى تقع للجماعة المسلمة فى كل مكان وسيلة للتنوير والتربية على أوسع نطاق .

وننظر فى التعقيب على غزوة أحد ـ فنجد الدقة والعمق والشمول ، الدقة فى متناول كل موقف وكل حركة ، وكل خالجة ، والعمق فى التدسس إلى أغوار النفس ، ومشاعرها الدفينة ، والشمول لجوانب النفس وجوانب الحادث، ونجد التحليل الدقيق العميق الشامل للأسباب والنتائج ، والعوامل المتعددة الفاعلة فى الموقف ، المسيرة للحادث ، كما نجد الحيوية فى التصوير والإيقاع والإيحاء ، بحيث تتماوج المشاعر مع التعبير والتصوير تماوجاً عميقاً عنيفاً ، ولاتملك أن تقف جامدة أمام الوصف والتعقيب ، فهو وصف حى ، يستحضر المشاهد ـ كما لو كانت تتحرك ـ ويشيع حولها النشاط المؤثر ، والإشعاع النافذ ، والإيحاء المثير .

٣ ـ وهناك حقيقة أخيرة نتعلمها من التعقيب القرآنى على مواقف الجماعة المسلمة التى صاحبت رسول الله ﷺ ، والتى تمثل أكرم رجالِ هذه الأمة على الله . . وهى حقيقة نافعة لنا فى طريقنا إلى استئناف حياة إسلامية بعون الله .

إن منهج الله ثابت وقيمه وموازينه ثابتة ، والبشر يعدون أو يقربون من هذا المنهج ، ويخطئون ويصيبون فى قواعد التصور وقواعد السلوك ، ولكن ليس شىء من أخطائهم محسوباً على المنهج ولا مغيراً لقيمه وموازينه الثابتة :

وحين يخطأ البشر فى التصور أو السلوك ـ فإنه يصفهم بالخطأ وحين ينحرفون عنه فإنه يصفهم بالانحراف ، ولا يتغاضى عن خطئهم وانحرافهم ـ مهما تكن منازلهم وأقدارهم ـ ولاينحرف هو ليجارى انحرافهم ، ونتعلم نحن من هذا أن تبرئة الأشخاص لاتساوى تشويه المنهج ! وأن من الخير للأمة المسلمة أن تبقى مبادىء منهجها سليمة ناصعة قاطعة ، وأن يوصف المخطئون والمنحرفون عنها بالوصف الذى يستحقونه ـ أياً كانوا ـ وألا تبرر أخطاؤهم وانحرافاتهم أبدا . بتحريف المنهج ، وتبديل قيمه وموازينه ، فهذا التحريف والتبديل أخطر على الإسلام من وصف كبار الشخصيات المسلمة بالخطأ أو

الانحراف ، فالمنهج أكبر وأبقى من الأشخاص ، والواقع التاريخى للإسلام ليس هو كل فعل وكل وضع صنعه المسلمون فى تاريخهم ، وإنما هو كل فعل وكل وضع صنعوه موافقاً تمام الموافقة للمنهج ومبادئه وقيمه الثابتة ، وإلا فهو خطأ أو انحراف لايحسب على الإسلام ، وعلى تاريخ الإسلام ، إنما يحسب على أصحابه وحدهم ، ويوصف أصحابه بالوصف الذى يستحقونه من خطأ أو انحراف أو خروج على الإسلام ، إن تاريخ « الإسلام » ليس هو تاريخ « المسلمين » ولو كانوا مسلمين بالإسم أو اللسان ! إن تاريخ « الإسلام » هو تاريخ التطبيق الحقيقى للإسلام فى تصورات الناس وسلوكهم ، وفى أوضاع حياتهم ، ونظام مجتمعاتهم ، فالإسلام محور ثابت ، تدور حوله حياة الناس فى إطار ثابت ، فإذا هم خرجوا عن هذا الإطار ، أو إذا هم تركوا ذلك المحور بتاتاً ـ فما للإسلام ومالهم يومئذ ؟ ومالتصرفاتهم وأعمالهم هذه تحسب على الإسلام أو يفسر بها الإسلام ؟ بل مالهم يوصفون بأنهم مسلمون إذا خرجوا على منهج الإسلام وأبوا تطبيقه فى حياتهم ؟ وهم إنما كانوا مسلمين لأنهم يطبقون هذا المنهج فى حياتهم ، لا لأن أسمائهم أسماء مسلمين ، لا لأنهم يقولون بأفواههم أنهم مسلمون ؟ !) (١) .

وأود أن أضيف إلى هذه التعقيبات تتمات توضح معالم هذا المنهج الربانى فى التربية .

٤ ـ لقد كان الفصل واضحاً فى آيات أحد بين (المؤمنين) و (المنافقين) .

هؤلاء (المنافقون) الذين برزوا أوضح مايكون قبيل أحد ، ومثلوا تقريباً ثلث الجيش الإسلامى ، كما أن لهم أتباعاً برزوا خلال المعركة كما أشارت الآيات القرآنية .

وكانت معالجة ظاهرة (المنافقين) تختلف تماماً عن معالجة ظاهرة (المؤمنين المخطئين أو المقصرين) .

والحديث عن الخطأ فى الصف المسلم كان يوجه إلى المؤمنين جميعاً . بل ويحاسبون عليه جميعاً ، لأنهم تلقوا نتائجه وآثاره كاملة من خلال هذه المحنة ، أما الحديث عن (المنافقين) فبرز فى آيات أحد ، وكأنه يتحدث عن مجموعة مستقلة غير المجموعة المؤمنة ، وكأنها غادرت معسكر الإيمان ماضية إلى معسكر الكفر ، ﴿ **يسارعون فى الكفر** ﴾ ﴿ **اشتروا الكفر بالإيمان** ﴾ لكن دون أن تغير وجهتها علناً ، فقد حرصت

---

(١) فى ظلال القرآن / مقتطفات من ص ٥٢٦ ـ ٥٣٣ / م١ / ج ٤ .

على إبقاء اللافتة الإسلامية عليها دون أن تعلن ارتدادها عن الإسلام ، ومضت تتوطأ مع أعداء الإسلام وتندس في صفوفهم من حيث (الواقع العملى) لا الكلام النظرى .

فقد حاول عبد الله بن أبي أن يتدارك الموقف بعد أحد ، وينضم مع حزبه الذين انسلخوا معه إلى المسلمين فى غزوة حمراء الأسد التى تمت بعد أحد مباشرة ، لكن الأوامر النبوية جاءت صارمة لتقول ألا يمضى إلى (حمراء الأسد) إلا من شهد أحدا . والشخص الوحيد الذى أجيز له حضورها هو جابر بن عبد الله رضى الله عنهما بقرار نبوى خاص .

٥ ـ ومع أن هذه الكتلة الجديدة قد حرص القرآن على توضيح شخصيتها وتحديد هويتها ، من خلال مواقفها وتصرفاتها ، لكن لم يكن الاتجاه القرآني يمضى فى طريق سلخها والتخلى عنها ، ونبذها لتصبح جزءاً من معسكر الكافرين .

لقد أفردها ابتداء كما ذكر القرآن ـ ليميز الخبيث من الطيب ـ لكن بدأ معها جولة جديدة منفصلة ومعالجة خاصة تتناسب مع خلفياتها الإيمانية ، حتى إذا نجحت هذه المعالجة مع أحد أفرادها . فينضم بشخصه وذاته ـ دون معسكره ـ للصف الإسلامى فى دخول جديد موثوق . كما كان يقال عنه .

كان منافقاً ثم أسلم وحسن إسلامه .

٦ ـ وقد أخذت معالجتها وتربيتها وقتاً أطول بكثير مما كان يعالج به الصف المسلم ، ولا نبالغ إذا قلنا أنها استمرت سنين ، واستمرت الآيات القرآنية ، والتوجيهات النبوية معها .

فى محاولة اختلاع أفرادها من أرض الكفر إلى أرض الإيمان ، من خلال أعماق النفس ونوازع الضمير ومجالات الفكر . لامن خلال اللائحة الخارجية . واللافتات التى حافظت عليها وهى الإسلام .

ولعلنا ونحن نتابع النصوص الجهادية التى نزلت بعد أحد ، واستمرت إلى غزوة الخندق وصلح الحديبية توضح هذه المعانى والطرائف التى مضى بها القرآن فى المعالجة معها ، والموضوع من الدقة والخطورة بحيث لابد من التعليق عليه ، حتى لا نقع فى متاهات الفصل الحاسم الجازم بين الإيمان والكفر ، ويبقى الناس عندنا (مؤمنين وكافرين) ونسرع الحكم في عملية التكفير والحكم على الناس فيه لاختلاف الواقع والسلوك بيننا وبينهم .

لابد أن يبقى فى ذهننا ماثلاً معسكر (المنافقين) المذبذب بين الإيمان والكفر والمحاولات الجادة الدؤوبة ؛ لسلخ تأثيره العملى داخل الصف المسلم من جهته ، ولمحاولة اقتناص أفراده فرداً فرداً من جهة ثانية ، لمحاولة إعادته مؤمناً صادق الإيمان للصف المسلم .

٧ ـ وحين نقارن بين بدر وأحد ، ونحن نقف أمام سورة الأنفال ، ومقطع آل عمران نرى هذه الظاهرة :

ففى الأنفال : لم كان النصر ؟

وفى آل عمران : لم كانت المحنة والهزيمة ؟

وبمقدار ماأكد القرآن فى سورة الأنفال على أن النصر فى بدر كان هبة ربانية من الله عز وجل للمؤمنين الخلص ـ على ضعفهم وعجزهم .

بمقدار ماأكد فى آل عمران على أن المحنة فى أحد كانت بما كسبت أيدى هذا الصف ، وبما كان فيه من خلل ، وما ظهر فيه من دخل ، ومابدا فيه من نقص ووهن .

وذلك ليرسخ فى أعماق النفس المسلمة أن النصر بيد الله سبحانه يعطيه متى شاء ويمنعه متى شاء .

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (١) .

٨ ـ ونجد من طرف آخر وفيما يتعلق بميدان النفوس ما يلى :

بمقدار ماكان القرآن حريصاً فى بدر عل أن يخفف من غلواء (الثقة بالنفس والاعتداء بها) . والتى برزت من نصر بدر ـ ولاغرابة أن تبرز ـ مع ضخامة هذا النصر ، وكيف ركز القرآن الكريم على كل جوانب العجز والنقص والوهن لدى جيل بدر ؟ بمقدار ما كان القرآن حريصاً فى أحد على أن يزرع (الثقة المحطمة فى النفوس) ويرفعها تحت مطارق المحنة ، ليؤكد لها أنها على ضعفها وعجزها ونقصها لاتزال هى المختارة للجهاد والمرشحة للنصر ، والمهيأة للتمكين فى الأرض .

﴿ ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (٢) .

ويؤكد أن هذه المحنة لاتعنى طرداً لهذا الصف المسلم ، إنما يعنى بناء جديداً له ،

---

(١) آل عمران / ١٦٠ . (٢) آل عمران / ١٣٩ .

وتمحيصاً لكل عوامل الدخل والوهن والضعف التى تسربت إليه عقب انتصار بدر ، وهو هدف مستقل بحد ذاته ، ومن أجل هذا رافق الكثير من تحليل الخطأ ، الثناء الضخم على المواقف الإيمانية الرائعة التى تؤكد أنه يحمل فى مقوماته إمكانية تجاوز المحنة ، واستلام مقود النصر من جديد .

﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم .. ﴾ . (١)

﴿ ومنكم من يريد الاخرة ﴾ ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وماستكانوا والله يحب الصابرين ﴾ (٢) ﴿ ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون .... ﴾ (٣) ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ (٤) ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .. ﴾ . (٥)

وهكذا نلاحظ التربية القرآنية العجيبة لهذه المجموعة البشرية الخالدة ، فلا يدع خطيئة ولا خللاً إلا ويطرحه ويحلله ، بل ويكشف نوازع النفس ومنحنيات القلوب ، ودروب الأفئدة ويخرجها إلى العراء ، لا ليحطم هذه النفوس ، ويقتل هؤلاء الرجال ، إنما ليؤكد لهم أن جند الله لابد أن يكونوا فى القمة السامقة للبشرية ثم يعود بهم ثانية ، فلا يدع إيجابية أو تضحية أو ثباتاً أو موقفاً إيمانياً إلا ويثنى عليه ، ليعيد الثقة المهزوزة ، ويؤكد الصلاحية والتأهيل اللازمين للجندية فى سبيل الله .

وهو منهج ربانى ، لانملك أن نصفه بأعظم من هذا الوصف . لإعادة البناء من جديد ، وكأننا فى الحقيقة بعد أحد ، وبآيات آل عمران ـ أمام عرض تحليلى لكل ماجرى فى أحد ، تعرض كل لقطة على حدة من ساحة الواقع أو ساحة النفس ، ويتم تحليلها والعبرة منها ، وتمضى لتأتى لقطة جديدة ؛ لتحقيق الهدف ذاته ، وهو البناء من خلال الواقع ، ومن خلال النفس ، لخير أمة أخرجت للناس .

---

(١) آل عمران / ١٥٤ .　(٢) آل عمران / ١٤٦ .　(٣) آل عمران / ١٦٩ .
(٤) آل عمران / ١٧٢ .　(٥) آل عمران / ١٧٣ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

هذا الكتاب

★ لقد ربى النبى ﷺ الجيل الأول حتى غدا خير القرون من جهة، وغدا المثال الذى يحتذى به من جهة ثانية، فحقق الله به موعوده فى أحسن صورة وأكملها.

★ وهذا الكتاب يتناول -فى أجزائه الثلاثة- تربية النبى ﷺ لأصحابه التربية الجهادية، فى محاولة للوقوف على الكيفية التى تمت بها هذه التربية، والخطوط العريضة التى قامت عليها.

★ واختار المؤلف أن يكون الأساس فى البحث آيات القرآن الكريم لا تسلسل الأحداث فى السيرة، باعتبار أن الله - تعالى جل شأنه - هو الذى كان ينزل الآيات بعد كل حدث أو معركة فيعرض فيها مايحتاجه الجيل المسلم من الاحداث لتتم التربية على ضوئه.

★ كما أن منهج الكتاب إنما يقوم على تغذية الآيات بالحدث من السيرة، وحشد كل ما يساعد على فهم النص أو فقهه، مع متابعة أثر هذه الآيات فى الصف المسلم، وكيف انتقل بها من مرحلة إلى مرحلة، ومن طور إلى طور، ثم بان كيف بنى النبى ﷺ هذه الأمة بهذا القرآن.

ودار الوفاء

إذ تقدم هذا الكتاب إلى قرائها الكرام، إنما تسأل الله أن ينفع ويهدى به إلى أقوم سبيل. والله من وراء القصد.

الناشر



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة: شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠

ت: ٢٢٥٦٢٢ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤ / ٠٥٠

المكتبة: أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٠٥٠

E-Mail: DAR ELWAFA@HOTMAIL.COM